تيسير التفسير

لقطب الأيمـــّة

الشيخ الحاج امحمّد بن يوسف اطفـيّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الخامس عشر)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

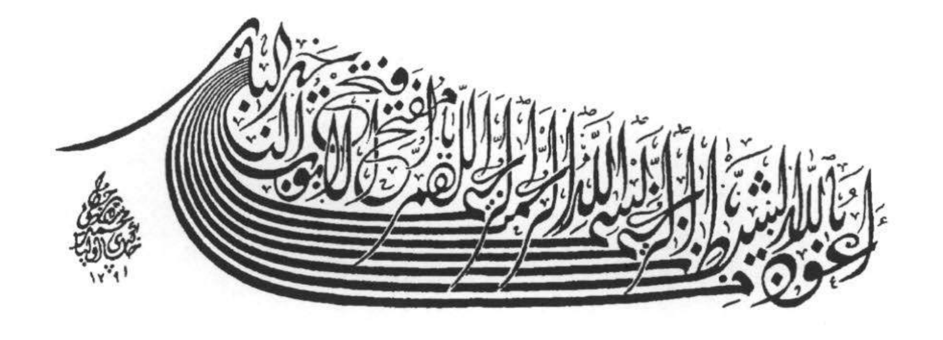
بمساعدة لجنة من الأساتذة

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى اشريفي ومصطفى طلاي



﴿ قل نزّلـه روح القدسِ من ربّـِك بالحقِّ ليثبتَ الذينَ

ءامنُوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)

تفسير سورة الممتحنة وآياتها ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ ﴾

النهي عن موالاة الكفار والتنديد بأفعالهم

[الممتحنة] بفتح الحاء مصدر ميميٌّ بمعنى الامتحان، كما قال في "جَمال القُرَّاء" [لعليّ السخاويّ][1]: إنَّها تسمَّى سورة الامتحان، أو اسم للمرأة التي نزلت السورة فيها. قيل وبالكسر، ولايصحُّ، إلاَّ أن يقال: من إضافة الموصوف للصفة، أي السورة الممتحنة، وأسقطت «ال» وأضيف، أو الإضافة للبيان، أي: سورة هي الممتحنة، والأَوْلى لمن يقول بهذا أن يقرن «سورة» بـــ«ال»، ولا

١-هو علي بن محمَّد بن عبد الصمد الهمذانيُّ المصريُّ السخاوي عالم بالقرءات والأصول واللغة والتفسير، له مُؤَلَّفات منها «جمال القرَّاء وكمال الأقراء» في التجويد وشرح الشاطبيَّة، وهو أول من شرحها. تُوُفِّيَ سنة ٦٤٣هـــ بدمشق، وأصله من سخا بمصر وإليها نسب. الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٣٣٢.

إضافة. وإسناد الامتحان للسورة مجاز في الإسناد، كما يقال لـ[سورة] براءة: الفاضحة، من الإسناد إلى المحلِّ.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمُ, أَوْلِيَآءَ﴾ عدوُّ الله هم كُفَّار مكَّة، الذين قضى الله أن لا يومنوا، وهم عدوٌّ للمؤمنين أيضًا، ومن قضى الله بإيمانه عدوٌّ للمؤمنين بحسب الظاهر، وإذا آمنوا رجعوا لِوَلاَيتهم.

(سبب النزول) نزلت في حاطب بن عمر، وأبي بلتعة مولى عبد الله بن حيمد بن زهير بن أسد بن عبد العزَّى. وفي البخاريِّ ومسلم وغيرهما عن عليٍّ: بعثني رسول الله ﷺ، أنا والمقداد، فقال: انطلقوا حتَّى تأتوا روضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأْتوني به. فخرجنا حتَّى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لَتُخرجِنَّ الكتاب أو لَتُلْقِنَّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبيء ﷺ.

فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكَّة يخبرهم ببعض أمر النبيء ﷺ: «إنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، والله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنَّه منجزٌ له وَعْدَه». فقال النبيء ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، كنت أمرأً ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكلُّ من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم في مكَّة، فأحببت إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصنع إليهم يدًا يحمون بها قرابتي، يعني بنيه وإخوته وأمَّه، وما فعلت ذلك كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني.

فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه ــ ويروى: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ــ فقال ﷺ: «**إنَّه شهد بدرًا وما**

يدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».
ففاضت عينا عمر، ونزلت الآية.

والمرأة تدعى أمَّ سارَّة مولاة لقريش، وقيل: سارَّة مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم، ويجمع بأنَّها سارَّة، سمِّيت بنتها باسمها.

وعن أنس أنَّه ﷺ بعث عمرَ وعليًّا فلحقاها فلم يريا معها شيئًا فرجعا، ثمَّ قالا: والله ما كذب رسول الله ﷺ فرجعا إليها وسلاَّ سيوفهما وقالاَ: والله لتعطينَّا الكتاب أو نقتلك، فأنكرت ثمَّ قالت: أعطيكما على أن لا تردَّاني إلى رسول الله ﷺ ، فقالا: نعم، أي: لأنَّه ﷺ لم يأمرهما بالإتيان بها بل بالكتاب، أمرهما أن يأخذا منها الكتاب ويخلِّياها، وإن أبت فليقتلاها، فقالت: أعرضا عنِّي، ففعلا، فحلَّته من عقاصها، فأعطتهما إيَّاهُ، أي: فإنَّما أعرضا عن أن ينكشف لهما رأسها، فقد يرياها تحرِّك عقاصها ولا يريان شعرها، أو أخبرت هي بذلك، أو أخبرهما رسول الله ﷺ أنَّه في عقاصها.

واستشكل رجوعهما كيف يرجعان وقد جاء الوحي أنَّ الكتاب معها، ويجاب بأنَّهم نسوا أنَّهم جاءوا من رسول الله، أو توهَّموا أنَّه ﷺ أمرهم لشهادة من شهد عليها بذلك لا لوحيٍ جاءه بأنَّ الكتاب معها.

وروضة خاخ: قريب من حمراء الأسد من المدينة، على الصحيح، وقيل: موضع قريب من مكَّة.

والمشهور الصحيح أنَّ المبعوثين إليها عليٌّ والزبير والمقداد، وقيل: الثلاثة وعمر وعمَّار وطلحة وأبو مرثد على أفراسهم.

(سيرة) ويروى أنَّ سارَّة التي ذكرت جاءت ورسول الله ﷺ يتجهَّزُ لفتح مكَّة، فقال لها رسول الله ﷺ : أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: أمهاجرة؟

تؤمنوا، أي: لإيمانكم، أو لئلاّ تؤمنوا، أو كراهة أن تؤمنوا، وفي «تُومِنُوا» قيل: تغليبٌ لمن آمن على من لم يؤمن، وفيه أنّ من لم يؤمن لم يخرجوه، والخطاب خاصٌّ بالمؤمنين.

﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ مقتضى الظاهر: أن تؤمنوا بي، كما قال «سَبِيلِي» و«مَرْضَاتِي» ولكن ذَكَرَ لفظ الجلالة والربَّ إعظامًا للألوهيَّة والربوبيَّة الموجبتين للإيمان، كيف تُخالفان؟.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ من مكّة مهاجرين، وليس المراد إن كنتم خرجتم إلى الجهاد، كما قال به بعض، لأنّ قصَّة حاطب ليست خروجًا إليه، ولو قصد بالخروج منها الجهاد، والآية نزلت في قصَّته، إلاّ أن يراد بالجهادِ المخروجِ إليه مطلقَ تقويةِ دين الله عَزَّ وَجَلَّ ، لا خصوص الغزْوِ، كما أنّ المراد بالجهاد في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ تقويةُ دين الله عَزَّ وَجَلَّ مطلقًا.

(نحو) وجملة الشرط متعلِّقة بقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَا تَتَّخِذُواْ...﴾ المغني عن جوابه، ولا يصحُّ أن يكون حالاً، إذ الحال لا تكون أمرًا مشكوكًا فيه شطر كلامٍ. وإذا كانت جملة شرط وجواب جازا اعتبارًا للجواب، لأنّ الجواب يجزم به تحقيقًا أو حكمًا. ولا نسلِّمُ أنّ قولك: "وإن كان غنيًّا" من جملة: " أكرم زيدًا وإن كان غنيًّا " حالٌ، ولا يعقله عاقل، ولو قيل به، بل عطف على محذوف، أي: إن لم يكن، وإن كان غنيًّا، فقد يكون مجموع المحذوف والمذكور حالاً، إذ ليس المعنى على إنشاء الشكِّ، بل المعنى أكرمه فقيرًا أو غنيًّا، ولا سيما أنّه من أجاز الحاليَّة يشترط الواو ويزعم أنّها واو الحال كالمثال، وأجازه ابن جنِّي[1] في الخصائص الحاليَّة في ذلك بلا واو، ولا تسلّم

١-عثمان بن جنِّي، أبو الفتح الموصليُّ، إمام من أئمَّة النحو والأدب، ولد بالموصل حوالي سنة =

[الحاليَّة] أيضًا كما لا تسلَّم مع الواو. [وَأَيْضًا من أجاز اشترط أن يكون ما ذُكر ضدَّ المأصدق، كالمثال، ولا عاقل يفهم الحاليَّة من الآية، ومن قولك: "لا تخذلني إن كنت صديقي"، وأيُّ بلاغة في حاليَّة ذَلكَ يُحمَل عَلَيْهَا القرآن البليغ؟. والنصب في الآية عَلَى التعليل، أي للجهاد والابتغاء، فلا حاجة إِلَىَ تقدير مضاف، أَو التأويل باسم الفاعل، والنصب عَلَى الحاليَّة](١).

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أعاده ليبني عليه قوله ﷻ: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾.

(نحو) والجملة حالٌ، زيادةً في الزجر، وجملة «تُسِرُّونَ» مستأنفة جواب لسؤال، كأنَّه قيل: لِمَ عوتبْنَا ؟ فقيل: «تُسِرُّونَ»، أي: لأَنَّكم تسرُّون. أو بدل كلٍّ من «تُلْقُونَ» إن أُريد الإلقاء سرًّا. أو بدل بعض إن أريد مطلق الإلقاء سرًّا أو جهرًا. أو بدل اشتمال، لأنَّ الإسرار ممَّا يناسب الإلقاء، والإسرار صفة من صفات الإلقاء لا نفس الإلقاء، فبدل الاشتمال أولى، وبه قال الإمام أبو حيَّان.

(نحو) و«أَعْلَمُ» اسم تفضيل باق على التفضيل، أو مضارع. والباء للإلصاق المجازيِّ على الوجهين، أو زائدة للتأكيد في مفعول المضارع، والتفضيل أولى. والمضارع للاستمرار. و«ما» اسم، أي: بما أخفيتموه وما أعلنتموه، قيل: أو مَصدَرِيَّة، أي: بنفس إخفائكم، وفيه أنَّه إن أبقي على معنى المَصدَرِيَّة ضعف المعنى، لأنَّ العلم بنفس المخفيِّ والمعلن به أقوى وأفْيد من العلم بنفس الإخفاء

=

٣٢٥ هـ، وتُوُفِّيَ ببغداد سنة ٣٩٢ هـ. له مُؤَلَّفَات كثيرة في اللغة منها «الخصائص» في ثلاثة أجزاء في اللغة، كان المتنبِّي يقول فيه: «ابن جنِّي أعرف بشعري منِّي». الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٢٠٤.

١- ما بين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

والإعلان، وإن أُوِّل بمفعول فتكلُّف، لأنَّه يغني عنه إبقاء ما على الاسمِيَّة.

(بلاغة) وفي الآية استواء الإسرار والجهر عند الله عَزَّ وَجَلَّ ، ولذا قدِّم الإخفاء، وَإِنَّهُ لا فائدة في إسرارهم مع أنَّ الله يعلم ما يسرُّون، ويخبر به نبيئه ﷺ ، ويعاقب عليه من لم يتب.

﴿وَمَنْ يَّفْعَلْهُ﴾ أي: الاتِّخاذ أو الإسرار، قولان، والأَوْلى: هما معًا بتأويل ما ذكر ﴿منكُمْ﴾ خصُّوا بالذكر لأنَّهم فعلوه، ومثلهم غيرهم إن فعله ﴿فَقَدْ ضَّلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ الطريق السواء.

(نحو) و«ضلَّ» لا يتعدَّى، وقد يتعدَّى لواحد كما هنا، وقيل: «سَوَاء» ظرف، وفيه أنَّه ليس في الطريق السواء فضلاً عن أن يقال: ضلَّ فيه، بل هو خارجه. وإضافة «سَوَاءَ» إضافة نعت لمنعوت، والأصل: السبيل السواء، أي: المستوي الحقُّ.

﴿إِنْ يَّثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم، والأصل في الثَّقف الأخذ بالحذق والحيلة، وفعل شيء بهما، واستعمل في مطلق الأخذ والظفر، لعلاقة الإطلاق والتقييد. والواو للأعداء.

﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ضارِّين لكم دينًا ودنيًا، ولا يقنعوا منكم بالإسرار إليهم الذي فعلتم، أو أعداء ظاهرة صريحة، أي: تظهر عداوتهم. وقد صرَّح أوَّل السورة بالعداوة فالمراد هنا هو إظهارها، ولذلك قيل: المراد هنا لازم العداوة، وهو ظهور عدم نفع التودُّد.

﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ الضرب بالأيدي والأسر والشتم بالألسنة، والضرب بالعصا والسيف ضربٌ باليد.

﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ عطف على «يَكُونُ...»، فهو للاستقبال كما هو

شأن جواب الشرط، أو المراد بالودِّ إظهارُه على أنَّه قد تقدَّم ودُّهم أنْ تكفروا، كما لا يخفى، أو المراد زيادة الودِّ أو قوَّته، لأنَّه ولو تقدَّم فيهم ينهضون فيه ضرورةً إذا قهروكم، أو تقدَّمت بالنوع، وكانت بعد الغلبة منهم بالإفراد منكم.

أو العطف على مجموع «إنْ» الشرطيَّة وما بعدها من الشرط والجواب، فلا يتسلَّط عليه معنى الشرط كما تسلَّط إذا عُطفَ على جوابه، ولا إشكال في تسلُّطه لما علمت من تأويل الوُدِّ بلازمه، أو بإظهاره، مع أنَّه قد يكون العطف على الجواب لشدَّة الارتباط، وليس مقصودًا بالذات للشرط، نحو: إن ظفرت بغريمي أخذت حقِّي منه وأُخَلِّه، وقد يتوسَّط ما بالذات، كما إذا جعلنا المقصود بالذات هنا هو ﴿يَبْسُطُوا﴾، وأمَّا العداوة وودُّ كفركم فلشدَّة الارتباط.

وعبَّر في الودِّ بالماضي لأنَّ ودَّ الكفر أهمُّ شيء للمشركين، وأسبقه أن يكون من المؤمنين لعلمهم رغبةَ المؤمنين في الإيمان، فيهتمُّوا أن ينزعوا منهم أحبَّ الأشياء إليهم الذي بذلوا فيه أنفُسَهم وأموالهم ودنياهم.

﴿**لن تَنفَعَكُمُ**﴾ بالتنجية من النار ولا بإدخال الجَـنَّة ﴿**أَرْحَامُكُمْ وَلآَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ أقاربُكم ولا أبناؤكم وبناتكم الذين تخونون الله ورسوله من أجله، بإفشاء أسراره إلى المشركين من أجلهم، حمايةً عنهم.

وأصل الرَّحِم مستقرُّ الجنين من المرأة في بطنها، واستعمل في الأقارب أو القرابة، حتَّى صار كالحقيقة، أو صار حقيقةً، فالمراد القرابة أو الأقارب، ويجوز أن يجعل مجازًا عن أحدهما، أو يقدَّر مضاف، أي: ذَوُو أرحامهم، ويناسب كونَه بمعنى الأقارب أو ذوي القرابة قولُه تعالى: ﴿وَلآَ أَوْلاَدُكُمْ﴾. و«يَوْمَ» متعلِّقٌ بــ«تَنفَعَكُم»، ويجوز تعليقه بقوله تعالى: ﴿يُفْصَلُ﴾.

وقوله: ﴿يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ نائب الفاعل بُني على الفتح لإضافته لمبنيٍّ راسخ في البناء، وهو الضمير، كذا قيل، أو نائبه ضمير الفصل، أي: يفصل الفصل، أي: يوقع الفصل. وقيل: تجوز نيابة الظرف مع بقائه معربًا منصوبًا.

والمراد بالفصل بينهم الفصل بالهول، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ اَخِيهِ وَأُمِّهِ...﴾ (سورة عبس: ٣٤) ، وكلٌّ يقول: نفسي نفسي، بلسان الحال، وقد يكون بلسان القال، إذا طلب نفعٌ من نحو قريب أو صديق أو زوج.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تُجَازَوْنَ عليه. وأكَّد الزجر عن رفض حقِّ الله عز وجل لنحو القرابة بقوله تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُومِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

التأسّي بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ﴾ لأنَّ الحبَّ في

الله والبغض في الله من أوثق عُرى الإسلام، والإسْوة الائـتساءُ، أي: الاقتداء، فـ«فِي» بمعنى الباء في قوله تعالى: ﴿فِي إِبْرَٰهِيمَ﴾.

(نحو) أو «إِسْوَةٌ» خصلة يُقتدى بها و«في» على ظاهرها، يتعلّق بمحذوف نعت لـ«إِسْوَةٌ». ويجوز أن يكون «إِسْوَةٌ» شخصا يتقدى به مأخوذا من إبراهيم والمؤمنين، كقولك: رأيت من زيد بحرًا، فيكون تجريدًا. أو ﴿فِي إِبْرَٰهِيمَ﴾ يتعلّق بمحذوف نعت أيضًا. و«لَكُمْ» خبر «كَانَ»، و«إِسْوَةٌ» اسمه، أو متعلّق به و«إِسْوَةٌ» فاعله. أو تعلّق «فِي» بـ«كَانَتْ» أو بمحذوف خبر ثانٍ أو نعت ثانٍ.

﴿وَالذِينَ مَعَهُ﴾: هم المؤمنون، لأنّهم ولو لم يكونوا في حين مكافحته لنمرود لكن وُجدُوا بعد ذلك، وكانوا على ملّته، فلا حاجةَ إلى ما قيل: إنّ ﴿الذِينَ مَعَهُ﴾ هم الأنبياء قبله القريبين من عصره، قبلهُ وبعده، والداعي لذلك أنّه لم يوجد وقت المكافحة مؤمن إلاّ هُو وسارَّة، كما روي أنّه لَمَّا هاجر إلى الشام قال لسارَّة: ما على وجه الأرض من يعبد الله غيري وغيرك.

﴿**إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ**﴾...إلخ قالوا هذا بعد وجودهم، ولا إشكال، والخطاب للمشركين. وانظر كيف يتعلّق «إِذْ» بـ«كَانَ» أو بخبرها مع أنّ المخاطبين لم يوجدوا في زمان إبراهيم ومن معه؟ الجواب أنّه ثبت للمخاطبين ذلك من زمان إبراهيم، كما تقول: هذا العبد لولد فلان إذا ولد.

(نحو) ومن العجيب جَعْلُ بعضهم «إِذْ» بدلاً من «إِسْوَةٌ»، مع أنّ الوقت ليس نفس الإسوة ولا بعضها، ولا اشتملت عليه الإسوة، وتعالى الله عن البداء والغلط، وكأنّه راعى اشتمال الوقت على قول: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ الذي هو إسوة فيكون بدل اشتمال بتكلّف، ومفرد «بُرَءَاء» بريءٌ، ككريم وكرماء،

وشريف وشرفاء.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه﴾ من الأصنام والكواكب وغيرها، وبيَّن البراءة بقوله تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ والخطاب للقوم، وما يعبدون تغليبًا للمخاطب على الغائب، وللعاقل على غيره، فلا حاجة إلى تقدير: كفرنا بكم وبما تعبدون، تَمَسُّكًا بدلالة ما قبله عليه.

(بلاغة) والكفر بذلك استعارة، بأن شبَّه الكفر بذلك بالكفر بما لا يجوز الكفر به، لجامع مطلق النفي، وذلك مشاكلةٌ وتهكُّمٌ. أو ذلك كناية عن عدم الاعتداد بشأنهم، وشأن ما يعبدون.

(لغة) ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ﴾ ضدَّ الصداقة، والصداقةُ المحبَّةُ ﴿وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُومِنُواْ بِاللهِ وَحْدَهُ,﴾ فالبغضاء شدَّة البغض، ضدَّ الحبِّ. وقيل: العداوة منافاة الالتئام قلبًا، والبغض: نفارُ النَّفس عن الشيء، وتُستعمل العداوة في التخاذل دون البغضاء فإنَّها ما في القلب من النِّفار فقط.

﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ القول باقٍ على المَصدَرِيَّة، فما بعده مفعول به له. أو بمعنى مقول، فما بعده بيان أو بدل، وذلك استثناء من «إِسْوَةٌ» منقطع، أي: لكم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معهم في البراءة من الكفرة، لكنَّ استغفاره للكافر ليس لَكُم الاقتداءُ به فيه، فتجب عليكم البراءة من الكافرين ويحرم عليكم الاستغفار وإبْدَاءُ الرأفة، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيءِ وَالذِينَ ءَامَنُواْ أَنْ يَّسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ, أَنَّهُمُ, أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (سورة التوبة: ١١٤) ، أي: من بعد ما تبيَّن لهم أنَّ المشركين لا يدخلون الجنَّة بل النار.

وخصَّ الله عز وجل إبراهيم بالاستغفار لأبيه المشرك ثمَّ أخبره الله أنَّه يَمُوتُ

مشركًا ونهاه عن الاستغفار له، وعِلْمُه بموته مشركًا لا أوَّل له.

ويجوز أن يكون الاستــثناء متَّصلاً من محذوف، أي: لقد كان لكم إسوة حسنة في كلام إبراهيم لقومه وأموره من فعل واعتقاد، إلاَّ قوْلَه لأَبيه: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، أي: إلاَّ الاستغفار للمشرك فلا تقتدوا به فيه، فإنَّه أمر خُصَّ به ثمَّ سمح له، ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِ﴾ (سورة النساء: ٤٨) .

وإذا فسَّرنا الإسوة بإنسان مجرَّد من إبراهيم فالاستــثناء منقطعٌ ولا بدَّ، وإذَا فسِّر بأمر يُقْتَدى فيه به صحَّ الاتِّصال والانقطاع، ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ (سورة التوبة: ١١٤) ، [وهي قوله عليه السلام :] ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّــي﴾ (سورة مريم: ٤٧) .

وتوجيه الاستثناء إلى الوعد بالاستغفار مع أنَّ الموعود هو الاستغفار وقد أنجزه بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِيَ﴾ (سورة الشعراء: ٨٦) ، لأنَّ الوعد هُو الحاملُ له على الاستغفار، وإلاَّ فأولى أن يستثني نفس الاستغفار، وقيل: وعدُه بالاستغفار كناية عن الاستغفار إذ كان وعده لا يتخلَّف ولا سيما أنَّه قد أكَّدَه. وليس وعدُه بالاستغفار ولا استغفاره معصيةً منه، وليس معصيةً أيضًا من غيره، حتَّى يترل المانع وهو الوحي.

وزعم قومٌ أنَّ استغفاره في الدُّنيا، وتبيَّن أنَّه من أصحاب الحجيم في الآخرة، وهو خلاف الظاهر، ووجهه أنَّه استعمل التبيُّن المستقبل بمترلة الواقع الماضي لتحقُّقه بعد، وعدم تخلُّفه وليس بشيء.

﴿**وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ من شَيْءٍ**﴾ الجملة حال من الضمير في «أَسْتَغْفِرَنَّ». و«مِنْ» الأولى للابتداء تتعلَّق بـــ«أَمْلِكُ»، أو بمحذوف حال من «شَيْءٍ». والثانية صلة في المفعول به، [كأنَّه قال:] ولو ملكتُ أكثر من الاستغفار لبذلته لك، ومورد الاستثناء الاستغفار نفسه، وأمَّا ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ

مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾ فإظهارٌ للعجز وتوحيدٌ.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلذِينَ كَفَرُواْ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ منصوب بقول محذوف معطوف على ﴿قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمْ...﴾، أي: وقالوا: «رَبَّنَا...»، وهو من كلام إبراهيم عليه السلام والذين معه، ويجوز أن يدخل في قوله: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيكون مجموع قوله: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ...﴾ إلى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مقولاً لِلْقَوْلِ، أي: إلاَّ مقول إبراهيم الذي هو هذه الألفاظ، أو إلاَّ ذكر إبراهيم هذه الألفاظ، **وهي أَلْفاظُ حقٍّ وتوحيدٌ لا تنسخ ولا تبطل في حقِّ أحدٍ مَّا.**

والاستثناء منقطع، فلا يَضُرُّنا، بل لو جعلناهُ متَّصلاً أيضًا لصحَّ على أنَّ الاستثناء منْصَبٌّ على المقيَّد، وهو: «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» لا على القيد وهو: «وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ...». ويجوز كونه مفعولاً لفعل أمر محذوف لهذه الأمَّة، أي: قُولُوا: ربَّنا. أو يقدَّر بالواو عطفًا على «لاَ تَتَّخِذُواْ»، والخطاب للأمَّة أيضًا.

و﴿أَنَبْنَا﴾: رجعنا ممَّا يكون من معصية وإهمال إلى الطاعة، و﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في جلب المصالح ودفع المكاره. وتقديم الجارِّ والمجرورَيْن الأوَّلَيْن للاهتمام والحصر، والثالث لذلك وللفاصلة.

ومعنى ﴿لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً...﴾ لا تجعلنا مفتونين للذين كفروا، أي: معذَّبين لهم (بفتح الذال)، كما قال مجاهد: لا تعذِّبنا بأيديهم، أو لا تجعلنا فاتنين لهم في الدِّين بأن تعذِّبنا بما شئت فيظنُّوا أنَّك عذَّبْتنا لبُطْلاَنِ ديننا، وحقِّـيَّة دينهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون **﴿فِيهِمْ﴾** في إبراهيم والذين معه **﴿إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** مثل ما مرَّ.

(نحو) **﴿لِّمَن﴾** بدل كلٍّ من «لَكُمْ». وإن جعلنا الخطاب للناس

عمومًا فبدل بعضٍ. والصحيح جواز إبدال الظاهر من الضمير مطلقًا، وخصَّ الجمهور الجواز ببدل البعض والاشتمَال والغَلَط. قيل: أو صفة لـ«حَسَنَةٌ»، والأولى في النعت أن يكون نعتًا لـ«إِسْوَةٌ» ثانيا. ويجوز تعليقه بـ«حَسَنَةٌ». والمعنى على الإبدال ظاهر، وأمَّا وصف «إِسْوَةٌ» أو «حَسَنَةٌ» به أو تعليقه بـ«حَسَنَةٌ»، فيكف يكون كذلك مع قوله: ﴿لَكُمْ﴾ ؟ الجواب: إنَّه كقولك: إنَّ لك في الدَّار انتفاعًا تامًّا لمن يريد، فلَكُمْ إسوةٌ تَحْسُنُ أو تَثْبُتُ للراجين، فكُنْ منهم.

﴿كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الاَخِرَ﴾ أي: ثواب الله، أو لقاء الله ونعيم الآخرة والنصر على الأعداء، ويوم القيامة خصوصًا. والرجاء: الطمع والأمل، أو الخوف، والأوَّل أولى. وذلك إشارة إلى أنَّه من يرجو الله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم، وأنَّ تَرْكَ الاقتداء بهم، كإنكار البعث والجزاء، وكأنَّه متولٌّ عن الإيمان، كما أشار إليه بقوله عز وجل :

﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّ﴾ عن الطاعة، ومنها ذلك الاقتداء، أو عن الإيمان، ويلتحق به من تولَّى عن الاقتداء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الاقتداء وعن كلِّ شيء، ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود في صفاته وأقواله وأفعاله.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَّجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين ﴿وَبَيْنَ الذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ من أقاربكم المشركين، الذين صبرتم على فراقهم لوجه الله، وزلَّ من زلَّ في شأنهم كحاطب ﴿مَّوَدَّةً﴾ حبًّا لدخولهم في دين الإسلام بعد بغضهم لمخالفته، من الآباء والأبناء والأمَّهات وسائر الأقارب، بل والأصحاب والجيران.

وهذه منَّة من الله تعالى وعدها للمؤمنين، تطييبًا لأنفسهم وتسليةً، أنجزها الله في أفرادٍ قبل الفتح، وفي العموم بعده، ومن ذلك إسلام أبي سفيان بن حرب وغيره من مسلِمَةِ الفتح، وفيه أسْلم أكثر أهل مكَّة.

﴿وَاللّهُ قَدِيرٌ﴾ على الأشياء كلِّها، ومنها التوفيق للإيمان الذي تحصل به المودَّة ﴿وَاللّهُ غَفُورٌ﴾ لمن زلَّ في شأنهم وتاب، ولغيره مِمَّن تاب من شرك وما دُونه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالنِّعم بعد التنجية من العذاب.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

علاقة المسلمين بغيرهم

﴿لاَّ يَنْهَاكُمْ اللهُ عَنِ الذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ من المشركين ﴿فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ولم يظاهروا على إخراجكم بدليل الآية بعدُ ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ عن أن تبرُّوهم، أي: عن برِّكم إِيَّاهُم، أي: الإحسان إليهم، وهو بدل اشتمال من «الذينَ». وذلك قبل الهجرة، ودخل في الإبدال بواسطة العطف قوله تعالى: ﴿وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ﴾ تميلوا إليهم بالعدل، ولتضمُّنه معنى تميلوا أو تفضوا عدِّي بـــ«إلى».

﴿إِنَّ اللهَ﴾ لأنَّ الله ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين، وذلك أمر مأمور به مع كلِّ مشركٍ جائز العشرة.

[قلت:] والإقساط لا يُنسخُ، كما زعم بعض أنَّه منسوخ بآية القتال، وذلك فيما ليس فيه إهانة الإسلام، وأمَّا ما فيه فلا يجوز، لأنَّه غير عدلٍ فهو خارج بلفظ إلاَّ عَلى وَجْه الضرورة فإنَّه يفعله ولا يقصد إهانة الإسلام،

كالمضطرِّ إلى قول إلهين اثنين، وكالقيام لهم إن كان لم يقم يقتل، أو يعذَّب، أو يؤخذ ماله.

[قلت:] ومن إهانة الإسلام أن يخدم كافرًا أو يأجره مشْرِكٌ، ومن العدل التصدُّق على من هو في الذمَّة والمستجير لا على أهل الحرب، ولو غلبوا المسلم وكان تحت حكمهم إلاّ لضرورة.

(سبب النزول) قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: أتتني أمِّي راغبة وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ، فسألت رسول الله ﷺ : أأصِلها فأنزل الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُم...﴾، فقال: «**نعم صلي أمَّك**»، رواه البخاريُّ. واسم أمِّها قتيلة بنت عبد العزَّى، طلَّقها الصدِّيق في الجَاهلِيَّة.

(سيرة) وأسماء أكبر سنًّا من عائشة، وعائشة أكبر شأنًا منها، رضي الله عَزَّ وَجَلَّ عنهما، فأسماء أخت عائشة من أبيها، وأمُّ عائشة تدعى أمُّ رومان، والعقد الذي انقطع عن عائشة رضي الله عنها فترل التيمُّم هو لأسماء كان بيد أختها عائشة عارية تتزيَّن به لرسول الله ﷺ . وقيل: قتيلة المذكورة خالة أسماء، سمِّيت أمَّها مجازًا، والصحيح الأوَّل.

ولم تباشر أسماء رسول الله ﷺ بالسؤال بل سألته بواسطة عائشة كما روى أحمد عن عبد الله بن الزبير أنَّه قدمت قتيلة بنت عبد العزَّى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، صنابٍ وإقطٍ وسمنٍ ــ وروي: «ضباب وقرص وسمن» ــ وهي مشركة، فأبت أسماء أنْ تقبل هديَّتها وتدخلها بيتها، حتَّى أرسلت إلى عائشة رضي الله عنها، أن تسأل رسول الله ﷺ عن هذا، فسألته، فأنزل الله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُم...﴾ فأمرها أن تقبل هديَّتها وتدخلها بيتها.

ولفظ البخاريِّ ومسلم ظاهر في أنَّها سألت بنفسها لا بواسطة عائشة، ولفظها: «قالت: قدمت عليَّ أمِّي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدَّتهم، فاستَفْتَيْتُ رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله إنَّ أمِّي قدمت عليَّ، وهي راغبة أفأصلها ؟ قال: نعم صليها، ونزلت الآية».

(سبب النزول) وقال الحسن وأبو صالح: نزلت الآية في خزاعة وبني عبد الحارث بن كعب وكنانة ومزينة وقبائل العرب، صالحوا رسول الله ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعنيوا عليه أحدًا، وهو ظاهرٌ حسن، إلاَّ أنَّ الأولى أن يحمل النزول عليه وعلى قصَّة أسماء. [قلت:] ووجه حُسنه أنَّ هؤلاء هم الذين يمكن أن يقاتلوا المؤمنين وتركوا. وقال عطيَّة العوفيُّ وقرَّةُ الهمذانيُّ: «نزلت في قوم من بني هاشم منهم العبَّاس رضي الله عنه ».

وقال عبد الله بن الزبير: نزلت في الصبيان والنساء والضعفاء والمرضى. وقال مجاهد: في قوم مكَّة، آمنوا ولم يهاجروا فتحرَّج المهاجرون والأنصار في برِّهم لتركهم الهجرة الواجبة، وفيه أنَّ هؤلاء لا يؤمر بالإحسان إليهم إن قدروا على الهجرة.

وقيل: في المؤمنين من أهل مَكَّة وغيرها، قدروا على الهجرة ولم يهاجروا، وفيه أنا لا نسلِّم أنَّه يؤمر ببرِّهم والهجرة قبل نسخ وجوبها واجبة على كلِّ من أسلم في مكَّة، أو غيرها من أهلها، أو من غيرها، وقيل: فيمن لم يستطع الهجرة من المؤمنين.

والجمهور **على أنَّها في كلِّ من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجهم من ديارهم، فتعمَّ من ذكر كلُّه**، ويدلُّ له المقابلة بضدِّ ذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ﴾ أعانوا **﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾** كمشركي مكَّة، فبعضهم أخرج

المؤمنين وبعض أعان على الخروج، والمراد كما مرَّ التضييق، حتَّى كان الخروج بسببه ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل اشتمال، أي: ينهاكم عن موالاتهم بالحبِّ والقول الحسن، وسائر النفع، وكشف أسرار المؤمنين لهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بالتعريض للذمِّ والعذاب، وللمؤمنين ودين الإسلام. والحصرُ إضافيٌّ، أي: لا من تَوَلّىَّ بما ذُكر من لم يقاتل ولم يخرج، ولم يظاهر. أو مبالغة حتَّى كأنَّه لا ظالم سواهم. أو الكمال في الظلم، ومَن دونهم لم يكمل ظلمه، وذلك في مثل من هو مثلهم، فلا يشكل بمن قتل نبيئًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَالِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنَ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَئَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتَ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُومِنُونَ ۝١١﴾

حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ﴾ بحسب الظاهر لكم وبدعواهنَّ، والمراد: المؤمنات ذوات الأزواج، بدليل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ ويحتمل الإطلاق. ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ لبلدهنَّ كراهةً للكفر بحسب الظاهر

لكم، وبدعواهنَّ، ويدلُّ على ذلك ذكر الاختبار بقوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ بما يغلب به على ظنِّكم صدقهنَّ.

قال الطبرانيُّ وغيره عن ابن عبَّاس: إنَّه كان عمر رضي الله عنه يحلِّف من جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم الأيْمانَ بالله ما خرجتْ رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ، وبالله ما خرجت من بغضِ زوجٍ، وبالله ما خرجت التماسَ دنيًا، وبالله ما خرجت إلاَّ حبًّا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لضعف قُلُوبهنَّ.

وعن ابن عبَّاس أيضًا: «إنَّ محنتهنَّ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عمر أن يقول لهنَّ: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعكنَّ على أن لا تشركن بالله شيئًا... فإن أذعنَّ لذلك فاحكموا بإيمانهنَّ»، والأولى أنَّ هذا بعد الاختبار المذكور أوَّلاً وقبول له.

وفي البخاريِّ: إنَّ سهيل بن عمرو شرط على رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أن لا يأتيك أحدٌ منَّا إلاَّ رددته إلينا وخلَّيت بيننا وبينه، وإن كان على دينك، ومن أتانا منكم لا نردُّه إليكم». وأتاه أبو جندل فردَّه إلى أبيه سهيل المذكور، وكلُّ من جاءه ردَّه، ولو كان مسلمًا، وذلك مكتوبٌ بينهم، والمسلمون كرهوا ذلك.

(سبب النزول) وجاءت أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي عاتق، فطلب أهلُها ردَّها فلم يردَّها، ونزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ...﴾ إلى: ﴿وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وكان يمتحنهنَّ بقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ...﴾ إلى: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قالت عائشة: إنَّها كانت كلامًا وما مسَّ يد امرأةٍ.

وجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة، وطلبها زوجها مسافر من بني مخزوم، وقيل: زوجها صيفيُّ بن الراهب، وقال: لَمَّا تجفَّ الكتابة بيننا، تردُّ إلينا من جاءك منَّا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ﴾، أي: من

دار الكفر ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فامتحنها بالحلف المذكور، فحلفت فلم يردَّها، وأعطى زرجها مهرها وما أنفق عليها، وتزوَّجها عمر.

وكان ﷺ يلي امتحانهنَّ بنفسه، وقيل: عمر، ومن امتحنها أمسكها، وأعطى زوجها مهرها، ويردُّ من جاء من الرِّجال، فقيل: النساء دخلن في عقد الرَّدِّ، ثمّ نُسخ ردُّهنَّ، فكان يمسكهنَّ، وقيل: عمَّهُنَّ لفظ العقد، وبيَّن الله تعالى أنَّهنَّ لم يدخلن فيه.

﴿اللهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ومن غيركم ومنهنَّ ﴿بِإِيمَانِهِنَّ﴾ لأنَّه المطَّلع على ما في القلوب ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بالامتحان.

[قلت:] العلم المتعارف، وهو ما فوق الظنِّ، وهو أكثر عِلْمِنَا في الحكم بين الناس والشهادة وغير ذلك ممَّا بيننا وبين الله تعالى، وما بيننا معشر الناس، وفي معنى ذلك ظننتموهنَّ ظنًّا قويًّا يشبه العلم الحقيق، وهو ما لا يقبل التشكيك.

﴿مُومِنَاتٍ﴾ في نفس الأمر بحسب الظاهر لكم ﴿فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى أزواجهنَّ الكفَّار، بدليل قوله ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ دلالةً أقوى من قوله تعالى: ﴿لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ صفة مشبَّهة فيها ضمير مستتر والإفرادُ لكونها في الأصل مصدرًا ﴿وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

إنَّما قلت دلالةً أقوى لأنَّه لولا قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ لاحتمل أنَّ المعنى: اقْبَلُوهنَّ ولا تتركوهنَّ يرجعن إلى الكفَّار فيتزوَّجوا بهنَّ وهنَّ مؤمنات، أو يزنوا بهنَّ.

والجملتان تعليل، أي: لأنَّهنَّ لا يحللن لهم، ولا هم يحلُّون لهنَّ. والجملة الأولى لفسخ النكاح بينهنَّ وبين أزواجهنَّ المشركين. ويحتمل الإطلاق في ذوات الأزواج وغيرهنَّ، فتكون الآية تفصيلاً، فأمَّا الامتحان فعامٌّ، وكذا عدم

الحلِّ بين المؤمنة والكافر، فإنَّه لا يتزوَّجها ولا تترك إليه، وإن تزوَّجها قبلُ فُرِّق بينهما، وأمَّا الإنفاق عليهنَّ ففي ذوات الأزواج.

والثانية لبيان ما يستأنف من النكاح، ويناسب ذلك الإخبار في الأولى بالاسم، وفي الثانية بالفعليَّة المضارعيَّة، وفي الأولى إسناد الصفة المشبَّهة إلى ضمير المؤمنات إعلامًا بأنَّ نفي الحلِّ مستمرٌّ لا يختلُّ، والتغيير من جانبهنَّ.

(بلاغة) وأسند الفعل المضارع إلى ضمير الكُفَّار لاستمرار الامتناع في المستقبل، إلاَّ أنَّه يقبل التغيير بحدوث الإيمان، فباعتبار ذلك يندفع التكرير بين الجملتين، ويحصل التغاير، مع أنَّه يجوز أن يكون التكرير للتأكيد. ومثل الجملتين في البديع يسمَّى بالعكس والتبديل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ...﴾ (سورة البقرة: ١٨٧) .

(فقه) وفي نفي الحلِّ لهم ونفي حلِّهنَّ لهم دليلٌ على خطاب المشركين بفروع الشريعة، وأجاب المانع بأنَّ المعنى: لا يحلُّ للمؤمنات أن يقين تحت المشركين، ولا يحلُّ للمؤمنين ترك مؤمنة تحت مشرك، فالخطاب للمؤمنات والمؤمنين، وهو جواب تكلُّف، ترُدُّه أيضًا دلائل أُوِّلت بتكلُّف، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكوير: ٨) ، وقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ...﴾ (سورة المدَّثـر: ٤٣) .

﴿وَءَاتُوهُم﴾ أي: آتوا المؤمنين المتزوِّجين لهنَّ، والهاء للأزواج الكفرة، وهومفعول ثانٍ مقدَّم. وقوله: ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ مفعول أوَّل، لأنَّه فاعل في المعنى، لأنَّه الآتي، أي: صيَّرُوهُ آتيهم، وهو المهور.

(سيرة) فمن أراد تزوُّج مهاجرة أعطى زوجها ما أصدقها واعتدَّت وتزوَّجها.

(فقه) ولا يضرُّ تأخير الإعطاء إذا التزمه، وقيل: لا بدَّ من تقديمه، والإعطاء واجبٌ، والأمر للوجوب، وقيل: هذا الإعطاء نَدْبٌ، لأنَّ بعضا تَزَوَّجَ بلا إعطاء، والصحيح الأوَّل.

ويجوز أن يكون الخطاب للأئمَّة بأن يأمروا المتزوِّج بها أن يعطي زوجها ما أنفق، وروي الردُّ من المرأة فيما ذكر الضحَّاك أنَّهم يقولون: إن أتتك امرأة لها زوج فإنَّها إن دخلت في دينك فإنَّها ترُدُّ لزوجها ما أعطاها، وإن لم تدخل في دينك رددتها إلينا، فنقول: لا بدَّ من الإعطاء، إمَّا أن تعطي هي أو من يتزوَّجها. وجاء أيضًا أنَّه يعطيها مريد تزوُّجها ما تعطيه.

(سيرة) وقيل: نسخ الإعطاء بنسخ العهد بآية براءة في النبذ [رقم ١٢]، لأنَّ الحكم بالإعطاء فرع العهد، فإذا نسخ العهد نسخ الإعطاء، وقيل: نسخ بنسخ ردِّ المرأة إليهم، وذلك أنَّه ﷺ صالح المشركين في الحديبية بواسطة سهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين، وأنَّ من أتاه ﷺ منهم بغير إذن وليِّه ردَّه، ومن أتاهم من المؤمنين فلا يردُّوه، وأنَّه من أحَبَّ دخل في عهده ﷺ أو في عهد قريش، فكان لا يأتيه ﷺ أحدٌ إلاَّ ردَّه.

(سيرة) وردَّ أباجندل بن سهيل. وهاجرت نساء منهنَّ أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أوَّلُهنَّ، وجاء أخواها عمَّار والوليد ليردَّاها فنزلت الآية نسخًا للرَّدِّ، فلم يرُدَّها، وزوَّجها زيد بن حارثة. وجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة زوج صيفيٍّ بن الراهب، وقيل: مسافر المخزوميّ، وأخذ ما أنفق، وتزوَّجها عمر، وقد قيل: نزلت فيها.

وقيل: نزلت في أميمة بنت بشر زوج أبي حسَّان بن الدَّحْدَاحَة، وطلبوا ردَّها فلم تُرَدَّ، وتزوَّجها سهيل بن صيفيّ، فولد له عبد الله. ويجمع بأنَّ نزول

الآية بعد هؤلاء كلِّهنَّ. ثمَّ إِنَّ الحكم مخصوص بالمهاجرين فلا حكم في ذلك بعد نسخ الهجرة.

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمُ, أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تتزوَّجوهنَّ، أو بأنْ، أو على أنْ، وذلك بعد العدَّة كما مرَّ.

(فقه) وقيل: بلا عدَّة في مسألة المهاجرة، للإطلاق في الآية، إلاَّ أن تكون حاملاً، لقوله ﷺ : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقينَّ ماؤه زرع غيره**»[1] الجواب: الحمل على آية العدَّة من الطلاق.

(فقه) والحقُّ ــ وهو مذهبنا ــ أَنَّها لا تقع الفرقة إلاَّ بإسلامها، فلو هاجرت و لم تسلم لم تقع الفرقة، لأنَّ الفرقة لأنْ لا تحلَّ مسلمة لمشرك، وإن أسلم زوجها قبل الخروج من العدَّة وهاجر فهو أحقُّ بها، وقيل: تقع الفرقة بإسلامها.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ صدُقَاتِهنَّ على تزوُّجكم بِهِنَّ زيادة على ما تعطون، أو يعطيهنَّ أزواجهنَّ المشركين، والمراد بإيتاء الأجور التزامُه، فلا يَضُرُّ تأخيره ﴿وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

(لغة) العصم جمع عِصْمة، كسدرة وسدْرٍ، وهي ما يتمسَّك به من عقد وسبب ونحوه. والكَوَافِر: جمع كافرة، امرأة كافرة ونساء كوافر، وهو مقيس في المؤنَّث وفي المذكَّر غير العاقل، فلا يقاس في نحو: رجل كافرة (بتاء التأنيث) للمبالغة، كراوية لراوية الشِّعر كثيرًا. أو مسمًّى بذلك اللفظ عَلَمًا، ولا

١-رواه **أبو داود** في كتاب النكاح، باب في وطء السبايا، رقم٢١٥٨، مع زيادة في آخره. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب النكاح (٣٥) باب ما جاء في الرجل يشتري الجارية وهي حامل، رقم١١٣١. من حديث رويفع بن ثابت.

مانع من قولك: طائفة كافرة وطوائف كوافر، ومن ذلك "الخوارج" فإنَّه جمع خارجة (بالتاء) أي: طائفة خارجة، أو جماعة خارجة، لا جمع خارج.

وذلك نهيٌ عن أن يعتقد من أسلم اتِّصالاً بزوجه التي لم تهاجرْ ولم تسلمْ، فيجوز له نكاح خامسة، ونكاح من لا تجتمع معها كأخت في العدَّة، فإنَّ اختلاف الدارين قاطع بينهما، ولا عدَّة لهنَّ على ما شهر في تزوُّج الخامسة أو محرمة.

(سيرة) وعن النخعيِّ أنَّه نزلت الآية في المسلمة تلحق بالمشركين. وكذا عن أميَّة بن المغيرة المخزوميِّ، وتسمَّى أيضا: قريبة، ولَمَّا أراد الهجرة ارتدَّت فتزوَّجها معاوية بن أبي سفيان قبل إسلامه، وطلَّق عمر أيضًا زوجه أمَّ كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعي، فتزوَّجها أبو جهم بن حذيفة من بني عديٍّ، قبيلة عمر، وهي أمُّ ابنه عبيد الله. وطلَّق طلحةُ زوجه أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وقيل: لم يطلِّقها ولكن فرَّق الإسلام بينهما، وعلى كلِّ حال تزوَّجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاصي بن أميَّة.

وأسلمت زينب بنت رسول الله ﷺ وهاجرت ولحقت بالنبيء ﷺ ، ثمَّ أسلم زوجها أبو العاصي بن الربيع وهاجر فردَّها إليه رسول الله ﷺ ، وارتدَّت زوج عياض بن شدَّاد الفهريِّ أمُّ الحكم بنت أبي سفيان، ولحقت بِمَكَّةَ، وارتدَّت بروع بنت عقبة زوج شماس بن عثمان، وعزَّة بنت عبد العزيز بن نضلة وتزوَّجها عمرو بن عبد ود، وهند بنت أبي جهل بن هشام زوج هشام بن العاصي بن وائل، وكلٌّ من ارتدَّت لحقت بمكَّة ولا تحبس.

(فقه) والفرقة عندنا وعند الشافعيِّ بالإسلام، وعند الْحَنَفِيَّة بالوصول إلى دار الإسلام، وذكرت الشَّافعِيَّة أنَّه إن جمعتهما العدَّة تَبِينُ، ووقوع الطلاق من حين اللفظ، وإلاَّ فالبينونة بواسطة بقاء المرأة في الكفر.

﴿وَاسْئَلُواْ﴾ أي: اطلبوا الكُفَّار أن يعطوكم ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ مهور النساء اللاحقات بهم ﴿وَلْيَسْئَلُواْ﴾ يطلبوا المؤمنين أن يعطوهم ﴿مَآ أَنفَقُواْ﴾ مهور النساء اللاحقات بالمؤمنين.

(بلاغة) واللفظ أمرٌ لِلْكُفَّارِ بالطلب، والمراد المؤمنين بالأداء مجازٌ، استعمالاً للسبب في المسبَّب، واللفظ في الموضعين أيضًا أمر، والمراد المساواة.

(فقه) وردُّ مهر من أسلمت إلى زوجها واجبٌ، كما هو ظاهر الآية، على أنَّ عقد الصلح شملهنَّ، ثمَّ نسخ بقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾. ولفظ العقد: «لا يأتيك أحدٌ منَّا إلاَّ رددته إلينا». وقيل: مندوب إليه، على أنَّ العقد لم يشملهنَّ، كما روي عن عليٍّ: «لا يأتيك منَّا رجل إلاَّ رددته إلينا، ولو كان على دينك». وذلك أنَّ الرجل يقوى على التَّقيَّة، وإضمار الإيمان والنية، بخلاف المرأة فيخاف عليها أن ترتدَّ.

(فقه) وأمَّا اليوم فعن مجاهد وقتادة وعطاء أنَّه يجب الردُّ إذا شرط في معاقدة الكُفَّار، وقال غيرهم: يجب أن يردَّ عليهم ما أنفقوا.

﴿ذَالِكُمْ﴾ ما ذكر من السؤالين ﴿حُكْمُ اللهِ﴾ فاتَّبعوه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بالحقِّ، مستأنفٌ أو حالٌ من «حُكْمُ اللهِ» فالرابط مجرور بحرف محذوف، أي: يحكم به، أو الرَّابط ضمير يكون مفعولاً مطلقًا، أي: يحكمه، أو ضمير مستتر في «يَحْكُمُ»، بأن أسند الحكم إلى الحكم على التجوُّز في الإسناد للمبالغة، بأن يكون الحُكم حاكمًا لقوَّته كأنَّه يستقلُّ عن الحاكم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بالمصالح والحكم.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنَ اَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ علموا أنَّه فاتكم شيء منهنَّ إلى الكُفَّار، فما معنى «إِنْ» التي للشكِّ تعالى الله عنه؟ وهم لم يشكُّوا في

الفوت، بل أيقنوا به؟ وذلك أنَّ المؤمنين أدَّوا مهور من جاءهم إلى أزواجهنَّ، والمشركين لم يُؤدُّوا مهور من جاءهم من المؤمنات إلى أزواجهنَّ ؟.

الجواب: إنَّ الآية نزلت قبل الفوت، والشَّكُّ مصروف إلى المؤمنين، أو معناه: إن قلتم: فاتنا شيءٌ، فاسْتعمل مقولاً مقام القول، وذلك نزول قبل أن يقولوا، والشكُّ مصروف إلى غير الله ﷻ . والشيء إحدى النساء، كما قرئ: «وَإِنْ فَاتَكُم إِحْدَى النِّسَاءِ». والتذكير باعتبار معنى بعض النِّساء.

ولفظ «شيء» لزيادة التعميم، وشمول محقَّرات النساء شمولاً كالنصِّ، ولتحقير من تركت الإسلام ولو كانت شريفة بالنسب والمال والحرمة.

(سبب النزول) ويروى أنَّه فاتت ستٌّ نسوة من المؤمنات إلى الكُفَّار، وعبارة بعض: إنَّ المؤمنين أدَّوْا ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهنَّ، وأبى المشركون أن يؤدُّوا شيئًا من مهور الكوافر إلى أزواجهنَّ المؤمنين، فنزل: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ...﴾، أي: فاتتكم زوج من أزواجكم.

و«مِنْ» للتبعيض لا للابتداء كما قيل، ولا للبيان، لأنَّ الفائت ليس أزواجهم بل بعضهنَّ، **ويجوز أن يكون «شيء» واقعًا على المهور، على حذف مضاف**، أي: شيء من مهور أزواجكم، و«مِنْ» للتبعيض أيضا.

(بلاغة) ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ جاءت نوبتكم من أداء المهر لزوج التي هاجرت إليكم، وذلك استعارة تمثيليَّة بأنْ شبَّه كون الإعطاء تارة من مشرك وتارة من مسلم فَتَعَاقَبَ، بتعاقُبِ اثنين على دابَّة، تارة يركب هذا وتارة يركب هذا، يَتَنَاوَبُونَهَا، والمعاقبة لا تقتضي المشاركة بين الفاعلَيْن، كما لم تقتضها في الآية، تقول: رعت الإبلُ نباتًا تارة وأخرى نباتًا آخر معاقبةً، بدون أن تقول عاقَبَتْها إبلٌ أخرى في ذلك الرَّعي.

أي: إن لحق أحد أزواجكم إلى الكُفَّار أو فاتكم بعض مهوركم ولزمكم أداء المهر كما لزم الكُفَّار ﴿فَئَاتُواْ﴾ المؤمنين ﴿الذِينَ ذَهَبَتَ اَزْوَاجُهُم﴾ مُرتَدَّاتٍ ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ هو مهر المهاجرة التي تَزَوَّجتموها، ولا تؤتوه زوجها الكافر ليكون قصاصًا، كذا قيل. وواو «أَنفَقُوا» للمؤمنين. وعن الزهريِّ: يعطى من لحقت زوجه بالكفَّار مِثْلَ صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم.

وعن الزَّجاج: معنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ غنمتم قبل، وحقيقته فأصبتم في القتال بعقوبة حتَّى غنمتم، فكأنَّه قيل: وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكُفَّار ولم يؤدُّوا إليكم مهُورَهُنَّ فَغَنِمْتُم منهم، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الغنيمة.

قيل: وهذا هو الوجه، دون ما سبق، فعن ابن عبَّاس: كان رسول الله ﷺ يعطي الذي ذهبت زوجه من الغنيمة قبل أنْ تخمَّس، ولا ينقص من سهمه شيء، وعلى هذا فإنَّما لم يقل الله تعالى لرسوله: «فأتِ الذين...» مراعاة للغنيمة أنَّها لهم، كأنَّه قيل: في غنيمتكم سهام للذين ذهبت أزواجهم.

[قلت:] ولعلَّه يظهر لك أنَّ هذا توجيه حسن، وإلاَّ فظاهر الآية لا يقتضي الإعطاء من الغنيمة بل من أموالهم، وأما إعطاؤه ﷺ من الغنيمة فَجَبْرٌ لمن لم يجد ما يعطي.

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ بترك المعاصي ﴿الذِي أَنتُم بِهِ﴾ قُدِّم للحصر وللفاصلة ﴿مُومِنُونَ﴾ **فإنَّ الإيمان بلا تقوى غير نافع.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُومِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَاتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

مبايعة النبيء ﷺ للمهاجرات (بيعة النساء)

﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ﴾ لم يقرن الفعل بتاء التأنيث لأنَّ المراد الجنس لا نساء مخصوصات، فساغ التذكير، وأيضًا ساغ الفصل بالكاف. وذكر المجيء إشعارٌ بأنَّهنَّ راغبات بأنفسهنَّ لا بدعوة داعٍ.

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ حال مقدَّرة، لأنَّ المبايعة بعد المجيء لا معه، وهي بالمعنى مقارنةٌ، لأنَّ المعنى: قاصدات، أو ناويات للمبايعة، والقصد أو النية مقارن للمجيء، أي: يبعن الشرك بالإسلام، والمعصية بالطاعة، والنار بالجنَّة، وأنفسهنَّ بالجنَّة على يديك، أو المبايعة: الشراء للخير على يديه، وذلك أصل المعنى.

﴿عَلَىٓ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا﴾...إلخ ربَّما كان بعض هذه الأمور غير معلوم لهنَّ تحريمُه، فكيف يطلق أنَّهنَّ جئن ليبايعن على ذلك كلِّه؟

الجواب: إنَّهنَّ إمَّا عارفات لذلك لشهرة الإسلام به، فأمره الله تعالى بالتوثُّق منهنَّ في تلك الأمور المعروفة عندهنَّ، ولا يَخُنَّ ولا يُقَصِّرن. أو الجواب: التلقين بأن يَشترطَ ذلك كلَّه عليهنَّ، وأمرهنَّ بالقبول.

(نحو) و«شَيْئًا» مفعول مطلق، أي: إشراكًا مَّا، أو مفعول، أي: يجعلن شيئًا من الأشياء شريكًا له تعالى.

﴿وَلاَ يَسْرِقْنَ﴾ شيئًا ولو من مال أزواجهنَّ، أو أمَّهاتهنَّ، أو آبائهنَّ، أو أولادهنَّ، إلاَّ ما لزم لهنَّ، ومُنعنَ منه فلهنَّ أخذه[1]. ﴿وَلاَ يَزْنِينَ﴾ ولو بطفل أو بطفلة أو امرأة أو بأيديهنَّ أو نحوها ﴿وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ﴾ كما تقتل العرب بناتِهِنَّ في الجَاهليَّة.

(**فقه**) ومن قتل الولد أَكْلُ الدواء للسقط، أو فعل ما يسقط به، ولو لم ينفخ فيه الروح، لكن بالمعنى والحمل، فإنَّ القتل يختصُّ بما فيه الروح، وجاء الحديث: بأنَّ العزل قتل، بأن تعزل فرجها إذا أراد الزوج الإنزال فذلك قتل منها، وكذا هو إن عزل، فذلك قتل منه، فإذا كان ذلك قتلاً فإسقاط النطفة وما فوقها قتل بالأولى، ولو لم ينفخ فيه الروح.

ويجب اجتناب كلِّ دواء يقال: إمَّا أن يحيى الولد به وإمَّا أن يموت، بل تتداوى بما تطمع به الحياة فقط، وقد قالوا: لا تفعل ذات الزوج ما يسقط مخافة أن يكون في بطنها نطفة أو ما فوقها، إلاَّ حين لا ريبة.

﴿وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ, بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لا يأتين بكلام يبهت ويتحيَّر به سامعه، إذا افتضح وظهر، وهو أن ينسبن لأزواجهنَّ ولدًا من زناهنَّ، أو ولدًا يلتقطنه أو يكسبنه من موضع مَّا، وينسبنه لأزواجهنَّ.

وذكر بين الأيدي والأرجل لأنَّ الولد يولد بين الأيدي والأرجل، أمَّا الأرجل فظاهر، وأمَّا الأيدي فكلُّ رِجل تتبعها يدٌ فوقها، وتَتَنَاوَل الولدَ بالأيدي وتكبُّ عليه بها. وأيضًا البطن الذي هو محلُّ الولد بين يديها من فوق وجوانب، وبين الأرجل من تحته.

١- كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ في كتاب النفقات (٩) باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه، رقم ٥٣٦٤، من حديث عائشة.

أو البهتان: كناية عن الولد. وكنَّ يظهرن الحمل أوَّل أمره وعند قرب الولادة، ويقلن عند الوضع: قد ولدنا لك، وذلك امتنانٌ منهنَّ على الأزواج، كذا قيل.

وقيل: البهتان: الكذب على أحد بالزِّنى أو بالسرقة أو غير ذلك ممَّا لم يكن. وذكر الأرجل والأيدي كنايةً عن الذَّات، لأنَّ معظم الأفعال بالأيدي والأرجل،كما يقال لمن فعل شيئًا ولو بغير اليد أو بالقلب أو اللِّسان: كسَبَتْهُ يدُهُ.

أو المراد: بهتان يصَوِّرْنَه في قلوبهنَّ وينطقن به ظلمًا للنَّاس. وذكر الأيدي والأرجل لأنَّ القلب مقابلٌ لِمَا بين الأيدي والأرجل، ولو كان في الجانب الأيسر من الصدر.

وقيل: يبهتن الناس مواجهةً، ويردُّه ذكر الأرجل، لأنَّه يقال: فعل كذا بين يَدَيَّ، أي: بحضرتي، بلا ذكر الأرجل.

وقيل: الآية كناية عن خرق الجلباب عن الحياء مطلقًا، كالبهتان والغيبة والكذب، وذكر ما لا يحسن. وقيل: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: أن يقبِّلهنَّ، أو يقبِّلن غير من يحلُّ تقبيله. ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: الجماع. وقيل: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: اللسان ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: الجماع.

وقيل: البهتان السحر، وللنساء ميل إليه.

(نحو) وجملة «يَفْتَرِينَهُ» نعت لـ«بُهْتَان» سواء كان بالمعنى المصدريِّ، أو بمعنى المبهوت به. و«بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ» حال من هاء «يَفْتَرِينَهُ».

﴿**وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوف**﴾ في أمر معروف شرعًا، وهو نهي عن منكر، وأمر بما هو واجبٌ أو مستحبٌّ، فإنَّ ذلك النهي وذلك الأمر كلاهما معروف،

وعن أمِّ سلمة الأنصاريَّة: قالت امرأة من هؤلاء المهاجرات المريدات للمبايعة: ما هذا المعروف الذي أمرنا أن لا نعصيك به؟ قال: «**لا تَـنُحْنَ...**»[1].

[قلت:] وهو دليل كالصريح على أنَّ النهي عن المعصية داخلٌ في المعروف، وما ذكر من الأمور المخصوصات في الأحاديث تمثيل، كشقِّ الجبب، ووشم الوجه، ووصل الشعر، يحمل على التمثيل، وعلى كثرة وقوعهنَّ من النساء، وتمزيق الثياب، وخمش الوجه، وحلق الشعر ونتفه، والتكلُّم للأجانب، والخُلُوُّ به، والنواح، وضرب الأرجل ليسمع صوت الخلاخل...

وفي البخاريِّ ومسلم: إنَّ امرأة من المبايعات لَمَّا نهاهنَّ عن النُّواح عَضَّتْ امرأة يدها فقالت: فلانة أسعدتني، فأنا أريد أن أجزيها، فسكت، فانطلقت ورجعت، فبايعها.

وفي النسائي قال: «**لا إسعاد في الإسلام**»[2]. والإسعاد أن تنوح معها جزاءً لنواحٍ تَقَدَّمَ منها لها.

ولفظه عن أنس: «إنَّ رسول الله ﷺ أخذ على النساء أن لا ينحن، فقلن يا رسول الله، نساء أَسْعَدَتْنَا في الجَاهِلِيَّة فنسعدهنَّ؟ فقال رسول الله ﷺ : **لا إسعاد في الإسلام**».

فَإِمَّا أن يتعدَّد طلب الإسعاد منهنَّ لا من كلِّهنَّ، وإمَّا أن يراد أَنَّهنَّ راضيات بسؤال تلك الواحدة وناسب بحالهنَّ، فأسند إليهنَّ، وإمَّا أن يكون ذلك

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **البخاريُّ** في كتاب التفسير (٣) باب {إِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ...} رقم ٤٨٩٢ ، من حديث أمِّ عطيَّة.

٢- رواه **النسائيُّ** في كتاب الجنائز (١٥) باب النياحة على الميِّت، رقم ١٨٥١ ، من حديث أنس.

حكمًا على المجموع.

وفي أبي داود عن أسيد بن أسيد عن امرأة من المبايعات كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ من المعروف أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجها، ولا ندعو ويلاً، ولا نشقَّ جيبًا، ولا ننشر شعرًا [1].

[قلت:] وحكمة لفظ ﴿مَعْرُوف﴾ مع أنَّه لا يأمر بالمنكر التنبيه على أن لا يطاع مخلوق في معصية خالق، حتَّى إنَّه لو أمرهُنَّ النبيء بالمعصية لم يجز لهنَّ اتِّباعه فيها، حاشاه عن ذلك ﷺ . أو المعروف على ظاهره وخُصَّ بالذكر لذلك، والوثوق بأنَّه لا يأمر بمنكر.

﴿**فَبَايِعْهُنَّ**﴾ اقْبَلْ مبايعتهنَّ بضمان الثواب على الوفاء بما ذكر ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ**﴾ زيادة على قبول المبايعة وضمان الثواب ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فهو يقبل مبايعتهنَّ إن أوفين.

والسورة مَدَنِيَّة، فهذه المبايعة تعمُّ مبايعة المهاجرات في المدينة، والمبايعة للنساء يوم الفتح، وأوَّلها مبايعة المهاجرات في المدينة، وهي سبب النزول. وقيل: بايعه أهل المدينة حين هاجروا، وأوَّل من بايعت من النساء فيها أُمُّ سعد بن معاذ، وكبشة بنت رافع، ومن معهنَّ.

(فقه) وعن مقاتل بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا وبايع عمر تحته النساء. ولا يمسُّ يد واحدة، وإن مسَّ فمن فوق الثوب، ويد المرأة ولو كانت غير عورة لَكِنَّ المسَّ أشدُّ من النظر. وعن أميمة بنت رقيَّة: «بايعنا النبيء ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئًا، إلى أن بلغ: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: فيما

١- رواه **أبو داود** في كتاب الجنائز، باب في النوح، رقم ٣١٣ من حديث أسيد بن أبي أسيد.

استطعتنَّ، فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله، ألا تصافحنا ؟ فقال: إنِّي لا أُصافحُ النِّساء، وقَوْلي لمائة امرأة قَوْلي لواحدة» فقد بايعهنَّ ﷺ بلا مَسٍّ، كما صافحهنَّ عمر. وجملة المبايعات أربعمائة وسبع وخمسون.

وفي الترمذيِّ عن أميمة بنت رقيَّة: بايعت رسول الله ﷺ وعلى آله في نسوة، وقال لنا: «فيما استطعتنَّ وطقتنَّ» فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا منَّا بأنفسنا، قلت: يارسول الله بايِعْنا، تعني: صافحنا، فقال رسول الله ﷺ : «**إنَّمَا قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة**»[1]. والمبايعة متعدِّدة في مواضع.

وعن الشعبيِّ: صافحهنَّ بيده واضعًا عليها ثوبًا قَطْوِيًّا[2]، كما في رواية، وهو ثوب مطروح، كما هو المتبادر من رواية: «بايعهنَّ وبين يده وأيديهنَّ ثوب قطويٌّ»، ويجوز أن يكون على بدنه لا مطروحًا.

[قلت:] ولعلَّه بايعهنَّ تارة بلا مصافحة وتارة بها، وعلى يده الثوب، وتارة بماء في إناء وضع يده فيه، ورفعها ثمَّ كنَّ يضعن أيديهنَّ فيه، فلعلَّ أميمة طلبت المبايعة بالمسِّ بلا حائل، وقد صافحها في الماء، أو بالكلام فقط، فطلبت المبايعة ولو على ثوب.

والأشهر أن لا مصافحة. وعن أسماء بنت يزيد بن السكن: كنت في المبايعات في مكَّة مع هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، ولَمَّا قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ قالت: كيف يقبل منَّا ما لم يقبل من الرِّجال ؟ تعني أنَّ هذا ظاهرٌ،

١- رواه **الترمذي** في كتاب السير (٣٧) باب ما جاء في بيعة النساء، رقم ١٥٧٩ ، من حديث ابن المنكدر.

٢- في اللسان: كساء قطواني وقطويٌّ نسبة إلى موضع بالكوفة، وقال الجوهري: القطواية: عباءة بيضاء قصيرة المخمل، والنون زائدة.

وَلَمَّا قال: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت: أصبت الشيء الهيِّن من مال أبي سفيان، قال أبو سفيان: حلٌّ لكِ ما مضى، وما يأتي، فضحك ﷺ، وقال: إنَّك لهند بنت عتبة، وقد أساءت إليه قبلُ فقالت: «اعفُ عمَّا سلف يا رسول الله عفا الله عنك» وذلك لِمَا مثَّلت بحمزة حين قُتل رضي الله عنه.

وَلَمَّا قال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت: أوَتَزْنِي الحُرَّةُ ؟ تعني: لأنَّ الزنى في الحرائر قليل عند الجَاهليَّة، وإنَّما تزني الإماء ونساء مخصوصات حرائر، يجعلن لأنفسهنَّ علامات تسمَّى الرايات، وَلَمَّا قال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ﴾ قالت: ربَّيناهم صغارًا وقَتَلْتَهُم كبارًا فأنتم وهم أعلم. تعني ابنها حنظلة بن أبي سفيان، قتل يوم بدر، فتبسَّم رسول الله ﷺ وضحك عمر حتَّى استلقى.

وروي أنَّها قالت: قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد؟ فضحك ﷺ، وقال: ﴿وَلَا يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ فقالت: البهتان أمرٌ قبيحٌ، وإنَّما يأمرنا الله بالرُّشْد ومكارم الأخلاق، وقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، واجترأت على هذه الأجوبة لقوَّة قلبها، ولأنَّها حديثة عهد بجاهليَّة، ولمكان أمِّ حبيبة من رسول الله ﷺ.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم يهود المدينة، لأنَّ قومًا من فقراء المؤمنين يواصلونهم ويخبرونهم بأخبار المسلمين، ليصيبوا من ثمارهم، ولأنَّ اليهود هم المذكورون بلفظ الغضب في مواضع من القرآن[1]، ومع ذلك يعتبر عموم اليهود وعموم المؤمنين لا خصوص السبب، وقيل: عموم اليهود والنصارى، وقيل: كُفَّار قريش، وقيل: الكفرة مطلقًا.

﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الْاَخِرَةِ﴾ نعت «قَوْمًا»، وقيل: مستأنف، واليهود يئسوا

١- كما في البقرة آية ٦١ والأعراف آية ٧١ وآية ١٥٢.

من الآخرة، أي: من خيرها لعنادهم، مع علمهم برسالة رسول الله ﷺ ، وقد آمنوا بالآخرة، وهذا ممَّا يقوِّي تفسير القوم المذكورين في الآية باليهود الذين في المدينة، وكذا بعض النصارى.

وعلى تعميم أهل الكتاب أو المشركين يكون إيَّاس بعض إنكارًا للآخرة، وإيَّاس بعض من نعمها، وعلى إرادة مشركي مكَّة فالإيَّاس إنكار للآخرة.

﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾ المنكرون للبعث ﴿مِنَ اَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي: من بعث أصحاب القبور، أو كما يئس الكُفَّار الموتى أصحاب القبور من الرجوع إلى الدنيا، و«مِنْ» للابتداء. أو كما يئس الكُفَّار الذين هم أصحاب القبور من خير الآخرة، ومن أن ينالهم خير من هؤلاء الأحياء، و«مِنْ» للبيان.

والله أعلم

وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

تفسير سورة الصّف وآياتها ١٤

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾

التنديد بعدم مصاحبة الأفعال للأقوال والدعوة إلى القتال في سبيل الله

(سبب النزول) **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** قال عبد الله بن سَلاَم: قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتذاكرنا لو علمنا أيُّ الأعمال أحبَّ إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله سبحانه: **﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون كَبُرَ مَقْتًا عندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾** فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتَّى ختمها، رواه الترمذيُّ[1].

وروي أنَّ المؤمنين قالوا: «لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لعملناه وبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا»، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُونَ﴾ ونزل قوله تعالى: ﴿هَلَ ادُلُّكُمْ عَلَىٰ تجَارة...﴾ فابتلوا في أحد فَوَلَّوْا مدبرين وكرهوا الموت، فنزل قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَاَ تَفعَلُونَ﴾.

١-رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (٦٢) باب ومن سورة الصف، رقم ٣٣٠٩ ، من حديث عبد الله بن سَلاَم.

وقيل: لَمَّا أخبر الله تعالى رسول الله ﷺ بثواب أهل بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا قتالا لنفرغنَّ فيه وسعنا، ففرُّوا يوم أحد، فعيَّرهم الله تعالى بهذه الآية.

وعن الضحَّاك: إنَّ شبابا من المسلمين يقولون: فعلنا في الغزوِ كذا، ولم يفعلوا، وقيل: كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وأطعمت ولم يُطعم، وضَربت ولم يَضرب، وقيل: إنَّه قول المنافقين: نحن منكم ومعكم ننصركم، ثمَّ يظهر من أفعالهم خلافُ ذلك، وعليه فنداؤهم بـ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا﴾ تَهَكُّمٌ بهم.

والمعنى: لأيِّ شيء تُثْبِتون لأَنفسكم بألسنتكم فعلَ ما لم تفعلوا من الخير والمعروف؟ والاستفهام توبيخٌ، ومدار التوبيخ القولُ كما هو الظاهر، إِذْ لَمْ يصدُقُواْ فيهِ لاَ عَلَى عَدَمِ فعلهِمْ، لأَنَّهُمْ يذكرون أفعالا غير واجبة عليهم بعينها، ولا متعيِّنة الوجوب بأعيانها، وإنَّما الواجب الجهاد كيفما اتَّفق.

وهذا خلاف ما قال بعض: إنَّ مدار التوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنَّما وجه على قولهم تنبيهًا على تضاعف معصيتهم ببيان أنَّ المنكرَ لَيسَ تركُ الخير الموعود فَقَطْ، بَلْ الوعد أيضًا، وقد كانوا يحسبونه معروفا.

ولو سلِّط التوبيخ على الفعل فقيل: لم لا تفعلون ما تقولون؟ لَفُهِمَ أنَّ المنكر خلاف الوعد، والصحيح ما ذكرت.

وعن إبراهيم النخعي: أكره القصَّ لثلاث آيات قوله تعالى: ﴿أَتَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة: ٤٤) ، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنُ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ (سورة هود: ٨٨) ، وقوله تعالى: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ...﴾.

[قلت:] وينبغي لمن أراد الوعظ بفضل شيء أو غيره أن يعمل به قبلُ، لتقبله

القلوب، ولئلاّ يدخل في هؤلاء الآيات الثلاث. قيل لبعض السلف: حَدِّثْنا، فقال: أتامرونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مَقْتَ الله ؟.

﴿**كَبُرَ**﴾ فيه ضمير مفسَّر بقوله تعالى: ﴿**مَقْتًا**﴾ بالنصب على التمييز. والمخصوص بالذمِّ المصدر من قوله تعالى: ﴿**عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ أَوْ هذا فاعل والمخصوص محذوف، أي: قولكم: كذا وكذا. والمقت أشدُّ البغض. وإذا كان ذلك كبيرا وجبت مجانبتُه فكيف وهو أكبر وأشدُّ ؟. وقيل: المقت البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها إنسان، وقال المبرِّد: رجل ممقوت: يبغضه كلُّ أحد.

وبعد النهي عمَّا يبغض اللهُ من إثبات فعل ما لم يثبت ذَكَرَ ما هُو محبوبٌ عند الله تعالى بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يُقَاتِلُونَ**﴾ أعداء الله تعالى ﴿**فِي سَبِيلِهِ صَفًّا**﴾ حالٌ، أي: صَافِّينَ أنفسهم، أو مصفوفين كصفوف الصلاة لا خَلَلَ فيها، وهذا ظاهر في القتال على الأرجل، لكن لا مانع من أن يصطفَّ فارس مع الرّجال على فرَسه، بل في كتب الفقه أنَّ السارية ونحوها لا تقطعان الصفَّ في الصلاة، وأيضًا يمكن اصطفاف الفرسان على حدة أو في جانب والرجال على حدة، **لا زالت صفوف الإسلام منصورة وصفوف الكفر مختلّة مقهورة.**

﴿**كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ إخبار باللاّئق وبالشبه لا إنشاء للتشبيه، فصَحَّ أن يكون حالاً، ولو كان إنشاء لم يصحَّ أن يكون حالاً، وما ذلك إلاّ كالتشبيه بالكاف، إلاّ أنّه أقوى من التشبيه بالكاف، وصَاحِبُ الحال الضمير المستتر في «صَفًّا»، إذ كان بمعنى: صافّين، أو حال ثانية من «الذينَ» أو الواو.

قيل: أو نعت لـــ«صَفًّا»، وفيه أنّه بمنزلة اسم الفاعل أو المفعول كما رأيت، فلا يحسن أن يكون منعوتا.

والمرصوص: المعقود بالرصاص، والمراد المُحكم، ويُقال: رَصَصْتُ البناء ضممت أجزاءهُ حتَّى كأنَّه قطعة واحدة، وقيل: المراد استواءُ نياتهم في الثبات واجتماع الكلمة والإخلاص.

□ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ □

الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله

وبشارة عيسى برسول الله ﷺ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولَ الله إِلَيْكُمْ﴾ اذكر يا محمَّد لقومك المعرضين عن القتال ليتركوا الإعراض عنه، وللمقاتلين غير المعرضين ليدوموا على ذلك ويزدادوا، وقْتَ قول موسى عليه السلام لقومه: لِمَ تضرُّونني بترك قتال الجبَّارين الذي أمركم الله تعالى به حتَّى قلتم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...﴾؟ (سورة المائدة: ٢٢) ، وحتَّى قلتم: ﴿اذْهَبَ انتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ (سورة المائدة: ٢٤) ، والحال أنَّكم معتقدون أنَّ رسالتي من الله

عَزَّوَجَلَّ لأُرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة بالمعجزات الباهرة، كالعصا والإنجاء من الغرق بفرق البحر، وإغراق عدوِّكم؟

ويجوز تعليق «إِذْ» بمحذوف تقديره بَعْدَ «إِلَيْكُمْ»: زاغوا، أو أصرُّوا، أو ضلُّوا لا قبلَ «إِذْ»، ليعود الضمير إلى متقدِّم، وذلك لمناسبة ما قبله من القتال، أوْلَى من تفسير الإيذاء بالإدرة[1] التي يكذبون بها عليه، أو برص كذلك وعبادة البقر، وطلب رؤية الله تعالى، والتكذيب ببعض آيات الله تعالى، وعدم الصبر على طعام واحد.

﴿**فَلَمَّا زَاغُواْ**﴾ مالوا عن الحقِّ وقبوله زيغًا أَوَّلاً، أو زيغا غير أوَّل، وذلك باختيارهم، وهو أيضا مخلوق لله تعالى ﴿**أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ أبقاها على الزيغ، أو لَمَّا اختاروا الزيغ أحدثه الله في قلوبهم، أو لَمَّا أصرُّوا على الزيغ زادهم الله زيغا، أو لَمَّا زاغوا بألسنتهم وجوارحهم عن قلوبهم أرسخ الله الزيغ فيها، أو لَمَّا كانوا على حال تُؤَدِّي إلى الزيغ كقسوة القلب واتِّباع الشهوة أزاغ الله قلوبهم.

﴿**وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ أي: لا يهديهم، أي: هؤلاء المذكورين، ولكن أظهر ليذُمَّهم بالفسق الموجب للزيغ، ويُقاس عليهم لتعليق الحكم بالمشتقِّ. أو المراد عموم الفاسقين، فيدخل هؤلاء أوَّلاً.

والمراد هُدى توفيق وعصمة، وأمَّا هدى البيان فعمَّت كلَّ مكلَّف ولو شقيًّا، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة المائدة: ٢٥) ، وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة المائدة: ٢٦) .

﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ**﴾ عطف على «إِذْ» الأولى بلا إخفاءٍ إذا قدَّرنا

١-أي مصاب بالإدرة، وهو نوع من الفتق، راجع: الجزء ١٠ ، ص ٣٥٦.

في الأولى: «اذكر»، ولا حاجة إلى تقدير: «اذكر» مع قرب «إِذْ» الأولى، وظهور المعنى، فلو قدَّر أحدٌ عاملاً لعمرو في قولك: أكرم زيدا، فإنَّه أهل لأن يكرم عمرًا لَكَانَ كالعبث، نعم إنْ نُصِبَ «إِذْ» الأولى بـ«زَاغُوا» أو نحوه محذوفا، قُدِّرَ لهذا «اذكر».

﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ لم يقل: يا قومي كموسى عليهما السلام، لأنَّ نسبه في بني إسرائيل من أمِّه فقط، لا من أب ولا أبَ له، بل هو خلق من الله ﷻ، والنسب يعتبر بالأب في العادة، وفي الأصالة، وللإشارة إلى أنَّه عامل بالتوراة، وأنَّه مثلهم في أنَّه من بني إسرائيل، لأنَّ أمَّه منهم، هضما لنفسه بأنَّه لا أتباعَ له ولا قوم.

وفي ذلك استعطاف بالخضوع، واستعطاف إليهم بأنَّه مثلهم في العظمة، بأنَّه من أولاد بني إسرائيل، وكانوا يتعاظمون بكونهم من بني إسرائيل.

﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ بالإنجيل واتِّباع التوراة والزبور والصحف، كما قال الله ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ لِمَا حَضَرَنِي من التوراة، وخصَّها بالذكر لعظمها.

و«مُصَدِّقًا» حال من المستتر في «رَسُولِ»، لأنَّه فعول بمعنى مفعول، كحلوب بمعنى محلوبة، إلاَّ أنَّه في الوصف من الثلاثيِّ لمعنى الرباعيِّ، كاسم المصدر من الثلاثيِّ لمعنى المزيد عليه، كاغتسل غسلا، والرباعيُّ: أَرْسَلَ. وَذَكَرَ تصديقه بالتوراة ليجلبهم إلى الإيمان به.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لكم ﴿بِرَسُولٍ يَاتِي مِنۢ بَعْدِيَ﴾ تبشيرًا تضمَّنته التوراة، وقد بسطتُ أدلَّة نبوءة سيِّدنا محمَّد ﷺ ورسالته من الكتب المتقدِّمة في «ردِّ الشرود إلى الحوض المورود»[1]، فمن ذلك ما في الفصل العشرين من السفر الخامس

١-رسالة للمؤلِّف طبعت طبعا حجريًّا في إثبات نبوءة محمَّد ﷺ من الكتب القديمة =

منها: «أَقْبَلَ اللهُ من سيناء وتجلّى من ساعير» (بالراء أو النون، روايتان)، وإقبال الله إقبال وَحْيه، ومن هو على يده، «وظهر من جبال فاران» في مَكّة، «ومعه آلاف من الصالحين». وفي لفظ: «معه الربوات الأطهار عن يمينه».

وفي الفصل الحادي عشر من هذا السفر: «يا موسى إنّي سأُقيم لبني إسرائيل نبيًا من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فَمِه، ويقول لهم ما آمره به، ومن لا يقبل قول ذلك النبيء الذي يتكلّم باسمي أنتقم منه، ومن سِبطه»، أي: أتباعه، وقال: «من إخوتهم» لأنّه من ولد إسماعيل عليه السلام أخي إسحاق لا من أولاد إسرائيل وهو يعقوب.

(صرف) ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أصله اسم تفضيل من المبني للفاعل، أي: أعظم الخلق حمدًا لله تعالى، أو أكثرهم حمدًا له تعالى. وأمّا أن يكون اسم تفضيل من المبني للمفعول، أي: حَمِدَهُ اللّهُ تعالى أكثر من حَمْد غيره، أو حَمِدَهُ الخلقُ أكثر ممّا حمدوا غيرَهُ ــ والخَلق يشمل المَلَكَ والجماد والحيوانات ــ أو [الحمدُ يشملُ] اللهَ تعالى وخلقَه بفضله، وأعظمُ اللهِ، وخَلْقُه حَمِدَهُ، فلا دليل عليه، لأنّ بناء اسم التفضيل من المبني للمفعول غير مقيس، ولا دليل عليه هنا، ولو ورد في قولهم: «فالعَودُ يَا أحْمَدُ أَحْمَدُ».

وقَبَّح الله النصارى، أنكروا رسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ، وحرَّفوا الإنجيل ليقولوا للناس: ما وجدناه فيه. عن كعب الأحبار: «إنّ الحواريِّين قالوا لعيسى عليه السلام: يا روح الله هل بعدنا من أمَّة ؟ قال: نعم يأتي بعدكم أمَّة أحمد، حكماء علماء أبرار أتقياءَ، كأنَّهم في الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى عنهم باليسير من العمل».

=

كالإنجيل والتوراة.

وفي البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم: قال رسول الله ﷺ: «**لي خمسة أسماء: أنا محمَّد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الباطل** ــ ويروى: الكفر ــ **وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبيء**»[١]. وقد ذكرت أحاديث الإنجيل وكتب أشعياء وغيرها الدالَّة على رسالته ﷺ في «ردُّ الشرود»[٢].

ومن ذلك ما ذكر في الفصل الخامس عشر من إنجيل يوحنَّا: «قال المسيح: من يحبُّني يحفظ كلمتي، وأبي يحبُّ الفارقليط روح الحقِّ الذي يُرسله أبي يُعلِّمكم كلَّ شيء، وإليه يأتي وعنده يُتَّخذ المترلة، وقلت لكم لتحفظوا، فإنِّي لا أقيم فيكم، فَبَلِّغُوهُ سلامي، وإنِّي إن لم أذهب إلى أبي لم يأتكم الفارقليط ويعلِّمكم ما للأب».

وعندهم في الإنجيل وغيره استعمال الأب بمعنى الربِّ والعظيم، كما تقول المغاربة البربريَّة: «بَابَا رَبِّي»، وما زال اليهود والنصارى إلى الآن يزيدون كذبا وتحريفا لعنهم الله ﷻ ، ولعن من يُعينهم.

لَمَّا سمعوا بترول الوحي عليه في الجبل قالوا: علَّمه فيه بشر، قال أبو موسى: سمعت النجاشيَّ يقول: «أشهد أنَّ محمَّدا رسول الله ﷺ وأنَّه الذي بشَّر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحمَّلت فيه من أمر النَّاس لأتيتُه حَــتَّى أحمل نعليه». أخرجه أبو داود[٣].

ويُروى أنَّه قال لرسول الله ﷺ: إن أمرتني أن آتيك آتيك. وعن

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج ١١ ، ص٣٠١

٢- القطب اطفيَّش: ردُّ الشرود إلى الحوض المورود، ورقة ١٩ وما بعدها.

٣- رواه **أبو داود** في كتاب الجنائز، باب في الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك، رقم ٣٢٠٥. من حديث أبي بردة عن أبيه.

عبد الله بن سلام: «مكتوب في التوراة صفةُ محمَّد، وعيسى بن مريم يدفن معه»، وفي البيت [بيت عائشة] قيل: موضع قبر عيسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص ﴿قَالُوا هَذَا﴾ أي: ما أتى به من البيِّنات ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أو الإشارة لعيسى. و«سِحْرٌ» بمعنى ساحر، أو ذو سحر، أو مبالغة، ويؤيِّد التفسير بساحر قراءة يحيى بن وثَّاب: «هَذَا سَاحِرٌ». والإضمار في «جَاءَ» لعيسى، وهو المحدَّث عنه، أو ضمير «جَاءَ» للنبيء ﷺ آمنوا به.

﴿وَمَنَ اظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الاِسْلَامِ﴾ لا أظلم ممَّن يُدعى إلى الإسلام وهو دين الله الحقِّ الذي به النجاة والفوز، ويضع موضع الإيمان الافتراءَ على الله، بإثبات ما نُفيَ، ونَفْيِ ما أُثبت، وهم اليهود، وكذا النصارى. ومن آمن منهم ولم يكفر سمِّي مسلمًا، وليس اسم الإسلام مختصًّا بهذه الأمَّة.

﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هداية توفيق، بل هداية بيان، ويجوز أن تقول: هداية إرشاد بمعنى هداية تبيين، تقول: أرشدتُهُ، أي: بيَّنت له الرشاد ولم يرتشد، ويقال: أرشدته صيَّرته راشدًا وهذا هو المنفيُّ عنهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ مفعول «يُرِيدُ» محذوف، واللاَّم للتعليل، أي: يريدن الافتراء ليطفئوا، أو يريدون إبطال القرآن بالتكذيب، أو يريدون إبطال حجج الله تعالى، أو يريدون إهلاك رسول الله ﷺ بالأراجيف، أو إبطال شأنه ﷺ، أو إبطال ظهوره، ومأصدق ذلك كُلِّه واحد، وكلُّ ذلك غير إطفاء النور، على أنَّ إطفاءَهُ هو إزالةُ ما يتولَّد من شهرة الدلائل والحجج، وما ذكر والعمل به.

وإن شئت فاللام صلة. ومصدر «يُطفِئ» مفعول «يُرِيدُ». وحرف المصدر

محذوف هو «أَنْ». وبعضٌ جَعَلَ اللام حرف مصدر، فالمصدر مفعول.

(سبب النزول) أبطأ الوحي على رسول الله ﷺ أربعين يوما، فقال كعب بن الأشرف لعنه الله لليهود: أبشروا أطفأ الله نور محمَّد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتمَّ نوره. فحزن رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وتسمية ذلك نورا على الاستعارة التصريحيَّة، ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيليَّة.

﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورَهُ,﴾ إبْطالا لدعواهم وتهكُّمًا بهم، كما تقول: فلان يطفئ نور الشمس، بمعنى يجحد ما لا يخفى. **﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** إتمامه.

﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ,﴾ محمَّدا ﷺ **﴿بِالْهُدَىٰ﴾** بالبيان والإرشاد، وهذا معنى مصدري، وتلاوة القرآن إرشاد وبيان لسامعه، ولا مبالغة في ذلك، وكذا إيقاع المعجزة بيان وإرشاد، وهي داخلة في الهدى. وإن جعلنا ﴿الْهُدَىٰ﴾ بمعنى الاهتداء، أو بمعنى نفس القُرآن لا بِقَيْد تلاوته، أو نفس المعجزة لا بقيد إيقاعها، فإطلاق الهدى عليها مبالغة.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ معاني القرآن والعمل بها. **﴿لِيُظْهِرَهُ﴾** يعليه **﴿عَلَى الدِّينِ﴾** «ال» للاستغراق، ونصَّ عليه بقوله تعالى: **﴿كُلِّهِ﴾** أديان الكفرة **﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** وهذا وعدٌ أنجزه الله تعالى بعد رسول الله ﷺ.

ولا دين شِركٍ إلاَّ مقهور بدين الإسلام، كما في زمان هارون الرشيد، ويسمَّى زمانُه: عرس الإسلام. وعن مجاهد: إنَّ هذا في زمان نزول عيسى عليه السلام لا يكون في الأرض إلاَّ دين الإسلام، ولو تقدَّم قبله زمان لم يبق للإسلام فيه إلاَّ اسمه.

وقيل: المراد بإظهاره على الدين **كلِّه الإعلاءُ بالدلائل والبراهين، وهذا في كلِّ وقت لا ينقطع.**

(نحو) ومن العجيب جعلهم ﴿وَلَوْ كَرِهَ...﴾ في الموضعين حالا، مع أنَّه خارج عن أن يكون مفردًا، وعن أن يكون كلاما تامًّا. وإن جعلنا الواو عاطفة على محذوف والمحذوف حالاً صحَّ، أي: لو لم يكره الكافرون، ولو كره الكافرون، أو لو لم يكره المشركون ولو كره المشركون، ومع هذا ما صحَّ إلاَّ بتأويل بقولك: مطلقا.

وعبَّر أوّلاً بـ﴿الْكَافِرُونَ﴾ لظهور أنَّ النور نعمة عند كلِّ أحد تستحقُّ الشكر وهم كفروها، بخلاف ما يقول الشارع: إنَّه هدًى، ولم يذكره باسم النور فإنَّ منكريه لم يقرُّوا أنَّه نور، ولا أنَّ الله سمَّاه باسم النور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾

الدعوة إلى خير تجارة: الإيمان والجهاد في سبيل الله

﴿**يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا**﴾ بألسنتهم دون قلوبهم، أو إيمانًا ضعيفًا، ناداهم ليُخلصوا إيمانهم، ويجاهدوا في سبيل الله بإخلاص، فتحصل لهم بذلك المغفرة، وإدخال الجنَّة.

وإنْ أريد المؤمنون الخلَّص فعلى طريق التهييج والإلْهَابِ بالدوام على ما هم عليه من الإيمان والجهاد والزيادة.

وجَمَعَ الجهاد إلى الإيمان إن لم يقع قبلُ، كقولك: يا أهل الله جاهدوا في سبيل الله، ويقوِّي هذا قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ...﴾، لأنَّ المنافقين ومَن ضَعُفَ إيمانه لا رغبة لهم في نصر دين الله والفتح، بل للمنافقين رغبة في نصر الشرك، إلاَّ أن يقال: وأخرى تحبُّونَها إن أسْلمتم، وأخلصتم.

﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ عظيمة **﴿تُنجِيكُم مِّن عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾** يوم القيامة، وتوصلكم إلى دائم النعيم يوم الندامة **﴿تُومِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾** جواب سُؤال، كأنَّه قِيل: ما هذه التجارة ؟ فقيل: ﴿تُومِنُونَ﴾ والمعنى الأمرُ، أي: آمنوا وجاهدوا، بدليل جزم «يَغْفِرْ» و«يُدْخِلْ» في الجواب، ويدلُّ لذلك أيضا قراءة ابن مسعود: «آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا» بصورة الأمر، وقراءة زيد بن عليٍّ: «تُؤْمِنُوا وَتُجَاهِدُوا» بحذف النون، على تقدير دخول لام الأمر، وفيها دخول لاَمِ الأمر على مضارع المخاطب، وهو ضعيف.

وإنَّما جيء به بصيغة الإخبار إيذانا بوجوب الامتثال، حتَّى كأنَّه قد وقَع الإيمانُ أو إخْلاصُه والجهاد، فهو تعالى يخبر بهما واقعين في الحال، مستمرَّيْن أو مستقبلين، لا يتخلَّفان.

(نحو) وقال الأخفش: المضارعان خبران لفظا ومعنًى، مصدرهما بدلٌ من «تِجَارَةٍ»، إمَّا على حذف حرف المصدر ورفع المضارع بعد حذفه، كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ (سورة الرعد: ١٢)، وكقوله: «ألا يا هذا الزاجر احضر الوغى»[1]، أي: الذي يزجرني أن احضر

١- البيت هكذا: «ألا أيهذا الزاجري احْضُرَ الوغى وأن أشهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنت مُخْلِدي؟»

=

الوغى لئلاّ أموت. وإمَّا على تقدير حرف مصدر غير ناصب كـ«مَا»، وكلاهما خلاف الأصل. وإمَّا على تنزيل المضارع منزلة الاسم كما هو وجهٌ في «أَنْ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه».

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ذلكم الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ نفع لكم، وهو مقابل المضرَّة، أو أفضل لكم من أموالكم الممسكة وأنفسكم وأولادكم، أو أفضل لكم على الإطلاق.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل الإدراك لِلْمَصالح. وجواب «إِنْ» أغنى عنه ما قبله، على معنى: يظهر لكم أنَّ ذلكَ خير لَّكم إن كنتم تعلمون، أو يقدَّر: إن كنتم تعلمون مصالحَكُم ظَهَر لكُم أنَّه خير لكم. ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾.

(نحو) إِنْ لم يُجْزَمَا [أي: «يَغْفِرْ» و«يُدْخِلْ»] في جواب الأمر ــ كما إذا قيل: تؤمنون وتجاهدون إخبارٌ لفظا ومعنًى ــ فالجزم بـ«إِنْ» محذوفةً، أي: إن آمنتم وجاهدتم يغفر لكم...الخ، أو في جواب استفهام محذوف، أي: هل تؤمنون وتجاهدون؟ أو هل تتَّجرون بالإيمان والجهاد؟ أو هلْ تقبلون أن أدلَّكم على تجارةٍ يُغفر لكم؟.

ويجوز جزمه في جواب الاستفهام المذكور في الآية، باعتبار أنَّ دلالته ﷺ على التجارة مظنَّة لحصول الامتثال بالتَّجرِ فنُزِّلَت منزِلَةَ المحَقَّق؛ فلا يعترض بأنَّ مجرَّد الدلالة لا يوجب المغفرة، وإدخال الجنَّة، وهذا الوجه إنَّما يتمُّ بشرط أنَّ

=

والبيت من الطويل لطرفة بن العبد، وهو من الشواهد. انظر: إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج٢، ص٤٣١.

الخطاب للمؤمنين المخلصين الراسخين، فهم الذين تتأثَّر فيهم الدلالة، كأنَّه قيل: هل تتَّجرون تجارة؟.

ومعنى طيب المساكن حسنُها في ذاتها، بحيث تستلذُّ في النفس، فكيف وهي في جنَّات عدن! والمراد هنا: الشجر والنخل والنبات، لا الدار المضادَّة لدار الأشقياء، بدليل مقابلتها بالمساكن، لَكِنَّ تلك الأشجار والنخل والنبات في دار السعداء فَلَهُم فيها أجنَّةٌ ومسَاكِنُ، والمراد بـ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ طبقاتُ دارِ السعداء، وهنَّ ثمانٍ، كما أنَّ طبقات دار الأشقياء سبع.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من المغفرة وإدخال الجنَّات والمساكن الطيِّبة ﴿**الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ أي: المفوز به، أو موجب الفوز العظيم، أو حاصل الفَوْزِ العظيمِ، أو يُقَدَّرُ المضاف أوَّلاً، أي: نيْلُ ذلك هو الفوزُ العظِيمُ الذي لا فوزَ فَوقَهُ، إلاَّ كونُ أهله قد رضي الله عنهم، فإنَّه فوق كلِّ خير.

(نحو) ﴿**وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا**﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: ولكم نعمة أخرى مع تلك المغفرة وذلك الإدخال، أو مع ذلك الفوز، و«تُحبُّونَهَا» نعت لـ«أُخْرَى» ولو كان وصفًا، لأنَّ وصفِيَّتَهُ ليست غير المغايرة، أو نعت لمنعوته المحذوف وهو النعمة.

(نحو) ﴿**نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**﴾ بدل من أُخْرَى ، أو عطف بيان، على جوازه في النكرات، أو خبر لمحذوف، أي: هي نصر، والأصْلُ عدم الحذف. أو أُخْرَى مبتدأ خبره نَصْرٌ وليس فيه أنَّ لهم الأخرى لكن تلويح. أو أُخْرَى مفعول لمعطوف على يَغْفِرْ محذوف، أي: ويُعْطِكُمْ أخرى هي نصر. أو منصوب بـ«تُحبُّ» محذوف على الاشتغال، وليس فيه أنَّها لهم إلاَّ بالتلويح.

والفتحُ القَريبُ فتحُ مكَّةَ، أوْ مُطلَقُ فُتُوحِ الإسلامِ، أو نُزُولُ مُطلَقِ الخَيْرِ والنعم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾ معطوف على محذوف، أي: أَبْشِرْ يا محمَّد وَبَشِّرِ المؤمنين، أو فَأَبْشر يا محمَّد (بالفاء التفريعيَّة). أو يقدَّر: «قُل» قبل قوله ﷻ: ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ﴾ ويعطف عليه «بَشِّر». ويصحُّ عطفه على «تُومِنُونَ» لأنَّه بمعنى الأمر، أي: آمنوا وجَاهِدُوا وبَشِّرْ يا محمَّد المؤمنين.

وفيه أنَّ «تُومِنُونَ» و تُجَاهِدُونَ» لأمَّته، والأمر بالتبشير هُو لهُ، وأيضا تُومنُونَ» في جواب سؤال عن التجارة وليس بَشِّرْ في ذلك، فيجاب بأنَّه وأمَّته كَواحد، حتَّى إنَّه داخل في ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ﴾، وَأَنَّ الزيادة في الجواب على السؤال جائزةٌ، كقوله تعالى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَىٰ﴾ (سورة طه: ١٨) .

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارًا لِّلَّه﴾ لدين الله ﷻ ولرسوله ﷺ. و«أَنصَارًا» ولو كان نكرة في الإثبات لا دلالةَ لها على التبعيض، بل تَحَصَّلَ العُمومُ لها بِـ«كُونُوا»، أي: كونوا كلُّكم أنصارًا لله، وأيُّ تبعيض في «مطيعين» من قولك: يا أَيُّها المكلَّفون كونوا مطيعين لله ﷻ ؟.

وإذا كانت للتبعيض كما قيل فأين البعض الآخر؟ فإن قيل: من يأتي من المؤمنين بعد نزول الآية، قلنا: من يأتي شملته الآية، وإن قيل: البعض الآخر من تَعَنَّى لنصره من الملائكة بأمرِ الله ومن الجنِّ، قلنا: أيُّ حاجة إلى ذلك مع عدم تبادره؟ اللهمَّ إلاَّ أن يقال: لذلك حكمة هي تعظيمُهُ بأنَّ له ﷺ أنصارا.

وربَّما تقوَّى التبعيض بالتشبيه في قوله ﷻ: **﴿كَمَا قَالَ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ انصَارِيَ إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله﴾** فإنَّه ظاهر في التبعيض، ولو كان عيسى غير راغب عن الكلِّ.

(لغة) والحواريُّون من مادَّة الحوار، وهو البياض، سُمُّوا لأنَّهم كانوا يغسلون ثياب الناس ويبيِّضُونها، أو للَبْسهم البياض، وقيل: لنقاء قلوبهم وجوارحهم من الذنوب، أو لأنَّهم يغسلون نفوس الناس بالعلم والوعظ.

وقيل: الحواريُّون المجاهدون، وقيل: الحواريُّ الخاصَّة الناصر من الأصحاب، كما قيل في قوله ﷺ: «**لكلِّ نبيء حواريٌّ وحواريِّي الزبير**»[1]. وقيل: الحواريُّ الذي أخلص ونُقِّيَ من كلِّ عيب.

وفي بعض الأخبار: إنَّ الحواريِّــين كلَّهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص، وعثمان بن عفَّان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير.

والكاف تدلُّ على تقدير القول قبل ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: قل يا محمَّد لقومك الذين آمنوا: ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارًا لِّلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ﴾ ويجوز أن لا يقدَّر القول، فيكون مستأنفا من الله عز وجل، ويبحث بأنَّ الظاهر هو تشبيه القول بالقول، كما مرَّ من تقدير القول، ويجابُ بأنَّه لا بأس بتشبيه الكون أنصارًا لله بقول عيسى لتضمُّنِ قوله طلب النصرة.

ويجوز تقدير قول من الله عز وجل لا من النبيء ﷺ، أي: قُلنَا للْمُؤمنينَ من أُمَّة محمَّد: ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ كُونُوا أَنصَارًا لِّلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ اَنصَارِيَ إِلَى اللهِ﴾ فإمَّا أن يكون هذا القول المقدَّر عن الله إنشاءً، وإمَّا أن يَكُونَ إخبَارًا عن قول متقدِّم، وهو كلُّ كلام فيه أمر باتِّباع رسول الله ﷺ . و«مَا» مَصْدَرِيَّة.

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج ٤ ، ص ١٨٥.

أمَّا على عدم تقدير القول فالمعنى: كونوا أنصارًا لله كونا ثابتًا كمضمون قول عيسى: «مَنَ انصَارِيَ» ؟ وعلى تقديره: قل يا محمَّد، أو قلنا قولا ثابتا كقول عيسى.

وتَكَلَّفَ مَن جعل «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر ظرف، وجعل الآية على الحذف هكذا: كونوا أنصارًا لله وقْت قولِي لكم ككون الحوارِيِّين أنصَارًا وقت قول عيسى لهم، واختصره الله عَزَّوَجَلَّ ، كقولك: كونوا أنصاره كوقت قول عيسى.

(بلاغة) أو الآية احْتِبَاكٌ بحذفٍ من كلٍّ كلام ما ثبت في الآخر، أي: كونوا أنصارا لله حين قال لكم النبيء: من أنصاري إلى الله ؟ كما كان الحواريُّون أنصارا لله حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟ وهذا ـــ ولو كان حسنا ـــ لا دليل عليه، فلا يفسَّر به، لتكلُّف الحذف وصحَّة الكلام بدونه، ولا سيما وقد تغيَّر معنى الآية، فإنَّه ليس فيها أنَّ الحوارِيِّين كانوا أنصارا، بل فيها دعواهم أنَّهم أنصار ولو ذكر بعد ذلك أنَّ طائفة آمنت وإيمانها نصرهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما قال عَزَّوَجَلَّ .

﴿فَئامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾ بعيسى ﴿مِنۢ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَت﴾ به ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى منهم ﴿فَأَيَّدْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ به ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم من كفر به.

(نحو) قيل: «إِلَى» [في قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾] متعلِّق بحال محذوفة جَوازًا، كونٌ خاصٌّ، أي: متوجِّهًا إلى نصرة الله، بتقدير مضاف كما رأيت، فيناسب قوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾، وصحَّ الحال من المضاف إليه لأنَّ المضاف وصفٌ يصلُحُ للعمل، فإنَّ «أنصَارًا» جمع ناصر. أو «إِلَى» بمعنى «مع»، فيقدَّر مضاف، أي: نحن أنصار نبيء الله، فحصل التناسب أيضا.

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ أي: الذين أَيَّدهم الله، أي: نصرهم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين بالحجَّة والبرهان، وهم اثنا عشر رجلاً، وقيل: أتباعهم بعدهم، كما يدلُّ له قوله: ﴿مِنۢ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾.

أرسل بعضا إلى روما، وبعضا إلى بابل وبعضا إلى إفريقية، وبعضا إلى أفسس[1]، وبعضا إلى بيت المقدس، وبعضا إلى الحجاز، وبعضا إلى البربر وما حولها.

وقيل: غالبين بالسيف، وعلى هذا المراد الأتباعُ، فإنَّ الطائفة المحقَّة بعد رفعه إلى السماء داموا على قولهم: إنَّه عبد الله ورسولُه، والطائفة الكافرة قال بعضها: إنَّه الله رجع إلى السماء بعد هبوطه منها، وبعضها: إنَّه ابن الله رفعه الله إليه، فقاتلتهما الطائفة المؤمنة وغلبتهما.

والقتال ولو لم يكن في دين عيسى لكن بدأت الكافرتان القتال، فقاتلتهما المؤمنة دفعا عن نفسها، وقيل: غلبتهم الكافرتان بالسيف إلى زمان بعثه ﷺ، فغلبتهما المؤمنة. وقيل: آمنت طائفة بالنبيء ﷺ إذ بعث، وكفرت به أخرى، فأيَّدنا المؤمنة على الكافرة به بتصديقهم على لسان رسول الله ﷺ أنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسُولُه، وهو خلاف الظاهر، والله أعلم.

وهو الموفِّق المستعان
وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم

١-مدينة قديمة في بلاد إيونيا ليس فيها اليوم إلاَّ أنقاض بالمنطقة الساحليَّة بآسيا الصغرى الغَربِيَّة. (منجد الأعلام).

تفسير سورة الجمعة وآياتها ١١

(فقه) [قلت:] شهر في كتب المذهب وفي الألْسِنة ذكر اليوم والليلة في النية للصلاة، وعابه غَيْرُنا، فأجبت بأنَّ فائدة الذكر لهما المحافظة على تعيين يوم الجمعة وتمييزه، لتصلّى فيه صلاة الجمعة زمان الإمام حيث تجب، والمحافظة على خواصِّ الأيَّام من مباح ومكروه وعبادة، ومعرفة تمام الشهر إذا غُمَّ، وشهور الفضل ورمضان، وقد ذكر ابن الحاجب المالكيُّ[1] بعض ذلك في كتابه "المدخل".

وهذا كما عيب على المؤذّن قوله في أسْحار رمضان: «كلوا كلوا»، مع أنَّه دعاء إلى السنَّة، وهي أُكْلَةُ السَّحر، وإيقاظ وتنبيه عن فوْتِ الأكل.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④﴾

١- محمَّد بن محمَّد ابن الحاج، أبو عبد الله العبدريُّ المالكيُّ الفاسيُّ، نزيل مصر. تفقَّه في بلده، ثمَّ نزل مصر وحجَّ، ثمَّ كفَّ بصره. تُوُفِّيَ سنة ٧٣٧هـ. له كتاب: «المدخل للشرع الحنيف في محاربة البدع والآفات» وغيره. وكتاب «المدخل للشرع الحنيف» مطبوع في ثلاثة أجزاء في محاربة البدع وتأييد السنَّة. الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٥.

فضل الله تعالى في إرسال نبيئه ﷺ والتنويه برسالته

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ**﴾ تسبيحا مستمرًّا، فالمضارع للتجدُّد ﴿**مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ الظروف فيهما وأجزائهما[1] ﴿**الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ مَرَّ تفسير ذلك [في أواخر سورة الحشر].

﴿**هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ**﴾ العرب القرويِّين والبدويِّين.

(**لغة**) نسب إلى الأمِّ الوالدة، كأنَّهم بعدما بلغوا وتقوَّوْا ولدوا في الحين، بحيث لا يعرفون الكتابة، لا يقرأون المكتوب ولا يكتبون، ولا يعرفون الحساب إلاَّ قليلا، وكذلك من استغرق في العلوم العَرَبِيَّة يعالج الحساب علاجا ولو كان عجميًّا.

قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ «**إنَّا أمَّة لا نكتب ولا نحسب**»[2] رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وقيل: نسب إلى أمَّة العرب، أي: بعث في الأمَّة المعهودة بأنَّها لا تكتب ولا تحسب، فهو أنسب بقومه الذين بعث هو منهم، فلا يقال: يأخذ من الكتب ما يقول: إنَّه أوحي إليه بِه، أو يستعين بها، وكذا يسمَّى أمِّيًّا في كتب الأنبياء.

وقيل: إلى أمِّ القرى، وهي مَكَّة، **والصحيح الأوَّل المشهور.** واقتصر بعضهم في تفسيره على أنَّه الذي لا يكتب، ويقال: في بَدْءِ كتابة العرب ــ وهي قليلة ــ أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة أخذوها من الأنبار، وأشكال حروفهم أحسن الأشكال.

١- كذا في النسخ ولم يتَّضح لنا المعنى.

٢- تقدَّم تخريجه، انظر: ج١١، ص ٧٩.

وقيل: الأمِّـيُّون: من ليس من أهل الكتاب، كما عمَّ الكتابيُّون في قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّـيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (سورة آل عمران: ٧٥) كلَّ من ليس منهم، ووجهه أنَّه من ليس له كتاب لا يعتني بالكتابة، فشملت الآية العرب والفرس وسائر العجم، وفيه أنَّه كثرت الكتابة في العجم والفرس، ويجاب بأنَّها قليلة بالنسبة إلَى من له كتاب.

﴿رَسُولاً مِّنهُمْ﴾ هو متعلِّق بمحذوف نعت لـ«رَسُولاً»، أو بـ«بَعَثَ». وعلى كلِّ حال يفيد أنَّه ﷺ أمِّيٌّ، سواء جعلنا «مِنْ» للابتداء كما يتبادر من تعليقها بـ«بَعَثَ» أو للتبعيض، فإنَّ من كان مبعوثا من الأمِّـيِّين أمِّيٌّ، ومن ثبتت رسالتهُ منهم أمِّيٌّ.

وذلك أنَّ هاء ﴿منهُمْ﴾ عائدة إلى الأمِّـيِّين، لا كما قيل: إن جعلت تبعيضيَّة ــ والبعضيَّة باعتبار الجنس ــ فلا تدلُّ الآيةُ على أنَّه أُمِّيٌّ، وباعتبار الخاصَّة المشتركة تدلُّ، لأنَّا نقول: الجنس موصوف بالأمِّـيَّة.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمُ, ءَايَاتِهِ﴾ مع كونه أمِّـيًّا مثلهم لم يعاشر من يكتب من العجم أو غيرهم، ولم تعهد قراءته ولا تعلُّمه، ومع ذلك أخبرهم بما في التوراة والإنجيل، فبان أنَّه نبيء ﷺ . وآياته: ما نزل إليه من القرآن، الدالُّ على الحلال والحرام، والمواعظ والقصص، وقيل: دلائل نبوءته. والهاء لله تعالى، أو له ﷺ .

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يسعى في تحصيل طهارتهم من خبائث الاعتقاد والقول والفعل. ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ﴾ ألفاظ القرآن ويتبعها ما يفهمون من معانيها، وقيل: الكتابُ الفرائض. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنَّة المُوحَاة وما يُؤَدِّي إليه اجتهادُه ﷺ المستند إليهما، على الصحيح، وهو أنَّه قد يجتهد، **أو الحكمة: معاني القرآن وغيرها.**

ووَسَّط بين التلاوة وبينهما ذكر التزكية مع تقدُّمهما في الوجود إشعارًا بأنّ كُلاًّ من التلاوة والحكمة وتعليم الكتاب نعمةٌ على حدة، ولو لم يوسِّط التزكية لربَّما تُوُهِّم أَنَّهنَّ نعمة واحدة، ولا تكرير بين التلاوة وتعليم الكتاب، لأَنَّها مجرَّد التبليغ، والتعليم معالجةُ أن يحفَظُوا أَلْفاظَ القرآن، والتعليم مترتِّب في الوجود على التلاوة.

والتزكية عبارة عن تكميل النفس بحسب قوَّتها العَمَلِيَّة، وتهذيبُها يتفرَّع على تكميلها بحسب القوَّة النَّظَرِيَّة، ويُعبَّر تارة بالقرآن وتارة بالكتاب، وتارة بالآيات، وتارة بالذكر مراعاة لمفهوماتها.

وجُوِّزَ كون الكتاب كناية عن جميع النقْليَّات، والحكمة كناية عن جميع العقليَّات، كالتعبير بالسماوات والأرض عن جميع الموجودات، وبالمهاجرين والأنصار عن جميع الصحابة. [قلت:] كما تذكر أئمَّة الصلاة في مضاب في أدعيتهم المهاجرين والأنصار ويحصل في أذهانهم العموم فيما أظنُّ.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ من خبث الإشراك وما دونه من المعاصي، والمكروهاتِ الكراهةَ الشديدةً، وسوءِ الأدب، فهم محتاجون جدًّا إلى ما يزيل عنهم ذلك الخبث.

والكلام في أصحاب الشرك فلا حاجة إلى أن نقول: المراد في الآية الأكثر، وأنَّه لا يرد إسلام ورقة بن نوفل ونحوه، على قول إسلامه.

(نحو) و«إِنْ» مخفَّفة من الثقيلة. واللام للفرق بين النفي والإثبات. ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطف على الأمِّيِّينَ، أي ﷺ بعث في الاميِّين وفي آخرين منهم، والهاء لـ الأمِّيِّينَ، و«منْ» للتبعيض لا للبيان، إلاَّ أن يسمَّى التفسير بالتبعيض بيانا، ولذا سمَّى بعض المحقِّقين

«مِنْ» هنا تبيـــينيَّة، فقال: «مِنْ» للتبيين. ويجوز العطف على هاء «يُعَلِّمُهُم»، لأنَّه ﷺ هو السبب في التعليم إلى آخر الزمان، وكأنَّه باشرهم بالتعليم.

﴿لمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ بالأمِّـــيِّين المذكورين فيما مضى، ولا في الحال، ولكن سيلحقون في الزمان المستقبل، لأنَّ «لَمَّا» لنفي ما يتوقَّع ثبوته، وهم التابعون وتابعو التابعين، وهكذا عربا وعجما مِمَّن دخل في الإسلام. والأمِّـــيُّون المذكورون أوَّلاً: قومه ﷺ ، وجنس الذين بعث فيهم، والمراد بالآخرين منهم: الآخرون منهم في العَرَبِيَّة والأمِّـــيَّة. وقيل: المراد بالآخرين منهم: آخرين منهم في كونهم أمِّـــيِّين لا يكتبون، عربًا أو عجمًا وبه قال مجاهد، واعترض بأنَّ العجم لا يكونون أمِّـــيِّين لكثرة الكتابة فيهم، وعن ابن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد: المراد العجم.

وقيل: المراد آخرون منهم في نسبهم إلى الأمَّة لا في كونهم لا يكتبون ولا يقرأون، كما مرَّ تفسير بعضهم الأمِّيين بذلك، فيشمل كُلَّ من يأتي، عربا أو عجما، لا يكتب أو يكتب، ويدلُّ لهذا قول أبي هريرة: «كنَّا جلوسا عند النبيء ﷺ حين نزلت سورة الجمعة وتلاها، ولَمَّا بلغ ﴿وَءَاخَرِينَ...﴾ قال رجل: يا رسول الله، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه، وقال: «**لو كان الإيمان بالثريَّا لناله رجال من هؤلاء**»[1].

وقيل: ما أشار إلى سلمان إلاَّ بعدما سأله الرجل ثلاث مرَّات: من هؤلاء؟ كما في الصحيحين، فأشار إلى فارس، وليسوا من العرب.

١-رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ...} رقم ٤٥١٨. ورواه **مسلم** في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس، رقم٤٦١٨، ورواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة محمَّد. من حديث أبي هريرة.

فيقال: ما معنى ﴿لَمْ يَلْحَقُوا﴾ وسلمان لحق رسول الله ﷺ وأصحابه؟ فيجاب بأنَّ المراد قومه الآتون بعد، وربَّما كان الحديث أيضا **تمثيلا بمن يأتي من العجم كالفرس والروم والبربر، والنسب إلى الأمَّة كما علمت** في ذلك القول، كما فسَّره ابن عمر بأهل اليمن، وابن جبير بالروم والعجم، تمثيلا لا تخصيصًا.

وقيل: لَمَّا يلحقوا بهم في الفضل لفضل الصحابة، ويردُّه أنَّه يلزم أنَّه سيأتي من يلحق بهم، لأَنَّ «لَمَّا» لنَفْي ما سيكون، فيجاب بما يُرْوى ـــ إذا صحَّ ـــ من أنَّه سيأتي من هو خير من أبي بكر وعمر، لأنَّهم لا يجدون أعوانا وأنتم تجدون أعوانا، ويروى: «**خير من سبعين من أبي بكر وعمر**» ولا ينافيه أحاديث قوله ﷺ لبعض الصحابة: «**لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبا ما بلغ مدَّ أحد الصحابة الأوَّلين**» ونحو هذا لأنَّه في الصحابة الآخرين في مقابلة الأوَّلين، وكلٌّ قد وجد أعوانا بخلاف من لا يجد بعدُ.

ولا نشكُّ في فضل الصحابة على غيرهم، إلاَّ أنَّه لا بأس بالتخصيص لهذا العموم بمن يتمسَّك بدينه إذا فسد الناس، وقاسى الأهوال على دينه.

وجاء أنَّه ﷺ قال: «**أمَّتي كالمطر لا يدرى أوَّله خير أم آخره**»[1]. وإمَّا أن يريد الأوَّل والآخر بعد الصحابة، وإمَّا أن يريد المبالغة في الخير، كقولك في ثوب جديد: لا يدرى أظاهرُهُ هُوَ أفْضَل أم بطانته، وإمَّا أن يكون لا يدري أوَّلاً وبعد ذلك درى بذلك التخصيص.

ويجوز عطف «ءَاخَرِينَ» على هاء «يُعَلِّمُهُم» فإنَّه ﷺ علَّمنا وزكَّانا بوسَائِط، وكأنَّه تولَّى تعليمنا بنفسه وتزكيتنا.

١- أورده العقيلي في الضعفاء: ج١، ص٣١٠.

﴿وَهُو الْعزِيزُ﴾ المبالغ في العزَّة ﴿الْحَكِيم﴾ المبالغ في الحكمة، فهو غالب لا يعجزه شيء، ولا يُرَدُّ عمَّا أراد، ولا يكون فعله أو قوله سفها ولا مختلاًّ، ولذلك قدَر أن يجعل رجلا أمِّـيًّا أفضل الخلق ورسولا إليهم كلِّهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور العالي الشأن مِنْ بَعْثِ الله رسوله ﷺ في الامِّـيِّين وتعليمه وتزكيته، وقيل: النبوءة، قلت: أو كلُّ ذلك. ﴿فَضْلُ اللهِ﴾ إحسانه جلَّ شأنه ﴿يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾ وليس لغيره ﷺ وغير أمَّته.

وإذا نزل عيسى عليه السلام جرى على القرآن والسنَّة، ومنها حينئذ أن لا تقبل جزية. والجملة مستأنفةٌ، أو خبر ثان، أو حال من «فَضْل». ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على الإِطْلاَقِ، هذا الفضل وغيره.

□ مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَيٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراًۢ بِيسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اِ۬للَّهِۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِے اِ۬لْقَوْمَ اَ۬لظَّٰلِمِينَۖ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمُۥٓ أَنَّكُمُۥٓ أَوْلِيَآءُ لِلهِ مِن دُونِ اِ۬لنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَۖ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَداًۢ بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالظَّٰلِمِينَۖ ۝٧ قُلِ اِنَّ اَلْمَوْتَ اَلذِے تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَيٰ عَٰلِمِ اِ۬لْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۖ ۝٨ □

حال اليهود مع التوراة والموت

﴿مَثَلُ﴾ أي: صفةُ ﴿الذينَ حُمِّلُواْ التَّورَيٰةَ﴾ اليهودُ الذين علَّمهم اللهُ التوراةَ وجعلَهُمْ حاملينَ لها بالقراءة والحفظ والكتابة.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بها، لم يحملوها حملَ عَملٍ ولا حمل رواية، وفيها رسالة محمَّد ﷺ وصفاتُهُ، وأسقطوها وغيَّروها. أو من الحَمَالَة، وهي

الضمانة، أي: ألزمهم أن يتكفّلوا بها. ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ جنس الحمار، كصفة الحمار. ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ كتبًا عظام الشأنِ والصورة، كما يدلُّ عليه التنكير، لم يعرفوا للتوراة حقًّا، ولا انتفعوا بها، كما هو شأن الحمار، وكأنَّهم لا يحتاجون إليها. واختار لفظ ﴿أَسْفَارًا﴾ تنبيها على أنَّها كتب تُسْفِرُ بالحقِّ وتوَضِّحُهُ.

(نحو) والجملة نعت «الْحِمَارِ»، ولو كان معرفة لشبْهه بالنكرة، لأنَّ تعريفه جنسيٌّ. وإن جُعِلَتْ حالا لم يوجد عامل في الحال، لأنَّ «مَثَلُ» بمعنى صفة، وعاملها عامل صاحبها، وعامل صاحبها هو «مَثَلُ» فتُكُلِّف بجَعْلِ الكاف زائدة لتأكيد التشبيه، وجَعْلِ «مَثَلُ» في الموضعين بمعنى مماثل، فيصلح للعمل في الحال. ونسب الإمامُ أبو حيان وجوبَ الحاليَّة للمحقِّقين مراعاةً للَّفظ المعرفة[1].

﴿بِيسَ﴾ أي: هو، أي: ذلك المثلُ المذكور، والمخصوص بالذمِّ هو قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الذينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ اللهِ﴾ أي: القرآن، وقيل: القرآن ومحمَّد ﷺ، وقيل: التوراة كذَّب اليهود بها إِذْ لَمْ يؤمنُوا بما فيها من محمَّد ﷺ وصفاته.

(نحو) واستِتَارُ فاعلِ باب «نِعْمَ» بلا تمييز جائزٌ، ودعوى أنَّ هناك تَمييزًا مُفسِّرًا للمستَتر بعيدٌ، كيف يكون المحذوف مفسِّرًا لِمَا لم يذكر؟!.

﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾ هذا عموم يشمل المذكورين بالأولى، لأنَّ الكلام عليهم، أو هم المراد. لم يضمر لهم ليصفهم بالظلم الموجب للخزي. قال ميمون بن مهران[2]: «يا أهل القرآن اتَّبعوا القرآن قبل أن يتبعكم»، أي:

١-أبو حيَّان البحر المحيط ج٨، ص٢٦٦.

٢-هو ميمون بن مهران الرِّقي أبو أيــُّوب، فقيه من القضاة. كان مولى لامرأة في الكوفة، أعتقته فاستوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة وسيِّدها، استعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها، شارك في فتوحات قبرص سنة ١٠٨هـ، وكان ثقة في =

يُحاسبكم، ثمَّ قرأ الآية.

﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الذينَ هَادُواْ﴾ انتسبوا إلى اسم اليهود، أو إلى يهوذا بن يعقوب، بألف بعد ذال معجمة حذفت وأبدلت الذال دالا مهملة.

﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ﴾أحبَّاء، كما يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَآؤُاْ اللهِ وَأَحِبَّآؤُهُ﴾ (سورة المائدة: ١٨) ، و﴿لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا﴾ (سورة البقرة: ١١١) . ﴿للَّه﴾ لم يضف فرقا بين مدَّعي الوَلاية بلا تحقُّق وبين من ثبتت له، كقوله تعالى: ﴿أَلآَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ﴾ (سورة يونس: ٦٢) . ﴿مِن دُونِ النَّاسِ﴾ سائر الناس، متعلِّق بمحذوف، حال من ضمير الاستقرار.

﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ من الله عز وجل ﴿الْمَوْتَ﴾ لكم بأن يُميتكم لتلْقَوا حَبيبَكُم ويُثيبكم، وتنتقلوا من دار الكدر إلى دار الصفاء. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أنَّكم أولياء الله عز وجل .

(سبب النزول) وَلَمَّا ظهرت رسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر: إن اتَّبعتم محَمَّدًا أطعناه، وإن خالفتموه خالفناه، فقالوا: نحن أبناء خليل الرحمن، ومنَّا عزَيْر ابن الله والأنبياء، وفي أيِّ زمان كانت النبوءة في العرب؟ نحن أحقُّ بالنبوءة من محمَّد، ولا سبيل إلى اتِّباعه، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الذينَ هَادُواْ...﴾ الآية.

(بلاغة) وإن قلت: تحقَّق عند الله أنَّهم زعموا فما وجه «إِنْ» الشَّكِّيَّة ؟ قلت: وجهها أَنَّ زعمهم أمرٌ باطلٌ بعيدٌ حتَّى كأنَّه ممَّا يشكُّ فيه هل وقع.

=

الحديث. تُوُفِّيَ سنة ١١٧هـ. الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٤٢.

﴿**وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ, أَبَدًا**﴾ أي: ما داموا أحياء، وهذا معنى الأبديَّة، وهذا إخبار من الله ﷻ بأَنَّ هؤلاء المخَاطبين خصوصًا لا يتمنَّونه، قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلاَّ غصَّ بريقه**»[1] فلم يتمنَّه أحد منهم لأَنَّهم أيقنوا بصدقه ﷺ ، ولو تمنَّوه ولو بألسنتهم فقط لَماتُوا في حينهم، وذلك معجزة له ﷺ ، ولولا ذلك لقالوا ليظهروا أنَّه كاذب حاشاه. وفي آية أخرى: ﴿وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ﴾ (سورة البقرة: ٩٥) .

(أصول الدين) لَمَّا تعاقبت «لَنْ» و«لاَ» على معنى واحد علمنا أنَّ «لَنْ» لا تفيدُ التأبيد، كما لا تفيده لا، والتأبيد حيث أثبتناه مستفادٌ من خارج، كاستحالة رؤية المخالف للحوادث سبحانه أن تراه الحوادث. والتأبيد منسوب لـ«لَنْ» على خلاف الأصل لاَ لـ«لاَ» فلا نَرُدُّ «لاَ» إِلَى «لَنْ» في التأبيد، فالنفي تارة بـ«لاَ» وأخرى بـ«لَنْ» تفنُّنٌ. وعلى تسليم أنَّ «لَنْ» للتأبيد فإِنَّما كانت هنالك لأَنَّهم ادَّعوا الاختصاص من دون الناس في الموضعين، وزادوا هنالك أَنَّه أمر مكشوف عند الله ﷻ لا شُبهَةَ فيه، فناسب التأكيد بـ«لَنْ».

﴿**بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ**﴾ بسبب ما قدَّمته أيديهم، أي: بسبب كفرهم. وأسند التقدُّم للأيدي لأَنَّ أكثر الأعمال تعمل بها. والباء متعلِّق بـ«لَنْ»، لأنَّ المعنى: انتفى التمنِّي بسبب كفرهم، كما علِّقت الباءُ ـــ عند بعضٍ ـــ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (سورة القلم: ٢) بـ«مَا». وبعض يقدِّر العامل من معنى «لَنْ» في ذلك، مثل: انتفى التمنِّي بما قدَّمت أيديهم.

﴿**وَاللهُ عَلِيمُۢ بِالظَّالِمِينَ**﴾ عمومًا، ومنهم هؤلاء المخاطبون، أو بالظالمين المخاطبين، عبَّرَ عنهم بالظاهر ليصفهم بالظلم الكامل الشامل

١-أورده **الألوسيُّ** في تفسيره، مج١٠، ص٩٦. بدون تخريج.

لأنواعٍ من الظلم، ومنها ادِّعاؤهم أنَّهم أولياؤُهُ تعالى، وغير ذلك ممَّا مضى وما يأتي.

﴿قُلِ انَّ الْمَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ إذْ لَمْ تَستَعِدُّوا لَهُ وَأَهْلَكْتُمْ آخِرَتَكُمْ بدنياكم. ﴿فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾ لا محيد لكم منه، والخطاب لليهود. والموت الذي فرُّوا منه هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾.

(نحو) والفاء صِلةٌ في خبر المبتدأ الذي هو اسم «إِنَّ»، لأنَّه منعوت بالموصول، فكأنَّه موصول، والموصول تزاد الفاء في خبره، ولكن إذا أشبه اسم الشرط في العموم، ولا عموم في الموت الذي يفرُّون منه، فإمَّا أن يُعتبر أنواعٌ من الموت مَهُولة عليهم ــ لعنهم الله ــ وإمَّا أن تكون في خبر المبتدأ، لا لشبهِ اسمِ الشرط، كما أجاز الأخفش زيادتها في الخبر مطلقًا، نحو: زيد فقائم، ويدلُّ له قراءة زيد بن عليٍّ[1]: «إِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ» بلا فاء، وابن مسعود: «الذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلاَقِيكُمْ». أو «الذِي» خبر «إِنَّ» لا نعتٌ.

(فقه) وفي الآية مناسبة لتحريم الفرار من الطاعون، وهو كبيرة كالفرار من الزحف، كما قالت عائشة والأكثرون، وكرهه مالك، وأجازه عمرو بن العاص وأبو موسى والمغيرة وعمر بن الخطَّاب، قال عمرو بن العاص: الطاعون كالسيل من تنكَّبه أخطاه وكالنار من تنكَّبها أخطاها، ومن أقام أحرقته، وإنَّه رجس فتفرَّقوا منه في الشعاب والأودية[2].

١- زيد بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب، الإمام، أبو الحسين العلويُّ الهاشميُّ، وهو: «زيد الشهيد» ولد سنة ٧٩هـ بالكوفة، وتفقَّه على يد واصل بن عطاء المعتزلي... طارده الأمويُّون في زمان هشام بن عبد الملك إلى أن استشهد في الكوفة سنة ١٢٢هـ... وتنسب إليه فرقة الزيديَّة من الشيعة. وإليه ينسب كتاب: «مجموع في الفقه». الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٥٩.

٢-وهذا ما تثبته تحقيقات الطبِّ الحديث.

ويقال: لا بأس بالخروج مع اعتقاد أنَّ كُلَّ شيء بقضاء وقدر، ومن اعتقد أنَّ الفرار منج والقعودَ مُهلك هكذا أخطأ. وجاز الخروج لعارض شُغل، أو للتداوي من علَّة طعن فيها. وجاز الفرار من الوباء والحمَّى والجذريِّ ونحوه، وليحذر في ذلك كلِّه أن يُقال: لو خرجتُ لَسَلَمْتُ، أو لو قعدتُ لأصابني ذلك، وقد مرَّ ﷺ بحائط مائل فأسرع.

﴿ثمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وسائر المعاصي تنبئةَ مجازاةٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾

وجوب صلاة الجمعة، وإباحة العمل بعدها

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ للصَّلَوٰةِ مِنْ يَّوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ يكفي أذان واحد، كما كان لرسول الله ﷺ مُؤذِّن واحد يؤذِّن على باب المسجد إذا جلس ﷺ على المنبر لكثرة النَّاس، وإذا نزل عن المنبر أقام المؤذِّن الصلاة، وكذا أبو بكر وعمر، وَلَمَّا كان عثمان جعل مؤذِّنا على داره المسمَّاة بالزوراء، وزاد مؤذِّنا ثانيا إذا جلس على المنبر، وإذا نزل عن المنبر أقام الثاني الصلاة.

(فقه) والمعتبر هو الأذان الأوَّل للأحْكَامِ، كَوُجُوبِ السَّعي، وحِرْمة البيع، وهذا هو الحقُّ، ولا وجه لإلغاء الأوَّل مع أنَّه العمدة، والمتبادر من الآية وغيرها. وإنَّما نرى الثاني المحدَث كالتأكيد له، كالإقامة تأكيدا للأذان، ولأنَّه لم يوجد على عهده ﷺ والخليفتين بعده إلاَّ واحد، فهو الأذان المأمور به وليس بثانٍ.

والذي بين يدي المنبر على عهده ﷺ هو الإقامة لا أذان ثان، ولَمَّا كثر الناس في زمان الإمام عثمان زاد نداء ثانيا على الزوراء، فثبت الأمرُ على ذلك. والزوراء: موضع مرتفع كالمنارة عند سوق المدينة قريب من المسجد.

(نحو) و«مِنْ» بمعنى في، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الاَرْضِ﴾ (سورة الأحقاف: ٤) ، أي: هل في الأرض، على أحد أوْجُه. ومن العجيب جعلها تبعيضيَّة، وجعلها لبيان «إِذَا»، ولم يسمع بيان «إِذًا» قَطُّ بـ«مِنْ» ولا تعقُّبها بالبعضيَّة. ولا يخبر على «إذا» بأنَّه يوم الجمعة. وإذا جعلت «مِنْ» لبيان «إِذَا» فكأنَّه أخبر عن «إِذَا» بأنَّه يوم الجمعة، والجمعة عَلَمٌ لليوم المخصوص، فالإضافة للبيان على أنَّ لفظ «الجمعة» وحده يُطلق عليه ولو بلا ذكر «يَوْم»، كما عليه جمهور أهل اللغة، وتسميته متقدِّمة على نزول الآية، وهو اسم جنس يقرن بـ«الْ» ولا يقرن، وقيل: لازمة، والأوَّل أصحُّ.

(لغة) ومعنى الجمعة (بضمِّ الميم) هو معنى الجمعة بإسكانها، كما قرأ به عبد الله بن الزبير بن العوَّام، وزيد بن عليٍّ، وهو رواية عن أبي عمرو بالإسكان، وهو المجموع فيه، كالضُّحْكَة (بضمٍّ فإسكان) بمعنى المضحوك منه، وهما وصْفٌ، أوْ هُما مصدرٌ بمعنى الاجتماع، وكلٌّ ذلك في الأصل.

(سيرة) قال الأنصار قبل الهجرة وقبل نزول السورة: «لليهود يومٌ، وللنصارى يومٌ، فتعالوا نجعل لنا يوما نجتمع فيه ونذكر الله عز وجل» فاجتمعوا إلى

أسعد بن زرارة فجعلوه يوم الجمعة، فصلّى بهم ركعتين، ووعظهم، وذبح لهم شاة تغدَّوا وتعشَّوا بها، وذلك في قرية على ميل من المدينة فسمَّوه بذلك يوم الجمعة، وقيل: سُمِّيَ لاجتماع الناس فيه للصلاة جماعات.

(سيرة) وأوَّل جمعة صلاَّها رسول الله ﷺ بأصحابه لَمَّا هاجر نزل على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثني عشرة مضت من ربيع الأوَّل، حين امتدَّ الضحى، فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسَّس مسجدهُم، وخرج منهم يوم الجمعة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واديهم، وخطب وصلّى الجمعة، واتَّخذ فيه مسجدًا، أعني أنَّ ذلك الموضع الذي فيه اتَّخذه مسجدًا وعرفه النَّاس وقصدُوه، ويأتي ذلك قريبا.

وقيل: أوَّل من سمَّاها كعب بن لؤي، وقيل: ذلك يسمَّى عَروبة، ويوم عَروبة، ويوم العروبة، والأفصح ترك «ال». وعروبة سريانيٌّ عُرِّب، ومعناه: الرحمة، والعجميُّ لا تدخله «ال» إلاَّ للمح الأصْل، كَسَلُوقين بمعنى أشقر أبيض، فتدخل «الْ» لهذا المعنى.

وقيل: سمِّي لأنَّه اجتمع فيه آدم وحوَّاء، وفي الحديث: «**سمِّي لأنَّه جمعت فيه طينة آدم**»[1]. وعبارة بعض: اجتمع فيه خلق آدم، وظاهره أنَّه تمَّ فيه جسده، وقيل: لأنَّه اجتمع فيه الخلق كلُّهم، أي: تمَّ، وآخرهم آدم.

وقال عبد الرحمن بن كعب بن مالك: قلت لأبي: لماذا تترحَّم على أسعد بن زرارة كلَّما سمعت الأذان يوم الجمعة ؟ فقال: لأنَّه أوَّل من جمَع بنا في نقيع الخضمات من حرَّة بني بياضة، فقلت: كم أنتم يومئذ؟ فقال: أربعون، كما في أبي داود، وبعد ذلك نزل فرضها وشرطُها وكيفيَّــتُها، ولم يكن أسعد ومن

١- رواه **أحمد** في مسنده، باب مسند أبي هريرة، ج٢، ص٥٩٩، رقم: ٨٠٤١ ، من حديث أبي هريرة.

معه يصلّون الخمس، ونزلت في مَكَّة، وأقيمت في المدينة حين هاجر، وقيل: في العام الثاني، وقيل: في العام العاشر، عشرة أقوال.

واختير أنّها في السادس، وأوَّل من أقامها على كيفيَّتها النبيء ﷺ في المدينة، خطب وقال: «**فرضت في مقامي هذا ولا شيء من أمور الفرض والنفل لمن لم يقمها، ومن تَاب مِن تركها تاب الله عليه**»[1]. وأوَّل من صلاَّها قبله من الصحابة على وجهها مصعب بن عمير، أوَّل من هاجر وأقامها هُو وأصحابُه، وهو وهم اثنا عشر رجلا، وذلك على غير وجوب، لقوله ﷺ: «**فرضت في مقامي هذا**». وقيل: صلاَّها لقوله ﷺ: «**اجمع الأولاد والنساء وصلِّ بهم الركعتين يوم الجمعة**» يعني اِجْمَعْ كلَّ من قدرت عليه، وقد فرضت في مكَّة و لم يقدر عليها إلاَّ في المدينة، ولا يخفى أنَّ الإسلام يذكر في المدينة قبل العقبات فلا مانع من أنَّ الأنصار فيهم من يصلِّي الخمس ويصلِّي الجمعة، كما جاءه عن النبيء من مكَّة إذ يذكرها من غير أن تفرض عليهم حتَّى يهاجر.

(فقه) ﴿**فَاسْعَوا**﴾ من حيث يسمع النداء ويدرك الصلاة ماشيا، عند ابن عمر وأحمد، وعن ابن عمر وأبي هريرة: من ستَّة أميال، وقيل: من خمسة، وقيل: من أربعة، وقال مالك: من ثلاثة، وقال أبو حنيفة: من المصر الذي فيه الأذان، ولو كان لا يسمع الأذان، لا من خارج ولو كان يسمع إلاَّ إن يشاء.

و في أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: «**الجمعة على من سمع النداء**»[2]. ولا يخفى أنَّه تلزم الأصمَّ إذا كان في موضع

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب إقامة الصلاة والسنَّة فيها، باب في فرض الجمعة، رقم: ١٠٨١ ، من حديث جابر.

٢- رواه **الترمذيُّ** في كتاب أبواب الوتر، باب ما جاء في كم تؤتى الجمعة، رقم: ٥٠ ، من حديث شوير عن أبيه.

يسمع الأذان فيه غيرُه. وقالوا: يعتبر صوت مؤذّن جهور الصوت في وقت تكون الأصوات هادئة، والرياح ساكنة، وقيل: تجب على من آواه الليل.

(فقه) ولا يجوز أن يسافر الرجل يوم الجمعة بعد الزوال قبل أن يصلّي الجمعة، وقيل: يجوز إذا كان يفارق البلد قبل خروج الوقت، وإذا سافر قبل الزوال فلا بأس، إلاّ أنّه يكره إذا طلع الفجر، إلاّ إن خرج لطاعة كحجٍّ وغَزْوٍ. وقيل: لا يجوز بعد الفجر.

وسمع عمر رجلا يقول: لولا أنّ اليوم يوم الجمعة لسافرت، فقال: سافر فإنّ الجمعة لا تحبس عن سفر. كذلك يدلُّ على الجواز ما رواه الترمذيُّ أنّه ﷺ أمَّرَ عبد الله بن رواحة على سريَّة فصلّى الجمعة معه ﷺ فقال له ﷺ: ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟ قال: أريد أن أصلّي الجمعة معك، ثمّ ألحقهم، فقال: «**لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوهم**»[1]، إلاّ أنّ الحديث في السفر للطاعة.

﴿**إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ**﴾ أي: إلى الصلاة، أو وعظ الإمام، أي: أسرعوا إليه بقلوبكم ناشطةً حريصة ونيةٍ وخشوعٍ.

وأمّا المشي فمتوسِّط، وقد جاء في الحديث ذكر المشي في شأن الصلاة عموما بأنّه بلا إسراع، قال البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأْتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة، وما أدركتم فصلّوا وما فاتكم فأتمّوا**»[2].

١- رواه **الترمذيُّ** في كتاب الصلاة (٢٨٠) باب ما جاء في السفر يوم الجمعة، رقم: ٥٢٧ ، من حديث ابن عبَّاس.

٢- رواه **البخاريُّ** في كتاب الأذان (٢٠) باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم: ٦٣٥ و٦٣٦ ، =

والسعي في الآية مجاز عن الحرص والرغبة بالقلوب، لعلاقة الشبه بالمشي بالأرجل، أو لعلاقة اللزوم والتسبُّب. وفي رواية: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة، إنَّ أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في الصلاة**»[1]، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ (سورة الصافّات: ١٠٢) ، أي: المشي.

وكان عمر يقرأ: «فَامْضوا إلى ذكر الله»، ولعلّها قراءة تفسير، قال الحسن: والله ما هو بإسراع بالأقدام بل بالقلوب، والسنَّة المشيُ إلاَّ لبعد أو ضعف.

[قلت:] وغيرنا يخطئون جمعتهم برفع الأيدي وأخذ الأيمن على الشمال لأحاديث وضعها أوائلهم أو غيرهم، وَهبْ أنّها صحَّت عنه ﷺ لكن فعل ذلك لداع، مثل أن يقع سلاح من تأبَّطَهُ للشرِّ، وهل يصحُّ أنَّه أدام ﷺ ذلك كما يديمه هؤلاء؟ ولو أدامه لَشُهِرَ ولم يُختَلَف فيه، وكذا يفسدون سائر صلواتهم.

وذِكْر الله: الخطبةُ، وقيل: الصلاة، ورجَّح بعضهم الأوَّل، والأولى أنَّه الخطبة والصلاة معًا، وليست الصلاة كلُّها ذكر الله، فذلك تسمية للكلِّ باسم البعض، وكذا الخطبة، أو المراد بالذكر ما يَدُلُّ على الله، ويستعمل في شأنه، فذلك مجاز لغويٌّ حقيقة عرفيَّة خاصَّة. ويكفي القليل من الذكر في الخطبة كالحمد والصلاة والسلام.

(فقه) وهي واجبة كما في الحديث[2] إلاَّ على الصبيِّ والمرأة والمريض

=

من حديث ابن أبي قتادة عن أبيه.

١- رواه **مسلم** في كتاب المساجد (٢٨) باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا، رقم: ١٥٢ ، من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة باب من تجب عليه الجمعة، رقم: ١٠٥٦ ، من حديث ابن
=

والمملوك، كما رواه أبو داود مرفوعا عن طارف بن شهاب. وقيل: تجب على العبد، وبه قال الحسن وقتادة والأوزاعيُّ، ولا تجب على مسافر، كما روي أنّه ﷺ سافر و لم يصلّها، كما في زمان فتح مكّة، ولكن تجوز له.

(سيرة) كما روي أنّه نزل في أهل قباء على بني عمرو بن عوف وأقام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسَّس مسجدهم، وخرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلّى الجمعة، وهي أوَّل جمعة صلاَّها.

(فقه) وتجب بثلاثة وإمامٍ رابع، ونسب لأبي حنيفة، وروي قديما للشافعيِّ، وهو الواضح، وقيل: على اثنين أحدهما إمام، وقيل: ثلاثة أحدهم الإمام، ونسب لأبي يوسف ومحمَّد، وروي قديما للشافعيِّ، أو بسبعة، أو تسعة، أو اثني عشر، أو ثلاثة عشر، أو عشرين ونسب لمالك، أو ثلاثين وهو رواية عن مالك، أو أربعين وهو جديد الشافعيِّ، وهو ما في مصر إذ هرب إليها، وقديمه ماله في بغداد قبل الهروب.

(فقه) **[شروطها]**: ومن الأربعين بُلَّغ أحرار ذكور عاقلون مقيمون في موضع لا يظعنون شتاء ولا صيفا إلاّ ظَعَنَ حاجة. زاد عمر بن عبد العزيز: أن يكون فيهم والٍ. وعن عليٍّ: لا جمعة إلاّ في مصر جامع. ولم يشترط الشافعيُّ الوالي. وقال أبو حنيفة: تنعقد بأربعة والوالي شرط. وقال الأوزاعيُّ وأبو يوسف: بثلاثة إذا كان فيهم وال. ولا تَصِحُّ إلاّ في موضع واحد، وقال أحمد: تَصِحُّ في موضعين، إذا كثر النّاس وضاق الجامع وشهر عن أحمد. أو

=

عمرو. وفي كتاب الصلاة أيضًا باب الجمعة للملوك والمرأة. رقم: ١٠٦٧ من حديث طارق بن شهاب.

خمسين، أو ثمانين، والإمام في ذلك كلِّه واحد من العدد. وزعم القاشاني[1] أنَّه تصحُّ برجل وحده، وهو قول ساقط.

(فقه) وهي خلف الإمام العدْلِ، أو خلف من أَمَرَهُ الإمام بإقامتها. وأقول بوجوبها خلف الإمام الكبير الجائر إذا كان حريصا على إقامة دين الإسلام، ولم يدخل فيها ما يبطلها. ويجزي في الخطبة حمد الله تعالى والصلاة والسلام على نبيئه ﷺ، ويوصي بتقوى الله تعالى. والخطبة واجبة لا تَصِحُّ الجمعة إِلاَّ بها وهي قائمة مقام الركعتين. وقال داود الظاهري: مستحبَّة.

(فقه) ﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿الْبَيْعَ﴾ المعاملة بالمال، ولو إجارةً أو شراءً أو سَلَمًا أو عقد الرهن وغير ذلك، وذلك إطلاق للخاصِّ على العامِّ، وقيل: المراد البيع والشراء وأمَّا غيرهما فبالسنَّة، ويحتمل أن يكون عبارة عن كُلِّ شاغل، كإطلاق الأكل على مطلق الإتلاف، فيحرم كلُّ مباح شاغل، والأمر للوجوب. وعن عطاء: شملت الآية أن يأتي الرجل أهله، وأن يكتب كتابا.

(فقه) وزعم بعض أنَّ الأمر في الآية للتتريه، وهو خطأ، وإن وقع بيع أو غيره من العقود صحَّ وعصى متعمِّده، وقيل: فسق، وقيل: بطل العقد، وعليه ابن العربي. وإن نسيا أو لم يسمعا الأذان أو لم تلزمهما صحَّ، ويستمرُّ التحريم من الأذان الأوَّل على الصحيح، وقال الزهريُّ: من الأذان الثاني، وقيل: من أوَّل وقت الزوال الذي هو أوَّل وقت الصلاة، ولو قبل أن يؤذِّن، والأذان إنَّما هو

١- القاشاني: هو عبد الرزَّاق جمال الدين بن أحمد بن أبي الغنائم محمَّد الكاشي أو الكاشاني أو القاشاني، صوفيٌّ، مفسِّر، له كتاب: «السراج الوهَّاج في تفسير القرآن». وكتاب: «تأويلات القرآن». تُوُفِّيَ سنة ٧٣٠هـ في دمشق. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣٥٠.

لأوَّل الوقت، وهو قول الحسن.

(فقه) ولا يحرم البيع على من لا تلزمه كما مرَّ، خلافا لما روى عبد الرحمن بن القاسم[1] أنَّ أباه القاسم دخل على أهله وعندهم عطَّار يبايعونه، وذهب ووجد الإمام قد فرغ من الصلاة، فرجع إليهم فقال لهم: البيع منتقض، قلت: لعلَّه انتقض لأنَّ البائع قد لزمته الجمعة ولو لم تلزم النساء والخدم والأطفال من أهله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ذلكم المذكور من السعي إلى ذكر الله وترك البيع. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دنياكم وأخراكم من مصالح الدنيا، فإنَّ خير الآخرة أعظم في نفسه، وأكثر أفرادًا وأبقى، وكثيرًا ما يفضَّل الفرض على المباح وعلى المحرَّم، فلا يقال: لَمَّا عُلِمَ التفضيلُ على الأمر الدنيويِّ علمنا أنَّ الأمر للندب.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعرفون حقيقة الخير والشرِّ، أو إن كنتم من أهل العلم، على تنزيل المتعدِّي منزلة اللاَّزم، علمتم خيريَّة السعي وترك البيع.

ومن خيريَّتهما ما روي عن أبي بردة أنَّ وقت الإجابة وقت قيام الإمام في الصلاة حتَّى يسلِّم، وقال الحسن: وقت الإجابة وقت زوال الشمس، وقال الشعبيُّ: وقت تكبير الإمام تكبير الإحرام إلى أن يسلِّم، وعن عائشة: وقت الأذان، وعن كثير بن عبد الله المزني: وقت إقامة الصلاة، وعن مجاهد: بعد العصر. وشُهِرَ إخفاؤُها [أي وقت الإجابة].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ﴾ أتِمَّت وفُرِغَ منها. ﴿فَانتَشِرُواْ فِي الْأَرْضِ﴾

١-عبد الرحمن بن القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصدِّيق، أبو محمَّد، من سادات أهل المدينة فقها وعلما وديانة وحفظًا للحديث وإتقانا. تُوُفِّيَ بالشام سنة ١٢٦هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣٢٢.

إباحةً للانتشار بعدما منعوا منه بالحشر إلى الصلاة.

[قلتُ:] لا إيجابًا، لجواز البقاء في المسجد بعد الصلاة، ولا ندبًا إجماعا فيما قيل، وليس كذلك، أعني لا إجماع، فقد قال السرخسيُّ[1]: إنَّ بعضا قال: بوجوب الانتشار، وإنَّ بعضا قال: بالندب.

[قلت:] وجههما أنَّ في الخروج من المسجد زيادة بيان إقامة الجمعة، قال عبد الله بن بسر الحراني: رأيت عبد الله بن بسر المازني صاحب النبيء ﷺ إذا صلَّى الجمعة خرج فدار في السوق ساعة، ثمَّ رجع إلى المسجد فصلَّى ما شاء الله تعالى أن يصلِّي، فقيل له: لماذا تفعل ذلك؟ فقال: لأنِّي رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، وتلا الآية.

قال سعيد بن جبير لابن المنذر: إذا فرغت من صلاة يوم الجمعة فاخرج إلى باب المسجد فساوم الشيء، وإن كنت لا تشتريه، وارجع إلى المسجد، فالخروج مندوب إليه، كما روي أيضا عن سعيد بن جبير وهو ظاهر الآية، وموافق للسنَّة والأثر، وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا قبل الصلاة وبعدها ولا تقتصروا على الصلاة. ولا ذِكْرَ حَالَ الخطبة إلاَّ الاستماع لها.

﴿**وَابْتَغُوا**﴾ اطلبوا ﴿**مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾ إباحة للبيع بعد المنع عنه، فالمراد بفَضْلِ الله فضلُهُ الدنيويُّ، وعن الحسن: المراد طلب العلم، وعن ابن عبَّاس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنَّما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله تعالى، وكذا روي عن أنس عن رسول الله ﷺ، ومراده ﷺ ومراد الحسن

١- السرخسي: هو عبد الرحمن بن محمَّد بن محمَّد، أبو بكر، فقيه حنفيٌّ، من أهل سرخس، انتقل إلى خورسان، وولي قضاء البصرة مرَّتين، من كتبه: «تكملة التجريد» للكرماني في الفقه. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣٢٦.

وابن عبَّاس التمثيل بما ذكر من العبادة.

وشهر أنَّ الأمر بعد النهي للإباحة، ولا يتعيَّن هذا إلاَّ أنَّه ﷺ فسَّرَهُ بالعبادة لا بإباحة ما نُهي عنه من البيع، لكن لا مانع من تفسير البيع بمطلق الشاغل عن السعي إلى الجمعة، ولو كان الشاغل عبادة، كما أطلق الأكل على مطلق الإتلاف، فيكون قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا﴾ لإباحة سائر العبادات بعدما نُهوا عنها بعد الأذان، وإباحة سائر المباحات.

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تَفُوزُونَ بثواب الذِّكر الكثير في الدنيا والآخرة، وبثواب سائر الأعمال الصّالحة.

(سبب النزول) قال البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ عن جابر بن عبد الله: بينما النبيء ﷺ يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت عير المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتَّى لم يبق منهم إلاَّ اثنا عشر رجلا، أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً اَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾** إلى آخر السورة، وفي بقاء اثني عشر وهو واقعة حال مناسبة لقول من قال: تتمُّ الجمعة باثني عشر، لكن ليس في هذا دليل على أنَّ أقلَّ منها لا يجزي، وفي رواية ابن عبَّاس: بقي في المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة، وقيل: إلاَّ اثنا عشر رجلا وامرأة، وفيهم عمر وأبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: «لو خرجوا كلُّهم لاضطرم المسجد عليهم نارا»[1]، وعن قتادة: «لو اتَّبع آخركم أوَّلكم لالتهب الوادي عليكم نارا»[2].

وقيل: لم يبق إلاَّ أحد عشر رجلا، قال غالب بن عطيَّة فيما رواه بعضهم:

١- أورده الألوسيُّ في تفسيره: مج ١٠، ص١٠٤، وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عبَّاس.
٢- أورده الألوسيُّ في تفسيره: مج ١٠، ص١٠٥. بدون تخريج.

العشرة المبشَّرون بالجنَّة وعمَّار، وفي رواية: العشرة المبشرة وابن مسعود، وفي رواية ذكر جابر بن عبد الله وبلال، وفي رواية ذكر بلال وابن مسعود، دون جابر، وقيل: لم يبق إلاَّ ثمانية وقيل: بقي أربعون.

ومعنى اضطرام المسجد عليهم نارًا اضْطِرامُه لأجلهم نارًا، وكذا اضطرام الوادي، فَـ«علَى» للتعليل، وذلك دليل سوء إذا هدم المسجد لأجلهم نارا ولم يقبل بناؤه عنهم، وإذا اضطرم بطن واديهم نارا انتقاما، أو يحرقهم الله في الوادي، أو يردُّهم الله عَزَّ وَجَلَّ إلى المسجد فيحرقه عليهم عقابا، فتكون «على» للاستعلاء.

وذلك أنَّه أصاب أهل المدينة جوع وغلاء، وخرجوا للعير، وهي لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تحمل طعاما، وقيل: لدحية بن خلف الكلبيِّ، وكان أهله يتلقَّونه بالدفوف إذا قدم، وتخرج إليه العواتق، ويضرب الدفُّ ليحضروا للشراء منه، إذ يقدُمُ بزيت ودقيق وغيرهما، وينزل عند أحجار الزيت بالمدينة، وهو مكان في سوق المدينة.

وفي هذه الرواية أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدِّم الصلاة على الخطبة وقد صلَّى، وجاء رجل يقول: إنَّ دحية قد قدم فخرجوا يظنُّون أنَّه لا يجب الاستماع للخطبة، وقد صلَّوا الجمعة، وبعد ذلك كان يقدِّم الخطبة.

[قلت:] وهذا غير معروف، والمعروف أنَّه لم يقدِّم الصلاة عليها قطُّ، وإنَّما يقدِّم الصلاة في العيدين.

والانفضاض: الافتراق، والضمير في «إِلَيْهَا» للتجارة، وخصَّها بالإضمار لأنَّها المقصودة بالذات، واللَّهْو تابع لها، كما مرَّ أنَّهم يستقبلون دحية إذا قدم بالتجارة بالدفوف.

وهذا إنَّما يناسب قدومه لا قدوم عير عبد الرحمن بن عوف، اللهمَّ إلاَّ أن يكون تستقبل بالدفوف أيضا أو بغيرها، أو يقال: بالحذف، تقديره: أو إليه، بأن

ينفضُّوا تارة للتجارة وتارة للّهو بلا تجارة.

وإنَّما لا يحتاج إلى تقديرٍ بعْدَ «أَوْ» إذا صلح المذكور لهما على البدليَّة، نحو: زيدٌ أو عمرو قائم، فإنَّ لفظ «قائم» لائق بكلٍّ، وأمّا إذا لم يصلح لهما فلا بدَّ من التقدير، مثل ما هنا، فإنَّ لفظ «إِلَيْهَا» لا يصلح للّهو. ويجوز تأويل التجارة واللّهو بالخصلة، أو بنحو ذلك من المفردات المؤنَّثة، فيصلح ردُّ الضمير إليها شاملة لهما شمولا بدليًّا. قدَّم التجارة لأنَّها الغرض الأهمُّ لهم، وأمَّا اللّهو فتابع كما علمت، وأُخِّرتْ في التفصيل بعدُ لتقع النفس أوَّلاً على ما هو أذَمُّ ومحرَّم مطلقا، ولو في غير صلاة الجمعة.

﴿**وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا**﴾ على المنبر، كان الواجب أن يمكثوا حتَّى تتمَّ الخطبة ويصلُّوا، فبعد ذلك لست قائما على المنبر.

(**فقه**) والآية على أنَّ الخطيب يكون على المنبر قائما لا قاعدا، وأوَّل من قعد فيه معاوية، وذلك لعجزه عن القيام. وسئل ابن مسعود وابن سيرين وأبو عبيدة هل كان رسول الله ﷺ يخطب قائما ؟ فقالوا: أَمَا تقرأ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ ؟. وكان عبد الرحمن بن الحكم يخطب قاعدا فدخل كعب بن عجرة فقال: انظروا هذا الخبيث يخطب قاعدا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾.

وقال أبو حنيفة: لا يشرط قيام ولا قعود، وكذا قال أحمد، وقيل: أوَّل من استراح في الخطبة عثمان، والمراد استراحة غير الجلسة التي رويت عنه ﷺ «**أنّه كان يخطب خطبتين يجلس بينهما**»[1] رواه البخاريُّ ومسلم

١- رواه **البخاري** في كتاب الجمعة (٣٠) باب القعدة بين الخطبتين يوم الجمعة، رقم: ٩٢٨. **ومسلم** في كتاب الجمعة (١٠) باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة، رقم: =

والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه عن ابن عمر، وكذا أبو بكر وعمر لهما جلسة بين الخطبتين.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً...﴾ الخ أَنَّهُم فعلوا ذلك مرارًا، روى البيهقيُّ عن مقاتل أنَّهم فعلوه ثلاث مرَّات.

[قلت:] لا يصحُّ ذلك ولا دليل عليه، و لم يتبيَّن ذلك، ولو كان لَـبُـيِّنَ، بلْ كثيرًا مَّا يذكر الله تعالى ما وقع أو يقع مرَّة واحدة بلفظ يفيد التكرير، وبيان ذلك أنَّه من فتح باب فعل ففتحُه فتحٌ للتعدُّد، ولو لم يتعدَّدْ.

(فقه) وإذا افترق الناس عن الإمام وبقي معه اثنان أتمَّها جمعة اعتبارًا لبقاء حكم المبدإ للآخر، ولَمَّا صحَّت أوَّلا انسحبت الصحَّةُ للآخر. وقيل: إن بقي معه ثلاثة، وقيل: إن بقي أربعون.

(فقه) والجامع **أنَّه إنْ بقي معه قدر ما تتمُّ به وتجب على الأقوال** السابقة في أقلِّ ما تنْعَقِدُ به فيتمُّها جمعة، وإن بقي أقلُّ نَقَضَهَا واسْتأْنَفَها أربع ركعات، فقيل: إذا خرج على قدر ما يجزي ولو نقضوا قبل قراءة الفاتحة، وقيل: إن أتمُّوا معه ركعة، وقيل: إن ركعوا، وقيل: إن قعدوا في التحيَّات بعد قعود، وقيل: أتمُّوا التحيَّات، وقيل: إن وصلوا منها إلى الطيِّبات، وقيل: إن سلَّموا، وبعض هذه الأقوال مستخرجة.

﴿**قُلْ مَا عِندَ اللهِ**﴾ من الثواب على استماع الخطبة والصلاة في الدنيا والآخرة. ﴿**خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ**﴾ اعتبر ما تحصل للنفس من منفعة دُنَيَوِيَّة مُضْمَحِلَّة من اللَّهو، وما تحصل من منفعة التجارة، فَحَصل التفضيل.

=

٣٣ (٨٦١)، من حديث ابن عمر.

وقدَّم اللَّهو لأنَّه أقوى مَذَمَّة، والمقام لذَمٍّ من اشتغل به عن العبادة، وهو محرَّم في الجمعة وغيرها، ولا يقال: قُدِّم لأنَّه تخلية، لأنَّا نقول: لا تحلية بعده، لأنَّ التجارة لا تتَّصف بها هنا، لأنَّها في مقام ذمِّ القاصد إليها. وأعيدت «مِن» لتأكيد أنَّ كُلاًّ مستقِلٌّ بالذمِّ ولبعد اللَّهو من التجارة في المعنى.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاسعوا إليه في طلب الرزق يرزقكم، واسعوا إليه بالطاعة يَكْفِكُم مؤونة الرزق.

والله أعلم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.

تفسير سورة المنافقون وآياتها ١١

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

بعض أوصاف المنافقين

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَآءَكَ**﴾ حضر مجلسك، عبَّر عن الحضور بالمجيء لأنَّ الحضور مسبَّبٌ عن المجيء، ولازم له، اللزوم البَيانيَّ. ﴿**الْمُنَافِقُونَ**﴾ عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول وأصحابُه، بإثبات ألف ابن الثاني، لأنَّه ليس تابعا لأُبي، بل لعبد الله.

﴿**قَالُوا نَشْهَدُ**﴾ من قلوبنا شهادة صادقة ﴿**إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ**﴾ إلينا وإلى النَّاس كلِّهم، أكَّدوا بالشهادة المتزلة مترلة القَسَم، وبالجملة الاسميَّة بعدها، وبـــ«إنّ» وباللاَّم في خبرها، وذلك من لازم الفائدة، لأنَّ المراد إعلام رسول الله ﷺ بأنَّهم عالمون برسالته.

﴿**وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**﴾ حقًّا في نفس الأمر، كما نَطَقَتْ به ألسنتهم ولم توافق قلوبهم، وحقّ عليهم أن توافق، وأكّد بالعِلْم الجاري مجرى القسم، و«إنّ» والاسميَّة واللاَّم.

واعتَرَضَ بهذه الجملة الحاليَّة بين ﴿قَالُوا نَشْهَدُ...﴾الخ وقوله ﷻ: ﴿**وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ لئلاَّ يكون اللفظ على صورة تكذيب مَا أثبتوه من الرسالة، أو يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ مَا هذا التكذيب.

والمعنى: والله يشهد إنَّ المنافقين كاذبون في قولهم: إنَّا شهدنا من قلوبنا أنَّه رسول الله ﷺ . والشهادة في كلامهم ليست مطلق إخبار محتمل للصدق والكذب، بل الإيقانُ. ولفظ «نَشْهَدُ» ونحوه من الأفعال والأسماء يفهم منه موافقة القلب، وهكذا وضع في اللغة، فتكذيبُ الله إيَّاهم راجعٌ إلى مضمون هذا اللفظ، وهو موافقة القلب، وإلى ما قصدوه من دعوى الموافقة. ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ المنافقين شأنهم الكذب، وإن صدقوا في قولهم هذا، بحسب ما في نفس الأمر من ثبوت الرسالة.

ولا دليل للنَظَّامِ[1] في الآية على قوله: الصدق مُطابقةُ الاعتقاد للَّفظِ ولو كان الاعتقاد خطأً، والكذب عدمها.

ويجوز أن يكون تكذيب الله ﷻ لهم في دعواهم أنَّهم قالوه كذبا عندهم، بمعنى: كاذبون في دعوى أنَّ قولهم كذب، إذ قولهم ذلك حقٌّ في نفس الأمر، ولو لم يذعنوا إلى أنَّه حقٌّ في نفس الأمر.

وأجاز بعض المحقِّقين أن يكون تكذيب الله إيَّاهم راجعا إلى حلفهم: والله ما قلنا: ﴿لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ وما قلنا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾ الخ.

١- هو إبراهيم بن سيَّار بن هانئ النظَّام، من أهل البصرة ومن رؤوس المعتزلة، كان شاعرًا أديبًا بليغا، انفرد بآراء خاصَّة تابعته فيها فرقة من المعتزلة. من تصانيفه: «النكت»، وله كتب في الفلسفة والاعتزال. تُوُفِّيَ سنة ٢٣١هـ. الموسوعة الفقْهِيَّة الكويتيَّة، ج٢، ص٤٢٣.

(سيرة) سمع رسول الله ﷺ بأنَّ الحارث بن ضرار منهم، ــ وهو أبو جويرة زوج النبيء ﷺ ــ يجمع النَّاس لحربه ﷺ ، فخرج ﷺ إليهم، فلقيهم على ماءٍ من مياههم يقال له المريسع من ناحية قديد إلى الساحل، فهزمهم وقتل منهم، فسباهم، وازدحم جَهْجَاهُ بن سعيد الغفاري أجير عمر قائد فرسه مع سنان بن وبر الجهنيِّ حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين، وأعانه رجل فقير من المهاجرين اسمه جعدل، فقال له عبد الله بن أُبي: وإنَّك لهناك! فقال: وما يمنعني! فغضب عبد الله بن أُبي فقال: نافرونا وكاثرونا في بلادنا.

(سبب النزول) قال زيد بن أرقم: كنت في غزاة ــ يعني غزوة بني المصطلق ــ مع رسول الله ﷺ ، فسمعت عبد الله بن أُبي ابن سلول يقول: لا تنفقوا على مَن عندَ رسول الله حتَّى ينفضُّوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقلت: أنت والله الأذلُّ المُبغضُ، ورسول الله الكثير الأعزُّ عند الله تعالى والمؤمنين، فقال له عبد الله: اسكت كنت ألعب فذكرت ذلك لعمِّي، وذكره لرسول الله ﷺ فدعاني فحدَّثته.

فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبي وأصحابه فحلفوا أنَّهم ما قالوا، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه فأصابني همٌّ لم يصبني قطُّ مثله، فجلست في البيت فقال لي عمِّي: ما أردت إلى أن كذَّبك ــ وفي لفظ إلاَّ أن كذَّبك ــ رسول الله ﷺ ومقَتَكَ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾، فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**إنَّ الله صدَّقك يا زيد**». رواه البخاريُّ، وفي رواية: فدعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم، أي كما يجيء في الآية.

ويروى أنَّ رسول الله ﷺ قال لأسيد بن حضير: أَبَلَغَكَ ما ذُكر عن ابن عمِّك عبد الله بن أُبي؟ فقال: يا رسول الله، أنت والله الأعزُّ المخرِجُ له، وهو الأذلُّ، ارفق به يا رسول الله، جئت المدينة وقومه ينظِّمون له تاج الرئاسة، ويرى أنَّك سلبته ذلك، وقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فقال ﷺ : «**يتحدَّث الناس أنِّي أقتل أصحابي**»، وقال عبد الله بن عبد الله بن أُبي: دعني أقتله يا رسول الله إن أردت قتله، وأحمل إليك رأسه، وإنِّي أبرُّ به من كلِّ مَنْ أبرَّ أباهُ في المدينة، وأخاف إن قتله غيري أقتلْهُ، فأكون قد قتلت مؤمنا فقال له عليه السلام : وأحسن به ما حيي.

وَلَمَّا أراد دخول المدينة قال: لا تدخلها حتَّى يأذن لك رسول الله ﷺ ، لتعلم مَن الأعزُّ، فشكاه إلى رسول الله ﷺ ، فقال: دعه يدخل، وفي البخاريِّ ومسلم أنَّه كسع رجل لَعَّابٌ أنصاريًّا فغضب وقال: يا للأنصار، ودعا لعَّاب: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ : «**ما بال دعوى الجَاهليَّة ؟!**» فأخبر بالكَسْعَةِ فقال: «**دعوها فإنَّها خبيثة**»، يعني اللَّعبة، أو دعوى الجَاهليَّة أو الكسعة. وقال ابن أُبي: «لئن رجعنا إلى المدينة...» إلى آخر القصَّة المذكورة.

فنقول: لعلَّ القصَّة والآية في شأن ذلك اللَّعَّاب وجَهْجَاه معًا، وعلى كلِّ حال لَمَّا قيل ذلك عن ابن أُبي واضطرب النَّاس تعجَّل الرحيل، فرحل حيث لا يرحل ليسكن الأمر.

والآية نزلت في قوله: «لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ...» الخ، وقوله: «لاَ تُنفِقُوا...»الخ وقوله: «صِرْنا كما قيل: سَمِّنْ كلبك يأكلْكَ».

ويروى أنَّ ريحا هاجت شديدة، فقال ﷺ : هاجت لرفاعة بن زيد مات بالمدينة من اليهود، وهو كهف للمنافقين.

وقد ضلّت ناقته ﷺ، ولم يدر أين ناقته، فقال منافق: لم يدر أين ناقته فكيف يدَّعي معرفة من في المدينة ؟ فقال: لا أعلم إلاّ ما أعلمَني ربِّي، ناقتي في شعب كذا، أمسكها شجر برسنها، فوجدوها كذلك، فتاب المنافق وأصلح. ولَمَّا وصلوا المدينة وجدوا رفاعة ميِّتا في ذلك الوقت كما قال رسول الله ﷺ .

ومقتضى الظاهر: «إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»، وأظهر ليصفهم بالنفاق ذمًّا وإشعارًا بعلّة الحكم.

وإذا كان ذلك مرَّة واحدة مضت فما معنى قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ...﴾ الخ المشعر بالتكرير والاستقبال؟ الجواب: إنّ الفتح لهذه المرَّة الواحدة فتح لتكرُّرها[1] فحصل التكرُّر والاستقبال حُكْمًا، وكأنّه قيل: من شأنهم أن يتكرَّر منهم هذا.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ حلفاهم ﴿جُنَّةً﴾ سترة وحصنا عن أن يُؤَاخَذُوا بالقتل والسبي والذمِّ وأخذ أموالهم، وعن أن يترك الصلاة عليهم إذا ماتوا، ولا بُعْدَ في هذا كما قيل، لأنّ لهم استحياء عمَّا يُذمُّون به، ولاسيما ما لا يجبر بعد الموت، ويحبُّون الستر كلّما ظهر منهم كلام سوء حلفوا ما قالوا لئلاّ يفعل بهم ذلك، وذلك على العموم.

ويجوز أن يراد بأَيْمَانهم شهادتهم السابقة، وقد علمت أنّ الشهادة تستعمل بمعنى اليمين، وكذا العلْمُ وما يجري مجرى ذلك في مقام التأكيد، فيجاب بما يجاب القسم، لكن لا كَفَّارَة بالحنث فيه، لأَنّ الحالف بذلك أراد التأكيد لا

١- كذا في النسخ، ويبدو أنــَّهُ يقصد ما ذكره سابقا في تفسير أواخر سورة الجمعة: «كثيرًا مَّا يذكر الله تعالى ما وقع أو يقع مرَّة واحدة بلفظ يفيد التكرير، وبيان ذلك أنّه مَنْ فَتَحَ بَابَ فِعْلٍ ففَتْحُه فتحٌ للتعدُّد، ولو لم يتعدَّدْ».

حقيقة الحلف، وعليه فجَمْعُ اليمين لأنَّ عبد الله حَلَفَ، وأصحابُهُ حلفوا. وهَبْ أنَّه وحده حلف لَكِنَّ أصحابه تَبَعٌ له، وراضون بحلفه، وذلك كلُّه باعتبار ما مضى، ويجوز أن يكون المعنى: هيِّئوا لِمَا بعدُ لأنفسهم أنَّه كلَّما ظهر منهم سوء يحلفون أنَّهم ما فعلوه.

﴿فَصَدُّوا﴾ منعوا كلَّ من أراد الإيمان أو من أراد الطاعة ما استطاعوا، فالفعل متعدٍّ، أو أعرضوا عن الإيمان والطاعة، فالفعل لازم ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ التوحيد والعبادة. ﴿إِنَّهُم سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ساءَ هو، أي: العمل، والمخصوص ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: كونهم يعملون. و«مَا» مَصدَرِيَّة. أو ساء هُو، أي: المعمولُ، والمخصوص: «مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، و«مَا» اسم موصول، أو نكرة موصوفة. وعندي: لا مانع من الإتيان بفاعل باب «نِعْمَ» بلا إضمار ولا تمييز ولا مخصوص.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من سوء عملهم، والصَّدِّ عن السبيل، واتِّخاذ أَيْمَانهم جُـنَّة ونفاقهم بإثبات الرسالة نطقا لا اعتقادا. ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنَّهم ﴿ءَامَنُوا﴾ نطقا لا اعتقادًا ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ظهر كفرهم، أي: شركهم، لنطقهم بما يصرِّح أنَّه لا إيمان في قلوبهم، كقولهم: لئن كان ما يقول محمَّد حقًّا لنحنُ أَسْوَأُ من الحمير، وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر؟! وأن يفتح الروم والشام في قلَّة من أصحابه وأعوانه، وقلَّة من ماله؟ وقد أخرجه قومه من بلده وصدُّوه عن الحجِّ!.

[قلت:] وقد يتمنَّى الإنسان أن يكون على عهده ﷺ ، وهو غفلة عظيمة، وليس كلُّ من على عهده مؤمنا، فلعلَّه يكون على عهده فيكون كأبي جهل، أو كعبد الله بن أُبي، ولا سيما من رأى في نفسه قسوة وعنادًا عن الحقِّ ومراعاةً لحظِّ نفسه.

و«ثُمَّ» للتراخي الزمانيِّ، لأنَّه ما ظهر إشراكهم الباطن إلاَّ بعد مدَّة من شهادتهم على الرسالة باللسان. أو للتراخي الرتبيِّ، لبُعد التلفُّظ بالشهادة عن اعتقاد الشرك، وكذا إن كان المعنى: آمنوا عند المؤمنين، وأسرُّوا الكفر عند أصحابهم.

والفصل بغير المعهود تراخٍ ولَوْ لَمْ يَطُلْ، وإن كان معنى ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾: ثمَّ أسرُّوا الكفر، فللتراخي الرتبي.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الآية في أهل الردَّة، لأنَّ الكلام قبلُ في المنافقين، إلاَّ إن ذُكِرَ اسمُ الإشارة عقِبَ ذلك بِلاَ فَصْلٍ، ولا وجُودَ شيءٍ يشار إليه غير حالهم، وكذلك الكلام بعدُ في المنافقين.

﴿**فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ غُطِّيَ عليها حتَّى يموتوا على الكفر. ﴿**فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ**﴾ حقيقة الإيمان، فلا يرغبون فيه، ولا سيما أنَّه منافٍ لما هو حالهم.

﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ**﴾ لتعهُّدهم لها بالتنظيف والتنعُّم بالأكل والشرب للمستلذَّات، والراحة، والجاه في قومهم. ﴿**وَإِنْ يَّقُولُوا**﴾ كلاما، أيَّ كلامٍ، فالحذف للعموم، أو المعنى: إن صدر منهم قول، فلا مفعول له. ﴿**تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**﴾ يُعْجِبْكَ قولُهم وتستحسنه، والإعجاب والاستحسان سبب للإصغاء والاستماع، فعبَّر بالمسبَّب واللاَّزم، فإنَّ الاستماع مترتِّب على الحسن. و﴿تَسْمَعْ﴾ بمعنى تستمع، ولذلك كان باللاَّم، كأنَّه قيل: تُصْغِ لقولهم، ويجوز أن يكون بمعنى: تَقْبَلْ، يقال: تَكَلَّمَ وما سمِعْتُ كَلاَمَهُ، أي: لم أقبله، وتكلَّم وسمعت كلامه: قبلتُه، يدلُّ على ذلك دليل، لكن تكون اللاَّم زائدة على هذا الوجه.

والخطاب للنبيء ﷺ، كما أنَّه له في قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ﴾، ولأنَّ الأصل في المخاطب التعيين، ولأنَّ استحسانه ﷺ لقولهم يثبت استحسان غيره له بالأولى. والمراد بـ﴿قَوْلِهِمْ﴾ قولهم في المباحات والحيل ونحوها،

فيعجبه ذلك مع فصاحتهم وبلاغتهم وحلاوة ألسنتهم. وهنا تمَّ الكلام، واستأنف لذمِّهم قوله تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ جمع خَشَبَة (بفتح الخاء والشين) كَثَمَرَة وثُمُر، والمراد مطلق الخشب، خشب النخل أو الشجر. وقيل: الجملة حال من هاء ﴿قَوْلِهِمْ﴾، ولا بأس، ولا نسلِّم أنَّ الحاليَّة تفيد تعليل سماع قولهم بكونهم كالخشب المسنَّدة، مع أنَّه ليس كذلك فإنَّك إذا قلت: مررت بزيد راكبا لم يفهم عاقل أنَّ الركوب علَّة للمرور.

﴿مُسَنَّدَةٌ﴾ إلى نحو حائط، ووجه الشبه الخلوُّ من الفائدة، لأنَّه لا إيمان في قلوبهم ولا نفع فيهم للإيمان، وذلك حالُهم في كلِّ موضع قعدوا فيه، ولا يختصُّ بكونهم في مجلس رسول الله ﷺ، وإنَّما كونُهُم واقعةُ حالٍ وفرضُ مسألة.

ووصَفَ الخشبة بالمسنَّدة لأنَّ التي في السقف والمركوزةَ عُمدةٌ لشيء، والمجعولةَ ساريةً أو معلاقا، [أو ركبَ سرير أو سفينة][1]، أو جُعِلَتْ آلةً لعملٍ، أو كانت شجرةً مثمرة، أو نحو ذلك، فيها فائدةٌ. وقيل: المراد بالخشب المسنَّدة **الأصنام المنحوتة من الخشب، لها أعين لا تبصر بها، وآذان لا تسمع بها.**

﴿يَحْسِبُونَ﴾ لشدَّة جبنهم ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ كصوت من ينشد ضالَّة، وصوت المتقاتلين، وصوت من يستغيث، إذا لم يتحقَّقوا ذلك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مفعول ثان لـ«يَحْسِبُ»، أي: ثابتة عليهم، أو يُقَدَّرُ كونٌ خاصٌّ، أي: واقعة عليهم، وذلك كما قال المتنبي:

وضاقت الأرض حتَّى صار هاربُهم   إذا رأى غَيْرَ شيء ظَنَّهُ رجلاً

١- ما بين معقوفين زيادة من الطبعة العمانيَّة.

وقال جرير يخاطب الأخطل، وهو نصرانيٌّ:

ما زلت تحسب كلَّ شيءٍ بعدهم خيلا تكرُّ عليـــهم ورجالا

وقيل: إذا سمعوا صيحة ظنُّوا أنَّه في شأن وحي يهتك أستارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم وسبيهم. والوقف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وهو وقف تامٌّ.

وزعم بعض أنَّه يجوز أن يكون «عَلَيْهِمْ» متعلِّق بـــ«صَيْحَةٍ». وقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ مفعول ثان، ولا يصحُّ إلاَّ بردٍّ قوله: ﴿هُمُ﴾ إلى الصيحة، وتجعله في مقام «هو»، على أنَّه عائد إلى «كُلّ»، أو في مقام «هي» العائد إلى الصيحة، وبدعوى أنَّه جَمَعَ مراعاةً للخبر، وأنَّه كان ضمير العقلاء مراعاة له أيضا، وذلك تكلُّف لا نحتاج إليه.

وأيضا لا يناسبه قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ لأنَّه تفريع لا يصحُّ أن يترتَّب على حسبان الصيحة عدُوًّا وإنَّما يترتَّب على أنَّ المنافقين عدوٌّ، بردِّ قوله: ﴿هُمُ﴾ إلى ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾، وهو مبتدأ.

﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ لعنهم الله وطردهم عن رحمته ﷻ، والجملة إخبار، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك، والمراد: قولوا لعنهم الله.

[قلت:] ولا يجوز في الشريعة وفي حقِّ الله سبحانه وتعالى ما قيل: إنَّه دعاء وطلب من ذاته سبحانه أن يلعنهم ويطردهم من رحمته تعالى، وإنَّه من أسلوب التجريد البديعيِّ، لأنَّ هذا سوء أدب، ويَؤُول إلى تشبيه الله ﷻ بخلقه.

(نحو) ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف؟ أو من أين؟ وعلى الثاني تكون اسمًا متضمِّنًا معنى حرف، وهو «مِنْ» الابتدائيَّة ومعنى اسمٍ وهو «أين»، كما أجاب في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ (سورة آل عمران: ٣٧) ، وفي أخرى: ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥) ، فاحفظه ولعلَّك لا تجده في كتاب.

﴿**يوفكُونَ**﴾ يُصْرَفُونَ عنِ الإيمان مع ظهور أنَّه الصَّواب وأنَّه النَّافع. والاستفهام تعجيب.

(سبب النزول) وَلَمَّا صدَّق الله ﷻ زيد بن أرقم في قوله: إنَّ عبد الله بن أُبي قال: «لا تنفقوا على من عند رسول الله...»الخ. وقال: «لئن رجعنا إلى المدينة...» لاَمَ ابنَ أُبيٍّ المؤمنون من قومه ومقَتَهُ النَّاس، وقال بعض المؤمنين من قومه: اعترفْ عند رسول الله ﷺ يستغفرْ لك، فلوى رأسه، وقال: أشرتم إليَّ بالإيمان فآمنت، وبالزكاة ففعلت، ولم يبق إلاَّ أن تأمُرُوني بالسجود له، فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾

صورة عن كذب المنافقين ونفاقهم

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله لَوَوْا رُءوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾ وروي أنَّه ﷺ قال له: تُبْ، فجعل يلوي رأسه، فنزلت الآية.

وضمير الجماعة مع أنَّ اللاَّوي لرأسه ابن أُبي وحده، لأنَّهم فعلوا مثله، أو رضوا، أو للحكم على المجموع، نحو: فعل بنو تميم كذا، إذا فعل بعضهم.

وأمَّا وجْه استعمال «إذَا» في مقام الشعور بالتكرُّر مع أنَّه لا تكرُّرَ فمضى آنفا. [قلت:] وألهمني الرحمن الرَّحيم وجهًا حسنا جدًّا، وهو أن يحكم بخروج «إذا» عن الشرط فلا تفيد العموم.

ومعنى ﴿لوَوْا رُءوسَهُمْ﴾: حرَّكوها جانبا حقيقة، يشيرون بتحريكها إلى الإنكار، وذلك تكبُّر في قصدهم كما بيَّنه بالحال، وهو قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ من التوبة والإذعان. وقيل: لم يحرِّكوها، وذلك كناية عن الامتناع.

و﴿يَصُدُّونَ﴾ بمعنى: يعرضون. والمضارع للتجدُّد. والرؤية بصريَّة، والمرئي أثر الصَّدِّ لا نفسُه.

﴿**سَوَآءٌ عَلَيْهِمُ, أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمُ, أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ لا فائدة في الاستغفار لهم، فهو مستوٍ مع عَدَمه، لأنَّهم مصرُّونَ عن التوبة، فلا يفيد استغفارك، كما قال معلِّلاً للتسوية: ﴿**لَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾ وعلَّلَ هذا بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي**﴾ هداية توفيق ﴿**الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ الرَّاسِخِينَ في الخروج عن الإيمان، وهم عبد الله بن أُبي، ويدخل غيره بالقياس عليه، وبغير هذه الآية أيضا.

وأظهر ليصفهم بكمال الفسق، أو المراد عموم الفاسقين فيدخل هؤلاء بالأولى. والاستغفار لعبد الله بن أُبي على تقدير توبتهم، وعدم الاستغفار على تقدير الإصرار، كما قال سعيد بن جبير.

وَحَكَى مَكِّيٌّ[1] أنَّه استغفر لهم، لأنَّهم أظهروا له الإسلام، أي: بعدما صدر منهم ما صدر بالتوبة، وأمَّا قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمُ, أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُم...﴾ الخ (سورة التوبة: ٨٠) ، فليست في عبد الله بن أُبي بل في اللاَّمزين، وكلا الفريقين منافق.

١- تقدَّم التعريف به، انظر: ج٥، ص٣٦٤.

وقد قيل: إنَّه ﷺ قال: «**أستغفر لهم أكثر من سبعين مرَّة ما لم ينهني ربِّي**» قيل: فنزلت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمُ, أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمُ, أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ نهيًا، فتَرَكَ، فتكون هذه الآية نزلت بعد براءة.

[**قلت:**] ولا نسلِّم هذا، فإنَّ هذه في الفاسقين مطلقًا، أو في عبد الله بن أُبي، وآية براءة في اللاَّمزِينَ.

(سيرة) وعن ابن سيرين: لَمَّا قال ابن أُبي: «لَئِن رَجَعْنَا...» الخ بأيَّام قليلة مرض واشتدَّ وجعه، وسأل عبدُ الله ولدُهُ النبيءَ ﷺ أن يدخل عليه، فدخل فقال: «إذا متُّ فاشهد غسلي واكفنِّي في ثلاثة أثواب من ثيابك، وامْش مع جنازتي، وصلِّ عليَّ»، ففعل ذلك كُلَّه لشفاعة ابنه، فنزل: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم...﴾ الخ (سورة التوبة: ٨٤) .

﴿**هُمُ الذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا**﴾ دُومُوا على عدم الإنفاق على من عنده حتَّى يتفرَّقوا. أو «حَتَّى» للتعليل. وهذا استـئناف في ذمِّ عبد الله بن أُبي وأصحابه. ويضعف ما قيل: إنَّه تعليل جمليٌّ لقوله: ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وتقدَّمت قصَّة زيد بن أرقم في هذه الآية.

(سيرة) وفي الترمذيِّ ـ ولي منه نسخة قديمة مجوَّدة محشًّى عليها ـ عن زيد بن أرقم: غَزَوْنا مع رسول الله ﷺ ، وكان معنا ناسٌ من الأعراب، فكنَّا نبتدر الماء، وكان الأعراب يسبقوننا إليه، فيسبق الأعرابيُّ أصحابه، فيملأ الحوض، ويجعل حوضه حجارة، ويجعل النطع عليه حتَّى يجيء أصحابه، فأتى رجل من الأنصار، فأرخى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يدَعه، فانتزع حجرا ففاض، فرفع الأعرابيُّ خشبة، فضرب رأس الأنصاريِّ فشجَّهُ، فأخبر الأنصاريُّ عبد الله بن أُبي رأس المنافقين فغضب، وكان من أنصاره فقال: «لاَ تُنفقُوا عَلَى مَن عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا» يعني الأعراب، ثمَّ قال لأصحابه: «إذا رجعتم

إلى المدينة فليخرج الأعزُّ منها الأذلَّ»، وأنا ردف عمِّي وسمعت ما قال عبد الله، فأخبرت عمِّي، فأخبر رسولَ الله ﷺ ... إلى آخر ما مرَّ.

وإنَّما قال عبد الله وأصحابه: «رسول الله» منافقةً من جملة نفاقهم، فإنَّه لم يعتقد رسالته، أو قالوه تهكُّمًا، أو لأنَّ لفظ «رسول الله» كالعَلَم عليه قَصَدَ منه الذَّاتَ دون الرسالة، أو أرادوا: رسول الله عندكم، أو قالوا: «على من عند محمَّد» فذكر الله تعالى بدل هذا اللَّفظ: «رسول الله» إكراما له، ونقضًا لإنكارهم.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ لا ينفضُّون بترك الإنفاق عليهم، لأنَّ الله الذي له الخزائن كلُّها ينفق عليهم. والخزائن بمعنى المملوكات المحافظ عليها لعزَّتها، لا خصوص الأرزاق والأجسام، فإنَّه ليس في السماوات طعام ولا لباس، أو أراد الأمطار من جهة السَّماوات، والأمطار في ضمنها المطعوم والمشروب. والواو للحال.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المذكورين ﴿لاَ يَفْقَهُونَ﴾ لجهلهم بالله وأفعاله وصفاته، فهم يقولون ما يقول المشركون، إذ في قلوبهم الإشراك. والفقه أبلغ من العلم، فنفيُ العلم أبلغ من نفي الفقه، فذكر هنا الفقه وفيما يأتي العلم، فأوثِرَ ما هُوَ أبلغ لما هو أدعى له.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الاَعَزُّ مِنْهَا﴾ يعنون عبد الله بن أُبي وأصحابَهُ، أو أراد عبدُ الله نفسَه، فإنَّه القائل ونُسِبَ لأصحابه أيضا لأنَّهم راضون بقوله. ﴿الاَذَلَّ﴾ يعنون رسول الله ﷺ الذي أعزَّه الله، أو إيَّاه والمؤمنين، فتكون «ال» للجنس، وقد أعزَّهم الله.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ ضدُّ الذلَّة. والكبْر ضدُّ التواضع، وقيل: العزَّة صفة تنافي المغلوبيَّة، ولا بأس في نسبة المعنيين إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وكِبْرُ الإنسان من جهله بنفسه، وإنزالها في فوق مترلتها، وعزَّته معرفته بحقيقة نفسه، فإنّ من شأنها أن يعزَّها بالتذلُّل إلى الله ﷻ ، وإكرامها أن لا يَحُطَّها.

(بلاغة) ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾ لا لغير الله ورسوله والمؤمنين، قصر قلب، ولا لغير الله ورسوله والمؤمنين مع الله ورسوله والمؤمنين، قَصْر إِفْراد، فالتقديم للحصر، و«لِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ» في نية التقديم على العزَّة، وأعيدت اللاَّم للتأكيد. والفرق بين عزَّة الله ﷻ وهي ذَاتِيَّة، وعزَّة رسوله بالرسالة، وعزَّة المؤمنين باتِّباع الرسالة.

(سيرة) وكان لعبد الله بن أُبي ولد سمَّاه عبد الله، صحابيٌّ مخلص ﵁ . لَمَّا أشرفوا على المدينة سلَّ سيفه على أبيه فقال: والله لا أغمده حتَّى تقول: محمَّدٌ الأعزُّ وأنا الأذلُّ، فلم يبرح حتَّى قال ذلك.

وروي أنَّه كان النَّاس يدخلون، فجاء أبوه يدخل فقال: وراءك، فقال: ما لك؟ ويلك؟ فقال: والله لا تدخلها أبدًا حتَّى يأذن رسول الله ﷺ ، ولتعلمنَّ اليوم الأعزَّ من الأذلِّ، فرجع حتَّى لقي رسول الله ﷺ ، فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه: اتركه يدخل، ففعل. وأقول: وقع ذلك كلُّه، قهره أن يقول: محمَّد الأعزُّ وهو الأذلُّ وأن لا يدخلها إلاَّ بإذن رسول الله ﷺ ، وهكذا ينبغي الجمع إذا أمكن.

وكذلك قال عمر ﵁ : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**لا يتحدَّث النَّاس أنِّي أقتل أصحابي**». وروى قتادة: قال عمر: يا رسول الله، مُرْ معاذا أن يضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ : «**لا يتحدَّث النَّاس...**» الخ وما بقي بعد نزول هؤلاء الآيات فيه إلاَّ قليلا مرض فمات إلى النَّار.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا علم لهم، لفرط جهلهم، فلا مفعول لـ«يَعْلَمُ»، أو لا يعلمون أنَّ الأرزاق بيد الله ﷻ، وأنَّ العزَّة لمطيعيه، وأنَّ الإضرار بالمؤمنين وقطع النفقات عنهم إضرارٌ بأنفسهم، وأن لا عزيز إلاَّ من أعزَّه الله، ولا عزَّ إلاَّ عزُّ الدِّين والآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

تحذير المؤمنين من أخلاق المنافقين

وأمرهم بالإنفاق في سبيل الخير

وَلَمَّا ذكر أنَّ المنافقين يأمرون بقطع الإنفاق استأنف الكلام بالنَّهي عن الاشتغال بالأموال والأولاد عن الطاعة، و[استأنف] الكلام بالأمر بالإنفاق إذ قال:

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ, أَمْوَالُكُمْ وَلآَ أَوْلاَدُكُمْ﴾ أي: الاشتغال بأحوالهما التي يستغنى عنها، ويجوز أن يكون عبارة عن الدنيا مطلقًا، لأنَّهما أعظم ما فيها.

(بلاغة) واللفظ نهيٌ للأموال والأولاد تجوُّزًا في الإسناد للمبالغة، والأصل لا تلهوا بأموالكم ولا أولادكم، أو تجوُّزٌ بالسبب عن المسبَّب، أي: لا تكونوا بحيث تلهيكم أموالكم ولا أولادكم.

﴿عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ الصّلاة وسائر العبادات، الفرض والنفل، والعبادة سبب لخطور ذكر الله في القلب، فعبَّر بالمسبَّب عن السَّبب.

وعن الحسن: الفرائضُ، وعن الضحَّاك وعطاء: الصلاة المفروضة، وعلى الكلبيِّ: الجهادُ مع رسول الله ﷺ ، وهو قول بعيد، وقيل: القرآن، **والعموم أولى**.

﴿وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من إِلْهَاءِ الأموال والأولاد. ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذْ ضيَّعوا أبدانهم وأموالهم وكلَّ ما لهم من الدنيا، ولم ينتفعوا به للآخرة، واستوجبوا النَّار. ولا يخفى ما في ذلك من التأكيد بإشارة البعد، والجملة الاسميَّة، وضمير الفصل، والحصر.

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ «مِنْ» للابتداء، وقيل: للتبعيض، والأوَّل أولى، لشموله الإنفاق للكثير والقليل، إلاَّ مَا يَبقَى الإنسانُ بإنفاقه محتاجًا، وذلك بالنظر واختيار الصلاح، بخلاف الأمرِ من أوَّل مرَّة بالبعض.

وذلك شاملٌ للإنفاق من المال، وللإنفاق من قوَّة البدن، وللإنفاق باللِّسان، ومن الجاه، ومن العلم بالدِّين؛ قال رسول الله ﷺ : «**خير النّاس من يشفع للنَّاس**». وعن عمرو بن دينار[1] عن رسول الله ﷺ قال: «**اشْفعوا تؤجَروا فإنَّ الرّجلَ منكم يسألِني فأمنعه كيما تشفعوا فتؤجروا**»[2].

١-هو عمرو بن دينار أبو محمَّد الجمحيُّ المكِّيُّ، ولد سنة ٤٦هـ، وقد روى الحديث عن ابن عبَّاس وأبي هريرة وغيرهما. وروى عن قتادة وشعبة وغيرهم. وكان فقيهًا ومفتي أهل مكَّة. تُوُفِّيَ سنة ١٢٦هـ. الموسوعة الفقْهيَّة الكويتيَّة، ج٧، ص٣٤٠.

٢-رواه **النسائيُّ** في كتاب الزكاة (٦٥) باب الشفاعة في الصدقة، رقم ٢٥٥٦. **وأبو داود** في كتاب الأدب، باب في الشفاعة، رقم ٥١٣٢ بنفس المعنى واختلاف في =

وعن الحسن البصريِّ: «الشفاعة يجري أجْرها لصاحبها ما جرت منفعتها». وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَّشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً...﴾ الخ (سورة النساء: ٨٥) هو الشفاعة[1] بعض لبعض.

سأل رجل رسول الله ﷺ بعيرًا يغزو به، فبعثه إلى رجل من الأنصار، فجاء منه ببعير، فقال ﷺ : «**الدَّالُّ على الخير كفاعله**»[2].

ويقال: لكلِّ شيء صدقة، وصدقة الرئاسة الشفاعةُ وإعانة الضُّعفاء، وعن بعض الأدباء: من كان دخَّالاً على الأمراء ولا يكون متشَفِّعًا فهو دَعِيٌّ.

أوحى الله تعالى إلى داود العَلَيْهِ السَّلام : «إنَّ عبدا من عبادي يأتي بالحسنة فأدخله الجنَّة، قال: يا ربِّ ما تلك الحسنة ؟ قال: تفريج كربة عن مؤمن ولو بشقِّ تمرة».

وقيل: المراد بالإنفاق الزكاة وما ينفق في الحجِّ، وبه قال ابن عبَّاس والضَّحَّاك.

﴿**مِن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**﴾ مقدِّمات الموت «والدِّرهم في الحياة خير من سبعين بعد الموت»، وفي الآية أمْرٌ بالإنفاق حَالَ الصِّحَّة، أمَّا إذا تُركَ الإنفاق حتَّى أتى مقدِّمات الموت، فالإنفاق حينئذ ضعيف، وهو مع ذلك أفضلُ من الإيصاء بالإنفاق، وجاء الأثر: «أنفق وأنت صحيح شحيح»، أي: شحٌّ

=

اللفظ. من حديث معاوية.

١- كذا في النسخ، ويبدو أنَّ الصواب: «شفاعة»، لأنَّـهُ مضاف.

٢- تقدَّم تخريجه. انظر: ج٤، ص٥٤١.

النفس بالطبع، تأمل البقاء وتخشى الفقر.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ﴾ هَلاَّ، وهو لفظ يُقال عند الرغبة في شيء ﴿أَخَّرْتَنِي﴾ عن الموت ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ مدَّة قريبة، لَمَّا حضَرَهُ الموت لم يطمع إلاَّ في مدَّة قصيرة ولو وجد الطويلة لرغب فيها أكثر، وذلك إذا لم يتيسَّر له التصدُّق حين حضر له أثر الموت، لفَقْد ما يتصدَّق به، أو لفقد حضوره، أو عدم التصرُّف في ذلك، واختيار من يعطيه ذلك، أو ضعف عقله وتمييزه. وعن ابن عبَّاس: سؤال التأخير هو طلب الرجوع إلى الدنيا بعد الموت.

(صرف) ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أتصدَّق، أبدلت التاء صَادًا وأدْغمت في الصَّاد، وقد قرأ بعض بالفكِّ. والمراد التصدُّق بما يمكن.

(نحو) ﴿وَأَكُن﴾ عطف على معنى إسقاط فاء ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، إذ لو أسقطت لجزم «أصَّدَّق»، وهو في غير كلام الله عطف توهُّم، أو الجزم في جواب شرط مقدَّر، أي: وإن أخَّرتني أكن.

﴿مِّنَ الصَّالحِينَ﴾ المُؤَدِّين للفرائض والنفل، التاركين للمعاصي. وعن ابن عبَّاس: ﴿أَصَّدَّقَ﴾: أزَكِّي، ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالحِينَ﴾ أحجُّ. وعنه عن رسول الله ﷺ : «**من كان له مال يبلغه حجَّ بيت ربِّه أو يجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت**» ، فقيل له يا ابن عبَّاس: «**اتَّق الله إنَّما يسأل الرجعة المُشرك**» فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآنا: ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُم...﴾[1] إلى آخر السُّورة. وعنه: نزلت الآية في مانع الزكاة، والله لوْ رَأَى

١- أورده الألوسيُّ في تفسيره: مج ١٠، ص٨١١. وقال: أخرجه الترمذيُّ وابن جرير والطبرانيُّ، من حديث ابن عبَّاس.

خيرًا لَمَا سأل الرجعة.

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا اِذَا جَآءَ اجَلُهَا﴾ إذا جاء آخر عمرها، فالأجل آخر المدَّة، وقيل: مدَّة العمر، ومعنى مجيئها انتهاؤها. ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم.

والله الموفّق المستعان

والصّلاة والسّلام على رسول الله وآله وصحبه.

تفسير سورة التغابن وآياتها ١٨

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ② خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ④﴾

مظاهر قدرة الله

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّه**﴾ بلسان الحال أو القال ﴿**مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ من الدَّوابِّ والملائكة. والمضارعُ للتجدُّد والاستمرار في هذا الموضع وشبهه. ومعنى التسبيح: التنزيه عمَّا لا يليق به، وهو متعدٍّ، ولكن جيء باللاَّم لتضمُّن معنى الانقياد.

﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ عبارة عن المخلوقات كلِّها كما يعبَّر عن الصحابة مطلقا بالمهاجرين والأنصار، كما صَرَّحَ به بعض المفسِّرين في أوائل سورة الجمعة. وقدَّم «السَّمَاوَات» لشرفها وعدم المعصية فيها، وكثرة العابدين فيها، وعدم بطلان عبادة مَّا من عبادهم، وقوَّة تسبيحهم وصفائه، وعنه ﷺ : «**ما من مولود إلاَّ مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من فاتحة سورة التغابن**»، ذكره الشوشاوي[1].

١-أورده **السيوطيُّ** في الدر: مج٦، ص:٢٥١. وقال: أخرجه ابن حبَّان في الضعفاء، والطبرانيُّ وابن مردويه وابن عساكر. من حديث ابن عمرو.

﴿لَهُ﴾ وحده لا مع غيره ﴿الْمُلْكُ﴾ جميع المملوكات أجسامًا وأعراضا ولا ملك لغيره إلاَّ صورة وعارية منه، أو هو بالمعنى المصدريِّ.

[قلت:] وَهَبَنَا اللهُ أشياء انتفعنا بها ونفعنا بها غيرنا، ونُثاب على ذلك بفضله إن شاء الله الرحمن الرَّحيم، كما تستعير شيئا من غيرك لنفعك وتنفع غيرك بنفعك.

وقدّم المُلك على الحمدِ لأنَّه دليل الحمد، والحمد يكون على ما مَلَكَهُ.

﴿وَلَهُ﴾ وحده لا مع غيره ﴿الْحَمْدُ﴾ على ما أعطانا بلا واسطة مخلوق أو بواسطة، والحمد هنا الشكر، أو الثناء على الأوصاف والأفعال، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ قدرته ذَاتيَّة لا تتفاوت معها الأشياء.

﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيُّها النَّاس، استشهاد لقدرته ببعض أفعاله، ومن أفعاله غيرُ ذلك، وهو خلقَ الجنَّ وخلق الملائكة وخلق غير ذلك. ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ به ﴿وَمِنكُم مُّومِنٌ﴾ به وذلك تَرتَّبَ على الخلق، أي: ترتيب من خلقه إيَّاكم أنَّ بعضًا كافرٌ وبعضًا مؤمنٌ، كقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْــتَدٍ...﴾ الخ (سورة الحديد: ٢٦) .

(أصول الدين) أو ذلك تفصيل لإجمالِ خَلْقه تعالى للمخاطَبين، كقوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّة...﴾ الخ (سورة النور: ٤٥) ، فالكفر والإيمان في ضمن الخلق، فهما مخلوقان لله تعالى كسائر أفعال الخلق واعتقاداتهم.

والحجّةُ النَّقْلِيَّة مثل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠١ ، وسورة الفرقان: ٢) ، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ (سورة فاطر: ٣).

وَالعَقْلِيَّةُ أن يقال: كيف يخلق الإنسان مثلا فعله؟ ولو فعله خطأً أو في المنام؟ وكيف يخلقه غافلا عن أبعاضه ولا يدري كم هي؟ ولا أحوالها مع تعمُّده للفعل، إذا تعمَّده مع حضور عقله؟.

وأمّا قوله ﷺ: «**إنَّ خلْق أحدكم يُجمع في بطن أمِّه أربعين يوما نطفة، وأربعين علقة، وأربعين مضغة، ثمَّ يبعث الله تعالى ملَكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته، ثمَّ ينفخ فيه الروح**»[1]. وحديث أبي ذرٍّ المرفوع: «**إذا مكث المنيُّ في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به إلى الربِّ ﷻ، فيقول: يا ربِّ أذَكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاضٍ، فيقول: أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ فيكتب ما هو لاق**» وقرأ من أوَّل السورة إلى قوله: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2] **فلا دليل فيهما، لأنَّ المعتزلة** يقولون: الفاعل يخلق فعله.

(أصول الدين) والله عالم بما يفعله علمًا أزليًّا، وقاضٍ، ويكون حجَّة على من زعم منهم أنَّه لا يعلمه الله تعالى حتَّى يكون، فالحديث قاضٍ بعلمه قبل أن يكون، لا صريح في أنَّه تعالى خالقه.

ووجه الجمع بين الحديثين أنَّ الرافع في الحديث الثاني غير الرافع في الأوَّل، والرفع مرَّتين، وفي أحدهما ما ليس في الآخر.

وفي مسلم عنه ﷺ: «**خلق الله للنَّار أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للجنَّة أهلاً وهم في أصلاب آبائهم**» وذلك باختيارهم.

والكفر والإيمان في الآية منظور فيهما إلى القضاء، أي: فمنهم من قضى كفره ومنهم من قضى إيمانه بلا إجبار. أو إلى الاختيار، أي: فمنهم من اختار الكفر، ومنهم من اختار الإيمان.

١- رواه **البخاريُّ** في كتاب التوحيد، باب: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا...﴾ رقم ٧٠١٦. ورواه **مسلم** في كتاب القدر، باب كَيفيَّة الخلق الآدميِّ، رقم ٢٦٤٣.

٢- روى **الربيع** في باب الحجَّة على القَدَرِيَّة، ج٢، ص١٠، رقم ٨٠١ ما يقاربه معنًى.

عاب الله تعالى من اختار الكفر مع دلائل قبحه شرعًا وعقلا، وقبحهُ أن يتصوَّر في شأن فاعله إذ فعله وقد نهي عنه، وبانت مضارُّه، لا في شأن خالقه، فإنَّه من حيث إنَّه مخلوق لله تعالى صواب لا خطأ، إذ لا يخلق الخطأ وغير الصَّواب، كما خلق النَّار والبحر والحديد وسائر الأشياء المهلكة لمقارفها على وجه الإهلاك.

فنحن نقارف الكفر بمعنى أنَّا نذكره على وجه بيانه، والاستدلال على تحريمه. وفي خلقه إنعام إذ يتبيَّن به مقدار الإنعام بالإيمان.

وقدَّم ذكر الكفر لكثرته ولتقدُّمه في الوجود في شأن المكلَّفين من حيث التكليف، ولو تقدَّم الإيمان من حيث ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) ، ومن حيث «**كلُّ مولود يولد على الفطرة...**»[1] ﴿فِطْرَةَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (سورة الروم: ٣٠) .

وأيضا قدَّم الكفر لأنَّ المقصود بالذات التهديد على كفر من كفر، وعن عطاء: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ بالله تعالى مؤمن بالكوكب، ﴿وَمِنكُم مُّومِنٌ﴾ بالله كافر بالكوكب، كما في حديث: «**أصبح من عبادي مؤمن...**» الخ[2].

وقيل: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ بالخالق وهم الدهريَّة، وأصحاب الطبائع، ﴿وَمِنكُم مُّومِنٌ﴾ به. وعن أبي سعيد الخدريِّ: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ في حياته، مؤمن في العاقبة، ﴿وَمِنكُم مُّومِنٌ﴾ في حياته، كافر في العاقبة. والمؤمن الموحِّد شامل للموفِّي والفاسق، والكافر المشرك، أو المؤمن الموحِّد الموفِّي، والكافر المشرك والفاسق.

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج٥ ، ص٨٧.

٢- تقدَّم تخريجه. انظر: ج٤، ص ٣٩٤.

(نحو) ولا يصحُّ العطف على الصلة لعدم الرابط، والفاء إنَّما تكفي في الربط إذا كانت سَبَبِـيَّةً، نحو: الطائر فيغضب زيد الذباب، فإنَّ الغضب مسبَّب عن طيران الذباب، إلاَّ أن يتكلَّف أنَّ خلقهم سبب لكفرهم وإيمانهم، ولو لم يخلقوا لم يكن كفر ولا إيمان منهم لعدمهم، ويتخيَّل أنَّه سبب. والفاء تمنع العطف على مجموع «هُوَ الذي...» الخ، ولو أجازه بعض.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عليم بما تعملونه، أو عليم بعملكم من كفر وإيمان لا يخفى عنه، فهو يجزيكم عليهما.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والاَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة التي لا يخفى أنَّها أمر ثابت صواب غير باطل متضمِّنة لمصالح الدنيا والآخرة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ الفاء لترتيب الإخبار لا الزمان، أو لترتيب الزمان، لأنَّ مبدأ الخلق غيرُ حَسَنٍ لبادئ الرأي، مثل الأطوار قبل كمال الصورة، ويعقب الأطوارَ الحسنُ.

أو يُقَدَّرُ: أراد تصويرَكُم فأحسنه عن أوَّل، والخلقُ كلُّه حسن، لأنَّه صنعة لا طاقة لأحد عليها، ولا سيما خلق الإنسان لامتداد صورته، ولعقله وفكره وسائر قواه، وفيه ما في الملائكة وغيرهم وزيادة.

[قلت:] وما يظهر من قبح صورة إنسان أو غيره من المخلوقات إنَّما هو بالنسبة إلى ما هو أحسن، فقد يكون الشيء عندك حسنًا وإذا رأيت ما هو أحسنُ منه نقص عندَك، حتَّى قد تستقبحه، وهو غير خارج عن دائرة الحسن، ويقال: «شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان».

والصورة: الشكل المدرك بالعين. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾ الصيرورة للجزاء على الإيمان والكفر بالإحياء بعد الموت.

﴿**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ جزئيًّا وكلّيًّا، وجسمًا وعَرَضًا، وحاضرًا ومضمونًا. ﴿**وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ**﴾ يسرُّ بعضكم لبعض، أو تسرُّون في أنفسكم. ﴿**وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ يظهر بعضكم لبعض. ﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ اعتراض في آخر الكلام مقرِّر لما قبله من علمه تعالى بسرِّهم وعلنهم، فإذا علم ما في الصدور فأولى أن يعلم ما خرج عنه، وسِرٌّ أو عِلْمُ هذا لبادئ الرأي، وكلُّ ذلك عند الله في نفس الأمر سواء.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾

مظاهر الكفر عند المشركين، وجزاؤهم

﴿**أَلَمْ يَاتِكُمْ**﴾ أَلَمْ يأتكم يا أيُّها الكفرة مطلقا، أو كفَّار مكَّة ﴿**نَبَأُ الذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ**﴾ قبلكم، كقوم نوح وعادٍ وثمود ونمرود وقومه، وفرعون وقومه.

﴿**فَذَاقُوا**﴾ لكفرهم، كما دلَّت عليه الفاء فإنَّها للسببيَّة، ومطلق الترتيب لا باتِّصال، لأنَّهم أُمْهِلُوا إلاَّ إنْ عُدَّ إهلاَكُهُمْ في الدنيا اتِّصالاً، إذ لم يُمْهَلُوا للآخرة. ﴿**وَبَالَ أَمْرِهِمْ**﴾ ضرر شأنهم الذي هو الكفر، وعبَّر عن كفرهم بـــ﴿أَمْرِهِمْ﴾ إشعارًا بأنَّه جناية عظيمة، تقول: فعل زيد أمرًا، إذا أردت تهويل فعله، ومادَّة «و ب ل» الثقلُ والشدَّةُ، كما يسمَّى الطعام الثقيل على المعدة: وبِيلاً.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ لا يعرف قدر عظمه إلاّ الله.

(بلاغة) أسند الألم إلى العذاب مبالغةً كأنّه متوجِّع، أو هو من الثلاثيِّ بمعنى الرباعي، أي: مُؤْلِمٌ، كنذير بمعنى منذر، وجليس بمعنى مجالس.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من ذوق العذاب في الدنيا، وثبوت العذاب الأليم في الآخرة. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أنَّ الشأن ﴿كَانَتْ﴾ أي: هي، أي: رُسُلهم، على التنازع، وأعمل الثاني وهو «تَاتِي» من قوله تعالى: ﴿تَاتِيهِم﴾.

(نحو) وقولُه: ﴿رُسُلُهُم﴾ فاعل «تَاتِي»، أو هو اسم «كَانَتْ» ولا ضمير فيه بل الضمير في «تَاتِي» على إِعْمَالِ الأوَّل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدلائل التكوينيَّة والمتلوَّة.

(نحو) ﴿فَقَالُوا﴾ عطف على «كَانَت» أو على «تَاتِيهِم» وفاعله. ﴿أَبَشَرٌ﴾ فاعل لمحذوف، أي: أيهدينا ؟ من باب الاشتغال في المرفوع، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَ اَحَدٌ﴾ (سورة التوبة: ٦) ، ﴿وَإِذَا السَّمَآءُ﴾ (سورة التكوير: ١١) ، لأنَّ الهمزة أميل إلى الفعل إذا وُجد، إلاَّ أنَّه يبقى قوله: ﴿يَهْدُونَنَا﴾ بلا استفهام، إلاَّ ما يحصل له من رائحته بالتفسير. والذي يظهر أنَّه مبتدأ والاستفهام ينسحب على الكلِّ، و«بَشَرٌ» جنس، ولذا عاد إليه واو الجماعة. وإذا أريد به واحد أُفرد الضمير، وإن نُعتَ نُعتَ بمفرد، كما قالت ثمود من هؤلاء المذكورين: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ (سورة القمر: ٢٤) .

﴿فَكَفَرُوا﴾ بهم، أي: بالرسل، أو بها، أو بهنَّ، أي: الآيات ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن التأمُّل في البيِّنات، أو عن الإيمان بها أو بالرسل. ﴿وَّاسْتَغْنَى اللهُ﴾ عنهم، أو عن كلِّ شيء، والأوَّل أولى، ويقدَّر العموم بعد «غَنِيٌّ».

(نحو) والجملة حال بلا تقدير «لقد»، أو بتقديرها، والفعل على ظاهره، أو العطف على «كَفَرُوا» وهذا أولى، أو الفعل بمعنى أظهر غناه فإنَّه غير محتاج إلى إيمانهم فلم يزد لهم بيِّنات أخرى، بل عجَّل عذابهم.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن كلِّ شيء عنهم وعن غيرهم في العبادة وغيرها. ﴿حَمِيدٌ﴾ أهل للحمد، ولو لم يحمده حامد، كما في الأزل، أو يحمده المؤمنون والملائكة والدوابُّ والجمادات، وذلك حمد بلسان الحال ولسان القال، جمع بين الحقيقة والمجاز، أو يحمل على عموم المجاز، أو على لسان الحال، ولو من الناطق بقطع النظر عن خصوص نطقه.

﴿زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُّبْعَثُوا﴾ المراد أهل مكَّة، ويجوز أن يكون الخطاب للعموم بتغليب المخاطبين، وهم أهل مكَّة، ومقتضى الظاهر: زعمتم (بالخطاب) مثل: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ﴾ وأظهر ليصفهم بالكفر الموجب للذَّمِّ، ويدلُّ على أنَّ المراد أهل مكَّة قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾. ومن الجائز التعميم في «الذِينَ كَفَرُوا»، والخطاب بعدُ لمخصوصين منهم، وهم أهل مكَّة، على الغائبين، وهم الأمم السابقة، وفيه زيادة فائدة.

(لغة) والزعم: الكذب هنا، أو القول الباطل، أو قول بلا دليل، أو دعوى العلم، وذلك كثير، وقد يستعمل بمعنى العلم واليقين. ويعمل عمل العلم في «أن» المشدَّدة أو المخفَّفة منها، وما بعدها باعتبار المصدر استغناء عن منصوبين بوجود المسند والمسند إليه، قبل التأويل بالمصدر.

﴿وَذَالِكَ﴾ ما ذكر من البعث والجزاء المعبَّر عنه بالتنبئة. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لكمال قدرته فلا يتعاصى عنه شيء أراده.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾

الأمر بالإيمان، والجزاء يوم القيامة

إذا كان الأمر كذلك ﴿**فئامنُوا بالله**﴾ الذي علمتم دلائل وجوده وقدرته وخصوصه بما يوجب الأُلوهِيَّة. ﴿**وَرَسُولِهِ**﴾ محمَّد الذي جاءكم بالآيات من عنده تعالى.

﴿**وَالنُّورِ الذي أنزَلْنا**﴾ أي: القرآن الشبيه بالنور الذي يزول به ضرر الظلمة، ويَبِين بهِ غيره كما يَبِينُ بالنور غيره، والإيمان به ﷺ يكفي عن ذكر القرآن، لكن ذكر للتنصيص عليه بذاته لا بمجرَّد التبع له ﷺ، ولئلاَّ يَتوهَّم متوهِّم أنَّه رسولٌ كتابُهُ الإنجيلُ أو التوراة، أو لا كتاب له.

[قلت:] وكذلك إذا علمنا أنَّه رسول الله فقد علمنا أنَّ ما جاء به حقٌّ، وهو القرآن وسائر الوحي، ولكن نزيد: «وأنَّ ما جاء به حقٌّ» لننطق بما في هذه الآية كلِّها.

وعَدَلَ عن مُقتضى الظاهر وهو «أَنزَلَ» بالبناء للفاعل، أي: الله إلى ﴿أنزَلْنا﴾ تعظيمًا للقرآن بصيغة عظمة الله تعالى.

﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ من طاعة ومعصية وإيمان أو كفر. ﴿**خَبِيرٌ**﴾ عالم بظاهره وباطنه.

﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ**﴾ متعلِّق بــ«خَبِيرٌ»، لأنَّه نائب عن مجازيكم بما عملتم من خير أو شرٍّ أو بــ«تنبؤون». ﴿**لِيَوْمِ الْجَمْعِ**﴾ اللاَّم للتوقيت، أو بمعنى في، وقد

تفسَّر لام التوقيت بفي، وادَّعى بعض أنّها للتعليل على تقدير مضاف، أي: لأجل حساب يوم الجمع، وهو يوم القيامة، سمِّي لأنَّه يجمع فيه الأوَّلون والآخرون، وقيل: الملائكة والثقلان، وقيل: الظالمون والمظلومون، وقيل: المطيعون والعاصون، وقيل: المؤمنون والكافرون.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: يوم الجمع ﴿**يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾ سمِّي يوم القيامة يوم التغابن لظهور غبن بعض النَّاس لبعض، كالتغابن في نحو البيع، قال تعالى: ﴿اشْتَرَوُاْ الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ (سورة البقرة: ١٧٥) ، وقال تعالى: ﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم...﴾ الخ (سورة الصَّف: ١٠) ، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (سورة التوبة: ١١١) ، فربحت صفقة المؤمن وخسرت صفقة الكافر، فالمظلوم يغبن الظالم، والسعيد يغبن الشقيَّ.

(صرف) وليس التفاعل على بابه، لأنَّ الغبن من جانب واحد، وهو جانب المظلوم، والسعيد والمظلوم مغبون في الدنيا غابن في الآخرة، اللهمَّ إلاَّ أن يسمَّى حال الشقيِّ والظالم غبنا أيضا تهكُّمًا بهما، أو مشاكلة مَعْنويَّة لا لَفْظيَّة، إذ لم يُذكَرْ الجانبان، وذلك بأن يسمَّى جزاء الظالم والشقيِّ غبنًا، وذلك أنَّ المظلوم يأخذ حسنات الظالم.

[قلت:] وما من سعيد إلاَّ له مقام في النَّار يخلفه فيه الشقيُّ، وما من شقيٍّ إلاَّ له أهل ومنازل في الجنَّة يخلفه فيها السعيد، فعنه ﷺ : «**ما من عبد يدخل الجنَّة إلاَّ أُرِيَ مقعده من النَّار لو أساء ليزداد شكرًا، وما من عبد يدخل النَّار إلاَّ أُرِيَ مقعده من الجنَّة لو أحسن ليزداد حسرة**»[1].

١-أورده الألوسيُّ في تفسيره: مج ١٠، ص١٢٣. بدون تخريج.

﴿وَمَنْ يُّومِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فالإيمان بلا عمل لا يجزي مَن عليه العمل، بخلاف ما لو آمن إنسان ومات قبل وجوب الفرائض عليه، أو اختلّ عقله أو جُنَّ أو بلغ مجنونًا أو عاقل وجنّ، أو اختلّ قبل لزوم فرض، أو مات تائبًا آخر عمره، و لم يعمل فإنّ له الجنَّة.

﴿نُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاته﴾ الصغائر والكبائر لتوبته. ﴿وَنُدْخِلْهُ جَنَّات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدَّرة، والجمع باعتبار معنى «مَن»، كما أنّ الإفراد في «يُومن» و«يَعْمَلْ» والهاء باعتبار لفظها. ﴿أَبَدًا﴾ لا تفْنَى ولا يُخرجون منها. ﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكر من تكفير السيِّئات وإدخال الجنَّات، أي: نيل ذلك. ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أو نَفْسُ ذلك هو المفوز به العظيم.

﴿وَالذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَآ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ هي والآيتان مفسِّرتان للتغابن على جهة مطلق الإخبار لا بصورة التفريع. و«خَالِدِينَ» حال مقدَّرة على معنى يصاحبونها. و«الْمَصِيرُ» اسم مكان، أو مصدر، أي: بئس المصير.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ اِلَّا بِإِذْنِ اِ۬للَّهِ وَمَنْ يُّومِنۢ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَےْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ اُ۬للَّهَ وَأَطِيعُواْ اُ۬لرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا اَ۬لْبَلَٰغُ اُ۬لْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اَ۬للَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اَ۬للَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِ۬لْمُومِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

كلّ شيء بقضاء وقدر

﴿مَا أَصَابَ﴾ أحدًا ﴿مِن﴾ صلة في الفاعل ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ مضرَّة.

(لغة) أصله اسم فاعل «أصاب» تغلّبت عليه الاسميَّة حتَّى لا ضمير فيه مستتر، وأصله في الخير والشرِّ، وتغلّب استعماله في الشرِّ، وأجاز بعض أن

يراد بها في الآية الخير والشرُّ، لورودها في الخير كما وردت في الشرِّ. ومعنى الإصابة اللحوقُ مطلقًا، وزعم بعض أنَّها في الخير من صوب المطر، وفي الشرِّ من إصابة السهم، وذلك دعوى، وحملُها على السواء أولى، وذلك مثل ما يصيب العبد في بدنه أو عقله أو عرضه أو ماله، أو ولده أو قرابته أو زوجه أو صاحبه، أو من يعزُّ عليه أن يصاب.

وفسَّرها بعض بما يشمل الشرك والمعاصي ويناسبه ورودها بعد جزاء المؤمن والكافر، وأيُّ مصيبة أعظم منهما، وهذا في الموحِّد العاصي ظاهر، وفي المشرك بعيد، لأنَّه لا يَعُدُّ الإشراكَ والمعصية مصيبةً. ﴿**إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ**﴾ بإرادته أو قضائه.

﴿**وَمَنْ يُّومِنْ بِاللهِ**﴾ ورسوله، والمراد بالإيمان بالله تعالى الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به كالرسل والكتب. ﴿**يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ إلى عدم الجزع بالمصيبة، وفي ضمن ذلك أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ و[يهديه] إلى العلم بأنَّها من الله تعالى، وأنَّها عدل منه ﷻ، وإلى الإيقان بـ«أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1].

وعن مجاهد: إن ابتلي صبر وإن أعطي شكر، وإن ظلم غفر، وفسَّره بعض بشرح الصدر لازدياد الخير والعبادة، وقدَّر بعض من لم يؤمن بالله لم يهد قلبه. ﴿**وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ فهو عالم بإيمان المؤمن فيهدي قلبه.

﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ كرَّر الطاعة للفرق بين إطاعة الله ﷻ وإطاعة رسوله في الْكَيفيَّة، ولتأكيد الإيمان برسوله ﷺ، كما عظَّمه بالإضافة

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **الترمذيُّ** في كتاب القدر عن رسول الله، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشرِّه، رقم ٢١٤٤. والربيع في كتاب الأيمان (١٢) باب في القدر والحذر والتطيُّر، رقم ٧٢ . من حديث عبادة بن الصامت.

إلى ضمير العظمة في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإطاعة ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ﴾ اسم مصدر، أي: التبليغ، أو على حذف مضاف، أي: حصول البلاغ. وما عليه ﷺ إلاَّ تبليغ الوحيِ، وقد بلَّغ بما لا مزيد عليه كما قال: ﴿الْمُبِينُ﴾ وهو رسول الله تعالى، تولَّوا أو لم يتولَّوا، ولكن أقام العلَّة مقام الجواب، أي: فإن تولَّيتم فعليكم عقاب التولِّي لا عليه، لأنَّه قد بلَّغ وما عليه إلاَّ التبليغُ، والحصر إضافيٌّ، أي: عليه التبليغ لا تباعة تولِّيكم.

﴿اللهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ﴾ لا على غيره، متعلِّق بما بعده على أنَّ الفاء صلة، لم يقل: «وعليه» ليصرِّح بالألوهيَّة الموجبة للتوكُّل. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾ وكذا غيرهم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المؤتمرون بالأمر، ولأنَّ الإيمان بأنَّ الكلَّ منه تعالى يقتضي التوكُّل، وفي ضمن هذا أنَّ من لم يتوكَّل لم يؤمن، فليس في الحثِّ على التوكُّل أعظم من هذه الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

التحذير من الافتتان بالأزواج والأموال والأولاد

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ احذروا الأزواج والأولاد كلَّهم لاشتمالهم على العدوِّ، ولا تدرون أنَّ الشرَّ من هذا أو هذه، أو من ذلك، أو تلك، ومن لم تظهر عداوته

فربَّما تكون أو تظهر بعدُ، فلا تهلكوا آخرتكم لأجلهم بالحميَّةِ أو بجمع المال الحرام لأجلهم، أو منع الحقِّ منه لأجلهم، أو بمطاوعتهم في البقاء على الشرك والمعصية أو عدم الهجرة، أو عدم طلب العلم، وغير ذلك ممَّا لا يجوز.

أو بحُبِّ إرغاد عيشهم ولو بعد موته، ولو لم يطلبوه لذلك، أو بأن طاوعهم في منعه عن الجهاد، وخذوا حذركم، وأخذ الحذر واجبٌ ولو من الصديق ومن المتولّى، إذْ لا يدري ما يحدث ولا ما بطن.

ويجوز ردُّ الضمير إلى العدوِّ من الأزواج والأولاد قال ﷺ : «**يأتي على النّاس زمان يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يُعيِّرانه بالفقر فيركب مراكب السّوء فيهلك**»[1].

﴿**وَإِن تَعْفُوا**﴾ عمَّا أصابكم من شرِّ عداوتهم في دينكم أو دنياكم، أو فيهما ولا تعاقبوهم. ﴿**وَتَصْفَحُوا**﴾ تُعْرِضوا عن الحقد عليهم، وعن أن تعَيِّروهم. ﴿**وَتَغْفِرُوا**﴾ لَهُمْ تَستُرُوا ذلك عن غيرهم، ولا تشكوا بهم إلى أحد، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اعْفَوا وَاصْفَحُوا واغْفِروا ولو لم يفعلوا ذلك، فالجواب محذوف، أي: يثبكم، أو يفعل بكم ما فعلتم معهم، ممَّا ذكر، نابَتْ عنه علَّتُه وهو قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ أي: لأنَّ الله غفور رحيم.

(سبب النزول) وقد قال ابن عبَّاس رضي الله عنه : نزل ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ...﴾ الخ في قوم من أهل مكَّة أسلموا وأرادوا الهجرة فمنعهم أزواجهم وأولادهم، فلمَّا هاجروا وجَدُوا النّاس قد فقهوا في الدِّين فهَمُّوا أن يعاقبوهم على المنع، وتفويت الفقه. رواه الترمذيُّ والحاكم والطبرانيُّ.

١- أورده الألوسيُّ في تفسيره: مج ١٠، ص١٢٦. بدون تخريج.

وعنه: نزلت في الرجل يريد الهجرة فتحبسُه زوجه وولده، فيقول: «أما والله لئن جمعني الله وإيَّاكم في المدينة لأفعلنَّ ولأفعلنَّ». وفي رواية: «لئن جمعنا الله تعالى في المدينة لن نصبكم بخير». فجمع الله بينهم ومنعوهم الخير فرجعوا إلى الخير لهم للآية.

وفي رواية: إنَّ عوف بن مالك الأشجعيَّ أراد الغزو مع رسول الله ﷺ بعد الهجرة، فاجتمع عليه أولاده وزوجه يبكون ويمنعونه، فرقَّ لهم ولم يخرج للغزو ثمَّ ندم، فهَمَّ بمعاقبتهم. ففي الآية أن لا يحقد الرجل على زوجه وولده.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ قدَّمَ الأموال لأنَّها أعظم فتنة من الأولاد، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ الانسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾ (سورة العلق: ٦ — ٧)، قال كعب بن عياض وعبد الله بن أوفى: قال رسول الله ﷺ: «**لكلِّ أمَّة فتــنة وإنَّ فتنة أمَّتي المال**»[1] ومعنى الحصر هنا أنَّ المال والأولاد لا تخرج عن كونهما فتنة، وإنَّما ينجو صاحبهما عنها بالتحرُّز عنها كالنَّار محرقةً أبدًا وإنَّما ينجو النَّاسُ بالتحرُّز عنها.

﴿وَأَوْلاَدُكُمْ﴾ مطلقًا، ولو لم تظهر منه عداوة ولم تكن في قلوبهم ﴿فِتْنَةٌ﴾ سبب الافتتان في الدِّين، أو الاشتغال عنه، أو الفتنة: البلاء والمحنة، لترتُّب الإثم عليهم.

وشدائد الدنيا والميل إليهم طبعيٌّ، فليتنبَّه له ولا يسترسل فيه، وقد فسَّر بعضهم الفتنة به، وإذا أمكنتكم الهجرة والجهاد فلا يفتنُكم عنهما الميل إلى المال أو الولد.

١-رواه **الترمذي** في كتاب الزهد. باب ما جاء إنَّ فتنة هذه الأمَّة في المال. رقم: ٢٣٣٦. **والحاكم** في «مستدركه» كتاب الرقاق. باب في الرقاق رقم: ٧٨٩٦ من حديث كعب بن عياض.

ويناسبُ ما ذكرت من أنّ الميْل إلى الولد بالطبع ما رواه بريدة أنّه كان ﷺ يخطب، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فترل ﷺ من المنبر فحمل واحدا من جانب وآخر من جانب، وصعد المنبر فقال: «**صدق الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، لَمَّا نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما**»[1]، رواه الترمذي والنسائي وأبو داود.

وعن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ يخطب فخرج الحسين إليه فعثر في ثوبه فسقط فبكى، فترل رسول الله ﷺ ، فتناوله النَّاسُ واحد عن واحد حتَّى وقع في يد رسول الله ﷺ ، فقال: «**قاتل الله الشيطان، إنّ الولد لفتنةٌ، والذي نفسي بيده ما دريت أنّي نزلت عن منبري**»[2] رواه ابن مردويه.

[قلت:] وانظر بين فعل رسول الله ﷺ بالحسن والحسين وبين قتل الحسين بكربلاء ظلمًا، وقتل الحسن بالسمِّ ظلما رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، وهما صحابيَّان صغيران، لهما عقل عظيم من صغرهما.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن اختار الإيمان والهجرة والجهاد، وأمر الدِّين عن الأولاد والأموال.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ «ما» مَصدَرِيَّة على حذف مضاف، أي: قدر استطاعتكم، أو مَصدَرِيَّة ظرفيَّة، أي: ما دمتم مستطيعين، أي: مدَّة استطاعتكم، ويناسب الأوَّل ما روي أنّه لَمَّا نزلت الآية قاموا حتَّى ورمت

١- رواه **النسائيُّ** في كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر...، رقم: ١٤١٣ . و**ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ذوي الأرحام، رقم: ٦٠٣٩ . من حديث أبي بريدة.

٢- أورده **السيوطيُّ** في الدر: مج ٦، ص٢٥٣. وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عمر.

عراقيبهم وتقرَّحت جباههم. وكذا قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢) ، ونسخت بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا به﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦) ، وشهر أنَّه لَمَّا نزل ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاته﴾ قاموا حتَّى تورَّموا وتقرَّحوا، فنسخت بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْـــتُمْ﴾.

[قلت:] والظاهر أنَّه لا نسخ في ذلك، بل المعنى ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاته﴾ بمجرَّد أداء الفرائض وترك المعاصي، وكذا معنى ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْـــتُمْ﴾، واحذروا فتنة المال والولد.

﴿**وَاسْمَعُواْ**﴾ مواعظه ﴿**وَأَطِيعُواْ**﴾ لا تخالفوه في أمره ونهيه. ﴿**وَأَنفقُواْ**﴾ من أموالكم في وجوه الخير بإخلاص، نفْلاً وفرضًا، أو نفلاً، أو زكاة، أقوال، والصحيح الأوَّل.

(**نحو**) ﴿**خَيْرًا لأَنفُسكُمْ**﴾ تبادر لي أنَّه خبر لكونه في جواب أمْرٍ محذوف، أي: افعلوا ذلك كلَّه يكن خيرًا، أي: منفعة لكم أو أفضل من إمساك الأموال ومن الأولاد. وقال سيبويه: مفعول لمحذوف معطوف بعاطف محذوف، أي: افعلوا خيرًا، وعن الكسائيِّ: مفعول مطلق، أي: إنفاقًا خيرًا، ويبعد أنَّه مفعول بمعنى المال.

﴿**وَمَنْ يُّوقَ شُحَّ نَفْسه**﴾ بُخْلَها مع الحرص ﴿**فَأُولَئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ إِن تُقْرِضُوا اللهَ**﴾ تنفقوا أموالكم في وجوه الأجر.

(**بلاغة**) شبَّه الإنفاق في وجوه الأجر على قصد التعويض من الله تعالى بإعطائه أحدًا على وجه الردِّ، فذلك استعارة تمثيليَّة.

﴿**قَرْضًا حَسَنًا**﴾ بأن كان من حلال وبإخلاص وطيب نفس، بلا قصد إلى ما يستحقر من المال شحًّا.

﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ درهم واحد بعشرة إلى سبعمائة فصاعدًا. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاقِ ذنوبَكُم ﴿وَاللهُ شَكُورٌ﴾ يعوِّض الجزيل في القليل والحقير ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة على الذنوب الكثيرة العظام.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرَّ تفسير ذلك.

والله الموفِّق المستعان

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

تفسير سورة الطلاق وآياتها ١٢

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ① فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ③﴾

من أحكام الطلاق والعدّة
والأمر بالتقوى والتوكّل على الله

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ**﴾ أي: والمؤمنون، فذلك من باب الاكتفاء، بدليل قوله تعالى. ﴿ **اذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ**﴾ بضمير الجماعة، فهو للنبيء ﷺ والمؤمنين، أو الضمير للنَّبيء ﷺ لتعظيمه، فلا يقدَّر المؤمنون، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (سورة المومنون: ٩٩) ، في وجه، وقول الشاعر:

« ألا فارحموني يا إله محمَّد »

وعليه فحكم المؤمنين تبع له ﷺ ، وحكم الأمَّة حكمه، إلاَّ ما خُصَّ به، أو يقدَّر القول هكذا: يا أَيُّها النبيء قل إذا طلَّقتم النساء، أو ناداه وخاطبهم، وقدّم النداء لينتبَّه لهم ويراعيهم، كمن أحضر قائما على عمَّاله وأمرهم بالعمل

بحضرته، وليس ذلك ممَّا منع من خطابين بكلام واحد، لأنَّ النداء كلام وما بعده كلام، وإنَّما ذلك كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ (سورة يوسف: ٢٩) .

ولَمَّا كان إمام أمَّته ﷺ خصَّه بالنداء، وعمَّ الخطابُ بالحكم، لأنَّهم لا يصدرون إلاَّ عنه، كما يقال لرئيس القوم: يا فلان افعلوا كذا، إظهارًا لتقدُّمه، وصُدُورِهِمْ بِأَمرِهِ.

والمراد: إذا أردتم تطليق النساء، فعبَّر عن الإرادة بالتطليق لأنَّها سببه، وإلاَّ لزم تحصيل الحاصل، لقوله تعالى: ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾ وهو محال، أو لزم تطليق آخر، وهو غير مراد، وذلك من باب المشارفة، كقوله ﷺ : «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[1]. ومن ذلك كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها مثل المصلِّي في الثواب.

وأمَّا ما يُقال: إذا صدر منكم تطليقٌ فلْيَكُن لِعِدَّتِهِنَّ، فليس كافيًا، لأنَّه كلفظ الآية يحتاج للتأويل، لأنَّه إذا صدر التطليق استحَالَ طلبُ تكوينه لِعِدَّة مع أنَّه قد وقع، بل يطلِّق طلاقا آخر، وليس مرادًا، بل يقال: إن أردتم صدور الطلاق.

(نحو) واللاَّم للتوقيت، كقوله: كتبته لثلاث بقين، أو مستقبلات لعدَّتهنَّ، والكون الخاصُّ إذا عُلم جازَ حَذْفُهُ وَذِكْره، وإذا لَمْ يُعلَمْ وجب ذِكْرُهُ، وإذا حذف فمع ضمير، وأمَّا العامُّ فواجب الحذف، وهو أبدًا معلوم بالظرف، ويحذف وحده وينتقل ضميره للظرف، ويستتر فيه، وذلك في باب الحال، كالصلة والصفة والخبر في الحال أو في الأصل.

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج٥، ص٣٣٠.

وتقدير: «مستقبلات» أو: «لاسْتقبال» بناءً على أنَّ العدَّة بالحيض، لوجوب أن لا يكون الطلاقُ في الحيضِ، وإذا كان في الطهر مُدَّةً تامَّةً لمضيِّ بعضِه، والسُّـنَّة الطلاق فيه قبل المسِّ فيه.

(فقه) والطلاق في الحيض بدعة إجماعًا، وكبيرةٌ على الأصحِّ، ومضى على الأصحِّ، وقيل: لا يُعتدُّ به، وكأنَّه غيرُ واقعٍ على أنَّ النهي يَدُلُّ على الفساد، ويردُّه قوله ﷺ : «**مُره ليراجعها**»، ويحمل القرء في سورة البقرة على الحيض.

(قراءات) وقد قرأ رسول الله ﷺ وابن عبَّاس وابن عمر: «فِي قِبَلِ عِدَّتِهِنَّ»، وعنهما وعن ابن مسعود: «لِقِبَلِ عِدَّتِهِنَّ». قال النوويُّ في شرح مسلم: قراءة ابن عبَّاس وابن عمر: «فِي قِبَلِ عِدَّتِهِنَّ» شاذَّة لا تثبت قرآنًا إلاَّ بالإجماع، ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا. قلت: وكذا قراءة: «لِقِبَلِ عِدَّتِهِنَّ».

(فقه) ومن قال: العدَّة بالأطهار فَسَّرَ القُرْءَ بالطُّهْرِ ولم يقدِّر: «لاستقبالِ»، أو «مستقبلات»، وعلَّق اللاَّم بـ«طَلِّقُوهُنَّ»، وهو مذهب الشافعيِّ، والأوَّل مذهبنا ومذهب أبي حنيفة.

طلَّق ابن عمر زوجه حائضا، فذكر عمر رضي الله عنه ذلك لرسول الله ﷺ ، فتغيَّظ فيه رسول الله ﷺ ، ثمَّ قال: «**ليراجعها ثمَّ يمسكها حتَّى تطهُر ثمَّ تحيض فتطهرَ، فإن بدا له أن يُطلِّقها فليطلِّقها طاهرًا قبل أن يمسَّها، فتلك العدَّة التي أمر الله تعالى أن يطلَّق لها النساء**»[1] وذلك لِئَلاَّ تطول العدَّة.

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج٢، ص٥٩.

(فقه) وإنَّما شرط طهرا ثانيًا بعد حيض ثانٍ ليحصل حيض وطهر مَحْضَيْنِ، لا كطهرٍ من حيضٍ وقع فيه الطلاق المنهيُّ عنه، ولئلاّ تكون المراجعة للطلاق. كما يكره النكاح للطلاق. وهذا استحباب، فلو راجعها وطلّقها أوَّل الطهر الذي يلي الحيض الذي طلّقها فيه لَجَازَ، ولَمْ يكن بدعة، وما تقدَّم رواية نافعٍ عن ابن عمر.

وروى يونس بن جبير[1] وأنس بن سيرين[2] عن ابن عمر: «مُرْهُ يراجعْها، فإذا طهرت فإن شاء طلّقها وإن شاء أمسكها».

(فقه) فنقول: كلُّ طلاق لم يقع في الحيض ولا في النفاس فهو طلاق السنَّة إن لم يكن ثلاثًا أو اثنين بمرَّة. وقيل: طلاق الآيسة والصغيرة وغير المدخول بها والتي لم تر الدم، والحامل لا يكون بدعيًّا ولا سنِّيًّا.

(فقه) وإن طلّقها في طهر بعد مسٍّ فيه فقيل: عَصَى، وكان بدعةً، لأنّه ﷺ قال في حديث ابن عمر: «**قبل أن يَمَسَّها**».

(فقه) والخلع كالطلاق، وقيل: الخلع يجوز في الحيض بلا بدعة، لأنَّه ﷺ أذن لثابت بن قيس أن يخالع زوجه ولم يسأله أحائض هي أم طاهر؟ وليس بشيء، وَيَرُدُّه أنَّ الأحاديث لم تُبن على السؤال عن الأحوال إلاَّ إذا ادُّعي شيء أو ريبَ، ولا سيما أنّه قد شهر النهي عن الطلاق في الحيض.

١- يونس بن جبير الباهلي، أبو غلاب البصري، ثقة، من الطبقة الثالثة، تُوُفِّيَ بعد التسعين، وأوصى أن يصلّي عليه أنس بن مالك. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج ٢، ص٣٩٤.

٢- أنس بن سيرين، من التابعين حدَّث عن جندب البجلي وابن عمر وابن عبَّاس وغيرهم. وحدَّث عنه ابن عون، وخالد، وشعبة وغيرهم. وثّقه ابن معين. وهو آخر من تُوُفِّيَ من طبقة التابعين سنة ١٢٠هـ. الحمصي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج ١ ، ص١٧٠.

(فقه) والفداء طلاق، فالطلاق في الطهر بعد المسِّ فيه بدعة أيضًا، وهي دون بدعة الطلاق في الحيض. والنفاس كالحيض. والشافعيُّ يقول: «لِقبَلِ عِدَّتِهِنَّ» أوَّل الطهر، وقبَلُ الشَّيْءِ ضِدُّ دُبُرِهِ.

ومن طلَّق ثلاثا بلفظ واحد عصى وبانت عنه. وطلَّق رجل زوجه ثلاثا فقال ﷺ وهو غضبان: «**أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟**». وطلَّق الصامت زوجه ألفًا فسأل ابنه عبادة بن الصامت رسول الله ﷺ فقال: «**بانت بثلاث في معصية الله تعالى، وبقيت تسعمائة وسبعة وتسعون عدوانًا وظلمًا إن شاء الله عذَّبه وإن شاء غفر له**». فالطلاق فوق الثلاث معصية وظلم لها.

وقيل: الطلاق بلفظ واحد ثلاثا أو اثنتين طلاق واحد، وحديث الصامت ردٌّ على ما شهر أنَّ طلاق الثلاث واحد على عهد رسول الله ﷺ . وعنه ﷺ : «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[١]. ولفظ أبي داود وابن ماجه: «**إنَّ من أبغض المباحات عند الله عز وجل الطلاق**». وفي رواية أبي داود: «**ما أحلَّ الله تعالى شيئا أبغض إليه من الطلاق**»[٢]. وروي أنَّ العرش يهتزُّ به.

(سيرة) والشرع جاء بإمساكهنَّ ومجاملتهنَّ قال ﷺ : «**أحسنكم عند الله أحسنكم إلى عياله**»، وقال: «**خيركم عند الله خيركم إلى نسائه**» قاله لعبد الله بن رواحة أحد النقباء فرحا بفعله إذ لاين زوجه اتَّهمته بسريَّة له ليلة، فأنكر بمعرضة لا بكذب، فقالت: إن صدقت فاقرأ القرآن فقال:

شهدت فَلَم أكذب بأنَّ محمَّـــدا رسول الذي فوق السماوات من عل
وأنَّ أبا يحيى ويحيى كلاهمـــا له عمل في دينه متقبَّـــل

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج ٥ ، ص٦١.

٢- رواه **أبو داود** في كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، رقم: ٢١٧٧. من حديث محارب.

وأنّ التي بالجزع من بطن نخلـــــة ومن ذاتها كلّ عن الخير معــزل

فقالت: زدني، فقال:

وفينا رسول الله يتلو كتابـــــه كما لاح معروف من الفجر ساطـع

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنــــا به موقنات إن ما قال واقــــع

يبيت يجافي جنبه عن فراشــــه إذا رقدت بالكافرين المضاجــع

فقالت: زدني، فأنشد:

شهدت بانّ وعد الله حـــــقٌّ وأنّ النار مثوى الكافرينـــــا

وأنّ محمَّدًا يدعو بحــــقٍّ وأنّ الله مولى المؤمنينـــــا

وأنّ العرش فوق الماء طــــاف وفوق العرش ربُّ العالمينـــــا

ويحمله ملائكة شــــداد ملائكة الإله مسوَّمينـــــا

فقالت: أَمَّا إذا قرأت القرآن فقد صدقتك، إذ صدق الله وكَذِبَ بصري. فأخبر النبيءَ ﷺ ، فتبسَّم، فقال ما مرَّ. وقال أيضا: وجدتها فقيهة، أي: عالمة بأنَّ الجنب لا تجوز له قراءة القرآن.

﴿**وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ**﴾ اضبطوها ثلاثة قروء كواملَ. هذه حقيقة عرفيَّةٌ، وأصل الإحصاء: العدُّ بالحَصى. ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ**﴾ احذروا تطويل العدَّة عليهنَّ بأن تُطلِّقُوهنَّ في الحيض فلا تبتدئ الحساب إلاَّ من طهر ثانٍ بعد حيض ثانٍ لهذا الحيضِ، كما مرَّ في حديث ابن عمر.

والخطاب للأزواج المطلِّقين، ويجوز أن يراد باتِّقاء الله حَذَر أن يكون كلَّما شارفت انقضاء العدَّة طلَّقها، فتستأنف أخرى، بل كلٌّ ذلك.

[قلت:] وأمَّا ما ذكر من أنَّه ﷺ أمر ابن عمر أن يطلِّقها في أوَّل كلِّ طهر فلا يصحُّ، لأنَّه ﷺ ينهى عن الطلاق فكيف يأمر بتعديده من لم يطلب

التعديد؟ وإنَّما امره بواحدة غير التي كان قد أوقعها على غير شريعة، ليكون قد طلَّق للسنَّة.

﴿لاَ تُخرِجُوهُنَّ﴾ سفهًا أو لبغض، أو غضبًا عليهنَّ، أو انتقامًا، أو كراهةً لمُساكنَتِهِنَّ، أو لحاجة، أو أمرٍ مَّا، إلاَّ ما أذن الشرع فيه. وشمل النهيُ التضييقَ عليهنَّ بأمر مَّا حتَّى يخرجن، وشمل الإشارة بالإخراج. ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من بيوت سكناهنَّ، فحذف المضاف، أو أضاف البيوت إليهنَّ لأنَّهنَّ سواكن فيها، وكأنَّهنَّ موالك لها، كما يقال لمكتري بيت: امض إلى بيتك. وفي ذلك تأكيد للنهي عن إخراجهنَّ لاستحقاقهنَّ السكنى، كأنَّها أملاكُهُنَّ، مع أنَّها أملاك للأزواج أو غيرهم، وإن كانت أملاكا لهنَّ لم يتوهَّم أحدٌ جواز إخراجهنَّ فضلاً عن أن ينهى عنه. ﴿وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلآَّ أَنْ يَّاتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ لا ناهية، أو نافية بمعنى النهي.

(فقه) وخروجُهُنَّ محرَّم لا يطلبه، ولا يأذنوا لهنَّ فيه، ولا يخرجن ولو رضَوا، وسُكْنَاهُنَّ حقٌّ مُؤكَّدٌ لله تعالى لا يحلُّ بالإباحة، وذلك مذهب الْحَنَفيَّة. ومذهبنا ومذهب الشَّافعيَّة جوازُ الخروج برضاهُ ورضَاهَا بلا تضييقٍ بعُسْر النَّفقة، أو كلامِ السُّوء حَتَّى تخرج بسبب ذلك، وأنَّ السكنى حقٌّ لهنَّ، وعلى الأوَّل لو افتدت على أن لا سكنى لها اكْتَرَتِ البيت ولا تخرج منه، هذا نصُّ أصحاب هذا القول.

ولها الخروج لخوف انهدام أو غرق أو دابَّة مؤذية أو سرقة، ولها الخروج نهارًا لحاجةٍ لها كبيع غزل أو شراء قطن، أو صوف.

(سيرة) روي أنَّ نساء قتلى أحُد توحَّشن، فأذن لهنَّ رسول الله ﷺ أن يجتمعن في بيت إحدَاهُنَّ للتحدُّث ويبتن في بيوهنَّ، وأجاز ﷺ لخالة جابر التي طُلِّقَت أن تخرج لجدار نخلها.

(فقه) وإذا لزمتها العدَّة في السفر وليس معها زوجها اعتدَّت في أهلها ذاهبةً وراجعةً. والبدويَّة تعتدُّ في ارتحالها وإقامتها.

والفاحشة المبــيِّنة قيل: هي خروجهنَّ، كأنَّه قيل: لا يتصوَّر خروجهنَّ قبل انقضاء العدَّة إلاَّ وخروجهنَّ فاحشة ظاهرة، لا يتصوَّر أن يكون خروجهنَّ غير فاحشة مبــيِّنة، كما تقول: لا تشتم أمَّك إلاَّ وأنت قاطع الرحم، وهذا أبلغ في النهي على الإطلاق، ولو برضاها ورضى زوجها.

[قلت:] والأوْلَى غيرُ هذا بأن تفسَّر الفاحشة بالزّنى، أو بالقيادة، أو بالمزمار، أو الغناء، أو الطبل، أو الكهانة، أو السحر، أو طول اللسان على زوجها أو أَقاربِه أو أهلِه أو جاره، أو السرقة، أو الردَّة، أو نشوزها على زوجها حتَّى طلَّقها، وإن تابت رجعت.

وقيل: الفاحشة ما فيه حَدٌّ، تخرج ليُقام عليها فترجع.

والاستثناء منقطع، قيل: أو تقدَّر باء السببيَّة، أي: إلاَّ بإتيانهنَّ بفاحشة مبــيِّنة، وفيه أنَّه يتمُّ الكلام على تقدير: لا يخرجن لطلبكم خروجهنَّ إلاَّ بأن يأتين، كأنَّه قيل: إذا طلبتم خروجهنَّ فلا يخرجن إلاَّ بسبب الفاحشة، فإن رضيتم بالسكنى مع ذلك وزجرتموهنَّ عن الفاحشة جازَ. أو تُعلَّق الباء بــ«تُخرِجُوهُنَّ».

﴿**وَتِلْكَ**﴾ الأحكام من التطليق للعدَّة وإحصاء العدَّة واتِّقاء الله، وعدم الإخراج وعدم الخروج ﴿**حُدُودُ اللهِ**﴾ لا تُتجاوز ولا يقصَّر عنها. والحصر إضافيٌّ منظور فيه إلى شأن الطلاق. ﴿**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ**﴾ بالتفريط أو الإفراط ﴿**فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ فيُعَاقبُ، أو ظُلْمُ النَّفس مجازٌ عن مسبَّبه ولازمه وهو العقاب، وفسَّر بعضهم ﴿ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بأنَّه أضرَّ بها، أي: عرَّضها للضرر، والمَآْصَدَقُ واحد.ﷺ

﴿لاَ تَدْرِي﴾ أيُّها المُتَعَدِّي، وهذا على طريق الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب تأكيدًا للزجر عن التعدِّي. وقيل: [الخطاب] للنبيء ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿لاَ تَدْرِي...﴾ الخ ترغيب في المحافظة على الحدود بعد الترهيب، كذا قيل، وهو واضح. وقد يُقال: إنَّه أنسب بالترهيب. ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَالِكَ﴾ التعدِّي ﴿أَمْرًا﴾ جملة الترجية سدَّت مسدَّ مفعولَيْ "دَرَى" كجملة الاستفهام.

والمراد: لا تدري أيُّها المتعدِّي عاقبة الأمر لعلَّ الله يُحدث في قلبك بعدما فعلت مِمَّا هُو تَعَدٍّ أمرًا يقتضي خلاف ما فعلت، كإبدال بغضها بالحبِّ والإعراض عنها بالإقبال، وبتِّ الطلاق بالرجعة، أو تجديد النكاح.

[قلت:] ويحرم على من يُعرَضُ عليه أمر الطلاق أو كنايتُه أن يأمُره بثلاَث تطليقاتٍ أو بالطلاق البائن، ومن فعل ذلك فد ظلمها، وصار كمن قطع بين الزوجينِ، ونافر الآية ونَاقَضَهَا، فإنَّ الآية دَلَّت على أن لا يطلِّق إلاَّ واحدةً رجعيَّة لعلَّ الله تعالى يُحدث في قلبه الرجعة.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ بلغن آخر مدَّة العدَّة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بالمراجعة بلا صداق، أو بعقد نكاح جديد بصداق ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ معَ معروف، أو ملتبسين بمعروف منكم، كترك الحقد وعدم التعيير، وعدم التهديد بطلاق آخر، وحسن عشرة، وإنفاق حَسَنٍ، وكذلك من جَانبهنَّ، إلاَّ أنَّ الآية سيقت لمعروف منهم وعدم قصد التطويل عليها بتطليق آخر في آخر مدَّة العدَّة.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ لا بشتم وحقد وإفشاء مساوئها وذمِّهَا وبهتها.

(فقه) ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أيُّها المطلِّقون ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ لا عدلاً وامرأتين عدلين، وأجازه بعض، والإشهاد يكون عند المراجعة، ولا تصحُّ بدونه

كما لا يصحُّ النكاح إلاَّ به، وكذا إن أراد عقد النكاح عليها في العدَّة بدل الرجعة لا بدَّ من الإشهاد من باب أولى، وذلك مذهبنا وقديم الشافعي.

(فقه) وإن راجع بلا شهود أو بشاهد واحد ومسٍّ حَرُمَتْ، وفي الجديد ومذهب الْحَنَفِيَّة والْمَالكِيَّة جوازُ الرجعة بلا شهود، وصحَّ الطلاق بلا إشهاد، وإنَّما يحتاج إلى الإشهاد عليه لِمَا يترتَّب عليه من الأحكام، كدفع أن تدَّعي هي أو هو ثبوت الزَّوجيَّة ليرث، وكدفع أن تنكر الرجعة لتــتزوَّج.

[قلت:] وزعم بعض عن أئمَّة من أهل البيت أنَّه لا يصحُّ الطلاق إلاَّ بالإشهاد، وربَّما لا يصحُّ ذلك عنهم.

﴿وَأَقِيمُوا﴾ يا أيُّها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ لِلهِ﴾ أخلصوها لله تعالى لا تكتموها ولا تنقصوا منها ولا تزيدوا فيها، بل أدُّوها كما أخذتموها.

(بلاغة) وفي الآية دليل على أن لا قُبح في ترك النداء مع عطف أمرين لمأمورين مع ظهور المراد كما هنا، فإنَّ الأمر في «أَشْهِدُوا» للمطلِّقين، وفي «أَقِيمُوا» للشهود، وكما في قوله ﷻ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ...﴾ الخ (سورة يوسف: ٢٩) ، ولا سيما مع التخالف كما في الآيتين، فإنَّ «أَشْهِدُوا» و«أَقِيمُوا» ولو توافقا في الأمر والجَمعيَّة لكن قد ظهر أنَّ الأوَّل لغير الشهود، والثاني للشهود، ولو توافقا بلا ظهورِ مُنِعَ أو قُبِحَ، نحو: اضرب واخرج، تريد أمر زيد بالضرب وعمرو بالخروج، فلا بدَّ أن تقول: اضرب يا زيد واخرج يا عمرو.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإمساك بمعروف، أو الفراق بمعروف وإقامة الشهادة، أو إلى التطليقِ للعدَّة وما بعد ذلك إلى إقامة الشهادة، وقيل: الإشارة إلى إقام الشهادة.

والتعميم أَوْلَى لعدم دليل للتخصيص، ولأنَّه أكثرُ فائدةً وأنسب بقوله: ﴿وَمَنْ يَّـتَّقِ اللَّهَ﴾، ولعلَّ وجه تخصيصها صعوبة المشي إلى تأديتها.

(فقه) وهي لازمة الأداء عليهم في الفرسخين، ولهم الأجرة فيما بعدهما، ولو أغنياء، وفيهما إن كان أداؤها يشغلهما عن الكسب وهم فقراء محتاجون.

﴿**يُوعظُ به مَن كَانَ يُومِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ**﴾ أي: يؤثِّر الوعظُ فيه، وأمَّا المشرك فكذلك أُمِرَ لأنَّه مخاطب بالفروع، إلاَّ أنَّه لا يتأثَّر بالوعظ بذلك، إلاَّ أنْ يشاء الله.

﴿**وَمَنْ يَّـتَّقِ اللَّهَ**﴾ يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه المذكورة في هذه السورة وفي غيرها ﴿**يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾ موضع خروج، أو زمانه، أو نفس الخروج، والأوَّل أظهر. **والخروج في الوجوه كلِّها هو من الهموم والمضائق من جهة الأزواج وغيرها من أمور الدِّين والدنيا والآخرة.**

وعن ابن عبَّاس: قرأها النبيء ﷺ فقال: «**مخرجا من شبهات الدنيا وغمرات الموت، وشدائد الآخرة**»[1]، وقيل: من يتَّق الحرام يجعل له مخرجًا إلى الحلال، وقيل: من الشدَّة إلى الرخاء، وقيل: من النَّار إلى الجنَّة، وقيل: من العقوبة ويرزقه الثواب، وقيل: من يتَّق الله عند المصيبة يجعل له مخرجا إلى الجنَّة، **والعموم أولى.**

﴿**وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾ لا يعتقد في قلبه، والإنسان تارة يفعل ما يَظُنُّ أَنَّـهُ يرزق به فيرزقه الله، أو لا يرزقه، وقد يفعل ما لا يَظُنُّ فيه رزقًا فيرزق به، ومن ذلك أن يستدين بلا قصدٍ أو بقصد أن يرزق.

١- أورده **السيوطي** في الدر: مج٦، ص:٢٥٧. وقال: أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم. من حديث ابن عبَّاس.

وعن محمَّد بن عليٍّ[١] أنَّه كان يستدين، فقيل له: أتستدين ولك كذا وكذا من المال؟ فقال: لأنَّ النبيء ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى مع المدْيون حتَّى يقضي دينه**»[٢]، فأُحبُّ أن يكون الله معي. وكذا روي عن عائشة أنَّها كانت تستدين، فقيل لها: مالك وللدَّين؟ فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان عليه دين ينوي قضاءَهُ كان معه من الله تعالى عونٌ**»[٣]، فأنا ألتمس من الله تعالى عونًا. وكذا روي أنَّه قال ﷺ : «**تَعَرَّضُوا للرزق فإن غُلب أحدُكُم فليَستَدِن على الله تعالى ورسوله**»[٤].

[قلت:] ولا يخفى أنَّ من استدان على نية عدَمِ قَضَاء الدَّيْن آكل للسُّحْتِ، ففي الحديث: «**من تزوَّج على نية أن يذهب بالصداق بعث زانيا، ومن اشترى على نية أن يذهب بالثمن بُعث سارقا**»[٥].

قال أبو ذرٍّ: جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ فجعل يردِّدها حتَّى نعسْت، ثمَّ قال: «**يا أبا ذرٍّ لو أنَّ الناس كلَّهم عملوا بهذه الآية لكفتهم**»[٦]. رواه أحمد والبيهقيُّ.

١- تقدَّم التعريف به في: ج٧، ص٢٤٠.

٢- لم نقف على تخريجه.

٣- رواه **أحمد** في مسنده، كتاب حديث عائشة، باب حديث عائشة، رقم: ٢٥٦٥٥ . من حديث عائشة.

٤- لم نقف على تخريجه.

٥- رواه **البيهقي** في شعب الإيمان، باب قبض اليد عن الأموال المحرَّمة... فصل التسديد في الدين، رقم٥٥٤٩ . من حديث صهيب.

٦- أورده **الألوسيُّ** في تفسيره، مج: ١٠، ص١٣٥. وقال: أخرجه أحمد والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة والبيهقي. من حديث أبي ذرٍّ.

(سيرة) وعن أبي صالح عن ابن عبَّاس قال عوف بن مالك: يا رسول الله، ابني سالم أسَرَهُ العدُوُّ وجزعت أمُّه، وإنِّي محتاج، فما تأمرني؟ قال: **«ما أمسى عند آل محمَّد إلاَّ مُدٌّ، آمرُك وإيَّاها أن تستكثروا من قول لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله»**، فقالت: نِعْمَ ما أمرك، فجعلا يكثران منها فتغفَّل العدُوَّ فاستاق غنمهم، وعن ابن عبَّاس: أربعة آلاف شاة فجاء بها إلى أبيه، وقيل: إبلاً، وقيل: مائة من الإبل غفل العدوُّ عنها، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَــتَّقِ اللَّهَ...﴾ الآية.

وقد كانوا شدُّوه بالقيد، فسقط القيد عنه، أي: ببركة حوقلة أبويْه، فوجد ناقة لهم فركبها، ووجد سرحًا لهم، أي: غنمًا، وفي بعض الروايات ساق أعنزًا لهم فصاح بها فسارت كلُّها، فساق ذلك حتَّى نادى أبويه بالباب، ومعه الناقة والغنم، فنزلت الآية وقال: لك ما جئت به.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ في الحديث القدسيِّ: **«إنِّي أجعل المخرج للمتوكِّل ولو كادته السماوات والأرض»**[1]، ويعجبني قول بعض:

هواي له فرض تعطف أوجَفَــــا ومنهله عذب تكدّر أم صفـــا

وكلت إلى المعشوق أمرِيَ كلَّـــــه فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفــا

وقول بعض: **«من رضي بالله تعالى وَكيلاً وجَدَ إلى كلِّ خيرٍ سبيلا»**.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهُ﴾ ما أراده ولا يفوته **﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾** أي: تقديرا قبل وجوده، فهو اسم مصدر، وقيل: مقدارًا من الزمانِ والقلَّة والكثرةِ وسائرِ الأحوال، وهذا بيان لوجود التوكُّل، لأنَّه إذا كان لكلِّ شيء من الرزق وغيره مقدارٌ أو تقديرٌ لا يتخلَّفُ لَمْ يــبْقَ إلاَّ التسليم له، قلت:

١-أورده **الألوسيُّ** في تفسيره، مج١٠ ص١٣٦، وقال: أخرجه أحمد في الزهد من حديث وهب.

كم عاقل عاقل يجدُّ مفتقـــرًا ومُرغدِ العيش أبلهُ به الكَسَلُ

هذا الذي صَيَّرَ الألباب موقِنَـةً بقَدَرِ الله إذْ لَمْ تُفِدِ الحيـــل

ومعنى «به الكسل»: فيه الكسل، أو معه الكسل، وقال العضد[1]:

كم عاقل عاقل قد كان ذا عُسر وجاهل جاهل قد كان ذا يُسر

تحيّر النّاس في هذا فقلت لهـم هذا الذي أوجب الإيمان بالقدَرِ

وقال بعض:

كم من أديب فهم عقلُه مُستكمل العقل مُقلٌ عَديمْ

ومن جهولٍ مكثرٍ مالُه ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

ولا يقرأ الشطر الأخير قراءة الشعر لأنّه من القرآن.

وهذا مضاد لقول من قال:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي صيَّر الألباب حائرة وصيَّر العالم النحرير زنديقا

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾

١- هو عضد الدين عبد الرحمان بن أحمد الإيجي ينسب إلى بلدة «إيج» بفارس، عالم مشارك في العلوم العقلية والمعاني والفقه وعلم الكلام، له من التصانيف: المواقف في علم الكلام، وشرح مختصر الحاجب في أصول الفقه. توفي سنة ٧٥٦هـ. الموسوعة الفقهية الكويتية. ج١١ ص٣٨٣.

عدّة اليائس والصغيرة

﴿واللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ من الحيض. و«مِنْ» للابتداء ﴿من نِّسَآئِكُمُ,﴾ «مِنْ» للبيان متعلّق بمحذوف حال من النُّون. وإيَّاسهنَّ لكبرهنَّ ببلوغهنَّ ستِّين سنة، أو خمسا وخمسين، أو خمسين أو تسعين، أو غير ذلك.

وقيل: غالب يأس عشيرةِ المرأة، وقيل: غالب سنِّ يأس نساء بلدها التي هي فيها، فطيب الهواء والماء يبعد اليأس، وقد قيل: أبعدُ اليأس يأس نساء أندلس لذلك، والحكم لله، وكلُّ شيء بمشيئة الله، ولا إله إلاَّ الله.

[قلت:] وقيل: اليأسُ أقصى عادة امرأة في نساء الدنيا، وهو قول يحرم به الفتيا لعدم وثوق حصوله.

﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ تردّدتم في عدّتهنّ للجهل. ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ﴾ جواب الشرط، والشرط وجوابه خبر المبتدأ باعتبار الإخبار والإعلام، كأنَّه قيل: إن ارتبتم فإنِّي أقول لكم: عدَّتهنَّ ثلاثة أشهر.

(نحو) وقيل: الجملة هذه خبر المبتدأ، والفاء فيه صلة، وجواب الشرط محذوف، وهما في نية التأخير، أي: فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر إن ارتبتم فاعلموا أنَّها ثلاثة أشهر، ولا يخفى ما فيه من دعوى الحذف والتقديم والتأخير والتكرير.

يبقى أن يُقال: كيف يقال: إن ارتبتم بـ«إِنْ» الشكِّـيَّة، وقد علم الله أنَّهم شكُّوا ؟ فقيل: «إِنْ» في مثل ذلك للتحقيق، وقد قيل: مجاز مع ما في حيِّزها، واستعارة تمثيليَّة، وقيل: المعنى إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أَدَمُ حيض أو استحاضة؟ فإذا كانت هذه المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بهذه العدَّة.

وقال الزجَّاج: إن ارتبتم في حيضهنَّ، وقد انقطع عنهنَّ الدَّم، وكنَّ ممَّن يحيض مثلهنَّ و لم يحضن، أو قد حضن قبل وانقطع الدم قبل الاعتداد، أو فيه فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر كالتي لم تبلغ، وهذا أسهل لها.

(فقه) وقيل في التي بلغت و لم تحض: تعتدُّ ثلاثة أشهر كالتي لم تبلغ، وقيل: تعتدُّ سنة، وقيل: تعتدُّ إن حاضت في الاعتداد حيضتين، وانقطع عنها أتمَّت سنةً بهما، وقيل: هكذا ولو حاضت مرَّة واحدة فيه، وقيل: سنة ولو لم تحض فيه، وهذه أقوال تذكر في الفروع.

وقيل: الآية واردة في التي دام بها الدم ولا تدري أهو دم حيض أم استحاضة؟ كان قبل الاعتداد ودام فيه، أو حدث فيه واستمرَّ، وقيل: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن تيقَّنتم إيَّاسهنَّ وهذا من الأضداد.

(سبب النزول) وروي أنَّهُ لَمَّا نزل الاعتداد بثلاث حيض في سورة البقرة قال أهل المدينة: «لقد بقي عدَّة الصغار والآيسات والحوامل» فنزلت في هذه السورة: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ...﴾ الخ، ونزل: ﴿وَأُوْلاَتُ الاَحْمَالِ...﴾. وفي رواية: قالوا بعد نزول الأقراء الثلاثة: فما عدَّة الصغار والكبار؟ فنزل: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ...﴾ الخ، فقال قائل: فما عدَّة الحامل؟ فنزل: ﴿وَأُوْلاَتُ الاَحْمَالِ﴾.

﴿**وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ**﴾ عطف على ﴿اللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُم﴾ فهاء «عِدَّتهنَّ» عائدة إلى «اللاَّئِي يَئِسْنَ» وإلى «اللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ» لأنَّه في نيَّة التقديم، وهذا أولى من الحذف.

ومعنى ﴿لَمْ يَحِضْنَ﴾: لم يبلغن الحلم فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر، وأمَّا التي بلغت فما لها إلاَّ ثلاث حيض، أو تبلغ الإيَّاس فتعتدُّ ثلاثة أشهر. وقال ﷺ: «**مروا**

الحائض أن تختمر»[1]، أي: البالغة ولو لم تحض، فالحيض بلوغ سنِّ الحيض، وهنا تأتي الأقوال المذكورة مع قول الزجَّاج آنفا.

(فقه) وقول الإمام الأندلسيِّ أبي حيَّان في بحره ونهره: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يشمل من لم يحض لصغر، ومن لا يكون لهنَّ الحيض البتَّة، كبعض النساء يعشن إلى أن يمتن ولا يحضن. و[يشمل] من أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به و لم تحض، قال: وقيل هذه تعتدُّ سنة.

(فقه) وجمهور العلماء على أنَّ البالغة التي كانت تحيض وانقطع عنها الحيض أن تنتظر ثلاث حيض، أو تبلغ الإيَّاس فتعتدُّ ثلاثة أشهر، وهو قول عثمان وعليٍّ وزيد وعبد الله بن مسعود وعطاء والشافعيِّ وأصحاب الرأي.

وعن عمر: تتربَّص تسعة أشهر، فإن لم تحض اعتدَّت ثلاثة أشهر، وهو قول مالك. وقال الحسن: تتربَّص سنة، فإن لم تحض اعتدَّت ثلاثة أشهر، والتي بلغت و لم تحض تعتدُّ ثلاثة أشهر. وانظر وفاء الضمانة[2].

(فقه) **﴿وَأُوْلاَتُ الاَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَّضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾** تمام عدَّتهنَّ وضعُهُنَّ حملهنَّ، ولو علقة أو مضغة، مطلَّقات أو متوفًّى عنهنَّ أو مُفَاديات، أو نحو ذلك، أو حَرُمْنَ، أو طَلَّقْنَ أنفسهنَّ إن كان الطلاق بأيديهنَّ معلَّقا لمعلوم، أو غير معلَّق.

(فقه) سئل ابن عمر عن امرأة يتوفَّى عنها زوجها وهي حامل قال: لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لَحَلَّتْ، ويدخل عليها في غير فرجها، رواه مالك والشافعي وعبد الرزاق.

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ وورد ما يؤيِّده معنى في حديث أسماء.

٢- القطب، وفاء الضمانة: ج١، ص١٢٩.

قال ابن مسعود: «من شاء لاَعَنْتُهُ أَنَّ الآية التي نزلت في سورة النساء القصرى ﴿وَأُوْلَاتُ الاَحْمَالِ﴾ نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهرًا، وكلُّ مطلَّقة ومتوفًّى عنها أجلها أن تضع حملها»[1]، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة، ورواية ابن مردوَيْه: بسبع سنين، قيل: وَلَعَلَّه لا يَصِحُّ.

وكذلك قال أبو هريرة وأبو مسعود الأنصاريُّ وعائشة وفقهاء الأمصار: «إنَّ عدَّة الحامل المطلَّقة والمتوفَّى عنها وضع الحمل، وقيل: أربعة أشهر وعشرا». قال أبيُّ بن كعب: قلت للنبيء ﷺ ﴿وَأُوْلَاتُ الاَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَّضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أهي المطلَّقة ثلاثا والمتوفَّى عنها؟ قال: «هي المطلَّقة ثلاثا والمتوفَّى عنها».

[قلت:] وتسمية ابن مسعود لسورة الطلاق سورة النساء القصرى رواها البخاريُّ وأبو داود والنسائيُّ وابن ماجه، فإنكار الداوي لها على ابن مسعود باطل، إذ لا مستند له في الردِّ على صحابيٍّ في أمر أثبته الصحابيُّ.

[قلت:] وزعم أنَّه لا يقال لشيء من سور القرآن: الصغرى ولا الكبرى، قلنا: لا بأس، لأنَّ الصِّغر والكِبَرَ في ذلك غير ذاتيٍّ بل بالنسبة، فقد أخرج البخاريُّ عن زيد بن ثابت أنَّه قال: «طولى الطوليين» يعني سورة الأعراف.

(سيرة) وروي أَنـــَّهُ تُوُفِّيَ سعد بن خولة في حجَّة الوداع عن سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة، فوضعت بعده بثلاث وعشرين يوما أو بخمس وعشرين أو بأربعين، روايات، فاختضبت وتكحَّلت وتزيَّنت للنكاح، فقال لها أبو

١- رواه **أبو داود** في كتاب الطلاق باب عدة الحامل رقم٢٣٠٧. **وابن ماجه** في كتاب الطلاق، باب الحامل متوفًّى عنها زوجها، رقم٢٠٣٠. مع اختلاف في اللفظ. كما **أورده السيوطي** في الدر: مج٦، ص٢٦١. وقال: أخرجه ابن مردويه. من حديث ابن مسعود.

السنابل: مالك نكاح حتَّى تكمل أربعة أشهر وعشرا، فسئل ﷺ فقال: «**إنَّ لها ذلك، لأنَّ أَجَلَهَا قد خَلاَ**». وقيل: سألته هي، كما في البخاري ومسلم. وفي ذلك نَسْخُ عموم آية أربعة الأشهر والعشر بهذه الآية، أو تخصيصها.

(فقه) قلت: وقال عليٌّ وابن عبَّاس: عدَّة الحامل المتوفَّى عنها أبعد الأجلين، وهو عندي أولى من حيث القاعدة، إلاَّ أنَّ الحديث حجَّة، وذلك لأنَّ آية هذه السورة في الطلاق والكلام فيه قبل وبعدُ، ولأنَّ في ذلك عملا بالآيتين معا بلا نسخ لإحداهما: ﴿وَالذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا...﴾ الخ (سورة البقرة: ٢٤٠) ، ﴿وَأُولَاتُ الاَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ...﴾ الخ. فإن زادت مدَّة الحمل فقد تربَّصت أربعة أشهر وعشرا، وإن قَصُرت وتربَّصت فقد وضعت وتربَّصت، فقد جمعنا بين النصَّين و لم نُلْغِ أَحدهما والمدَّتان معتبرتان بالحكم المنسوب إليهما لا لذاتهما فافْهم.

والإضافة في «حَمْلَهُنَّ» للجنس، فقام مقام الجمع، كما قال: ﴿وَأُولَاتُ الاَحْمَالِ﴾. وقرأ الضحَّاك: «أَحْمَالَهُنَّ»، وناسب الإفراد راحة الوضع، والله أعلم.

﴿**وَمَن يَّـتَّقِ اللَّهَ**﴾ في أحكامه عَجَلَّ ومراعاة حقوقها وفهمها. ﴿**يَجْعَل لَّهُ مِنَ اَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ يسهِّلْ له ما عسر. و«مِنْ» للبيان يتعلّق بمحذوف حال من «يُسْرًا»، قدِّم على طريق الاهتمام وللفاصلة، أو بمعنى في ، أو للتعليل، فيعلّق بـ«يَجْعَل».

﴿**ذَلِكَ**﴾ المذكور العالي الشأن من الأحكام. ﴿**أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ, إِلَيْكُمْ**﴾ لتعملوا به فلا تُضيِّعوه وليس حكما من غيره تعالى. وكاف «ذَلِكَ» للنبيء ﷺ ، والخطاب بالجمع له ولأمَّته، أو لهم، أو له تعظيما كما في أوَّل السورة.

قلت: والقول بأنَّها لمجرَّد الفرق بين الحاضر والمنقضي غفلةٌ، إذ فيه استعمالها في غير ما وضعت له بلا تجوُّزٍ وقرينة وعلاقة.

﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ**﴾ في العمل بأحكامه والمحافظة عليها، ويجوز أن يكون الاتِّقاء في الموضعين لمعنى واحد كرِّر للتأكيد، كقوله: من يتَّق الله ينجُ، ومن يتَّق الله يدخل الجنَّة. ﴿**يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِه**﴾ فإنَّ اجتناب الكبائر يمحو الصغائر ﴿**وَيُعْظِمْ لَهُ, أَجْرًا**﴾ نية العمل بلا عمل بأجر عمله بلا مضاعفة، وعمله بعشر إلى ما فوق سبعمائة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾

وجوب السكنى والنفقة للمعتدّة والمرضعة

وكأنَّه قيل: ما التقوى في شأن المعتدَّات؟ فقال: ﴿**اسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ**﴾ «مِن» للتبعيض، أي: أسكنوهنَّ بعض مكان سكناكم، بأن تسكنوا في جهة من بيت وتسكن في جهة منه أخرى، أو للابتداء، أي: خذوا لهنَّ مسكنا من مسكنكم. ﴿**مِن وُّجْدِكُمْ**﴾ من موجودكم ممَّا تطيقونه.

(نحو) والجارُّ والمجرور بدل كلٍّ من قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ وبعض أجاز عطف البيان في الجمل والمفردات والجارِّ والمجرور والمعارف والنكرات نظرًا للمعنى، وهو خروج عمَّا اصطُلح عليه.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السكنى بما يمنع النوم أو الطهارة أو الصلاة، أو شغل، أو إسكان من لا يليق بهنَّ معهنَّ أو غير ذلك. ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ ليحصل التضييق المؤثِّر فيهنَّ حتَّى يلجأن إلى الخروج.

[قلت:] ومن البدع المحرَّمات أن يطلِّقها ويرسل إليها من يحمل متاعها ويخرجها من بيتها في داره ومن داره، وكان من الواجب أن يقول لها: لك عليَّ السُّكنى والنفقة إذا وجبت، فإن أبت إلاَّ الخروج فذاك، وقلنا: السكنى حقًّا لها لا لله تعالى أباحه الزوج لها.

﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلَّقات، ﴿أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن، سواءً الطلاق الرجعيُّ والبائنُ والثلاثُ.

(فقه) والفداء كالطلاق، وكذا سائر الفرقة للحامل، ولو ملاعنةً، إلاَّ المتوفَّى عنها فلا نفقة لها عند الجمهور ولو حاملا. وعن عليٍّ وابن مسعود: نفقة المتوفَّى عنهنَّ الحواملِ في التركة. ولا خلاف في وجوب سكنى المطلَّقات الحوامل ونفقتهنَّ. ولا نفقة للمطلَّقة البائن ولا سكنى، قالت فاطمة بنت قيس: طلَّقني زوجي أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي البتَّة، فخاصمتُه في السكنى والنفقة، فلم يجمعهما لي رسول الله ﷺ وأمرني أن أعتدَّ في بيت ابن أمِّ مكتوم، ثمَّ أنكحني أُسامة بن زيد.

وقال الحسن ومالك والشافعي: لها السكنى فقط، وقال أبو حنيفة: لها السكنى والنفقة، فعن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**للمبتوتة النفقةُ والسكنى**». ونسب لأكثر أهل العلم أنَّ للبائنة ــ بخلعٍ أو طلاقِ الثلاثِ أو بلعَانٍ ــ السُّكنى، ولو غير حاملٍ.

وعن ابن عبَّاس: لا سكنى لهنَّ إلاَّ إن كنَّ حوامل، ونسب للحسن والشعبيِّ، ولا نفقة لهنَّ، إلاَّ إن كنَّ حوامل، ونسبه لابن عبَّاس والحسن والشعبيِّ

والشافعيِّ وأحمد. وعن ابن مسعود: لهنَّ النفقة ولو غير حوامل، وبه قال النخعيُّ والثوريُّ وأصحاب الرأي.

(فقه) والصحيح **أن لا نفقة ولا سكنى للَّتي اختارت نفسها لعتق،** أو بلوغ، أو وقوع شيء شَرَطَتْهُ، أو فسخِ نكاحٍ بعيب. والمعتدَّة من وطء شُبْهة أو لحرمة إلاَّ إن كانت حاملا فلها النفقة. وقال الشعبيُّ والثوريُّ والنخعيُّ بقول عليٍّ المتقدِّم. ولا سكنى للمتوفَّى عنها عند ابن عبَّاس وعائشة وعطاء والحسن وأبي حنيفة، وقال عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر ومالك والثوريُّ وإسحاق وأحمد: لها السكنى.

﴿**فَإِنَ اَرْضَعْنَ لَكُمْ**﴾ ما ولدن ﴿**فَئَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ على الإرضاع، ﴿**وَاتَمِرُواْ**﴾ أيُّها الآباء والأمَّهات ﴿**بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ**﴾ أي: ليأمر بعضكم بعضًا بالمعروف وتشاوروا.

(صرف) واللاَّم في قولي: لِيَأمُرْ، لاَمُ الأمْرِ. فَـ«ائتَمِرُوا» افْتَعِلُوا (بكسر العين) من الأمر، بمعنى تَآمَرُوا، بوزن تَفَاعَلُوا (بفتح التاء والعين) فعل أمر، فالافتعال في الآية بمعنى التفاعل.

والمعروف: الأمرُ الجميلُ في الأجرة والإرضاع والكسوة والفراش والغطاء والدهن، وغير ذلك ممَّا يحتاج إليه الولَدُ بلا مَشاحَّة أو معاسرة من أحد الأبوين.

﴿**وَإِن تَعَاسَرْتُمْ**﴾ خطاب للآباء والأمَّهات، أي: تضايقتم في الأجرة وطلب الزيادة ونحو ذلك، وامتنعتْ من الإرضاع، بدليل قوله تعالى: ﴿**فَسَتُرْضِعُ لَهُ**﴾ أي: للأب بالأجرة أو دونها ﴿**أُخْرَى**﴾ أي: امرأة أخرى، أو مرضعة أخرى، وتسميتها مرضعة أخرى باعتبار أنَّ الأمَّ من شأنها أن تكون

مرضعة لولدها، ومرضعة أخرى بمعنى تأَهَّلتْ للإرضاع، سواء كانت ترضع غير هذا الولد من قبلُ أم لا.

[قلت:] وفي الآية عتاب للأمِّ، كما إذا سألت أحدًا فمنعك فقلت: يعطيني الله، أو فلان بإذن الله، فيبقى العيبُ فيكَ، ووجه عتاب الأمِّ على ترك الإرضاع أنَّها بصورة قطع الرحم، وأنَّها شحَّت على ولدها وهو ثمرة فؤادها، وأنَّ لبنها غير متموَّل ولا مبخول به في العرف، وأنَّ اللبن للفحل فهو للأب أصالة، إلاَّ أنَّها لو باعته لجاز، وكذا إن سقت به من خرج عن الرضاع جاز، وذلك بخلاف الأب فإنَّ اللَّوم عليه دون اللَّوم عليها لأنَّه يعطي ما يُتموَّل.

ويجوز دخوله في العتاب: كيف يضايق الأمَّ في الأجرة وهي أحقُّ بولدها وأشفق عليه ؟ وكيف لا يرغب فيها ولو بزيادة على غيرها؟ أو يُقَدَّرُ: وإن تعاسرتم لم يمت جوعا لأنَّه سترضع له أخرى.

أو اللَّفظ إخبار والمعنى أمر، أي: فليسترضع له الأب أخرى، أو فلترضعه أخرى، على فرض الكفاية، وإن لم يقبل إلاَّ عن أمِّه أجبرت ولها الأجرة، وكذا إن لم يقبلْ إلاَّ عن امرأة أخرى تجبر هذه الأخرى ولها الأجرة.

﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ**﴾ وَسْعٍ في المال ﴿**مِّن سَعَتِهِ**﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي: من واسعه، أي: على قدر ماله الواسع.

(فائدة) ويقال: يكون الرجل سيِّد الرجال إذا كانت فيه ثلاث من داخل البيت: توسيعُ الطعامِ واللباس على أهلهِ قدر طاقته، ومذاكرة أهله بما علم من العلم، واستعمال ما رأى من أهل الورع، وثلاث من خارج البيت: استفادة العلم من العلماء، ومخالطةُ أهل الورع، وطلب قوته وقوت عياله من حلال.

﴿وَمَن قُدِرَ﴾ ضُيِّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ هذا اللفظ دليل على أنَّ الرزق ما ملك، فالرزق اسم مُلْكٍ ولو لم ينتفع به، لأنَّه سمَّاه رزقا قبل أن ينفق، أمَّا إذا أنفق فقد انتفع بالإنفاق، والمعنى: فلْينفق من الرزق الذي أتاه الله، إلاَّ أن يقال: سمَّاه رزقا باعتبار مآله للإنفاق.

وزعم محمَّد بن المواز أنَّ النفقة وجبت على الأب والأمِّ بقدر الإرث، وهو باطل، إلاَّ إن كان ابن أمِّه ولقيطها أو ملاعنًا عليه فعليها وحدها، وإن عجزت فعلى عصبتها.

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا الاَّ مَآ ءَاتَاهَا﴾ «مَا» مفعول ثان بمعنى الطاقة أو الرزق، على حذف مضاف، أي: إلاَّ قدر ما آتاها، وهذا القدر هو المقدار الذي يناسب أن ينفقه من جملة ماله القليل، وفي ذلك تطييب لنفس المُعْسر، وتسليةٌ لنفس الأمِّ.

(فقه) وفي الآية دليل على أنَّ المعسر الذي لا يجد ما ينفق على زوجه لا ينفسخ نكاحه وهو الصحيح ومذهبنا، وعليه الجمهور وعليه عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة، فَتَصْبِرُ أو تحسب عليه نفقة المعسر على يد حاكم، فإن أيسر بعدُ قَضَاها.

وعن أبي هريرة والحسن وابن المسيّب ومالك وأحمد والشافعيِّ وإسحاق: يفسخ النكاح بالعجز عن الإنفاق، ويفرَّق بينهما ولا يعدُّ تطليقا، فهي بعد ذلك له على ثلاث.

[قلت:] وفي كلِّ واحدة من قوله عز وجل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا الاَّ مَآ ءَاتَاهَا﴾، أَخذُ الأدب عن الله إذا وسَّع الله عز وجل

فوسِّع وإذا قَتَرَ فَأَقتِر، وفي الحديث المرفوع: «**إذا وسَّع الله عليك فوسِّع، وإذا قتر فأَقتر**»[(١)].

﴿**سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ وعدٌ لفقراء ذلك الوقت، أو من بعدهم بفتح أبواب الرزق أزواجًا كانوا أو غير أزواج، والمراد بالذَّات فُقَرَاءُ ذَلك الوقت هُمْ وأزواجهُمْ، وقد يُقال: المراد باليُسر اليُسر العظيم ليطابق ذكر اليسرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا اِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح: ٥ ــ ٦) ، فيكون تنوينه للتعظيم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾

وعيد المخالفين، ووعد الطائعين
والتذكير بقوة الله

﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ**﴾ كم من قرية، فهي للتكثير، أي: أهل قرية، أو قرية اسم لأهلها مجازًا، وقد مرَّ ذلك. ﴿**عَتَتْ**﴾ خرجت بالفساد والتجبُّر، والجملة

١-أورده **الألوسي** في تفسيره: مج ١٠، ص١٤٠. بدون تخريج.

خبر «كَأَيِّن»، أو صفة والخبر «أَعَدَّ اللّٰهُ...»الخ. ﴿عَنَ اَمْرِ رَبِّـــهَا وَرُسُلِه﴾ لم تَأْتَمِر بأمر الله ورسوله، و لم تَنتَه بنهي الله ورسوله.

﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ لعتُوِّها ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾ على مثقال الذرَّة ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكُرًا﴾ يُستنكر ولا يُعرف ولا يَخطر وصفه بالبال لشدَّته، والحساب والتعذيب بصيغة المضيِّ لتحقُّق الوقوع، وكذا الذوق في قوله ﷻ: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ ثقل شدَّة عُتُوِّها، وقال الكلبيُّ: العذاب النكر الجُوع والقحطُ والسيفُ وسائر المصايب، فالذوق والحساب على ظاهرهما من المضيِّ على هذا.

﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ خُسرانا عظيما. ﴿أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هذا تكرير لذكر الوعيد ﴿فَاتَّقُوا اللّٰهَ يَآ أُولِي الاَلْبَابِ﴾ لتنجو من ذلك العذاب.

(نحو) ﴿الذينَ ءَامَنُوا﴾ نعت أو عطف بيان لـــ«أُولِي» لا بدل، لعدم أن يحلَّ محلَّ «أولي»، لأنَّه مقرون بـــ«ال»، والمقرون بها لا يدخل عليه حرف النداء إلاَّ ما خُصَّ، إلاَّ أنَّه لا يلزم حلولُ البدلِ محلَّ المبدل منه دائما، إذ قد يخرج عن ذلك.

(بلاغة) ناداهم الله ﷻ ليتنبَّهوا إلى قوله: ﴿قَدَ اَنزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكُمْ﴾ أرسل، عبَّر عن الإرسَالِ بالإنزالِ ترشيحًا لتسميته ﷺ ذكرًا على استعارة الذكر له، أو على التجوُّز الإرسَاليِّ لعلاقة التسبُّب، لأنَّ الإرسال مسبَّب عن الإنزال فـــ«أَنزَلَ» مجاز مرسل. قد أنزل ﴿ذِكْرًا﴾ أي: نبيئًا عظيما كثير الذِّكر وعظيمه، كأنَّه نفس الذِّكر لتكثيره تلاوة القرآن، أو اسم مصدر بمعنى التذكير، كأنَّه نفس التذكير لتكثيره وتعظيمه، أو يقدَّر: ذَا ذِكْرٍ، أو يُؤوَّلُ بِذَاكِرٍ أو مُذَكِّرٍ.

وقيل: ﴿ذكرًا﴾: جبريل وتذكير النبيء تذكير من جبريل إلاَّ أنَّه لا يوصف جبريل بكثرة قراءة القرآن، لأنَّه ماله منها إلاَّ نزولها على لسانه، والتنكير على كلِّ حال للتعظيم.

﴿رَسُولاً﴾ بدل من «ذِكْرًا»، ويجوز إبقاء الإنزال على حقيقته، فيكون «ذِكْرًا» بمعنى القرآن و«رَسُولاً» تابع كذلك على حذف مضاف، أي: ذا رسول أو ذكر رسولٍ . ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمُ ءَايَاتِ اللهِ مُبَـيَّـنَاتٍ﴾ الجملة نعت لـ«رَسُولاً».

﴿لِيُخْرِجَ﴾ متعلِّق بـ«أنزلَ»، والضمير عائد إلى الله أو «يَتْلُو» والضمير إلى الرسول، أو إلى الله تعالى. وإسناد الإخراج إلى الرسول مجاز للتسبُّب. ﴿الذينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ حصل لهم الإيمان والعملُ بعد إنزال الذِّكر، وقبل نزول الآية، فالإيمانُ والعملُ الحاصلانِ لهم لم يكُونَا لهم قبلُ، وكانا بالإخراج بعدُ، أو المعنى: من قضَى الله أن يؤمن ويصلح.

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ استعارة تصريحيَّة للشرك والمعاصي لجامع الأضرار. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الدِّين الحقِّ، استعار له لفظ النُّور استعارة تصريحيَّة لجامع النفع.

﴿وَمَنْ يُّومِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا تُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ «خَالِدِينَ» حَالٌ من الهاء باعتبارِ وقوعها على جماعة، ولو أفردَ لفظُها باعتبار لفظ «مَن» كما اعتبر لفظُه في «يُومِن» و«يَعْمَلْ». والهاء في قوله تعالى: ﴿قَدَ اَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ, رِزْقًا﴾ وهذه الجملة حال من الهاء أيضا أو من المستتر في «خَالِدِينَ».

(صرف) وشهر أنَّ مراعاة اللفظ ثمَّ مراعاة المعنى جائزةٌ بلا ضعف، بخلاف مراعاة المعنى ثمَّ مراعاة اللَّفظ فإنَّها لا تجوز أو ضعيفة، وعلى جوازها بلا

ضعف يعود هَاءُ «لَهُ» إلى «مَن» مراعاة للّفظ بعد عود «خَالدِينَ» إلى معناها، وذلك معتبر ولو بين كلامين لا مخصوص بكلام واحد، فلا يكفي في الجواب أنّ «خَالدِينَ» معتبر بهاء «نُدْخِلْهُ» لا بـــ«مَن».

ومعلوم أنّ من في الجنَّة له الرزق الحسن، ولكن أفادت هذه الجملة أَنّ الله أَحْسَنَ له الجزاء على إيمانه وعَمَلِه، وأَنّ رزق الجنَّة عظيمٌ بحيث يُتَعَجَّبُ منه.

﴿**اللهُ الذي**﴾ مبتدأ وخبر، أو «الله» بدل من لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قَدَ اَحْسَنَ اللهُ لَهُ﴾، و«الذي» نعت، أو «اللهُ» نعت ولو كان جامدًا لنعته بما هو كالمُشْتَقِّ، كما يجيء الحَال جامدًا لنعته بالمشتقِّ نحو: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة فصِّلت: ٣) .

﴿**خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الاَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ مثل معطوف على «سَبْعَ»، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالجارِّ والمجرور هنا، لأنّ الجارّ والمجرور هنا حال من المعطوف، وكأنَّه جزء منه، وليس ممَّا يختصُّ بالشعر.

وما هنا إلاّ كقولكَ: «أكرمتُ الزُّيودَ ومِن النساء هندًا»، فلا حاجة إلى جعل «مِثْلَهُنَّ» منصوبا بـــ«خَلَقَ» محذوفا هكذا: وخلق من الأرض مثلهنّ.

والمراد: مِثْلَهُنَّ في أنّهنّ سبعٌ، بين كلِّ واحدة والأخرى خمسمائة عام، وغلظ كلِّ واحدة خمسمائة عام، وفي كلِّ واحدة من الستِّ سكَّان هم ملائكة، أو جنٌّ، أو كلاهما، أو من شاء الله. وعن ابن عبَّاس: ملائكة أو جنٌّ.

وقيل: **لا يعلم من فيهنَّ إلاّ الله.** وجاء ذلك العدد ومقدار ما بين الأرضين منهنَّ في حديث أحمد والترمذيِّ إلاّ الغلظ، وذلك هو الصحيح وعليه الجمهور.

(ردُّ خرافات الأقدمين) لا ما قيل: إنَّ في كُلِّ واحدة من الستِّ مثل ما في هذه من آدم ونوح وجميع الأنبياء وجميع ما في هذه، فيكون

اختصاصه ﷺ بختم النبوءة باعتبار هذه الأرض **وذلك تخليط**. وقيل: سبع أرضين متماسَّة يحملهنَّ ثور على صخرة **إلى آخر التخاليط**...

ومنها: أنَّها ـــ أي الأرضين ـــ سبع منبسطات تفرق بينهنَّ البحور لا واحدة فوق واحدة، وعبارة بعض: إنَّ الأرض واحدة إلاَّ أنَّ الأقاليم سبعة، وليس القائل بالسبع المنبسطة مريدًا للأقاليم، وصحَّ في الحديث: «**اللَّهمَّ ربَّ السماوات السبع وما أظللن، وربَّ الأرضين السبع وما أقللن**»[1]. ومعنى خلق سبع أرضين من الأرض أنَّها أرض واحدة فتقها سبعًا.

﴿**يَتَنَزَّلُ الاَمْرُ بَيْنَهُنَّ**﴾ بين كلِّ سماء وسماء، وبين السماء والأرض، وبين كلِّ أرضين. و﴿الاَمْرُ﴾: قضاؤه وقدره، ونفاذ ملكه وتَصرُّفه، وفي كلِّ أرض خلق وما يجري عليهم من أمر الله تعالى، وفي الأرض من حياة وموت وفقر وغنًى ووحي.

ويروى أنَّه التقى ملائكة في وسط هذه الأرض وكلٌّ قال: جئت من ربِّي، واحد من الشرق والآخر من الغرب والآخر من تحت العرش والآخر من الأرض السابعة، لا إله إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

﴿**لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ تعليل لـــ«يَتَنَزَّلُ» أو لـــ«خَلَقَ» أو تَعْليلٌ بأخبرتكم، أو بفعلت ذلك فتعظِّموه، وتؤمنوا بالبعث ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ قَدَ اَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ لاستحالة أن يفعل ذلك مَن لَم يحط علمُه بكلِّ شيء.

ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد.

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج١، ص٤٧.

تفسير سورة التحريم وآياتها ١٢

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

معاتبة بعض زوجات النبيء ﷺ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ المراد منع النَّفس عمَّا حلَّ مع اعتقاد أنَّه حلال، وإلاَّ فتحليل الحرام وتحريم الحلال خطأ، حاشاه ﷺ **﴿مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾**.

(سيرة) هو العسل حرَّم شربَهُ، كان يمكث عند زوجه زينب بنت جحش ويشربه عندها، فاتَّفقت عائشة وحفصة على أنَّه إذا دخل على إحداهما أن تقول له: إنِّي أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت ذلك، فقال: لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود، وقد حلفت ولا تخبري بذلك أحدًا، فنزلت: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أقرَّت بذلك عائشة.

(لغة) والمغافير (بفتح الميم) جمع مغفور (بضمِّها وبالعين المعجمة) له رائحة كريهة علك العرفط، وقيل: نبات له ورق عريض، وقيل: هو شوك لهُ نَوْرٌ يأكل منه النحل، والعرفط علكه.

وكان ﷺ يكره الرائحة الكريهة، وكان ﷺ يحبُّ الرائحة الطيِّبة جدًّا للطافة نَفْسه، ولأنَّه يلاقي جبريل والملائكة فَشَقَّ عليه تلك الرائحة فحرَّم العسَلَ إذ ظنَّ أنَّ تلك الرائحة منه، لأكل النحل ذلك، وفي نفس الأمر لا رائحة من ذلك فيما شرب من ذلك العسل.

إلاَّ أنَّ ظاهر روايةٍ عن سودة أنَّ الرائحة متحقِّقة عليه، وهي أنَّ سودة قالت: أكلت مغافير، قال: لا، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل، فقالت: جرست نحله العِرفَطَ، فَحَرَّمَ العسل، فنزلت، إلاَّ إنْ تواطأت مع عائشة أن تقول ذلك أو كان من عند نفسها احتيال.

وفي البخاري ومسلم أنَّ الشرب عند حفصة، والمتواطئتين على القول عائشة وسودة، وأنَّ العسل من عكَّة أهدتها لحفصة امرأة من قومها.

وعن ابن عبَّاس: شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إنِّي أجد منك ريحًا، فدخل على حفصة، فقالت: إنِّي أجد منك ريحًا، فقال: أراه من شراب شربتهُ عند سودة، والله لا أشربه، فنزلت.

ومعنى أُراه (بفتح الهمزة وضمِّها) بمعنى أظنُّهُ، وظاهر هذه الرواية أنَّه شراب رُكِّبَ من عسل لا عسل وحده، وظاهر ما مرَّ أنَّه عسل وحده، وتحتمله هذه على أنَّ «مِنْ» للبيان.

(سيرة) والصحيح أنَّ الشرب عند زينب، وهو المشهور، وهو رواية للبخاريِّ، وفي الأخرى له عن عائشة أنَّ الشرب للعسل في بيت حفصة،

والقائلة سودة وصفيَّة.

وروي عن أنس أنَّه كانت له ﷺ أمة يطأها ـــ يعني مارية ـــ فلم تزل به عائشة وحفصة حتَّى حرَّمها على نفسه، فنزلت، كما روي عن ابن عبَّاس أنَّ الآية نزلت في سُرِّيَّته.

وعبارة بعض: إنَّ المشهور أنَّها مارية، وأنَّه ﷺ وطئها في بيت حفصة في يومها إذ خرجت إلى أبيها بإذنه ﷺ ، فعاتبته وبكت، وقالت: فعلت ذلك في بيتي ويومي وفراشي، وما رأيت لي حقًّا، وما تفعل ذلك بإحدى نسائك، فقال: «**ألا تَرْضَيْنَ أن أُحَرِّمَهَا فلا أقربها**» قالت: بلى، فَحرَّمها وضربت الحائط بينها وبين عائشة فبشَّرتها، وقالت: أراحنا الله منها، ومع ذلك لم تزل عائشة به ﷺ حتَّى حلف أن لا يقربها.

وروي أنَّ هذا في بيت حفصة في يوم عائشة، وروي أنَّه خلا بها في يوم عائشة، وعلمت بذلك حفصة، أي: لأنَّه كان ذلك في بيتها، فقال لها: اكتمي ذلك عليَّ، وقد حَرَّمتُ مارية على نفسي، وأبشِّرك أنَّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أُمَّتي. فأخبرت بذلك عائشة، وكانتا متصادقتين على سائر نساء النبيء ﷺ .

(سيرة) وطلَّق حفصةَ إذ أخبرت عائشةَ بما استكتمها، واعتزل نساءه، ومكث تسعا وعشرين ليلة في بيت مارية، فنزل جبريل عليه السلام فقال: راجعْها فإنَّها قَوَّامةٌ صوَّامةٌ، وإنَّها لمن نسائك في الجنَّة.

ويجوز الجمع بأنَّه حرَّم مارية وحرَّم العسل فنزلت الآية فيهما، و«مَا» واقعة على غير العالم وهو العسل، أو وطء مارية، وهو المشهور فيها، ويجوز وقوعها على مارية، وهي عالمة لا غير عاقلة، كقوله ﷺ : «**سبحان ما سخَّركنَّ لنا**». وشهر ذلك في كتب المماليك، لأنَّها مال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتَ

أَيْمَانُكُمْ﴾ (سورة النساء: ٣٦) .

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ استـــئناف نحويٌّ للعتاب، أو بيانيٌّ، كأنَّه قال ﷺ : ما جهة الإنكار عليَّ يا ربِّ؟ وقد فعل مثله غيري من الأنبياء، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (سورة آل عمران: ٩٣) ، فقال: إنَّك تبتغي مرضاة أزواجك. أو الجملة تفسير لــ﴿تُحَرِّمُ﴾ ، بأن يجعل ابتغاء مرضاتهنَّ عين التحريم مبالغة في كونه سببًا للتحريم، وفيه تفخيم عظيم، كذا قيل.

وأقول: لا تظهر فائدة في المبالغة في جعله سببًا، فضلاً عن أن يُقال: فيه تفخيم عظيم.

ويجوز أن تكون الجملة حالاً من المستتر في «تُحَرِّمُ»، فيكون محلُّ العتاب هو ابتغاء المرضاة، كقولك: لِمَ مشيْت إلى المسجد راكبًا ؟. ولا يلزم من الحاليَّة ذلك لجواز أنَّ العتاب على نفس التحريم وحده، أو عليهما كقولك: لِمَ جئت إلى المسجد آخر الوقت متكاسلاً ؟.

و«مَرْضَاتَ» مصدر ميميٌّ بمعنى الرضا. وإضافة الأزواج إلى الكاف للجنس، فيصدق ولو بالواحدة، كحفصة إذا اغْتَاضَتْ بوطء مارية في بيتها، والاثنتين كحفصة اغتاضت لذلك وعائشة اغتاضت ليومها.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ما فعله الرسول ﷺ من منع نفسه من وطء مارية وشرب العسل أو كليهما، ليس معصية بل مكروه، فغفر الله سبحانه هذا الفعل المكروه.

أو عدَّه معصية في حقِّه لعظم شانه عند الله تعالى، وعظم إِنْعَامه عليه، كما يعدُّ عليه عدم العفو معصية، وكذا ترك ما هو أولى، ففي ذكر المَغفرة له على

ذلك تشريف له إذ عدَّ عليه لعظمه ذنبا ما ليس ذنبًا.

﴿ **قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ** ﴾ جعل الله تعالى تحريم الإنسان الشيء على نفسه بمعنى جعله كأنَّه محرَّم عليه من الله عَزَّ وَجَلَّ يمينًا إذا حَنَثَ، فَعَلَ ما ذكره الله تعالى في سورة المائدة من عتق أو إطعام عشرة مساكين أو صوم ثلاثة أيَّام إن لم يجد.

و لم يشهر عنه ﷺ إلاَّ ما مرَّ في رواية شرب العسل عند سودة أنَّه قال: والله لا أشرب العسل، فقيل: لزمته كَفَّارَة اليمين، لأنَّه ﷺ حنث نفسه بشرب العسل، أو وطء مارية، فقيل للتحريم، كان معه يمين أو لم يكن معه يمين، وقيل: لليمين، وإنَّه قد قال ـــ كما روى بعضٌ ـــ : والله أيضا لا أطأ مارية، فيكون قد أعطى الكَفَّارَة، كما قال زيد بن أسلم والشعبي. وعن مقاتل: أعتق رقبة على تحريم مارية.

وقيل: لا تلزمه، لأنَّه غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبه قال الحسن. وإنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ...﴾ الخ تعليم لأمَّته، وفيه أنَّه تلزم الكَفَّارَة في الجملة ولو بلا ذنب، فقد جمع الله تعالى له الغفران ولزوم الكفَّارة، والأصل في الخطاب أن يشمله، وأنَّ أحكامه وأحكامنا واحدة إلاَّ ما تبيَّن خصوصه به.

(فقه) ومن حرَّم زوجه، أو قال الحلال عليه حرام و لم يستثن زوجه، فقال أبو بكر وعمر وزيد وابن مسعود وابن عبَّاس وعائشة عليه كَفَّارَة يمين، وقال جماعة لا شيء عليه، ونسب لمسروق والشعبيِّ.

روى البخاريُّ ومسلم[1] عن ابن عبَّاس من حرَّم امرأته فلا شيء عليه، ثمَّ

١-رواه **مسلم** في كتاب الطلاق، باب وجوب الكَفَّارَة على من حرَّم امرأته و لم ينو... رقم ١٨ (١٤٧٣) من حديث ابن عبَّاس.

تلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١) ، ولعلّ مراده أنّه لا طلاق بذلك ولا إيلاء ولا ظهار، ولا فرقة، وفي النسائيّ أنّه ﷺ قال لرجل حرَّم زوجه: «**كَذَبْتَ وَعَلَيْكَ مُغَلَّظَة عتق رقبة**»[1].

(**فقه**) وقيل: تحريم الزوج إيلاءٌ، وقيل: ظهارٌ، وقيل: طلاقٌ بائنٌ، وقيل: ثلاث مُطلقًا، وقيل: ثلاثٌ في المدخول بها وأمَّا غيرها فبقدر ما عَنى من واحدة أو اثنتين أو ثلاث. والأولى أنَّه إن لم ينْو طلاقًا ولا ظهارا ولا إيلاء فما عليه إلاّ كفّارَة يمين، وإن نوى ذلك كان عليه ما نوى.

وذلك أنّه قد يهمل ولا ينوي شيئا، أو ينوي تحريم ذاتها فكفّارة يمين، وإنْ حرَّم أَمَته أو عبده ونوى العِتق وقع العتق، وإن لم ينو فكفّارة يمين.

وإنّما تلزم في كلِّ مسألة إذا فعل ما حلف عليه كوطء زوجه أو سريّته، وقيل: إذا لم ينو فلا كَفّارَة.

ومن حرَّم حلالا فيمين، وقيل: لا عليه. ومعنى قوله: «فليس بشيء»[2] أنّه لا يكون ذلك طلاقًا ولا إيلاءً ولا ظهارًا. وعن سفيان: إن لم ينو شيئا فلا شيء عليه.

(**لغة**) و«تحلّة» مصدر حَلَّل، والأصل: تحلِلَة، نقلت كسرة اللاّم إلى الحاء فأدغمت اللاّم، وهو من الحلّ ضدّ العقد، فالحالف عقد على نفسه والكفّارة فكٌّ له كحلِّ عقدة الخيط وذلك في الحنث، ويقع الحلُّ أيضا بعد الحنث.

﴿**وَاللهُ مَوْلاَكُمْ**﴾ سيِّدكم المتولّي أموركم. ﴿**وَهُوَ الْعَلِيمُ**﴾ بما يصلحكم فيوجبه أو يحرِّمه أو يبيحه أو يكرهه أو يندبكم إليه. ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ فلا يُشرِّع ولاَ

١- رواه **النسائيُّ** في كتاب الطلاق، باب تأويل قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ...﴾ رقم: ٣٤٢٠. من حديث ابن عبَّاس.

٢- في رواية البخاري عن ابن عبَّاس.

يَفْعلُ إلاّ ما هو صوابٌ وحكمةٌ وإتقان.

﴿وَإِذَ اَسَرَّ النَّبِيءُ اِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِه حَدِيثًا﴾ مفعول به لـ«اذْكُرُوا» (بصيغة الجماعة) خطاب للمؤمنين أو للنَّاس عمومًا، أو «اذكر» (بالإفراد) خطاب لمن يصلح له، والإسرار: قوله لعائشة وحفصة على وجه السرِّ: إنَّ أبويكما يليان الخلافة بعدي.

(سيرة) وعن ابن عبَّاس أنَّه ﷺ أَسَرَّ إلى حفصة تحريم مارية، وأنَّ أبا بكر وعمر يليان النَّاس بعدي. وروى أبو نعيم عن عليٍّ وابن عبَّاس: «إنَّ خلافة أبي بكر وعمر لفي كتاب الله تعالى». ﴿وَإِذَ اَسَرَّ النَّبِيءُ...﴾ الخ قال لحفصة: إنَّ الخليفة من بعدي أبو بكر ومن بعد أبي بكر عمر.

وروى بعض الشيعة عن الزجَّاج لَمَّا حرَّم النبيء ﷺ مارية أُخبر أنَّه يملك من بعده أبو بكر وعمر، وذلك البعض هو الطبريُّ من أجَلِّ الشيعة، والشيعة أعمُّ من الروافض، والروافض بعض من الشيعة، وهم من رفضوا من آل البيت موسى الكاظم لَمَّا رأوه يحبُّ أبا بكر وعمر، وكذا روى أبو جعفر الباقر، وزاد أنَّ كلَّ واحدة حدَّثت أباها.

وفي رواية لأبي نعيم وابن عديٍّ وابن مردويه عن عليٍّ وابن عبَّاس: إنَّ الإسرار قوله لحفصة: «أبوك وأبو عائشة واليا النَّاس من بعدي، فإيَّاك أن تخبري أحدًا».

(فقه) وإذا كان هذا زلَّةً بطل قول بعض بجواز التكلُّم بالسرِّ المستكتم عند من اطمأنَّ إليه لا يُفشيه، كأمين وزوج وصديق، وكيف وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ...﴾ الخ.

وإذا أثبت الشيعة هذا فقد أبْطلوا قولهم في أنَّ الخلافة حقٌّ لعليٍّ لا لأبي بكر

وعمر، ونسمع منهم في هذا العصر عند الطواف: الحمد لله الذي جعل الخلافة في عليٍّ، أو الحمد لله الذي جعل الإمام عليًّا. ونقول: الإمام عليٌّ بعد عثمان حقًّا، وأخطأ الشيعة وَمَن يطوف بهم ويقول ذلك بهم.

[قلت:] ولا يجوز أخذ الأجرة على الطواف بأحدٍ مطلقًا، ولا سيما من يقول في طوافه ذلك، وهي سحت باتِّفاق، يجب أن يخرجَ عن الطواف بهم.

ويجوز ان يكون الإسرار في شأن شرب العسل، فقد روي أنَّه قال لعائشة — وقيل: لحفصة، وهو أصحُّ — : كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود، وقد حَلَفْتُ، لا تخبري بذلك أحدًا.

والحديث: تحريم العسل أو تحريم مارية كما قيل، أو خلافة أبي بكر وعمر أو كلُّ ذلك. والمشهور — وهو قول الجمهور — أنَّ بعض الأزواج: حفصة، وكونها عائشة روايةٌ شاذَّةٌ عن ابن عبَّاس.

(سيرة) وَلَمَّا أفشت حفصة إلى عائشة، أو عائشة إلى حفصة — وقد استكتمهما — طلَّق نساءه لذلك الإفشاء، وتشديد عائشة عتابه على العسل، وطلبهنَّ النفقة، مع أنَّه لا يجد، وأقسم أن لا يدخل عليهنَّ شهرًا، وقيل: لم يطلِّقهنَّ ولكن أقسم أن لا يدخل عليهنَّ، ودخل عليهنَّ ودخل على عائشة أوَّلاً في التاسع والعشرين فقالت: لم يكمل الشهر، فقال: إنَّ هذا الشهر يكون تسعًا وعشرين.

والصحيح أنَّه لم يطلِّقهنَّ، وأمر رسول الله ﷺ مناديًا على باب المسجد: إنَّ رسول الله ﷺ لم يُطلِّق نساءه، فخيَّرهنَّ، فاختارته عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا إذ بدأ بها فتتابعن، وقال لها: «شاوري أهلك»، قالت: لأشاور أحدًا فيك.

﴿**فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ**﴾ تلك البعضُ وهي حفصة، أي: أخْبرَتْ به عائشة.

﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ﴾ أظهر الله تعالى نبيئه، أي: أعلمه ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على ذلك الحديث المُسَرِّ، أي: جعله الله مطَّلعًا على إفشائه بحذف مضاف أو بدون حذفه، أي: أعلمه أنَّه مُفْشًى، وكأنَّه ﷺ حاضر حال إفشائه سامع له من لسان الناطقة به المطلوب منها أن لا تنطق به لأحد.

ويجوز عود الهاء على مصدر «نَـبَّأَ» المذكَّر، أي: على التنبُّؤ بوزن التفعُّل (مختوم بالهمزة قبلها ياء مثنَّاة من تحت)، لكن يضعف هذا، لأنَّ الضمير قبلُ وبعدُ للحديث، وعلمُ الشيء ظهورٌ عليه وغلبة عليه.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أعلم حفصة بعضَهُ، أي: أعلمها أنِّي قد علمت أنَّك أفشيت بعض ما ألزَمْتُكِ أن لا تفشيه. قال ابن عبَّاس: هذا البَعْضُ تحريم مارية. وقيل: الخلافة، والمراد بالإفشاء هنا الإظهار، ولو مرَّة، ولو لإنسان واحد يكتمه، وذلك الإفشاء زلَّة ممَّن أفشتْهُ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قد غفرها الله تعالى لها، وهو الرحمن الرَّحيم.

وذلك البعض: هو قول حفصة لأبيها: إنَّه ﷺ أخبرني أنَّك خليفةٌ من بعده، أو هو قوله ﷺ : «كنت شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود». أو بعض الأزواج: عائشة، والبعض الذي عرفه ما ذكر، أو هو تحريم مارية أو العسل.

﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ هذا البعض هو ما بقي ممَّا اخبرت به غيرها هذه المستكتمة، الجملة ثلاثة [أمور]: الخلافةُ، وشربُ العسلِ، وتحريمُ مارية. قال ابن عبَّاس: هذا البعض هو الخلافة، وقيل: تحريم مارية أخبرها ﷺ في بعض ما أفشت منها و لم يخبرها بالبعض الآخر الذي أفشته لئلاَّ يشتدَّ عليها العتاب جدًّا.

وقد روي عن الإمام عليٍّ: «ما استقصى كريمٌ قطُّ» وأجاز بعض أن يكون

«عرَّفَ» بمعنى جَازَى، أي: جَازاها على بعض بالعتاب أو بالتطليق ثمَّ راجعها.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا﴾ أي: أنبأ تلك المرأة التي استكتمها فلم تكتم، فأخبرها بأنَّك لم تكتمي بل أخبرت غيرك بكذا. ﴿بِهِ﴾ أي: بذلك البعض الذي نبَّأت غيرها.

﴿قَالَتْ﴾ له ﷺ : ﴿مَنَ اَنبَأَكَ هَٰذَا﴾؟ من صَيَّرَكَ عالِمًا بهذا الذي ذكرتَ أنَّه ذكرتُه لغيري؟

تخاف حفصة مثلاً أن تكون عائشة قالت له ﷺ : إنَّ حفصة أخبرتني بكذا، وإذا كان قد قال لكلٍّ واحدة في سرٍّ: إنَّ أباك خليفةٌ، أو إنَّهما خليفتان، فكلتاهما مستكتمة، فمن أفشت بعضه خافت أن تكون الأخرى المفشى إليها هي المخبرة له ﷺ .

والحديث متعدِّد، ولا بدَّ لذكر لفظة بعضه، وهو شرب العسل، وتحريم مارية، والخلافة، وأفشت إحداهنَّ الْكلَّ. أو المراد اثنان من ذلك أفشتهما، فأخبرها بأنَّك أفشيت كذا و لم يذكر إفشاء الباقي.

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لا يخفى عنه شيء و لم يخبرني به من أفشيت إليه.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ﴾ يا عائشة وحفصة من اتِّفاقكما على قولكما: فيك رائحة المغفور، وليست به، تُنَحِّيَانه عن زينب، وما لكما تَنْحِيَتُهُ عنها[1]، وتمنعانه من الانتفاع بالعسل، وحقَّ عليكما أن تُقرَّاهُ على ما يُحبُّ وتزيداه، ومِن منعكُمَاهُ عن مارية سريَّة له يُحبُّها مؤمنةً غريبةً، وكان حقًّا عكس ذلك.

ذكر واحدة فقط بلفظ الغيبة، وهو بعض أزواجه، فإنَّ الظاهر من قبيل الغيبة، والأخرى مضمونة في قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ وهي مفعول به محذوف على

١- الكلمة من نَحَا يَنْحُو فلانًا عن الشيء أي صرفه عنه، ونحَّاهُ عن موضعه تنحيةً صرفه وعزله.

طريق الغيبة بالظاهر أيضا، على صورة الإبعاد عن صورة الخطاب. وحين يشتدُّ العتاب يخاطب من أعرض عنه أوَّلاً.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنه : لَمْ أَزَلْ حريصًا على سؤال عمر رضي الله عنه عن المخاطبتين حتَّى حججْت معه وعدل عن الطريق وعدلت معه بأداوة ماء، ونزل، وصببت الماء على يديه وتوضَّأ، فقلت: «يا أمير المؤمنين، من المخاطبتانِ من أزواج النبيء ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ...﴾ الخ ؟ فقال: واعجبًا لك يا ابن عبَّاس هما عائشة وحفصة، وحدَّثني الحديث بطوله. ذكر ذلك في البخاري، وبعد مدَّة رأيته أيضا في مسلم.

وقوله: «واعجبًا» تعَجُّبٌ من عدم معرفة ابن عبَّاس بهما إلى وقت سُؤاله، وقال الزهريُّ: المعنى إنَّه كره أن يسأله عن ذلك.

وفي الحديث عن عمر: «كنَّا معشر قريش نغلب نساءنا، ولَمَّا قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلُبهم نساؤُهم، فتعلَّمت نساؤنا منهنَّ، وقد هجر النبيء ﷺ إحدى نسائه اليومَ إلى الليل»، فقيل له ﷺ : «كنَّا نغلب نساءنا ولَمَّا قدمنا المدينة غلبَتْنا»، فتبسَّم رسول الله ﷺ ، قال عمر: دخلتُ على رسول الله ﷺ وما رأيت في بيته ﷺ شيئا إلاَّ أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسِّع على أمَّتكَ، فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله تعالى، فقال: «**يا ابن الخطَّاب أولئك قوم عُجِّلت لَهُم طيِّباتهم في الدنيا**». والأهبة: الجلود، جمع إهاب.

(صرف) ﴿**فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**﴾ أنَّث القلوب بتأويل الجماعة، وأقلُّها اثنان، أو ثلاثة حقيقة واثنان تجوُّزًا وتوسُّعًا، ومالهما إلاَّ قلبان، و لم يقل: قلبَاكُمَا لئلاَّ تجتمع صيغَتَا تثنية، وهذا هو الكثير، ويليه الإفراد وإرادة الجنس، نحو: فقد صغى قلبكما، وبعده التثنية نحو: قَلْبَاكُمَا، وهي الأصل، هذا كلام ابن مالك.

وقال أبو حيَّان: الإفراد مخصوص بالشعر عند أصحابنا، يعني أهل أندلس.

ومعنى صاغت: مالت عن الواجب من إعَانَته على ما يُحبُّه ﷺ . والجملة جواب، على معنى: أصبتُمَا في التوبة، فاستعمل السبب ــ وهو ميل القلب ــ في المسبَّب، وهو كون التوبة أصابت محلَّه، أو الجواب محذوف أقامت علَّته مقامه، فقد أدَّيتما الواجب أو أصابت توبتُكما محلَّهَا، لأنَّه قد صغت قلوبكما.

ويجوز أن يكون صاغت بمعنى مالت إلى الحقِّ، وهو التوبة، فتكون الجملة جوابًا بلا تأويل ولا حذف، إلاَّ أنَّ هذا لا يتبادر ولو كان حسنًا، ولأنَّه ليس فيه ما فيما تقدَّم من الفوائد مع اختصار اللَّفظ، ولأنَّه تنافيه قراءة ابن مسعود: «فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا».

وأمَّا مسألة كون الجواب ماضيا لفظا ومعنًى فغير مسلَّمة عندي، سواء كان لفظ «كان» أو غيره، لأنَّ الجواب منتظرٌ، فإذا قلت: إن قام زيد قام عَمْرٌ أمس، فمعناه صحَّ قيامه أمس، والصحَّة مترتِّبة لا ماضية، ومنه قول الشاعر:

«إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة[1]»

أي: تبيَّن أنِّي لم تلدني، وهذا التبيُّن مترتِّب.

﴿وَإِن تَظَّاهَرَا عَلَيْه﴾ تتظاهرا، أبدلت تاء الماضي ظاء وأدغمت، أي: تتعاونا عليه فيما يسوءه، كَفراَق مارية، وترك العسل، وإظهار ما أسَرَّ و لم تتوبا أو دمتما على التظاهر. **﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ﴾** إنَّه تعالى مولاه، أي: سيِّده تظاهرتا عليه أو لم تظَّاهرا، فالجواب محذوف، دلَّت عليه علَّته، أي: انتقم الله تعالى منكما ــ حاشاهما ــ أو نصره الله عليكما، أو لم يعدم ناصرًا، لأنَّ الله

١- وتمام البيت: «ولم تَجِدي من أن تُقرِّي بها بُدًّا». وهو لزائد بن صعصعة الفقعسي. إميل بديع يعقوب: شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج٢، ص١٧٥.

هو سيِّده لا يترك نصرته.

ويجوز أن يكون ﴿هُوَ مَوْلَاهُ﴾ بمعنى ناصره عليكما، أو على كلِّ أحد فتدخلا بالأولى، فلا حذف ولا تأويل.

﴿وَجِبْرِيلُ﴾ مبتدأ خبره مع ما عطف عليه «ظَهِيرٌ»، أو عطف على مستتر في «مَوْلَاهُ» إذا ضَمَّـنَّاهُ معنى ناصرًا وتالي أمره، أو مبتدأ خبره مع «صَالِحُ» فحذف، أي: وجبريل وصالح المؤمنين مَوْلَيَاهُ، أو مواليه بالجمع، لأنَّ إضافة صالح للجنس، والملائكة ظهير مبتدأ وخبر. أو «وَصَالِحُ» مبتدأ عطف عليه «الْمَلَآئِكَةُ»، و«ظَهِيرٌ» خبره. وموالاةُ غير الله نصرُه، أو كونه تابعًا له ﷺ.

﴿وَصَالِحُ الْمُومِنِينَ﴾ الإضافة للجنس، فهو في معنى الجمع، أو حذفت واو الجمع من الخطِّ تبعًا لحذفها من النطق للساكن، كـ﴿يَدْعُ الانسَانُ﴾ (سورة الإسراء: ١١)، و﴿يَمْحُ اللهُ﴾ (سورة الشورى: ٢٤)، و﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ (سورة القمر: ٦)، و﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (سورة العلق: ١٨).

وقيل: ﴿صَالِحُ الْمُومِنِينَ﴾ عليٌّ. روت الشيعة أنَّه لَمَّا نزلت الآية أخذ النبيء ﷺ بيد عليٍّ فقال: هذا صالح المؤمنين أيُّها النَّاس. وروى ابن مردويه عن أسماء بنت عميس مثله، وعن مقاتل: أبو بكر وعمر وعليٌّ، وقيل: الخلفاء الأربعة. وعن ابن عمر: أبو بكر وعمر، وكذا عن ابن مسعود، وكان العبَّاس رضي الله عنه يقرأ: «وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ أَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

ولعلَّ مراد هؤلاء التمثيل لا التخصيص، كما روى ابن مسعود عنه ﷺ: «**مِن صَالِحِ الْمُؤمِنِينَ أَبو بَكْرٍ وَعُمَرَ**». ومعنى ﴿ظَهِيرٌ﴾ مُعِينُون أو ناصرون، وأفرد لأنَّه بوزن مصدر السير والصوت، أو لأنَّ المراد فريق ظهير.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ النَّصر مِمَّن ذُكر أو بعد من ذُكر، والبعديَّة ترتيبٌ ذكريٌّ، أو ذلك هو الله كما قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٢) . ﴿ظَهِيرٌ﴾ نُكِّرَ تعظيمًا.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ, إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ, أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ في الإسلام والإيمان والتوبة، وما بعد ذلك بمعنى ما يكون أفضل ممَّا فيكنَّ من الحسن الدِّينيِّ والدنيويِّ، وزيادة ما لم يكن فيكنَّ، أو خيرًا بالجمال واللَّذَّة مع هؤلاء الصفات منكنَّ.

والخطاب لأزواجه كلِّهنَّ، لأنَّهنَّ في ساحة الوحي والحضور والعزِّ، والمقصودُ بالذَّات عائشةُ وحفصةُ المخاطبتان. والمراد: إن طلَّقكنَّ و لم يراجعكنَّ، فلا يشكل بأنَّه طلَّق حفصة، وقال أبوها: «لو كان فينا خيرا ما طلَّقك»، وأوحى الله إليه أَنْ راجعها فإنَّها صَوَّامةٌ قوَّامةٌ وزوجٌ لك في الجنَّة، وأيضا المراد: إن طلَّقكنَّ كلَّكنَّ.

وقيل: اجتمعت نساء النبيء ﷺ في الغيرة عليه، وعليه فليس المقصود بالذات عائشة وحفصة فقط، بل كلٌّ مقصود بالذات، نَعَمْ هما أشدُّ.

وعن عمر رضي الله عنه : اجتمع نساء النبيء ﷺ في الغيرة عليه، فقلتُ: عسى ربُّه إن طلقكنَّ أن يبدِّله خيرًا منكنَّ، فنزلت الآية.

(نحو) و«عَسَى» من الله تحقيقٌ إذا لم يكن شرط، وهنا شرط. و«أَن يُبَدِّلَهُ» خبر «عَسَى»، أي: تبديلاً، أي: ذا تبديل، أو مُبدِّلاً، أو عسى أمر ربِّه التبديلُ، وما قَبْلَ «إِنْ» وبعدها مُغْنٍ عن جوابها، و لم يطلِّقهنَّ فهنَّ خير نساء على الأرض.

﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ مُقرَّات بالوحدانيَّة والرسالة. ﴿مُّومِنَاتٍ﴾ خالصات الإيمان، بالعمل الصالح أو منقادات. ﴿قَانِتَاتٍ﴾ عابدات، مطلق العبادات على مواضبة، أو مصلِّيات أو مطيلات القراءة في الصلاة أو لَيْلاً. ﴿تَآئِبَاتٍ﴾ من الذنوب لا

معصُومات، كما روي عنه ﷺ : «**لو لم تذنبوا لأتى الله تعالى بقوم يذنبون ويتوبون فيغفر لهم**».

﴿**عَابِدَاتٍ**﴾ متذلِّلات لأمره ﷺ ﴿**سَآئِحَاتٍ**﴾ صائمات فرضًا ونفلاً كما جاء في الحديث مرفوعًا[1]، وذلك أنَّ السائح لا زادَ له، وقيل: ذاهبات في الطاعة لله تعالى أيَّ مذهب، لا يخصّنَّ شيئا، ولا منتهى لهنَّ مخصوص يقتصرن عليه، كالسائح النازع للوطن.

قلت: ولا يحلُّ هذا في الإسلام، إنَّما هو جهاد ونية. وقيل: مهاجرات.

﴿**ثَيِّبَاتٍ**﴾ مفارقات لأزواج متقدِّمة بطلاق أو غيره زالت عذرهنَّ أو لم تزل، كما نفسِّر به الثيِّب في الفقه: بأنَّها التي قد تزوَّجت قبلُ وتعرب عن نفسها في العقد. وقيل التي زالت عذرهنَّ.

(صرف) وذلك من ثاب يثوب (بمثلثة) بمعنى الرجوع، كَتَابَ يتوب (بالمثناة)، إذا رجعت عن زوجها المتقدِّم، ووزن ثيِّب فيعل، الأصل ثَيْوِبْ قلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء لاجتماعها مع ياء قبلها ساكنة، وقيل: فَعِيل، أي: ثَوِيب، وقدِّمت الياء الساكنة فكان القلب والإدغام.

﴿**وَأَبْكَارًا**﴾ جمع بكر، وهي من لم تتزوَّج ولم تزل عذرها، أو زالت، وذلك من البكرة وهي أوَّل النَّهار إذْ حَالُها قبل حال الثيِّب.

لم تعطف الصفات الأوائل، لأنَّهنَّ يجتمعن في واحدة، وعطف «أبكارًا» لأنَّه لا يجتمع معناه مع معنى ثيِّبات في واحدة، ولأنَّ المعنى: أزواجًا بعضهنَّ ثيِّبات وبعضهنَّ أبكارًا.

١-أورده **السيوطيُّ** في الدر: مج ٦، ص٢٧٠، وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر. من حديث عكرمة.

وقيل: هذه واو الثمانية زائدة مثل: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (سورة التوبة: ١١٢) ، ﴿وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (سورة الزمر: ٧٣) ، ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (سورة الكهف: ٢٢) ، واعترض بأنَّ واو الثمانية على القول بها إنَّما تكون حيث لم يحتج إليها الكلام، والذي عندي أنَّ واو الثمانية ثابتة بالاستقراء، إلاَّ أنَّها عاطفة أو حاليَّة أو نحو ذلك، بأن تكون في النعت الثامن أو الحال الثامن أو الخبر الثامن أو نحو ذلك[1].

وافتخرت عائشة رضي الله عنها بأنَّه ﷺ لم يتزوَّج بكرًا غيرها، وردَّت عليها فاطمة رضي الله عنهنَّ بأنَّه ﷺ بَكَّر مع أمِّي خديجة لم يتزوَّج قبلها غيرها، وذلك بأمره ﷺ أن تردَّ عليها بذلك.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۞ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيءَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ يَاأَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞﴾

١- راجع ج١٢، ص٣١٠ والجزء ٨، ص٣٢٠.

الأمر بالوقاية من النار والتوبة النصوح وجهاد الكفار

﴿**يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ نوعا عظيمًا من النار لا ضوء له، وهو نار الآخرة، ونعتها بقوله: ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ**﴾ الذي تتَّقد به النَّاس والحجارة كما تتَّقد نار الدنيا بالحطب، وكما تتَّقد في هذا العصر حجارة بالنار لإجراء السفن ونحوها، ولمصالح غير الإجراء، ويسمُّونها: الفحم الحجري.

وازدادت على نار الدنيا أنَّها كما تشتعل بحجارتها تشتعل بأبدان داخليها من الناس والجنِّ، ولم يذكر الجنَّ لأنَّهم تبع للنَّاس، أو أراد بالنَّاس ما يشملهم.

ووقاية النفس بأداء الفرائض وترك المعاصي، وإن شئت فأداء الفرائض، لأنَّ ترك المعاصي فريضة فهو داخل في أداء الفرائض، وإن شئت فترك المعاصي، لأنَّ ترك الفرائض معصية. ومعنى وقاية الأهل: نهي الأولاد والأزواج والمماليك واللَّقيط، ومن قام عليه الإنسان بنحو استخلاف عن فعل المعصية، وترك الفرائض، وتعليمهم التوحيد وعلم ما يجب علمه والأدب.

وعنه ﷺ : «**إنَّ من أشدِّ النَّاسِ عذابًا يوم القيامة من جهل أهله**» قال عمر: يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟ فقال: «**تنهونهم عمَّا نهاكم الله، وتأمرونهم بما أمركم الله، فيكون ذلك وقاية بينهم وبين النار**»[1].

ويروى: «هنَّ» مكان «هم» في ذلك كلِّه، فإمَّا لدخول الأولاد في الأنفس كما قال بعض في الآية، وإمَّا للعلم بالقياس عليهنَّ، والنهي من باب أولى قال ﷺ : «**رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتَكم صيامكم زكاتَكم مسكينَكم**

١- أورده **السيوطي** في الدر: مج٦، ص٢٧٠. وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث زيد بن أسلم.

يتيمكم جيرانكم»[1].

﴿**عَلَيْهَا مَلَآئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ**﴾ الجملة نعت آخر، وهم الزبانية التسعة عشر وأعوانهم، أو التسعة عشر تسعة عشر نوعا لا فردًا.

ويروى: «**ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة عام**»[2]. [قلت:] فإن كان هذا الطول حقًّا من الحديث آمنَّا به، وإن كان كذبًا فما الدَّاعي إليه؟ وقد كان يكفي أن يكون كالآدميِّ يُقوِّيه الله أن يضرب جبلاً ويجعله دَكًّا تنسفه الرياح، وليس ذلك الكذب يزيد خشوعًا، ولو كان الناريُّ يكبر حتَّى إنَّ سنَّه كجبل أُحُد.

(أصول الدين) **ونؤمن بملائكة النار هكذا إجمالاً وبغلظهم وشدَّتهم هكذا** وأنَّهم خلقوا للتعذيب، يضرب الناريَّ فيصير كلُّه طحينًا.

﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ**﴾ هذا لنفْي العناد والاستكبار عنهم، كقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه﴾ (سورة الأنبياء: ١٩) ، ولإثبات القَبُول باطنًا فإنَّ العصيان صفة الباطن.

(نحو) الجملة نعت ثالث لـ«مَلآئِكَةٌ» و«مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر بدل من لفظ الجلالة بدل اشتمال، هكذا نقول اصطلاحًا، أي: لا يعصون أمره، كقوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (سورة طه: ٩٣) ، فأوقع المعصية على الأمر، ولا حاجة إلى تقدير: في أمره، أو في ما أمرهم به، بتقدير «ما» اسمًا وتقدير «في» والرابط.

﴿**وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ**﴾ نعت رابع بواسطة العطف، أي: يفعلون أمره،

١- أورده **الألوسي** في تفسيره: مج١٠. ص١٥٦. بدون تخريج.

٢ - أورده **الألوسي** في تفسيره مج١٠ ص١٥٧. وقال: أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأوَّل الحديث عنده: «إنَّ خزنة النار تسعة عشر ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة خريف...» من حديث أبي عمران الجوني.

أي: يتَّبعونه ولا يخالفونه، ضدَّ قد عصوا أمره، وقدَّر بعض ما يؤمرون به، على أنَّ «مَا» اسم، والرابط مجرور مقدَّر للعلم به، ولو لم تف شروطه.

وهذه الجملة لنفي الكسل والتثاقل، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٠) ، فلا تتكرَّر مع الجملة قبله التي لنفي العناد. والمضارع فيهما للتجدُّد والاستمرار.

أو ﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ﴾ فيما مضى، والمضارع لحكاية الحال، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ﴾ للتجدُّد والاستمرار في المستقبل.

وكلُّ زمان له ماض يحكى ومستقبل يتجدَّد، وذلك من باب الطرد والعكس، وهو كلُّ كلامين يقرِّر أوَّلهما مفهوم الثاني، ويقرِّر الثاني مفهوم الأوَّل، مبالغةً في أنَّهم لا يقصِّرون عمَّا كلِّفوه من أمر أهل النار.

﴿ يَآ أَيـُّهَا الذينَ كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مقول لقول مستأنف أو لقول حال من واو «يُومَرُونَ». يقولون ذلك للكفَّار عند إدخال النَّار، والحال محكيَّة، والفعل لما يؤمرون بعد الإدخال، وإن كان حال التعذيب فمقارِنة. و«ال» في «الْيَوْمَ» للعهد الحضوري.

وإنَّما نهوهم عن الاعتذار لأنَّه لا عذر لهم، ولأنَّه لا ينفعهم، ويجوز أن يكون المقول المقدَّر حاليًّا لا قاليًّا، أي: يعذِّبونهم عذاب من لا عذر لَهُمْ. وما كانوا يعملون هو ترك ما فرض أو ندب إليه، وفعل ما حرِّم أو كره، كذا قيل، وفيه أنَّه لا يتعلَّق عقاب بالمندوب إليه تركًا ولا بالمكروه فعلاً.

﴿يَآ أَيـُّهَا الذينَ ءَامَنُوا تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ﴾ من الذنوب كلِّها وفي مسلم عن الأغَرِّ بن يسار المزني، قال رسول الله ﷺ : «**يا أيُّها الناس توبوا إلى الله تعالى،**

فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة»[١]. رواه مسلم عن أبي هريرة.

وفي البخاري ومسلم: «**لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده المسلم من أحدكُم سقط عن بعيره وأضلّه في أرض فلاة...**»[٢] الحديث. وفي مسلم عن أبي موسى الأشعريِّ عن النبيء ﷺ : «**إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النَّهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء اللَّيل، حتَّى تطلع الشمس من مغربها**»[٣]. وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ**»[٤] رواه الترمذي.

(بلاغة) ﴿**تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾ خالصة خلوصًا عظيما كعسل ناصح، أي: خالص من الشمع، وليس إسنادُ الخُلوصِ إلى التوبة مجازًا في الإسناد، وإن قلت ضربتُه ضربًا شديدًا لم تكن الشِّدَّة مجازًا للضرب بل حقيقة، ونسبة الخلوص للأمرِ حقيقة، وذلك أنَّ النصح بمعنى الخلوص، وأنَّه لازم، وإن قلنا: إنَّه متعدٍّ بمعنى نصح الفاعل أو نصح النَّاس إذا راوا أثرها فيفعلون مثلها فالإسناد مجاز عقليٌّ، لأنَّ النَّاصح هو الإنسان ينصح نفسه بالتوبة لا التوبةُ ويصلح فساد المعصية.

١- رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء. باب استحباب الاستغفار والاستكثار رقم: ٢٧٠٢ وأحمد في «مسنده» كتاب الأعز المزني. باب حديث الأعز المزني رقم: ١٧٣٩١. من حديث ابن عمر.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الدعوات، باب التوبة... رقم: ٥٩٥٠. **ومسلم** في كتاب التوبة، باب في الحضِّ على التوبة والفرح بها، رقم: ٢٦٧٥. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **مسلم** في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكرَّرت الذنوب، رقم: ٢٧٥٩. من حديث أبي موسى الأشعري.

٤- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات. باب في فضل التوبة والاستغفار. رقم: ٣٥٣٧ من حديث ابن عمر. **وابن ماجه** في كتاب الزهد. باب ذكر التوبة. رقم: ٤٢٥٣ من حديث ابن عمرو.

وفسَّر بعضهم النصوح أنَّها تنصح صاحبها، وقيل: النَّاسَ، لظهور أثرها فيقتدون بها، قال معاذ بن جبل: يا رسول الله، ما التوبة النَّصوح؟ قال: «**أن يندم العبد على الذنب ويعتذر إلى الله ﷻ ولا يعود إليه كما لايعود اللّبن إلى الضرع**». وروي هذا موقوفا عن عمر وابن مسعود وأُبي.

وفي الحديث مرفوعا: «**الندم توبة**». وعن محمَّد بن كعب القرظي: «التوبة النصوح: استغفار باللِّسان، وإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيِّء الإخوان». وعن الكلبيِّ: «الاستغفار باللِّسان والندم بالجنان، والإمساك بالأبدان». وسمع عليٌّ أعرابيًّا يقول: «اللَّهمَّ إنِّي أستغفرك وأتوب إليك»، فقال: «يا هذا إنَّ سرعة اللِّسان بالتوبة توبة الكاذبين»، قال: فما التوبة ؟ قال: «الندم على الذنب الماضي، وإعادَةُ الفرض الذي لزمه، وردُّ المظلمة إن كانت لمخلوق، واستحلال الخصم، والعزم أن لا يعود، وإذاقة النفس مرارة الطاعة، وإذابة النفس فيها كما ربَّاها بالمعصية وحلاوتها».

(**فقه**) والندم خوفَ العقاب توبةٌ، والندم طمعا في الجنَّة توبةٌ، والندم إجلالا لله تعالى توبةٌ، وهذه أقوى، ولا بدَّ في الكلِّ من قضاء حقِّ الله أو حقِّ المخلوق، كقضاء صلاة أو صوم تركه، وإعطاء كفارة لزمته أو ما للضعفاء، وضمان مال أو بدن أفسده أو عرض نقصه كما لا يحلُّ، وأن يذعن لما لزمه من ضرب أو قتل أو حبس، وأن لا يبغض من تبرَّأ منه بحقٍّ.

[قلت:] والندم خوفَ الجلد أو الحدِّ أو القطع أو الرجم أو نحو ذلك أو لتعيير النَّاس أو أمر دنيويٍّ ليس توبةً. وإن اجتمع بعض هذه مع ما هو توبة فالتوبة على حالها.

والتوبة واجبة على الفور من الذنب مطلقًا. وذكر بعض أنَّ تأخيرها ساعةً ذنبٌ آخر، أو ساعتين ذنبان وهكذا. وذكر بعض أنَّ ترك التوبة من الكبيرة

ساعة كبيرتان: فعْلُهَا وتأخُّرُ التوبة. و[ترْك التوبة] ساعتين أربعٌ [هي]: الأُوليان وترك التوبة على كلٍّ منهما. وثلاثَ ساعات ثمانٌ. والقولان للمعتزلة، وإذا تاب ثمَّ رجع رجع عليه ما مضى من الذنب، عندنا، وعند المعتزلة والباقلاني. وقال الأَشعَرِيَّة: لا يرجع عليه ما مضى بل الرجوع إليه ذنب آخر مستأنف.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمُ أَنْ يُّكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ صيغة الطمع أو الترجِّي من الله جزم على عادة الملوك في استعمال ذلك، وحكمة ذلك الإشعارُ بأنَّ المغفرة والإثابة تَفَضُّلٌ منه تعالى، إذ لا واجب عليه سبحانه، والتلويح بأنَّ على المكلَّف أن يكون بين خوف ورجاء ولو نصحت توبته أو لم يذنب قطّ.

(أصول الدين) وإذا صحَّت توبة العبد عند الله عز وجل وكان سعيدًا لا يموت مُصِرًّا فقد وعده الله سبحانه بالمغفرة والثواب، وهو لا يخلف الوعد ولا الوعيد فذلك واجب الوقوع، بمعنى أنَّه لا بدَّ منه، هذا معنى وجوبه إذا أطلق فهو واجب في وعده لا عليه حاشاه.

وزعمت المعتزلة أنَّه يجب عليه تعالى قبول التوبة النَّصوح وهو خطأ، ولا يجزم بقبول توبة أحد إلاَّ بالنَّص إلاَّ توبة المشرك، فإنَّا نجزم بقبولها لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلذِينَ كَفَرُواْ إِنْ يَّنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٨) ، وحديث: «**الإسلامُ جَبٌّ لِمَا قبله**»[1]. وإن ارتدَّ لم يرجع عليه ما قبل إسلامه.

وأمَّا قوله ﷺ : «**التوبة تجبُّ ما قبلها**» فهو في الموحِّد وغيره على ظاهره، بشرط أن لا يموت مصرًّا، وذلك بوعد الله عز وجل ، ومعنى دعائنا بقبول التوبة أن تكون خالصةً ولا تعقب بذنب يموت مصرًّا عليه.

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج٥ ، ص٣٢٧.

﴿يَوْمَ﴾ متعلّقٌ بـ«يُدْخِلَ» ﴿لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيءَ﴾ المعهود محمَّدًا ﷺ ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ﴾ الإخزاء الإفضاحُ، أي: لا يصيِّره خَزِيًّا، أي: فاضحًا، بل له أنواع الإكرام، أو الإخزاء: التصيير ذا خزاية، أي: انكسار وذلٍّ في نفسه، بالحياء المفرط، بل يجعله ناعما مبتهجا، أولا يُصَيِّرُه ذا خزي، أي: استخفاف من غيره لهُ واحتقار، بل منصورًا محترمًا مكرَّمًا، ولا يجوز تفسيره بذلك كلّه أو في متعدِّد منه إلاّ على جواز استعمال الكلمة في معنييها أو معانيها.

و«الذينَ» معطوف على «النَّبيءِ»، والمراد بالإيمان الإيمان الكامل، وهو المتبوع بالعمل، وفي ذلك تعريض بإخزاء المشركين والفسّاق، ودعاء المؤمنين إلى الحمد والشكر على النجاة من الإخزاء. و«مَعَهُ» حال من «الذِينَ» مبتدأ، أو «مَعَهُ» خبر.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يتقدَّم أمامهم أينما ساروا، أو سُمِّيَ اللمعان سعيًا. والجملة مستأنفة. ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ في أيمانهم.

(نحو) والعطف على «بَيْنَ»، ويتعلّقان بـ«يَسْعَى»، أو بمحذوف حال من ضمير «يَسْعَى». والجملة الكبرى مستأنفة أو خبر لـ«الّذينَ».

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إذا رأوا نور المنافقين مطفأً عند ابن عبَّاس والحسن، وقبل ذلك وبعده.

(نحو) والجملة مستأنفة أو خبر لـ«الّذينَ» ثانٍ، أو حال من «الذينَ»، قيل: أو من ضمير «يَسْعَى»، والرابط ظاهر بمعنى المضمر، وهو «نُور» في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا...﴾.

﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ المشركين بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المضمرين للشرك في قلوبهم المَظهرين التوحيد في ألسنتهم، بالوعظ والتحذير منهم، وإقامة الحدود ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكُفَّار والمنافقين. ﴿وَمَأْوَيٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ للعذاب الغليظ فيها ﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنَّم، أو مأواهم.

(نحو) والعطف عطف قصَّة على أخرى، كذا قيل، قلت: بل العطف على شأنه لتمام المناسبة بين قوله: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وقوله: ﴿بِيسَ الْمَصِيرُ﴾، إلاَّ إنْ أريد بعطف القصَّة على أخرى عطف «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ» على «جَاهِد» أو على «اغْلُظْ»، ومع هذا لا يخلو عن مناسبة، لأنَّ فيهما معا الوعيد للكفَّار والمنافقين.

(بلاغة) وإنَّما في ذلك عطف اسْمِيَّة خبريَّة على إنشائيَّة فعْلِيَّة، وهو جائز وارد في القرآن، كما في عطف «بِيسَ الْمَصِيرُ» وهي فعْلِيَّة على «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ» وهي اسْمِيَّة، ولا مانع من جعل واو قوله: ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ واو الحال.

□ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ □

أمثلة للنّساء الكافرات والنساء المؤمنات

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّـلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وذلك في اللَّوح المحفوظ، أو في خلق القرآن، أو ذلك إنشاء، كقولك: «اشتريت» عاقدًا للشراء، ومعنى ضرب المثل إثباتُ غريب يُعرف به أمر آخر مشاكل له. ومَحَطُّ ضرب المثل خيانة المرأتين مع أنَّهما مع نور النَّبيئين الهاديين، وهما من أهل النار ولا ينفعهما النبيئان، وكذلك لا تنفع قرابة النبيء ﷺ من كفر به.

(نحو) و«مَثَلاً» مفعول ثان مقدَّم. و«امْرَأَتَ» مفعول أوَّل مؤخَّر. و«لِلَّذِينَ» متعلِّق بـــ«ضَرَبَ»، أو نعت لـــ«مَثَلاً» لا متعلِّق بـــ«مَثَلاً» كما

قيل، لأنَّه جامد، وعلى تأويله بمماثل يحتاج لتقدير مضاف، أي: مماثلا لحال الذين كفروا، نَعَمْ فيه وفي جعله نعتا عدمُ الفصل بين «ضَرَبَ» ومتعلّقه. وأخَّر المفعول الأوَّل ليتَّصل بما يفسِّره، وهو كون المرأتين تحت عبدين...الخ. وتعدَّى [«ضَرَبَ»] لاثنين لمعنى التصيير، ولك جعل «مَثَلاً» مفعولا به و«امْرَأَتَ» بدلاً منه متعدِّيا لواحد، أي: أَثْبَتَ في المماثلة امرأةَ نوحٍ...الخ.

﴿امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ اسمها والِعَة أو والهة. ﴿وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ اسمها وَالهة على أنَّ امرأة نوح والعة، واسمها والعة على أنَّ امراة نوح والهة.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ نبيئين عظيمين أدَّيا ما لزمهما من حقِّ العبوديَّة لله تعالى، قَدْرَ جهْدِهِمَا: نوح ولوط عليهما السلام. قلت: وغاية حقِّ الله عَجَلّ لا طاقة لمخلوق في القيام بها. ﴿مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ متحرِّزَيْن عن الفساد والبطَالَة، حتَّى إنَّ لهما سعادة الدنيا والآخرة.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بإضمار الشرك وإعانة أهله بكلِّ ما وجدتا، ونفاقِ إظهارِ التوحيد لهما. ومن ذلك أنَّ امرأة نوح تقول للنَّاس: إنَّ نوحًا مجنون. وأنَّ امراة لوط تدُلُّ قومه على الضيف ليفحشوا بهم، وأنَّهما إذا أوحي إليهما أفشتا الوحي على الوجه الذي لا يليق بزيادة أو نقص أو تبديل، وأنَّهما تنمَّان. وقيل: كفرهما كفر جارحة لا إضمار شرك.

وقيل: إنَّ خيانتهما الزنى، وقيل: الشرك والزنى، ويردُّهما أنَّ الزنى في أزواج الأنبياء نقيصة فيهم، فلا تتصوَّر، بخلاف الإشراك فإنَّه ليس في قلوب المشركين نقصًا وعيبا، بل يعدُّونه حقًّا، لعنهم الله ولعن اعتقادهم، وعن ابن عبَّاس موقوفا: «**ما زنت امراة نبيء قطُّ**»[1] رواه أشرس بسنده إلى النبيء ﷺ.

١- أورده **الألوسيُّ** في تفسيره: مج ١٠، ص١٦٢. بدون تخريج.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي: العبدان الصَّالحان بسبب خيانتهما ﴿عَنْهُمَا﴾ عن المرأتين الخائنـــتين، وهما زوجان للعبدين الصالحين ﴿مِنَ اللَّه﴾ حال من قوله: ﴿شَيْئًا﴾ مفعول لـــ«يُغْنِي»، بمعنى: لم يَدْفَعَا شيئا من عذاب الله عنهما بالشفاعة للزوجيَّة. أو مفعول مطلق، أي: لم يغنيا عنهما إغْنَاءً مَّا.

﴿وَقِيلَ﴾ قال الله تعالى لهما كما يليق به، أو الملائكةُ يوم القيامة، والمضيُّ لتحقُّق الوقوع. أو عند موتهما، والمضيُّ على ظاهره. ﴿ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخلينَ﴾ وموت الكافر أو قبره أوَّل الآخرة ومفتاح لنار الآخرة، بل يعذَّب أيضا في قبره، أو روحه بنار منها. والمراد: مع سائر الدَّاخلين الذين لا وَصْلَةَ لَهُمْ بالعباد الصالحين، فكأنَّهما لم تكن لهما وصلة، وهما النبيئان، إذْ لم تـــتَّبعاهما، وكذلك لا ينـــتفع مَن قَرُبَ من الكُفَّار إليه ﷺ بقرابته، وكذلك لا تنفع أمَّهات المؤمنين زوجيَّـــتُهُنَّ للنبيء ﷺ لو ارتكبن محظورا ولم يتبيَّن ـــ حاشاهنَّ ـــ . والآية دالَّة على ذلك كلِّه.

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّـــلَّذِينَ ءَامَنُواْ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ على حدِّ ما مرَّ كلِّه، إلاَّ أنَّ ما مرَّ في أنَّ وصلة المؤمنين لا تنفع الكفرة، وهذا في أنَّ وصلة الكفرة لا تضرُّ المؤمنين كما لَمْ يضرَّ كفر فرعون زوجه المسلمة آسية بنت مزاحم، وهي في أعالي الجنَّة وهو في أسافل النَّار.

﴿إِذْ قَالَتْ﴾ متعلِّق بمضاف محذوف مبدل من «امْرَأَتَ» بدل اشتمال، أي: ضرب الله مثلا امرأة فرعون قولها إذ قالت ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ﴾ أي: في محلِّ رضاك، وهذا معنى العنديَّة، وهي الرتبة الشريفة، وهو متعلِّق بـــ«ابْنِ» وكذا إن قدِّر مضاف، أي: عند عرشك، ويجوز كونه حالاً من قوله: ﴿بَـــيْـــتًا﴾ ولو نكرة لتقدُّمها عليه، ولو تأخَّر لكان نعتًا، وعليه فَقُدِّمَ لمزيد التشريف بالعندية، وللاهتمام بها.

﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ بدل من «عِندَ»، قيل: أو عطف بيان. وعلى تعلُّقهما معا بـ«ابْنِ» قيل: قدِّم «عِندَ» إشارةً إلى قولهم: «الجار قبل الدار»، بمعنى: إذا أردت سكنى دارٍ أو شراءها مثلا للسكنى فاعرف أوَّلاً من جارها لعلَّه جار سوء فتجتنبها، أو جارٌ خير فترغب فيه، والله الرَّحمن الرَّحيم خير جار وخير وليٍّ.

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ جسده ونفسه الخبيثة ﴿وَعَمَلِه﴾ هو الإشراك وسائر المعاصي، ومنها قتله وتعذيبه من لا يستحقُّ ذلك. وقدِّمت فرعون على عمله لشدَّة بغضها عَمَلَهُ، حتَّى كأنَّه شيء متجسِّد تلطِّخ به بدنه ممَّا هو مستقذر.

أو اعتبرت فرعون عامًّا بجسده وعملِه لاشتماله على اعتقاده وما يتولَّد منه، متضمِّـــنًا له، كأنَّه راسخ في جوارحه وسائر جسده، فعطفت عليه عَمَلَهُ عطف خاصٍّ على عامٍّ، لأنَّه الطامَّة الكبرى من حيث وجوده خارجا، ودخل في عمله جماعهُ إيَّاهَا، وليس في شريعتها تحريم تزوُّج مسلمة بمشرك.

(قصص) ويقال هي عمَّة موسى، آمنت بموسى حين سمعت بتلقُّف العصا ما سحر به، فعذَّبها بأربعة أوتاد في يديها ورجليها وإذا تفرَّقوا عنها أظلَّتها الملائكة عليهم السلام، وزادها الله قوَّة على عبادته، وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فأجاب دعاءها فرأته في حينها، وهو درَّة بيضاء، وقيل: أمر أن تلقى عليها صخرة عظيمة فرفع الله ﷻ روحها، فألقيت على جسد لا روح فيه، وهي تأكل وتشرب في الجنَّة بروحها إلى قيام الساعة.

[قلت:] والآية وأمثالها دلائل على أنَّ الدعاء بالنَّجاةِ عند الملِّمات مشروع. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ القبط وغيرهم من أعوان فرعون من مصر أو غيرها.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على امرأة فرعون، فقد انسحب عليها ضرب المثل، إذ كانت في قوم كثيرين مضرِّين لها وباهتين لها، وكافرين بحالها وحال ابنها، و لم يَصُدَّها ذلك عن عبادة الله تعالى، وما ضرَّها كفرهم، ونالت على مقاساة أهله والتمسُّك بدين الله عزَّ وجلَّ خير الدنيا وخير الآخرة.

[قلت:] وفي الآية تسلية لمن لا زوج لها من النساء بعدها إذا تمسَّكن بعبادة الله تعالى وتورَّعن.

﴿التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عن الزنى وما يقرب منه، وهي بعيدة عن قرب الفحش، لكن ذكر الله عزَّ وجلَّ هذا ردًّا على باهتيها، وهذا أولى ممَّا قيل: المعنى الكناية عن العفَّة، كما يُقال: فلان نقيُّ الجيب، على أنَّ الفرج جيب قميصها، وهو مخرج رأسها، وعنقها منه، وهذا ولو كان أبلغ لكنَّه خلاف الظاهر. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فيه﴾ وهو قراءة أيضا في هذه السورة، وهذا أقوى ممَّا قيل: إنَّ جبريل أراد النفخ في جيب قميصها، وقالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ (سورة مريم: ١٨) ، فتباعدت عنه فنفخ فيه كارهةً. والفرج منفذ في الجسد، حقيقة في سوءة الإنسان وغيرها، لا ما قيل ــ ونسب للأكثر ــ من أنَّه حقيقة بين الرجلين ثمَّ صار حقيقة فيها، نَعَمْ شُهِر فيها.

﴿فَنَفَخْنَا﴾ أسند النفخ إليه تعالى على طريق المجاز العقليِّ إعظاما لها رَضِيَ اللهُ عَنهَا، ولأثر النفخ. والنَّافخ حقيقةً جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهذا أولى من اعتبار التجوُّز بحذف المضاف المتغيِّر الإعراب به، أي: فنفخ رسولنا. ﴿فِيهِ﴾ أي: في فرجها. ولا مانع من أن يرسله الله إليها حتَّى يقابل فرجها فينفخ فيه بحيث لا يراه ولا يمسُّه، وهو الظاهر.

وقيل: نفخ في مخرج عنقها ورأسها من قميصها فوصل فرجها، فصحَّ أنَّه نفخ فيه إذ وَصَلَهُ، وهذا مجاز لعلاقة الجوار، لأنَّ الجيب باعتبار الإيصال منه إلى

الفرج كأنّه مجاور له، وأيضا إذا شملهما بدن واحد فكأنّهما متجاوران. وأجاز بعضهم عود الهاء إلى الحمل المدلول عليه بالمقام، على أنّه كان فيها عيسى بلا روح ثمّ نفخ فيه الروح، وقيل: وُجد فيه بالنفخ حيًّا دُفعة.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾ روح لنا، بلا توسُّط لجبريل عليه السلام، والمراد الروح الذي خلقه الله عز وجل، وجعل من بعضه عيسى. والإضافة للتشريف.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ صحف آدم وصحف إدريس وصحف إبراهيم وصحف موسى، وسمَّاها كلمات لقلّتها بالنسبة إلى الكتب. وقيل: وعده ووعيده وأمره ونهيه.

﴿وَكِتَابِهِ﴾ هو الإنجيل، أو جنس كتب الله التوراة والزبور والإنجيل والقرآن وغيره من كتبه، بل الإضافة للاستغراق، ردًّا على من أنكر الإنجيل وعلى من أنكر القرآن.

والقرآن ولو تأخَّر نزوله لكنَّه مذكور في التوراة والإنجيل وغيرهما، فآمنت بما وجد وما سيوجد نزوله، كما آمنت برسول الله ﷺ لذكره في الكتب السابقة، يدلُّ على أنَّ المراد عموم الكتب قراءة ﴿وَكُتُبِهِ﴾ بالجمع. وقيل: المراد بالكتاب الكتب والصحف، وبالكلمات سائر ما يوحى إلى الأنبياء، وقيل: اللّوح المحفوظ وما فيه.

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ المبالغين في العبادة وإخلاصها، ومرَّ كلام في معنى القنوت، ولم تكن التلاوة «من القانتات»، أو وكانت قانتة تعظيمًا لعبادتها، كأنَّهنَّ من الرجال المبالغين بها. و«مِنَ» للتبعيض.

وقيل: المعنى أنّها صدرت من نسل القانتين، لأنَّها من ذرِّيَّة هارون أخي موسى عليه السلام، والأصل أنَّ الفرع يتبع الأصل، وقد قيل: إنَّ الغالب

ذلك، و«مِنَ» على ذلك للابتداء، وكونها من نسلهم مدح لها كما قال ﷻ : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ (سورة الأعراف: ٥٨) .

وذكرت في وفاء الضمانة وغيره حديث أحمد: «**سيِّدة نساء أهل الجنَّة مريم، ثمَّ فاطمة، ثمَّ خديجة، ثمَّ آسية، ثمَّ عائشة**»[1] وحديث البخاري: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاَّ أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمَّد ﷺ ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[2]، وذلك أنَّ الثريد ـ لحم ومرق وخبز مفروق فيه ـ لذيد سهل الأكل، فإمَّا أن يريد سائر نساء الأمَّة غير فاطمة، كما قدِّمت فاطمة عنها في الحديث لكونها بضعة منه ﷺ ، وإمَّا أن يريد عموم النساء والفضل لها من جهة حسن الخلق وحلاوة المنطلق، والفصاحة والبلاغة وجودة العقل، والتحبُّب للزوج.

وَحَفِظَتْ [عائشة] من الحديث ما لم يحفظه رجل، وخوطبت في الآية لكن خوطبت معها حفصة: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ...﴾ الخ، وأنَّها بنت أفضل الخلق بعد الرسل الصدِّيق رضي الله عنه ، فللتفضيل جهات، فلعلَّه أيضا فضِّل عليها من فضِّل باعتبار كثرة العبادة والمصايب، كما أنَّ تفضيل من فضِّل على فاطمةَ هو بذلك الاعتبار، وأنَّها في نفسها أفضل النساء إذْ هِيَ بضعة من

١- أورده **الألوسيُّ** في تفسيره: مج١٠، ص١٦٥. وقال: أخرجه أحمد في مسنده.

٢- رواه **البخاريُّ** (الجزء الأوَّل منه) في كتاب الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةَ...﴾ رقم: ٣٢٣٠. **ومسلم** في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أمِّ المؤمنين، رقم: ٢٤٣١. من حديث أبي موسى.

أفضل الخلق، وفي الطبرانيِّ عنه ﷺ : «**زوَّجني الله مريم ابنة عمران وامراة فرعون وأخت موسى**»[(١)].

والله أعلم وهو الموفِّق.
وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

١- أورده **الألوسيُّ** في تفسيره: مج١٠، ص١٦٥. وقال: أخرجه الطبرانيُّ من حديث سعد بن جنادة.

تفسير سورة الملك وآياتها ٣٠

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾

أدلَّة القدرة الإلهيَّة

(قصص) ضرب رجل خباءه على قبر ولم يدر به، فسمعه يقرأ تبارك الملك حتَّى ختمها، فأخبر رسولَ الله ﷺ ، فقال له: «هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر»[1]، وعنه ﷺ : «إنَّ سورة هي ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتَّى غفر له، وهي تبارك الملك».

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ البركة النموُّ والزيادةُ، كثرت خيراته الدِّينيَّة والدُّنيويَّة والأُخرويَّة، وزيادهَا مع الدوام. فإمَّا أن يقدَّر مضاف، أي: تبارك خيراتُ الذي له الملك، أو يفسَّر بِتَعَاظَمَ بالذات عمَّا سواه.

(أصول الدين) وإنَّما تزداد أفعاله ومتعلَّقاها، وأمَّا صفاته فلا تزداد ولا تنقص. وصيغة التفاعل للمبالغة، لأنَّ المتفاعلين كلٌّ يعالج أن يكون غالبا في

١- أورده **الألوسي** في تفسيره: مج ١٠، ص١٧٠. وقال: أخرجه الطبرانيُّ من حديث ابن مسعود.

الفعل، وذلك يستدعي تجويد الفعل أو كثرته، تعالى عَجَلَّ عن أن يغالبه أحد. واستدلَّ على ذلك بالإسناد إلى ما هو كالمشتقِّ، وهو الموصول باعتبار صلته، فإنَّ ثبوت الملك له وحده كالعلَّة لذلك.

(بلاغة) و«بِيَدِه الْمُلْكُ» استعارة تمثيليَّة فلا تجوز في بعض أفراده، وهي أولى من أن يجعل «الْمُلْكُ» حقيقة على حدة، و«يَد» مجازًا عن الإحاطة والاستيلاء، وأفاد ذلك على كلِّ حال استغناءهُ تعالى واحتياج غيره إليه، كما قيل: إنَّ العرف العامَّ أنَّ الملك لا يطلق إلاَّ على ذلك. وتقديم «بِيَدِه» للحصر.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إبقاء الموجودات ذاتًا وعرضًا وإفنائها وإيجاد المعدوم. والجملة قبل هذه في شأن التخصيص بالموجود، أو عظم الشأن.

﴿الذي خَلَقَ الْمَوْتَ والْحَيَوٰةَ﴾ بدلٌ من ﴿الذي بِيَدِه الْمُلْكُ﴾ والموت صفة وجوديَّة تضادُّ الحياة، وقيل: زوال القوَّة الحيوانيَّة وإبانة الروح عن الجسد. والحياة: القوَّة الحسَّاسة مع وجود الروح في الجسد. ويدلُّ على أنَّه وجوديٌّ إيقاع الخلق عليه، لأنَّ الخلق إيجاد، والإيجاد يُحَصِّلُ الوجودَ، وفي معناه عَدُّ التروك أفعالاً، كما سمَّى الله تعالى ترك الواجب كسبًا وفعلاً وعملاً.

وأيضا العدم أزليٌّ لا أوَّل له، وحدث الوجودُ بإيجاد الله عَجَلَّ .

وأمَّا ما ورد في الحديث: «**إنَّ الله عَجَلَّ يُحضِر الموتَ يوم القيامة بصورة كبش يعرفه أهل المحشر أنَّه الموت فيذبح فيـــيأسون من الموت**»[1]، وفي كلام ابن عبَّاس: «إنَّ الموت في صورة كبش أملح لا يمرُّ بشيء إلاَّ مات، وخلق الحياة بصورة فرس أبلق لا يمرُّ بشيء إلاَّ وجد ريحه وحيي» فتمثيلٌ.

١- أورده **الألوسي** في تفسيره: مج١٠، ص١٧١. بدون تخريج، من حديث ابن عبَّاس.

وقال بعضٌ: ذَلِكَ على ظاهره، وإنَّ هذا الفرس هو الذي أخذ السامريُّ من أثره ترابًا وألقاه على صورة العجل فحيي بإذن الله ﷻ، وإنَّ الأنبياء يركبونه.

وقيل: الموت أمر عدميٌّ، وهو عدم الحياة عمَّا من شأنه الحياة، واختاره بعض، وأجاب قائله عن إيقاع الخلق بأنَّ الخلق بمعنى التقدير، وهو يتعلّق بالأمر العدميِّ، كما يتعلّق بالوجوديِّ.

ويبحث بأنَّ في إيقاع الخلق على العدم نفيُ الأزل فيقال: لم يزل الله يخلق عدمًا، فلا أوَّل لخلقه فلا أزلَ، وذلك لا يجوز، كما لا يجوز أن يقال: لم يزل الله يخلق الأشياء بلا أوَّل لخلقه. وإن قال: الموت ليس عدما مطلقا صِرْفًا بل عدم شيء مخصوص، ومثله يتعلّق به الإيجاد والخلق، فذلك رجوع إلى كونه وجوديًّا.

وقال أيضا: الخلق بمعنى الإنشاء والإثبات، ويبحث بأنَّ الإنشاء أو الإثبات هو نفس الإيجاد، فإنَّ الإنشاء أو الإثبات لا يتصوَّر إلاَّ بحصول شيء أُنشِئَ أو أُثْبِتَ وذلك إيجاد للموصوف به حالاً لم يكن قبله من صحَّة العلم والقدرة.

وفي ذكر الموت زجر عن الكسل والمعصية، وحثٌّ على الطاعة. وجاء: «**أكثِروا ذكْرَ هَادِمِ اللّذَّات**»[١]، لأنَّ الموت باب الجزاء، وفي ذكر الحياة دعاء إلى الشكر.

وقَدَّم ذكر الموت لأنَّه رجوع إلى الأصل الذي هو العدم، ولأنَّه زجر من أعظم الزواجر كما هو قاهر، ولأنَّ تذكُّره داع إلى العمل، ولأنَّه نعمة يتوصَّل بها إلى ثواب ما عمل في الحياة من الخير، كما أنَّ الحَيَاةَ نعمة يتوصَّل بها إلى عبادة الله ﷻ، ولينغِّص ما ذَكَر بعده من الحياة، فلا يغترُّ بها.

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٣، ص٩٥.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليُعاملكم معاملة المختبر، فالكلام استعارة تمثيليَّة، وهي أبلغ من الاستعارة المفردة التي هي تشبيه التكليف المترتِّب عليه الوفاء أو عدم الوفاء بأمر أحدٍ مَنْ دُونَه بشيء أو نهيه لِيَعلم هل يمتثل. و لم أحمل الابتلاء على ظاهره لاستلزامه الجهل تعالى الله عنه.

وإنَّما صحَّ أن يقولوا: «أَبْلَغُ» ببناء اسم التفضيل مِن «بَالَغَ» بناءً على جواز بنائه من الرباعي بالزيادة، مع أنَّه لا مانع من بنائه من «بَلَغَ» الثلاثي، بمعنى: بلغ رتبة عظيمة.

ويُقال ثلاثة يُساوِمْنَ العبدَ كلّ يومٍ: بليَّة نازلةٌ، ومنيَّة قاضيةٌ، ونعمة زائلة.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ جملة استفهاميَّة علّق الاستفهام فيها بــ«يَبْلُوَ» عمَّا يستحقُّه من التعدية بالباء، وهكذا التعليق يكون أنواعًا، أو عن عمل النصب في مفردٍ، لتضمُّن معنى يَعْلَمُ، أي: ليعلمكم أيُّكم أحسن عملا.

(نحو) والحقُّ أنَّ التعليق يكون عن المفعول الثاني كما يكون عنهما، نحو: علمت زيدًا هل قام. وغفل الزمخشريُّ ومتابعوه في منع تسمية ذلك تعليقًا، ثمّ رأيته مَذْهَبًا لأهل أندلس.

والمراد بالعمل عمل القلب والجوارح، ودخل في العمل الترك الذي هو طاعة كترك الرياء، فإنَّ الترك متفاوتٌ، بعضٌ أشدُّ من الآخر فيه، وأبعد عن المقارفة؛ قال رسول الله ﷺ : «**أيُّكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله تعالى وأسرع في طاعة الله عز وجل**». وحاصله: أيُّكم أحسن أخذًا عن الله وفهما وامتثالاً. والأجر يتفاوت بتفاوت ما ذكر.

وجاءت الآية طبق قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالاِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذّاريات: ٥٦) ، فالمعصية بمعزل عن خلق الجنِّ والإنس وعن

الصواب، حتَّى كأنَّها لا تكون البتَّةَ أو إلاَّ شذوذًا، فلم يكن التلاوة: أيُّكم يطيع وأيُّكم يعصي، فكأنَّه لا يكون إلاَّ الطاعة، وأنَّه لا بدَّ منها أصالة، فجعل التفضيل فيها بين الكاملة والأكمل منها.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُرَدُّ عمَّا أراد ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب.

(نحو) ﴿الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ خبر ثالث لـــ«هُوَ». ﴿طِبَاقًا﴾ نعت لـــ«سَبْعَ» لجواز نعت العدد، كما يجوز نعت ما أضيف إليه العدد وهو في الأصل مصدر طابَقَ نُعِتَ به مبالغةً، أو لتقدير: ذوات طباق، أو للتأويل بمطابقات (بفتح الباء وكسرها)، أي: طابق بعضُها بعضًا فكلٌّ واحدة مطابقة ومطابقة، أو طابقها الله عَزَّ وَجَلَّ ، أي: جعلها متطابقة. أو مفعول مطلق، نعت لمحذوف، أي: طوبقت طباقًا، فـــ«طوبقت» نعتٌ لـــ«سَمَاوَات» أو لـــ«سَبْعَ». وقيل: ما لا يوجد إلاَّ مع ما عمل فيه، هو مفعول مطلق ولو كان جسمًا، نحو: خلق السماوات والأرض، وحفرت البئر، ونسجت الثوب، وبنيت الدَّار.

ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾: بعضٌ فوق بعض، لا متلاصقة كما زعم الفلاسفة، وبعض الإسلاميِّـــين، والحديث يردُّ عليهم، لنصِّه أنَّ بين كلِّ واحدة وأخرى خمسمائة عام. وانظر من أين ثبت للفلاسفة الإيمان بالسماوات السبع وغالبهم مشركون غير كتابيِّـــين، ولعلَّ المراد فلاسفة الإسلام.

﴿مَّا تَرَى﴾ يا من يصلح للرُّؤية عمومًا، النبيء ﷺ وغيره، وهذا هنا أولى، أو الخطاب للنبيء ﷺ والوجهان فيما بعد.

(نحو) و«مَا» نافية، و«مِنْ» زائدة في المفعول به، أو استفهاميَّة إنكاريَّة مفعول به لـــ«تَرَى». و«مِن» للبيان في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فِي خَلْقِ

الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُت﴾، والجملة مستأنفة على الاستفهام، ونعتٌ لــ«سَبْعَ» على النفي، والرابط «خَلْقِ»، لأنَّه وضع موضع الضمير، أي: ما ترى فيهنَّ، فوضع «خَلْقِ» موضع الهاء، وأضيف للرحمن، والذوق يقبل ذلك.

(نحو) ولا فرق بين الخبر والنعت في ذلك ولو منعَهُ ابن هشام في النعت أن يربط بظاهر موضوع موضع المضمر. والمراد بــ﴿خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ سبع السماوات، وإذا لم تجعل الجملة نعتًا جاز أن يراد به السماوات، وأن يراد به عموم الخلق، قيل: وهو أولى، فتكون الإضافة للجنس، وعلى الأوَّل للعهد.

والظاهر إرادة السماوات، لقوله: ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: انشقاق، وتفسيره بالخلل مطلقا خلاف الأصل، وعلى كلِّ حال فهو مصدر بمعنى مفعول. والتفاوت هنا تخالف يوجب نقصا بعدم التناسب والاستواء، وذلك عيب واضطراب.

استدلَّ بعضٌ على أنَّ البصر أفضل، لقوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُت﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَسِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الابِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (سورة الغاشية: ١٧) ، إلى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وغير ذلك كثير، فامْتنَّ علينا بالإبصار لمخلوقاته استدلالاً عليه تعالى.

وقيل: السمع أفضل، لقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (سورة الزمر: ١٨) ، قيل: وللابتداء به في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ﴾ (سورة البقرة: ٧) ، ويردُّه أنَّ «عَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ» من جملة أخرى، وأنَّه أخِّر في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (سورة الأعراف: ١٩٥) ، واختار بعضهم الأوَّل لأنَّ منافع البصر أكثر.

﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ**﴾ بسبب إخباري لك بعدم التفاوت يظهر لك صدقه،

سبحان أصدق القائلين، وإن كنت في ريب فارجع البصر إلى خلق الرحمن يزل ريــبك، والمراد بالرجع: استــئناف النظر لا بقيد تقدُّم نظر، وذلك وارد، وإن اعتبرنا تقدُّم نظر في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾، لأنَّ الإنسان خلق له النظر واستعمله بلا أمر له من الله فهو قد نظر ثمَّ أمره الله بالنظر.

﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ «من» صلة للتأكيد في المفعول به، والفطور مطلق الشقِّ، ولو كان أصله الشقُّ طولاً، وفسَّره بعض بمطلق الخلل مجازًا، وابن عبَّاس بالوهن مجازًا، والجملة مستانفة، أو معلّق عنها «انظر» محذوفًا، أو معلّق عنها «ارْجِعِ الْبَصَرَ» لتضمُّنه معنى «انظر».

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ مفعول مطلق، أي: رجعتين، يُقال: كرَّ، أي: رَجَعَ. واللَّفظ ثلاث نظرات: الأولى بقوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ والاثنتان بقوله: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ وإن عدَّدنا واحدة في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى﴾ فأربع. وعلى كلِّ حال ليس المراد الأربع أو الثلاث فقط، بل التعدُّد الكثير، إذ لا يرجع البصر خاسئًا وهو حسير بمجرَّد أربع أو ثلاث، فكرَّتين من ذكر اثنين مراد به الكثير، كالتــثنية في «لبَّيك وسعديك». ويكون ذلك أيضا بمفردين متعاطفين كقوله:

لو عدَّ قبر وقبر كان أكرمَهم ميتا وأبعدَهم عن مترل الذّام[1]

والمراد: قبور كثيرة جدًّا، وقيل: لا مانع من إبقائه على ظاهره من المرَّتين، إذ يمكن الغلط بالأولى فيستدرك بالثانية، فتــتمَّ ثلاث، وفيها كفاية.

وزعم بعض أنَّ الأولى ليرى حسنها واستواءها، والثانية ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها، وقيل: ما في الآية إلاَّ مرَّتان: الأولى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾، والثانية

١- البيت لعصام بن عبيد الزُّماني في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي. وللرقاشي في البيان والتبيين. إميل بديع يعقوب: معجم شواهد اللغة العَرَبيَّة، ج٧، ص٢٨٢.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ﴾ بمعنى حصل برجعه تمام اثنتين وكلُّ ذلك ليس بشيء.

﴿**يَنقَلِبِ الَيْكَ الْبَصَرُ**﴾ يرجع إليك ناظر عينيك. ﴿**خَاسِئًا**﴾ خائبًا من وجود فطور، ومعنى رجوع العين رجوعها عن النظر إلى ذلك عن غيره، وفسَّر بعض «خَاسِئًا» بمتحيِّرًا. ﴿**وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ كليل من تكرار النظر، منقطع، فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى كفَّه الله عن أن يرى خللا لعدم الخلل فهو بمعنى مفعول، والجملة حال ثانية أو حال من المستتر في «خَاسِئًا».

ثمَّ إن كنَّا نرى السماء الدنيا جسمًا أخضر فإنَّا لا نرى السماوات الأخر **وآمنَّا بكلِّ ما قال الله ﷻ فهمناه أو لم نفهمه،** وهذه الخضرة المائلة إلى السواد لا أتحقَّقها جسمًا بل جَوٌّ عجز البصر عن نفاذه، فالشيء الذي أمرنا الله بالنظر إليه سماء آمنَّا بوجودها. ومعنى أمره إيَّانا بالنظر إليها النظَرُ إلى جهتها، فننظر ولا نحصل بنظرنا فطورا فيها لعدم إدراكنا إيَّاها، وكفى ذلك في انتفاء إثبات الفطور، وكأنَّه قيل: هل تعلم فيها فطورا؟ فاستعمل نظر وجهك لعلَّه يحصل لك به علم به، ألا ترى أنَّ السماوات فوق هذه إنَّما لنا علم بها لا إدراك بالبصر إلاَّ ما فيهنَّ من النيِّرات، فلعلَّ إدراك النيِّرات إدراك للسماوات كلِّها، ولو انشقَّت لأصاب نيِّراتها خلل.

﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا**﴾ القريبة إليكم وإلى الأرض بالنسبة إلى ما فوقها من السماوات، وأمَّا بالنسبة إلى من تحت العرش فهي البعدى، وهذه تحلية بالزينة بعد التخلية عن الفطور، كما هو المعتاد من تقديم التخلية عن التحلية.

و«الدُّنيَا» نعت لـــ«السَّمَاءَ» وهو اسم تفضيل المؤنَّث. ﴿**بِمَصَابِيحَ**﴾ بنجوم، ولو ما كان منها فوقها، لأنَّها تحلية، ومنها الشمس والقمر.

(بلاغة) سمَّاها باسم السراج [في الفرقان: ٦١، والنبأ: ١٣] استعارة

تصريحيَّة، قيل: أو سمَّى النجم سراجًا على الاستعارة ثمَّ جمعه ونُكِّر للتعظيم، أي: مصابيح عظيمة، ليست كمصابيحكم، وما رأيتم من ضوئها إلاَّ قليلاً لبعدها، وهذا أولى من أن يُقال: نُكِّرت للتنويع.

والمراد: النجوم السيَّارة والثوابت، وكلُّها مضيئة، وبعضها أضوأ من بعض، وهي في أفلاك مرسومة فيها، والأفلاك غير السماوات، وفلك فوق فلك.

وقيل: المراد الكواكب المضيئة. وعن عطاء: الكواكب كالقناديل بأيدي الملائكة بين السماء والأرض، كما يزيَّن السقف بقناديل تحته، ولا دليل له.

وزعم الفلاسفة قبَّحهم الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ من النجوم ما لا يصل إلينا شعاعه إلاَّ في عدَّة سنين، وأنَّ شعاع الشمس يصل إلينا في ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية، وأنَّ بيننا وبينها أربعةً وثلاثين مليونا من الفراسخ[1]. والمليون: ألف ألف، والمليار في هذه اللغة: ألف مليون.

﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ جعلنا المصابيح ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ المريدة لاستراق السمع.

(صرف) [رُجُومًا] جمع «رَجْم»، مصدرٌ بمعنى راجم، فالمصابيح رواجم، أسند إليهنَّ الرجم مع أنَّه فعل للملائكة لأنَّهنَّ آلته، أو مصدر بمعنى ما يرجم به، أو جمع راجم كشاهد، وشهود، وقاعد وقعود. وكونُه جمعًا أولى.

كيف ترجم بها وهي في السماوات أو فوقهنَّ؟ وكيف لا تنقضي أو لا تنقص مع طول الزمان؟ والنجم على ما زعموا أعظم من الأرض، والجواب: إمَّا أنَّهنَّ تحت السماء، كما قيل: يُشعل الملَك منها ما يرجم به كما يؤخذ القبس من النَّار ولا تفنى به ولا تنقص، وإمَّا أنَّها في فلك أقدر الله الملك بالشعل منها

١- وهذا ما يثبته علم الفلك في أيَّامنا.

مع بعدها، وإمَّا أنَّ الضمير عائد إلى النجوم المزيَّن لكن مرادا بها نجوم أخرى على الاستخدام.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا ﴿لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ عذاب النار السعير، أي: الموقدة، وإنَّما لم يقرن بتاء التانيث لأنَّ معناه مسعورة، وفعيل بمعنى مفعول يذكَّر، ككحيل بمعنى مكحولة.

وهم مُحْرقون بالشهب في الدنيا وبنار الآخرة في الآخرة. وإنَّما أثَّرت فيهم النارُ مع أنَّهم من النَّار لأنَّ نار الشهب ونار الآخرة أقوى من النار التي هم منها، وأيضا ليسوا نارا محضة بل هي أغلب عناصرهم، كابن آدم خلق من تراب ومع ذلك يتضرَّر بالتراب.

□ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ □

عذاب الكفار واعترافهم بضلالهم

(أصول الدين) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الجنِّ والإنس ﴿بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قدَّم الخبر للحصر الإضافيِّ، أي: وللذين أشركوا، لاَ للموحِّدين العاملين الصالحات التائبين من معاصيهم، فلا دليل فيه لمن يقول: الموحِّد لا يدخل النار ولو مات مصرًّا، وهم المرجئة، وللأشعريَّة قولان: قول بأنَّ منهم من يقول: يدخل بعض، وقول بأنَّ ذلك جائز لا واقع.

﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ هي. ﴿إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا﴾ طرحهم الملائكة فيها كما يطرح الحطب في النار القويَّة ﴿سَمِعُوا﴾ أي: سمع الكفَّار الملقون فيها ﴿لَهَا﴾ أي: لجهنَّم مرادا بها النار، أو للنَّار السعير المذكورة. واللاَّم بمعنى «من» الابتدائيَّة متعلِّق بـــ«سَمِعِ»، أو باقية على معناها متعلِّقة بمحذوف حال من قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿شَهِيقًا﴾.

والشهيق: صوت النَّار بأن كان صوتها كصوت الحمار، سمِّي به على الاستعارة التصريحيَّة، وذلك شدَّة منها، وتغيُّظ عليهم بأن يخلقه الله عَزَّ وَجَلَّ لها. أو الشهيق: صوت أهلها السابقين فيها، على حذف مضاف، أي: لأهلها، أو أسند شهيق السابقين إليها لأنَّها محلُّهم، وذلك شهيق الداخلين مطلقا يسمعونه من أنفسهم، ويسمعه بعض من بعض، وأسند إليها كذلك كما نسب إليهم لا إليها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (سورة هود: ١٠٦) ، وغيرهما، كالكلام للملائكة، والكلام لله تضرُّعًا غير نافع، وعتاب بعض لبعض، قبل تمام ستَّة آلاف من دخولهم، وبعد تمامها يقتصرون على الزفير والشهيق.

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم كالقدر بما فيه. والجملة حال من مجرور اللاَّم. ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ تتميَّز، حذفت إحدى التاءين، كما قرأ بهما طلحة، أي: تتفرَّق وينفصل بعض من بعض ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ أو بسبب الغيظ، وهو الغضب الشديد، يخلق الله عَزَّ وَجَلَّ لها عقلاً وغضبًا وبغضًا لأهل الكفر لكفرهم كما مرَّ آنفا، فلا مجاز.

(بلاغة) أو شبَّه اشتعال النَّار بهم بالضرِّ الواقع باغتياظ المغتاظ على المغتاظ عليه، على الاستعارة التصريحيَّة، أو شبَّه النَّار بإنسان شديد الغيظ ورمز لذلك بذكر لازم الإنسان وهو الغيظ، فإثبات الغيظ لها تخييليَّة، أو الغيظ نفسه تخييليَّة، أو الغيظ تصريحيَّة للازمها الشبيه بلازمه وهو نفس شدَّتها.

أو يبقى الغيظ على معناه الحقيقي تابعا للاستعارة. ويجوز أن يكون الإسناد إليها مجازا عقليًّا وحقيقته للملائكة، أو مجازا بالحذف، أي: تكاد ملائكتها. والتميُّز في ذلك كلِّه غير واقع، لأنَّه قال: ﴿تَكَادُ﴾ والواقع الغيظ. وجملة «تَكَادُ» خبر ثان لـ«هِيَ» أو حال من ضمير «تَفُورُ».

﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكُفَّار.

(أصول الدين) ولا يخفى أنَّ أهل الفترة لا يقال لهم: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ولا يقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا...﴾ إلخ، بل يقال لهم: ألم يجعل لكم الدلائل الكونيَّة ؟ فيقولون: بلى جعلت، وكذا صاحب الجزيرة فهم مكلَّفون بالتوحيد لا بسائر الأحكام الشَّرعيَّة، إذْ لم يجدوا من يأخذونها عنه. ويدلُّ لهذا قوله ﷺ لعديٍّ: «لو قال أبوك حاتم مرَّة لا إله إلاَّ الله لاستغفرت له» فاكتفى بكلمة الشهادة له، إذ كان من أهل الفترة.

(نحو) و«كُلَّ» ظرف زمان، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي: كلَّ إلقاء، فإلقاءٌ مصدر استعمل اسمًا للزَّمان، كجئت طلوع الشمس، كأنَّه قيل: كُلَّ وقت إلقاء فوج فيها. وهو متعلِّق بقوله: «سَأَلَ» من قوله تعالى:

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ خزنتها مَلَكٌ وأعوانه، سؤال توبيخ يحصل لهم تعذيب لأرواحهم، مع العذاب الجسميِّ، الحاصل لها بواسطة أبدانهم، والسائل ملك من باب الحكم على المجموع أو كلٌّ واحد يسألهم.

﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ نبيء يخبركم عن هذه الدار يتلو عليكم آياته أو مع غيرها من المعجزات، وينذركم لقاء يومكم هذا، والجملة مفعول به لـ«سَأَلَهُمْ» لتضمُّنه معنى القول، وهو معلَّق بالاستفهام.

﴿قَالُوا﴾ أي: فَرْدٌ منهم، أو كلُّ فردٍ على حدٍّ ما مرَّ ﴿بَلَىٰ﴾ قال كلُّ فوج: بلى، أي: ليس لم يجئنا بل جاءنا، وهذا معنى ﴿بَلَى﴾ نفسه بلا

تقدير جملة بعده، فقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ تأكيد لمعنى ﴿بَلَى﴾ وزيادة تحسُّر منهم.

[قلت:] وأخطأ من يقدِّر الجملة بعد «بلى» و«نعم»، ونحوهما من معناهما، لأنَّ ما يقدِّرونه هو نفس معناهنَّ، وإنَّما يجوز تقديره تفسيرًا لا اعتقادًا أنَّ هناك محذوفًا إذ لا محذوف.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ نُذُرَنَا كلُّ فوج كذَّب نذيرهُ. ﴿وَقُلْنَا﴾ في شأن ما أنزل الله ﷻ ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ عليكم لأنَّكم بشر مثلنا. ﴿مِن شَيْءٍ﴾ مَّا من الأشياء، كما أكَّدوا العموم بـــ«مِن» الصلة في المفعول به، أي: شيئا من كتاب أو وحي، أو في المفعول المطلق، أي: ما نزَّل الله تنزيلاً مَّا، والأوَّل أولى أو ما نزَّل الله على أحد من شيء لا عليكم ولا غيركم.

﴿إِنِ انتُمُۥ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ﴾ بعيد عن الحقِّ، خاطب كلُّ فوجٍ نذيره في الدنيا، اعترفوا بذلك حين لا ينفعهم الاعتراف، والمراد أنَّ كلَّ فوج يقول لنذيره: ﴿إِنِ انتُمُۥ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ أي: أنت وأمثالك.

أو أقام الله تكذيب الواحد مقام تكذيب الكلِّ فعبَّر عنهم به لاتِّفاقهم في أصول التوحيد، وفي أنَّ كُلاًّ جَاء بما جاء به من الله لا غير. ويجوز أن يكون الخطاب إطلاقُه على الجماعة، أو مصدر على تقدير مضاف، أي: أهل نذير.

﴿وَقَالُواْ﴾ للخزنة ﴿لَوْ كُـــنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامًا ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئًا ﴿مَا كُـــنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ اعترفوا بذلك للخزنة، لأنَّ في ضمن خطاب الخزنة لهم: ألم تسمعوا آيات ربِّكم؟ ألم تعقلوا معانيها؟ لأنَّ الخزنة يعرفون أنَّ الله لا يكلِّف إلاَّ من يسمع ويعقل، ويعرفون أنَّ النُّذُر جاءوهم بما يدركون معناه إذا سمعوه.

وأصحاب السعير جملة أهل النار، وقيل: خصوص الشياطين لأنَّهم المراد في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وليس كذلك، فإنَّ السَّعير للجنِّ والإنس معا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلاً وَأَغْلَالاً وَسَعِيرًا﴾ (سورة الإنسان: ٤) ، وغير ذلك. وقد ذُكِّرُوا بالسعير أيضًا في قوله: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

نزَّلوا سمعهم وعقلهم مترلة العدم لعدم انتفاعهم بهما، كأنَّهم صُمٌّ مجنونون، وفيه تلويح بأنَّهم لا يدركون منقولاً ولا معقولاً.

ويجوز أن يكون المعنى: لو كنَّا نسمع ما أتانا به النذير سماعَ قبول وتقليد مع الجزم، أو نعقله نُعمِل فيه عقولنا بالتدبُّر والبحث لأَدْرَكْنَا الحقَّ وآمنَّا به لأنَّه حقٌّ؛ فذلك شامل للإيمان التقليدي والنظري، أو الأحكام التعبُّديَّة وغيرها؛ فـ«أَوْ» للتَّنويعِ لا للتردُّد، لأنَّهم لا يشكُّون أنَّ الإيمان تقليدًا لا ينفعهم، ولا أنَّ الإيمان بالنظر لا ينفعهم، بل يجزمون بالنفع، والعقل هنا الإدراك لما أنذِرُوا به لا مطلق إدراك أمر الشرع بمجرَّد العقل، فإنَّه لا يصحُّ، فلا دليل للمعتزلة في الآية على التحسين والتقبيح.

﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ**﴾ الإضافة للجنس، فكأنَّه قيل: بذنوبهم، وهي تكذيبهم وسائر معاصيهم. ﴿**فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ الأصل سحق الله أصحاب السَّعير سحقًا، والفعل متعدٍّ كقوله:

«وتسحقه ريح الصبا كلَّ مسحق»

فحذف العامل وفاعله، وناب عنه المصدر ونصب معمول ذلك العامل، وهو «أَصْحَاب» فقوِّي باللاَّم لام التقوية لضعف المصدر في العمل، وسمَّوا هذا اللاَّم لام التبيـــين، في مثل هذا كسقيا لك، لا في كلِّ تقوية باللاَّم.

(نحو) وإذا ثبتت تعدية «سحق» كما ثبت لزومه لم نحتج أن نقول كما قال بعض: الأصل أَسْحق اللهُ أصحابَ السَّعير إسْحَاقًا، فحذفت وجعل «سُحْقًا» اسم المصدر الذي هو إسحاق، والإسحاق بمعنى الإبعاد، وسحق والسّحق كذلك، أو بمعنى البعد، وأنت خبير بأنّ الشياطين ليسوا بأولى من الإنس بالسَّعير ولا مخصوصين به، فلا حاجة إلى دعوى أنّ اسم السَّعير غلب في الآية على الإنس، وأصله للجنِّ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

وعد المؤمنين بالمغفرة والنعيم

﴿إِنَّ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّـهُم﴾ يخافون عذابه مع تعظيمه عَزَّ وَجَلَّ ﴿بِالْغَيْب﴾ حال من «رَبّ» أي: ثابتا في الغيب عنهم، إذ لا يشاهدونه، أو من الواو، أي: ثابتين في الغيب عن الله عَزَّ وَجَلَّ ، فغيبته عنهم هي عين غيبتهم عنه بذلك المعنى، ولا يخفى عنهُ شيء من الأجسام ولا من الأعراض، ولا ما يُدَّعى من الجواهر. أو ثابتين في الغيب عن النَّاس لا يخصُّون عبادتهم بعلمهم، أو بحضورهم، كما هو شأن المرائي. أو ثابتين في الغيب بما في قلوبهم.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم بسبب تلك الخشية. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ في الآخرة، وقدَّم المغفرة على الأجر لقاعدة أنّ التخلية قبل التحلية، ولأنّ دفع المضارِّ أهمُّ للنَّاس مثلاً من جلب المنافع.

(سبب النزول) وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبرهم بما أسرُّوا فقالوا: أَسرُّوا كلامَكم لئلاّ يسمع ربُّ محمَّدٍ ما تقولون فيخبره به، فترل قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ,

﴿أو اجْهَرُوا به إِنَّهُ, عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: باعتقادَة أو تكييفَة صاحبة الصُّدور، أي: بما في القلوب التي في الصدور، فسمَّى الصَّدْرَ قلْبًا لأَنَّه مَحَلُّه.

أو «ذات» هي القلوب، أي: بالقلوب التي هي صاحبة الصدور، أي: هي في الصدور. وعلمُه بالقلوب كناية عن علمه بما فيها، أو المراد العلم بها وبما فيها.

قدَّم السِّرَّ لأنَّه هو الذي اهتمُّوا به إخفاءً عنه سبحانه عن أن يخفى عنه شيء، ولتقدُّم السرِّ في الوجود، إذْ لاَ ظهور إلاَّ بعد خفاء، ولو بالعدم قبل الإيجاد، فإنَّ المعدوم لا يصدق عليه أنَّه ظاهر. والخطاب للمعهودين كما رأيت، ويجوز أنَّه على العموم للمكلَّفين فيدخل المعهودون أوَّلاً، وأجيز أنَّ الخطاب لأصحاب السَّعير على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

﴿أَلاَ يَعْلَمُ﴾ يعرف ﴿مَن خَلَقَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاريِّ و«لاَ» نافية. وفي «يَعْلَمُ» ضمير لله تعالى. و«مَن» مفعول به للعقلاء، كيف لا يعلمهم مع أنَّه هو الخالق لهم، وعلمه بهم عبارة عن علمه بما احتووا عليه من أسرار واعتقاد وتكييف، كعلمه بأجسامهم وأحوالهم الظاهرة على حدٍّ سواء. أو «مَنْ» فاعل «يَعْلَمُ» وهو الله تعالى، أي: ألا يعلم من خلقهم سرَّهم؟. وأجيز ـــ على ضعف ـــ وقوع «مَنْ» على غير العاقل، وهو السِّرُّ، وأنَّها مفعول به لـــ«يَعْلَمُ»، أي: ألا يعلم الله السِّرَّ وهو الخالق له.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ العليم بدقائق الأمور الخفيَّة ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم بها وبكلِّ شيء، فهذا ذكر للعامِّ بعد الخاصِّ فلا يتكرَّر معه. وأيضا في اللُّطف إيصالُ المصْلحةِ برفق، وليس هذا في الخبرة.

(نحو) والجملة حال من «مَنْ» على أنَّه لله، أو من ضمير «يَعْلَمُ» على أنَّ فيه ضمير الله، والرابط الضمير وَوَاوُ الحال، أو مِن «مَنْ» والرابط

واو الحال، قيل: أو حال من ضمير «خَلَقَ» والربط بهما معًا، وهذه الحاليَّة لا تنافي أن يكون «يَعْلَمُ» ممَّا لم يتعلَّق غرض الكلام له بمفعول، هكذا: أليس ذا علم؟ وكأنَّه قيل: أليس ذا علم وهو عالم بالخفيَّات؟ كقولك: أليس زيد شجاعًا وقد قتل بطل بني فلان؟ فقد أفادت جملة الحال ما لم يدخل في قولك: أليس ذا علم؟ لأنَّه ليس في قولك: أليس ذا علم تعرُّضٌ لأفراد العلم، وهب أنَّه فيه لكن لا صراحا.

﴿هُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ ذَلُولاً﴾ صفة مبالغة من اللاَّزم، كالضروب من المتعدِّي، وهو يكون بلا تاء مع المؤنَّث بمعنى عظيمة الذّلِّ، ضدَّ الصعوبة، يسهل عليكم جدًّا السلوك فيها.

(بلاغة) والذلُّ يكون للحيوان لا للجماد، لكن شبَّهَهَا بمن ذَلَّ حتَّى لا يردُّ عن نفسه مضرَّة، ورمز إليه بلازمه، فهو تبع للمكنيَّة باق على معناه. أو استعارة على طريق التخييليَّة، أو إثباته تخييليَّة، أو استعارة لشيء هو للأرض شبيه به، وهو عدم ردِّها على من مشى فيها. أو بمعنى: عظيمة الذِّلِّ (بكسر الذَّال) وهو سهولة الانقياد، وعليه فذَلُولٌ يجوز أن يكون استعارة من دابَّة ذلول، أو تشبيهًا.

و«لَكُمْ» متعلّق بـ«جَعَلَ» بمعنى أثبت أو خلق، و«ذَلُولاً» حال، وعلى أنَّه من باب ظنَّ يكون «ذَلُولاً» مفعولاً ثانيًا. وعلى كلِّ حال تقديمه على ما بعده آت على الأصل، وليس حقُّه التأخير عن المفعولين كما قيل، فضلاً عن أن يقال: قدِّم على طريق الاهتمام بالإثبات للمخاطبين وبهم، والتشويق إلى ما بعده فيخبرهم به، وقد استعدُّوا له، فيتمكَّن دخوله في قلوبهم، نعم ذلك صحيح إن علِّق بـ«ذَلُولاً»، وليس بلازم، ولا هو الأصل.

﴿فَامْشُوا﴾ لمصالحكم أَمْرَ إِبَاحَة، وقيل: طلب السعي للأمور المباحة والعبادة. ﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لا تتعطَّلون عن المشي لذُلِّها أو لذِلِّها، فالفاء

للسببيَّة.

(لغة) والمنكب مجتمع ما بين العضد والكتف، وليس لها عضد ولا كتف فذلك ثبات لغاية التذلُّل، لأنَّه مِنْ أباعِدِ ما يُطَأُ من الإنسان بالقدم، وقيل: هو أرقُّ شيء في البعير، وأبعد عن أن يطأَ بالقدم، وهو غير مسلَّم به، وعن ابن عبَّاس: مناكبها جبالها، ويجوز أن يكون المنكب ظاهرها.

(بلاغة) وعن الحسن طرقها على الاستعارة التصريحية، وهي من لازم ما شبِّهت به الأرض على الاستعارة المكنية، وهو البعير، والمشبَّه به غير مذكور كما هو شأن المكنية، وليس ﴿ذَلُولاً﴾ صريحًا فيه بل أريد به الأرض، ولعلَّ اختصاص المناكب بالذِّكر لكون الراكب كثيرا ما يركب من جهة العنق التالية للمنكب.

زعم بعض أنَّ الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، للسودان اثنا عشر ألفا، وللروم ثمانية آلاف، وللفرس ثلاثة آلاف، والباقي للإسلام، وربَّما هذا في زمان المأمون بن هارون الرشيد. والفرسخ: ثلاثة أميال، والميل: اثنا عشر ألف ذراع، والذراع: ثلاثة وثلاثون إصبعا.

وعن حذيفة بن اليماني رضي الله عنه عن النبيء ﷺ : «**الدنيا مسيرة خمسمائة عام؛ ثلاثمائة عام بحار، ومائة عمران، ومائة خراب**». ويقال: وسط الأرض مكَّة ولو بسط خيط إلى الجهات منها لتساوت إليها، وصحَّحه بعض. وقيل: وسطها وادي سرنديب حيث نزل آدم من الجنَّة لاستواء الليل والنَّهار فيه.

﴿**وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ انتفعوا برزقه، فاستَعمَلَ الخاصَّ في العامِّ لحكمة أنَّ المقصد الأعظم الأهمَّ هو الأكل، وهذا أولى من إبقائه على ظاهره، وتقدير عام، أي: كلوا من رزقه وانتفعوا به، ويجوز أن يكون ﴿كُلُواْ﴾ بمعنى: اكتسبوا، لعلاقة أنَّ الاكتساب سبب وملزوم للأكل في البطن وللانتفاع المطلق، أو للانتفاع المطلق المعبَّر عنه بالأكل مجازًا مبنيًّا على مجاز، أريد بالأكل الكسب وبالكسب الانتفاع.

قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله يحبُّ العبد المؤمن المحترف**» والاحتراف لا ينافي التوكُّل. مرَّ عمر رَضِيَ اللهُ عنه عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكِّلون، فقال: بلى المتأكِّلون، المتوكِّل الرجل ألقى حبَّه في الأرض وتوكَّل على الله.

وإذا فُسِّر الأكل بالكسب فالأمر في الآية طلب على ظاهره، وإذا فُسِّر بالأكل أو الانتفاع فللإباحة.

﴿**وَإِلَيْهِ**﴾ لا إلى غيره ﴿**النُّشُورُ**﴾ بالبعث للجزاء على شكر النعم وعلى كفرها، فخذوا من الدنيا ما ينفعكم في الأخرى، والجملة معطوفة على إحدى الجملتين قبلها عطف اسْميَّة خبريَّة على فِعْليَّة طَلَبِـيَّة، أو على «جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ ذَلُولاً»، أي: وإليه النشور لنـتيجة جَعْلِ الأَرْضِ لكم ذلولا وتصرُّفكم فيها، قيل: أو حال من وَاوِ «كُلُوا» مقدَّرة، أي: معتقدين أنَّكم تنشرون.

﴿ ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الاَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمَ اَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾

أنواع من الوعيد للمكذِّبين والعبرة بالأمم السابقة

﴿**ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ**﴾ هو الله عَزَّ وَجَلَّ ، والظرفيَّة مجازيَّة معتبر فيها معنى التصرُّف في السماء تَجَوُّزًا في الإسناد، أو يقدَّر مضاف، أي: من في السماء أَمْرُهُ، وحذف «أَمْر» ونابت الهاء عنه، وخلفها ضمير رفعٍ مستتر في ما تعلَّق به «فِي السَّمَآءِ».

أو يقدَّر مضاف قبل «مَن»، أي: خالق من في السماء، أو «في» بمعنى على، ولا يزول به الإشكال إلاّ بالتأويل، كما أوِّلت «في» بالتصرُّف، لأنّ الاستعلاء الحسِّيَّ محال عن الله كالمظروفيَّة، فمعنى العلوِّ القهرُ والغلبة.

وقيل: الكلام مبنيٌّ على زعم العرب الجَاهليَّة أنّ الله في السماء، واستبعد بعض المحقِّقين ذلك، ولا بأس [في ذلك]، كما قد يسمَّى الصنم إلهًا باعتبار اعتقاد أهله، حيث لا لبس، وكما توصف أصنامهم بصفة العقلاء المذكَّرين.

أو ﴿مَن فِي السَّمَآءِ﴾: الملائكة الموكَّلون بتدبير هذا العالم، وقيل: جبريل الذي هو ملك الخسف.

(أصول الدين) وتأويل المتشابه هو الحقُّ، وجمهور سلف قومنا على إبقاء المتشابه بلا تأويل، ويقولون: إنَّه على ظاهره إلاّ أنَّه بلا تكييف، وهو جهالةٌ وظلمة مع وجود العلم والنور، وكثيرًا مَّا أوَّل ابن عبَّاس وغيره من الصحابة المتشابه، فلو كان التأويل حرامًا أو مكروها لما فعلوه.

[قلت:] والتأويل تأييدٌ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وعملٌ به، وفي تركه مع إمكانه تقصيرٌ في الدين، وإبقاء للمرتاب على ارتيابه، وتقوية وإعانة للشبهة. وأمَّا قوله ﷺ : «**آمنوا بمتشابهه**» فليس فيه النهي عن التأويل، بل أَمْرُه بالإيمان نهيٌ عن إنكاره وجعلِه من غير الله، أو أمْرٌ بالوقف لمن لم يدرك التأويل.

وأمَّا اكتفاؤه من الأَمَةِ بإشارتها إلى السماء حين قال: من ربُّك؟ وإليه حين قال لها: من نبيئك؟ فلعلمه بأنَّها أرادت أنّ قضاءه في السَّماء وتصرُّفَه[1]، وإلاّ

١-إشارة إلى الحديث الذي رواه **أبو داود** في كتاب الأيمان والنذور باب في الرقبة المؤمنة، رقم ٣٢٨ عن الحكم السلمي، ولفظه: «قال: قلت: يا رسول الله جارية لي =

لزم أنَّها وصفت الله ﷻ بأنَّه حالٌّ في السماء و لم يَنهَهَا و لم يُعْلِمْهَا، وذلك محال في حقِّه ﷺ ، وما لا ندركْ معناه نُبقِه بلا تأويل ونؤمن به.

﴿انْ يَّخْسِفَ بِكُمُ الاَرْضَ﴾ بدل اشتمال بتأويل المصدر من «مَن»، كأنَّه قيل: آمنتم خسفَه؟ أو مقدَّر بحرف الجرِّ، أي: في خسفه، أو من خسفه. والخسف: الإذهاب في باطن الأرض والباء للملابسة.

﴿فَإِذَا هِي تَمُورُ﴾ تتحرَّك في الخسف بكم في الجوانب أو فوق وأسفل. ﴿أَمَ اَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ اَنْ يُّرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حجارة صغارًا يرميكم بها، وإسناد الحصب إلى الحجارة الصغار مجاز عقليٌّ أو استعارة للحجارة، وذلك أنَّ الحاصب هو الذي يضرب غيره بالحصباء. و«أَم» للإضراب الانتقاليِّ إلى وعيد آخر، وللاستفهام التوبيخيِّ.

وقدَّم ذكر الخسف في الأرض لتقدُّم ذكر الأرض التي سهَّلها للمشي في مصالحكم، وإذا لم تشكروا الإنْعَامَ بها كانت نقمة لكم بالخسف، وخلقت لعبادة الله فعبدتم فيها الأصنام كفرًا بنعمتها، فتكون لكم عقابًا بالخسف، وأخَّر الحصب من السماء لتأخُّر ذكرها إذا لم تعبدوه شكرًا لنعمه التي من السماء، كما قال مُمتَنًّا: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ﴾، ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ (سورة الذَّاريات: ٢٢) ، وكانت السماء محلاًّ لأن ترفع إليه الأعمال الصالحة التي تجب عليكم، والكلم الطيِّب، فَعَكَسْتُمْ، تأَهَّلْتُمْ أن تُهْلَكُوا من جَانِبِهَا. والكلام في ﴿انْ يُّرْسِلَ﴾ مثله في ﴿ان يَّخْسِفَ﴾.

=

صككتها صكَّة. فعظم ذلك على رسول الله ﷺ فقلت: أفلا أعتقها ؟ قال: ائـتني بها، قال: فجـئت بها، قال: أين الله، قالت: في السماء، قال: من أنا، قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنَّها مؤمنة».

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ حين لا ينفعكم العلم ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ إنذاري، هو إنذارٌ عظيمٌ تتحقَّقونَهُ إذا نزل عليكم ما يتضمَّنه الإنذار من العقاب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قبل كُفَّارِ مكَّة من المهْلَكِينَ، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم فرعون، ومن مُسِخَ من بني إسرائيل.

(بلاغة) وهذا اغتياب بعد خطاب، كصورة من تخاطب وأيست منه فقطعت الكلام عنه، وتارة يشتَدُّ العتاب فتخاطب بعد الاغتياب، وذلك واردٌ في القرآن، فلكلٍّ مقام ما يناسبه.

وأقول: كلُّ المعاني المحتملة في القرآن هي معان له إذْ كانت تُسْتَحْضَرُ عند التأمُّل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري، أي: عقابي، والإنكار سبب للعقاب، وملزوم له، فعبَّر به عنه، ومثل هذا في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ وذلك وعيد بالعذاب الشديد المهول، وكلَّما ذكر الوعيد فهو تسلية لرسول الله ﷺ.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ أَعَمَوْا ولَمْ يَرَوْا ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر، أو اسم جمع وهو أَوْلى، كَرَكْبَ وراكب. ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يتعلَّق بمحذوف حالٌ من «الطَّيْرِ»، أو نعته على ما تقدَّم في المقرون بـــ«ال» الجنسيَّة، ولا يصحُّ تعليقه بـــ«يَرَوْا» لأنَّ الرؤية تقع في الأرض لا فوق، واستعمال العين للنظر في الأرض لا في الجوِّ، اللهمَّ إلاَّ أن يُرَاعَى أثر ذلك الاستعمال. أو متعلِّق بقوله: ﴿صَآفَّاتٍ﴾، أو حال من المستتر في «صَآفَّاتٍ»، و«صَآفَّات» حال من «الطَّيْرِ» ومن المستتر في «فَوْقَ» أو في متعلَّقه إذا علِّق «فَوْقَ» بمحذوف حالاً.

﴿صَآفَّاتٍ﴾ أي: باسطات، ومفعوله محذوف، أي: باسطات أجنحتهنَّ وقوادمهنَّ، وهو الريش المتقدِّم. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أجنحتهنَّ جانبًا، عطف على «صَآفَّاتٍ» فيؤول إلى «صَآفَّاتٍ» لتقدُّم «صَآفَّاتٍ»، أي: وقابضات، لا

العكس، بتأويل «صَآفَّات» إلى «يَقْبِضْنَ»، أي: يصفّفن ويقبضن، ولأنَّ الأصل في الحال المفرد لا الجملة. وعطف الفعليَّة على الوصف والعكس جائزان، ومَنَعَ السُّهَيْلِيُّ[1] العكس لقلّته كقوله:

بات يُغَشِّيها بِعَضْبٍ باتر   يقصد في أَسْوُقِهَا وجائر[2]

بجرِّ «جائر»، عطف على جملة، يقصد التي هي في محلّ جرٍّ نعت ثان لعَضب، كأنَّه قيل: قاصد وجائر. قال الله ﷻ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ (سورة الأنعام: ٩٥) ، فيرجع لفظ «مُخْرِجُ» إلى «يُخْرِجُ» لتقدُّم «يخرج» عكس ما هنا.

وَلَمَّا كان الأصل في الطيران مدَّ الأطراف وبسطها كالسباحة في الماء، وبه تقطع المسافة، وكان القبض طارئًا ليحصل البسط المُحرِّكُ جاء دَالُّه وَصْفًا ودالُّ القبض فعلاً يتجدَّد.

﴿**مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ**﴾ الواسعُ الرَّحمة للطَّير بإلْهامها ذلك، ولغيرها، والجملة حال أخرى من «الطَّيْرِ». ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**﴾ دقيق العلم، قويُّ القدرة، ولو شاء لمشت الطير في الهواء بلا جناح.

وأثقل الأشياء يمسكه بلا عمد، ألا ترى إلى السَّماوات والأرض؟ وألا ترى إلى صخرة بيت المقدس فيما قيل؟.

١- السهيلي: هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي، حافظ عالم باللغة والسير، ضرير، ولد في مالقة، وقد كفَّ بصره وهو في السابعة عشرة من عمره ونبغ. أقام بمراكش مؤلِّفًا إلى أن تُوُفِّيَ سنة ٥٨١هـ. له تصانيف كثيرة منها: «الروض الأنف في شرح السيرة النَّبَوِيَّة لابن هشام»، وكتاب: «الإيضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين». الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣١٣.

٢- أورده صاحب البحر بلا نسبة. انظر: ابن حيَّان الأندلسي، التفسير المحيط: ج٦، ص٣٠٢.

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

توبيخ المشركين واختصاص الله بالغيب

﴿امَّن هَذَا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ «أَمْ» منقطعة للإضراب الانتقاليّ عن الإضراب الانتقاليّ قبله، دون الاستفهام التوبيخي، لوجود الاستفهام بعدها بـــ«مَنْ». وقول البصريِّـــين: إنَّ «أَمْ» المنقطعة أبدًا بمعنى بل.

والاستفهام الإنكاريُّ أو الحقيقيُّ ينبغي تقييده بما لم يوجد استفهام بعدها، أمَّا إذا وجد كما هنا في قوله تعالى: ﴿أَم مَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٨٤) ، ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (سورة الرعد: ١٦) ، فلمجرَّد الإضراب. والإشارة بـــ«هَذَا» إلى مفروض، أو إلى جنس الأوثان لاعتقادهم أنَّها تحفظهم من النوائب وترزقهم، فكأنَّها جند ناصر رازق، فأنكر الله عليهم هذا الاعتقاد، أي: آمَنكُم الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ...الخ فحذف المبتدأ من أوَّل الصلة.

والجملة متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿أم مَّنْ هَذَا الذي يَرْزُقُكُمْ﴾. وقيل: متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوا اِلَى الطَّيْرِ...﴾ الخ. والمراد: ينصركم من الله

ﷺ، أو من عذابه، لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ (سورة الأنبياء: ٤٣) .

(نحو) و«يَنصُرُكُمْ» نعت «جُندٌ». وإفراد الضمير المستتر باعتبار لفظ «جُندٌ»، وذلك على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. و«مِن دُونِ» متعلّق بـ«يَنصُرُ»، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللهِ﴾ (سورة هود: ٣٠) ، أو بمحذوف نعت لـ«جُندٌ» بعد نعته بـ«لَكُم».

﴿إِنِ الْكَافِرُونَ﴾ العابدون للأصنام ﴿إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾ أمر غير نافع، بل ضارٌّ غرَّهم به الشيطان من زعمهم أنَّ أصنامهم تشفع لهم من بأس الله في الدنيا إنْ جَاءوا في الآخرة إنْ صَحَّ البعث، وأنَّها تحفظهم.

والغيبة بالاسم الظاهر بعد الخطاب إيذانٌ بأنَّهم أَهل للإعراض عنهم لشدَّة قبحهم، وتصريح بعلّة غرورهم، وذَمُّهم بها وهي الكفر.

﴿اَمَّنْ هَذَا الذِي يَرْزُقُكُمُ, إِنَ اَمْسَكَ رِزْقَهُ,﴾ بإمساك المطر أو مبادئه، أو بما شاء، ولو جاء المطر وأثمرت الأرض والشجر. ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ تَمَادَوْا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ طغيانٍ ﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحقِّ لثقله عليهم.

﴿اَفَمَنْ يَّمْشِي﴾ أجهلتم في كلِّ مقام فمن يمشي ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَّمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ استعارتان تمثيليَّتان على طريق الاستفهام التقريري.

(بلاغة) شبَّه المشرك واعتقاده وأفعاله وأقواله المخالفة للحقِّ بمن يمشي على وجهه مطلقًا، ولو في طريق مستوٍ، فكيف وهو في طريق منحرف منخفض مرتفع، لجامع المضرَّة والهلاك. وشبَّه المسلم واعتقاده وأفعاله وأقواله الموافقة للحقِّ بمن يمشي على رجليه في طريق مستو لا مضرَّة فيه، لجامع المنفعة

والسلامة، ولم يُصَرِّح بطريق الكافر لأنَّه لا يستحقُّ مسلكُه اسمَ طريق معتَبَر، لأنَّه في ضلال، لكن ذكر ما يدلُّ على سوء مسلكه.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ الكافر يمشي على رجليه لكن لا يزال يقع على وجهه، وهذا مصرِّح بأنَّ المسلم يمشي على رجليه، لكن ليس في «مُكِبًّا» ما يدلُّ على التكرار، وعلى هذا الجواز يتعلَّق «عَلَى» بـ«مُكِبًّا» وعلى ما قبله بـ«يَمْشِي»، كما تعلَّق «عَلَى صِرَاطٍ» بـ«يَمْشِي».

(لغة) و«مُكِبًّا» مطاوع كَبَّ المتعدِّي، وهو من أَفْعَلَ المطاوعِ لِفَعَلَ، كمريت الناقة فَأَمْرَتْ، وشنقْتُ البعير فَأَشْنَقَ رفع رأسه، وقَشَعَت الريحُ الغيم فَأَقْشَعَ، ونزفتُ البئر فَأَنْزَفَتْ، ونَسَلْتُ ريش الطائر فأَنْسَلَ. انظر شرحي على لامية الأفعال[1].

وأجيز أن يكون أَكَبَّ للصيرورة أو للدخول، كأَلْأَمَ: صَارَ لَئِيمًا، وَأَصْبَحَ: دخل في الصباح وأيمن: دخل اليمن، وكلُّ ذلك غير المطاوعة.

نعمْ ، المرجع إلى معنًى واحد، فليس كما قيل: إنَّ المطاوعة الصيرورة، فإنَّ المطاوعة تقتضي تقدُّم الداعي.

ومعنى السويِّ: مستوي الجسد لا مستوي الجهة لأنَّه لا يظهر من اللَّفظ، ولأنَّ الصراط المستقيم يغني عنه.

وقيل: المكبُّ الأعمى، والسويُّ البصير، على الكناية أو المجاز المرسل أو الاستعارة التمثيليَّة.

١-قصيدة لابن مالك الأندلسي في تصريف الأفعال، وهي من المتون المقرَّرة للتدريس في المغرب العربي. وقد طبع الشرح في سلطنة عمان مؤخَّرًا في أربعة أجزاء.

وقيل: الآية على الحقيقة بأنّ الله يبعث الكافر ماشيا على وجهه في طريق مُضِرٍّ، والمؤمن ماشيا على رجليه في طريق مستقيم، فالمراد المشي في الاخرة، فقيل لرسول الله ﷺ : كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال: «**إنّ الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادرٌ أن يمشيه في الآخرة على وجهه**»[1].

والمراد في ذلك كلّه على كلِّ وجهٍ العموم، ولا ينافيه ما روي أنّها نزلت في أبي جهل لعنه الله وحمزة رضي الله عنه ، لأنّ العبرة بعموم اللّفظ، فهي عامّة لكلِّ كافر وكلِّ مؤمن، وعلى أنّها فيهما [فـ]هي على ظاهرها من الحقيقة، أو على المجاز السابق، أو الكناية.

بقي أنّه لا هداية للكافر، فما معنى إعمال التفضيل بينه وبين المؤمن؟ فإمّا أن يكون «أَهْدَى» خارجًا عن التفضيل، كأنّه قيل: ألكافر مهتدٍ أم المؤمن؟ وإِمّا أن يكون المعنى: ألكافر أشدُّ هدًى في دعواه أم المؤمن في دعواه؟.

بقي أنّ «أَهْدَى» بمعنى أشدُّ اهتداء لا أشدَّ هداية لغيره، فكأنّه اسم تفضيل من الخماسيِّ سماعًا. و«أَمَّنْ يَّمْشِي» معطوف على «مَنْ يَّمْشِي» فهو مقدَّم على «أَهْدَى» في التقدير، فـ«أَهْدَى» خبر لهما كما تقول: أزيد أم عمرو أفضل.

﴿**قُلْ**﴾ للكفرة ﴿**هُوَ**﴾ لا غيره ﴿**الذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ**﴾ لتسمعوا الآيات وسائر الوحي، وتعملوا به، والسمع باق على المعنى المصدريِّ، فلذلك أُفرد، أي: خلق السمع في آذانكم. ﴿**وَالاَبْصَارَ**﴾ لتعتبروا بها في مخلوقات الله تعالى. ﴿**وَالاَفْئِدَةَ**﴾ القلوب لتـتفكّروا بها فيما أبصرتم، وفيما سمعتم.

١- أورده **الألوسي** في تفسيره. مج١٠، ص١٩٤. بدون تخريج.

﴿قَلِيلاً﴾ شكرًا قليلاً أو زمانًا قليلاً ﴿مَّا تَشْكُرُونَ﴾ «مَا» صلة لتأكيد القلّة، والخطاب للمشركين، والقلّة على ظاهرها، لأنّه قد يصدر منهم الشكر وينقضونه، ولا ينتفعون به، أو القلّة النفي، فَمَا يصدر منهم من صورة الشكر غير شكر لشركهم. والجملة مستانفة لا حال مقدَّرة، لأنّهم حال الخلق غير ناوين الشكر بعدُ، فليس كما قيل: إنّ الحالية أفضل.

﴿قُلْ هُوَ﴾ لا غيره ﴿الذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم وكثّركم ﴿فِي الاَرْضِ﴾ لتعبدوه. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ولا مع غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾ يجمعكم الله بالبعث للجزاء، كما قدر على خلقكم أوّل مرّة فاستعدُّوا لذلك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لتكذيبهم وشدَّة عُتوِّهم. ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: الموعود، وهو الحشر، في أيِّ وقت يثبت؟ أَبَعْد عام أو عامين أو أكثر أو أقلّ؟ نموت ونبعث في تاليه.

وقيل: الموعود يوم بدر، **وهو ضعيف**، وقيل: الرمي بالحصى، وقد رمى به يوم بدر ويوم أحد، **وليس القولان بشيءٍ إذ لم نعلم حديثا** أنّه أعلمَهُم أنّه سيرميهم فيقولوا: متى هذا الرمي؟.

﴿إِن كُنتُمْ﴾ يا محمَّد وأصحابه، إذ قالوا بقوله ﷺ . ﴿صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، وجواب الشرط محذوف، أي: فَبَــيِّــنُوهُ لنا، أو أغنى عنه «مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ» لتضمينه معنى: بيِّنوا لنا هذا الوعد.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ به على التعيــين ﴿عِندَ اللهِ﴾. ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٧) . ﴿وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أُنذركم بها، وبغيرها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾...الخ أي: أتاهم فرأوه فلمَّا رأوه، وذلك لتحقُّق الوقوع، وكأنّه وقع وَرَأَوْهُ، والرؤية عِلميَّة أو بصريَّة، وعليه فالمرئيُّ أثره وهو الأجساد

المبعوثة ﴿زُلْفَةً﴾ حال، أو مفعول به ثان على معنى العلم، أي: مُزْدَلِفًا، أي: مقتربًا أو ذا زلفة، أي: قُرْبٍ أو نفس القرب مبالغةً أو ظرف، أي: في وقت قريب، قيل: أو في مكان قريب.

وهذا القرب في ذلك كلّه عند الله ﷻ ، وأمَّا عندهم فبعد مدَّة عظيمة، أو هو عندهم قريب إذا رأوه كانَّ أعمارهم وما بعدها إلى ذلك الوقت لحظة، وتفسير بعضهم الزلفة بالحاضر تفسير بالمعنى، وقيل: «زُلْفَةً» حظوة، أي: حظوة للمؤمنين، أو هو بمنزلة عذاب للكافرين، كما استعملت البشارة للمؤمنين.

﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ساءت رُؤيَتُهَا وجوهَهُم، فتكون سوداء متغيِّرة ذليلة، ووضع «الذِينَ كَفَرُوا» موضع المضمر ليصفهم بالكفر الموجب لذلك السوء الذي أصابهم.

﴿وَقِيلَ﴾ قالت الملائكة، أو المؤمنون، أو الأنبياء، أو قال الله لهم توبيخًا ﴿هَذَا الذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من دعا، قلبت التاء بعد الدَّال دالاً وأدغمت فيها الدَّال، أي: تدَّعون كذب رسول الله ﷺ بسببه وهو البعث. والباء سَبَبِــيَّة. أو تطلبونه أن يحضر، والباء صلة في المفعول به. وقدِّم بطريق الاعتناء به وللفاصلة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

دعاء كفَّار مكَّة على النبيء بالهلاك والردُّ عليهم

وكان المشركون يدعون الله ﷻ أن يهلك رسول الله ﷺ والمؤمنين،

ويقولون: سيهلكون، أو يذلُّهم الله تعالى، لأنَّهم فرَّقوا الألفة بين الناس، وقطعوا بما يقولون إنَّه من الله عَزَّ وَجَلَّ فأنزل الله تعالى:

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اَرَأَيْتُمُ, إِنَ اَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين قبل أن ينصرنا عليكم، والمعنى: أروني ما الحال؟ ويجوز ان يكون الإهلاك الإذلال. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أحيانا ونصرنا ﴿فَمَنْ يُّجِيرُ﴾ يمنع ﴿الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ يصيبهم ولا بُدَّ يوم القيامة؟ فمن يجيركم من عذاب أليم؟ استفهام نفي، أي: لا مجير لكم، أي: يصبكم عذاب الاخرة حَيينا أو متنا قبلكم، ووضع «الْكَافِرِينَ» موضع المضمر ليذكُرهم بالكفر الموجب للهلاك.

أو المراد: الكافرون على العموم، فيدخل هؤلاء بالأولى لا مجير لكم من النَّار، بخلافنا فإنَّ الله يجيرنا بإيماننا وينعمنا في الجنَّة، فآمنوا تكونوا مثلنا، وفي تمنِّيهم موت النبيء والمؤمنين التمنِّي لأعدائهم بدخول الجنَّة ووصول الخير.

[قلت:] وهذا أولى من أن يُقال: إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين بالموت ونحن نرشدكم فمن يرشدكم؟ فلا بدَّ من ان تعذَّبوا في النار لضلالكم، وإن رحمنا بالنَّصر وقَتَلْنَاكُم فما لكم إلاَّ النَّار، لأنَّ المقتول على أيدينا من أهل النَّار. وأوْلى من أن يُقال: إن أهلكنا في الآخرة مع إيماننا فأنتم أحقُّ بالإهلاك لكفركم.

﴿قُلْ﴾ لهم مجيبًا عن تمنِّيهم ما لا ينفعهم بل يضرُّهم ﴿هُوَ﴾ أي: الشان، خبره جملة المبتدأ، أو الخبر من قوله: ﴿الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ﴾ أو الضمير لله و«الرَّحْمَنُ» خبره، و«ءَامَنَّا بِهِ» خبر ثان، فيرحمنا بإيماننا به، وليس غير راحم فيضيع إيماننا، فهو يرحمنا به كما يهلككم بكفركم.

﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على العدد والعُدَّة ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ فينصرنا في الدنيا والآخرة، وأنتم توكَّلتم على عددكم وعدَّتكم فيخذلكم فيهما ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة وعند الموت ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ من ضلَّ في حياته.

﴿قُلَ اَرَأَيْتُمُۥ إِنَ اَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ مطلق مياههم لا خصوص ماء زمزم وبئر ميمون الحضرمي، كما قيل عن الكلبي بأنَّهما سبب النزول، بل عليه نقول أيضا: سبب النزول لا يخصِّص الحكم. ﴿غَوْرًا﴾ ذاهبًا في الأرض تنشفه، وهو مصدر أخبر به مبالغةً، أو يقدَّر: ذا غَوْرٍ أو غائرًا. ﴿فَمَنْ يَّاتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ ؟ مبصرًا بالعين جارٍ، والميم زائدة.

(صرف) ووزنه في الأصل مفعول، مِنْ عَانَه: أبصره بعينه، وأصله: معيون فحذفت الضمَّة لثقلها على الياء، فالْتقى ساكنان حذف الثاني وهو الواو، وكسرت العين لتبقى الياء، أو الميم أصل والزائد الياء من مَعَنَ الشيء ظهر، ويروى أنَّه سمع الآية رجل فقال: يأتي به الفُؤُوسُ، فأصبح عين مائه غائرًا.

(تسبيحة) بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلاَّ الله، بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلاَّ الله، بسم الله ما شاء الله لا يأتي بالحسنات إلاَّ الله، بسم الله ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله، بسم الله ما شاء الله لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، ولا إله إلاَّ الله.

وكان ﷺ إذا قرأ ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ قال: «**يأتي به ربُّ العالمين**»، ومن قال: إنَّ النبيء ﷺ زاد في القرآن أو قال: لا تجوز الصلاة عليه إذا سمعه تالٍ من تالٍ فقد أخطأ، وتكون بصوت دون صوت القرآن.

وفي الأثر: بلغنا أنَّه ﷺ طلع درجات منبره وهنَّ ثلاث درجات، فأوَّل درجة طلعها قال: «آمين»، فطلع الثانية فقال: «آمين»، فطلع الثالثة فقال:

«آمين»، وَلَمَّا انصرف قيل له: يا رسول الله، حدِّثنا على ماذا أَمَّنْت ثلاث مرَّات؟ فقال: **«سمعت الملائكة يتكلَّمون في السماء يقولون: من ذكرت عنده يا محمَّد ولم يصلِّ عليك فجزاؤه جهنَّم، فقلت: آمين، ومن أدرك أحد والديه أو كليهما ولم يدخل به الجنَّة فجزاؤه جهنَّم، فقلت: آمين، ومن أدرك رمضان ولم يدخل به الجنَّة فجزاؤه جهنَّم، فقلت: آمين، ولدعائهم أمَّنتُ ثلاثًا»**[1]. وفي رواية: «خيَّرَهُ الله».

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج١١، ص٣٣٦.

تفسير سورة القلم وآياتها ٥٢

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ⑤ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ⑥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ⑦﴾

كمال الدين والخلق عند النبيء ﷺ

﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نٓ**﴾ اسم لهذه السورة ثلاثيٌّ، كتب منه حرف واحد، وهو الحرف الأخير منه، لأنَّه صورته في الخطِّ وأسقطت النُّون الأولى والواو بعدها، أو هو النُّون الأولى، لأنَّ الأوَّل أولى بالثبوت والأواخر أولى بالتغيير، أي هذه نون، أي: سورة تسمَّى في اللَّوح المحفوظ نونًا، أو هو الحوت، كقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧) ، وهو حوت يسمَّى: البَهْمُوت (بفتح الموحَّدة وإسكان الهاء)، وقيل: ليوتا، وقيل: ليوثيا. وعن عليٍّ: «بلهوت».

وقيل: نون الرَّحمن فرِّقت حروفه [في أوائل بعض السور] في ألر، حم، ن، وقيل: مفتاح ناصر ونصير، وقيل: تنبيه عن أنَّه يوحى إليه الآن كلام، وإن جعل قَسَمًا فالواو بعدها عاطفة، أو غير قسم فالواو حرف قسم، كذا قيل.

[قلت:] وفيه أنَّها إذا جعل قسمًا والواو عاطفة لزم دخول حرف قسم عليه حتَّى يكون مجرورًا عطف عليه مجرور، وأين الجرُّ في نون؟ وأيُّ اسم في العَرَبيَّة معرب صحيح الأخير مسكن وصلا ووقفًا ؟ ولا يعرف ذلك في قراءة من القراءات.

والأولى عندي إدغام النُّون في الواو بغنَّة، ولم تكتب شدَّة الواو لئلاَّ يتوهَّم الإدغام الصريح، بخلاف ما إذا ضبط النون قبلها بوقفة فوقفتها دليل الغنَّة.

﴿وَالْقَلَمِ﴾ جنس الأقلام الكاتبين من الجنِّ والإنس والملائكة وقلم اللوح المحفوظ، أقسم الله تعالى به لكثرة منافع الكتابة، إذْ كُتِبَتْ كُتُبُ الله تعالى وسائر وحيه بالقلم، وما نزل مكتوبًا كتبه النَّاس أيضًا، ويكتب به العلوم وسائر المنافع، وشمل أقلام الكرام الكاتبين.

وعظم شأن القلم في اللَّوح المحفوظ، وهو أوَّل مخلوق بعد روح نبيئنا ﷺ ونوره. ولا آلة أنفعُ من القلم. و«ال» للجنس. وقيل: المراد أقلام الكرام الكاتبين. وقيل: للعهد، وهو قلم اللَّوح المحفوظ، وعن معاوية بن قرَّة مرفوعًا: «**نون لوحٌ من نور، والقلمُ قلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1].

والسكون للوقف الجاري مجرى الوصل.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو للكاتبين المدلول عليهم بالقلم، و«مَا» اسم، أي: يسطرونه، أو حرف مصدر، أي: وسطرهم، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، وهو مطلق المكتوب أو الكتابة من حيث إنَّها صنعة خلقها، أو مصنوع خلقه، فله أن يقسم بأجسام الكافرين من حيث إنَّها مخلوقات له، وخلقه فعل عظيم.

وقيل: الواو ضمير القلم المراد به قلم اللَّوح المحفوظ، عبَّر عنه بضمير جماعة الذكور تعظيمًا له.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ الباء الأولى متعلِّقة بمحذوف حال مِنْ المستتر في «مَجْنُونٍ»، لأنَّه اسم مفعول يتحمَّل الضمير، وهي للملابسة، والباء

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج١٠، ص٢٨. من حديث معاوية بن قرة.

الداخلة على «مَجْنُون» صلة في خبر «مَا» لتأكيد النَّفي، لا تمنع من تقدُّم الحال، وهي حال لازمة، فلاً يُقال: يوهم أنَّه يصيبه الجنون، إذَا لم يلتبس بنعمة ربِّه، أو تُعَلَّق هذه الباء الأولى بـ«مَا» لتضمُّنه معنى: انتفى، أي: انتفى بنعمة ربِّك عنك الجنون.

وليس المراد بالجنون الجنون حال حدوثه، فإنَّ الجنون مستمرٌّ منفيٌّ عنه، ويجو أن تكون الباء الأولى هذه للقسم، وجملة «ما أنت بمجنون» في نيَّة التقديم مغنية عن جوابه.

والآية ردٌّ لقولهم: ﴿يَآ أَيُّـهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الحجر: ٦) ، ومثل ذلك. وقيل: المعنى ما أنت مجنونا والنعمة لله، كما تقول ما كان كذا والحمد لله، فـ«بنِعْمَته» خبر لمحذوف، أي: ذلك بنعمة ربِّك، أي: انتفاء الجنون ثابت بنعمة ربِّك.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على رميهم لك بالجنون والكذب والسحر، وما لا تتَّصف به، وسائر مضارِّهم لك، وعلى التبليغ لهم ﴿لَأَجْرًا﴾ ثوابًا عظيمًا في الآخرة ﴿غَيْرَ مَمْنُون﴾ غير مقطوع، فهو دائم، أو غير مذكور لك من جهتنا على طريق احتقارك لأجله، والتغلُّب عليك به، لأنَّ الله أكرم الأكرمين لا يشحُّ ولا يبخل، ولا سيَما أنَّه أعطاه لمن أحبَّه، ولا من جهة غيرنا، لأنَّه ليس العطاء من غيرنا.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ العطف في الموضعين على جواب القسم، أو الواو للحال، والمعنى: لا توصف بالجنون، والحال إنَّ لك لأجْرًا، وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ، فوق خلق أهل العزم وغيرهم من أولياء الله.

لا يترك شيئًا من العبادات ومكارم الأخلاق، ولا يقرب شيئًا ممَّا يحرم في الشرع أو يكره أو لا ينبغي، ومن كان كذلك فبعيد عن الجنون، وعن مبادئه وعن كلِّ شيء يشينه.

وقد قيل: إنّ المراد خُلقُ الله تعالى، حاشاه عن صفات الخلق، بمعنى: إنّ الله كريم، فهو ﷺ يحبُّ الكرم ويتعاطاه، وعفوٌّ فهو يحبُّ العفو ويعفو، وعالم فهو يكتسب العلم، وجوَاد فهو يجود، وغير ذلك من الصفات التي تمكن في المخلوق، إلاّ أنّ معانيها في شأن الله مغايرة لمعانيها في شأن الخلق، لأنَّه سبحانه وتعالى لا يشبهه الخلق ولا يشاركه، وهو ﷺ يرضى برضى الله، ويسخط بسخطه.

وعن أبي الدرداء: «يرضى لرضى القرآن، ويسخط لسخطه، فذلك خلقه العظيم»[1]، وفيه ﷺ ما في القرآن من المحاسن والتبرُّء ممَّا تبرَّأ منه القرآن. قال سعد بن هشام: قلت لعائشة: ما خُلُقُ رسول الله ﷺ ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: «فإنّ خلقه القرآن»[2].

(سيرة) يُؤَدِّي الفرائض كلَّها، ويترك المعاصي كلَّها، والمكروهات ومساوئ الأخلاق كلّها، ويفعل مكارم الأخلاق كلّها، ويحسن إلى الخلق كلِّهم ويتحبَّب إليهم، القريب والبعيد، والعدوِّ والصديق، ولا ينتقم لنفسه. جبذه أعرابيٌّ جبذة أثَّرت في عاتقه بثوب عليه غليظ، وقال: أعطني يا محمَّد من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه مبتسمًا فأمر له بعطاء.

(سيرة) ولا يُخيَّر إلاّ اختار ما هو أيسر، إلاّ الإثْمَ فهو أبعد الخلق عنه، ولا ينزع كفَّه حتَّى ينزع مصافحُهُ، ولا يصرف وجهه حتَّى يصرف عنه،

١-رواه **البيهقي** في شعب الإيمان، الكتاب الرابع عشر من شعب الإيمان، وهو باب في حبِّ النبيء ﷺ ، باب: فصل في خلق الرسول ﷺ وخلقه، رقم: ١٤٢٨. من حديث عائشة.

٢-رواه **أحمد** في مسنده، كتاب عائشة. باب حديث عائشة، رقم: ٢٤٠٨٠. **والبخاري** في الأدب المفرد، باب من دعا الله أن يحسِّن خلقه، رقم: ٣١١. من حديث عائشة.

وقال: «**بعثني الله تعالى لتمام مكارم الأخلاق، وتمام محاسن الأفعال**»[١]، وقال ﷺ : «**يدرك المؤمن بحسن الخلق درجة الصائم القائم**»[٢]، وقال: «**لا شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**»[٣]، وقال: «**إنَّ من أحبِّكم إلى الله تعالى وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»[٤].

﴿**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ**﴾ في أيِّكم المفتون عن الصواب، في أيِّ فريق، أفي فريق الذي هو النبيء والمؤمنون؟ أو في فريق المشركين؟ وذلك أنَّهم يزعمون أنَّ النبيء ﷺ مفتون عن الحقِّ، واتَّبَعَهُ المؤمنون، وهو فيهم.

والكفَّار مفتونون تحقيقًا عنه لا واحدٌ فقط، لكن جعل فيهم التبعيض للمشاكلة، أو يجعل فيهم المفتون على سبيل البدليَّة، كلٌّ واحد تجده على حدة مفتونًا، وهو في جملتهم، أو يعتبر أكبرهم عنادًا فهو المفتون فيهم، كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأتباعه.

(**نحو**) والباء بمعنى «في» كما قرأ ابن عبلة: «فِي أَيِّكُمْ»، ولا تجوز زيادة الباء في المبتدأ، فلا يقال: «أيِّكم» مبتدأ، وإنَّما ذلك في: «بحسبك درهم».

١- رواه الشيخ بالمعنى مع زيادة، ولفظ الحديث: «إنَّما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق».

٢- رواه **الحاكم** في «مستدركه» كتاب تواريخ المتقدِّمين من الأنبياء والمرسلين باب ومن كتاب آيات رسول الله ﷺ ... رقم: ٤٢٢١. **والبيهقي** في «السنن» كتاب الشهادات. باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها... رقم: ٢١٣٧٩. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **أبو داود** في كتاب الأدب. (٣٩)باب في حسن الخلق، رقم: ٤٧٩٩ **وأحمد** في «مسنده» كتاب بقية حديث أبي الدرداء، رقم: ٢٦٩٧١. من حديث أبي الدرداء.

٤- رواه **الترمذي** في كتاب البرِّ والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم: ٢٠١٨. من حديث جابر. كما روى **البخاري** الشطر الأوَّل منه في كتاب الأدب. باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل... رقم: ٥٦٨٨. من حديث ابن عمرو.

وقيل: المفتون المجنون ونسب لابن عبَّاس وسعيد بن جبير ومجاهد، وقيل: المفتون بمعنى المصدر، أي: الفتنة، أي: الجنون، كما روي عن الحسن، والباء بمعنى في أو مع، والمعنى: في أيِّكم من يستحقُّ هذا الاسم لخطإ هو عمله في غير معمل.

وأشبه المجنون في أنَّه لا يفرِّق بين الضُرِّ والنفع، بل يؤْثر الضُرَّ ويحسبه نفعًا، وذلك تعريض بأبي جهل ونحوه.

والجملة مفعول لـ«تُبْصِرُ» أو لـ«يُبْصِرُ» معلَّقًا بالاستفهام، ويقدَّر مثله للآخر لا على التنازع، إذ لا يصحُّ هنا الإضمار للمهمل.

والإبصار بمعنى العلم، وذلك تهديد بعذاب الآخرة، وقيل: بغلبة الإسلام على الكفر، حتَّى يقتلوا ويسلبوا، وقيل: بعذاب يوم بدر.

وأكَّدَ ما ذَكَرَ من الوعد والوعيد بقوله عز وجل: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ هو يجزي كُلًّا بما يستحقُّه الضالُّ هو كالمجنون، إذا لم ينتفع بعقله، والمهتدي هُو العاقل الذي عمل بعقله في اتِّباعه دين الله عز وجل.

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

الأخلاق الذميمة عند الكفَّار

﴿**فَلَا تُطِعِ**﴾ يا محمَّد ﴿**الْمُكَذِّبِينَ**﴾ الفاء تفريع على الوعيد الذي تضمَّنته الآية قبلها، أو يقدَّر: إذا تقرَّر في عقلك ما ذكر من أوَّل السورة إلى هنا فلا تطع

المكذِّبين، وهو لم يطعهم ولا يطيعهم، وهو بعيد عن ذلك، ولكنَّ الله ألهَبه وهيَّجَهُ بأن قال له: دُمْ على مخالفتهم لتكذيبهم، وكلُّ مكذِّبٍ للحقِّ تجب مخالفته.

أو المراد النهي عن ملاينتهم ومداراهم، مع أنَّه لا يلاينهم إلاَّ استحبابًا إلى الدين، وسمَّى الملاينة طاعة لهم كطاعة الله تعالى، أو بمعنى الإذعان لهم تنفيرًا عنها، ولأنَّه العمدة في الدين، فلا يليق تغيير خلاصة الدين به على وجه مَّا، ويناسب هذا قوله تعالى:

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أحبُّوا وتمنَّوا ادِّهانك، أي: ملاينتك لهم، فكانوا لذلك يدهنون لك ليحصل منك الإدهان. و«لَوْ» للتمنِّي، وهي وما بعدها تفسير لـ«وَدُّوا»، ومفعوله محذوف، أي: وَدُّوا الإدهان، ويجوز أن تكون مَصدَرِيَّة، أي: ودُّوا منك ادِّهانًا يترتَّب عليه ادِّهانهم، أو ودُّوا صدور الادِّهان منك ومنهم.

وادِّهانهم ملاينة مخالفة لباطنهم، وادِّهانه ملاينته لهم، ولا يحبُّون مخالفة باطنه لها، ويُقال: ودُّوا أن تعبدَ آلهتهم مع إلهك، ويعبدوا إلهك مع آلهتهم، أو تترك بعض ما يكرهون ويتركون بعض ما تكره، وطلبوا منه أن يمسح بعض آلهتهم بيده.

﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّف﴾ قيل: الوليد بن المغيرة، أو الأسود بن عبد يغوث، أو الأخنس بن شريق، أقوال يراد بها التمثيل، أو سبب النُّزول، والمعنى: كثير الحلف يعتاده في الباطل والحقِّ.

[قلت:] وكثرة الحلف تدلُّ على عدم استشعار عظمة الله عز وجل، ولذلك بدأ به هذه المناهي، وهو أصل كلِّ شرٍّ، وذلك لأنَّه لا يخلو عن حنث، فذلك تهاون به تعالى، والمتهاون به يقتحم كلَّ سوءٍ، ولا يبالي بسوء ظاهر ولا باطن في

قلب ولا في جارحة، فتَحَصَّلَ من ذلك ذَمُّ كثرة الحلف ولو في الحقِّ، لما فيها من الجرأة على اسمه تعالى، ولا سيَّما أنَّهم يحلفون أيضًا بغير الله تعالى.

ورسول الله ﷺ لم يطع كلَّ حلاَّفٍ ولا يطيعه، لكن المُراد التهييج على المداومة على مجانبة ذلك.

[قلت:] ومشهور العبارة إباحة أن يطيع بعض الحلاَّفين الموصوفين في الآية، وليس ذلك مرادًا ولو تقدَّمت أداة السلب على أداة العموم، وقد كثر في القرآن إرادة عموم السلب ولو تقدَّمت أداته.

﴿مَّهِينٍ﴾ حقير ذليل لقلَّة خيره، وكثرة شرِّه وقبائحه، وتفسير ابن عبَّاس بالكذب تمثيلٌ له بالسوء لا حصر في الكذب، وقيل: قليل الرأي والتمييز، ومن شأن مهانة النَّفس على صاحبها الكذبُ.

﴿هَمَّازٍ﴾ طعَّانٍ في الإعراض بلسانه، أو بعينه أو بيده. ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ عامل بالنميمة، وهي نقل الكلام على جهة الإفساد، وقيل: النَّميم جمع أو اسم جمع والنميمة مفرده.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ للمال لا يتصدَّق بفرض ولا نفل، أو الخير الإسلام والمال، واللاَّم داخلة على المفعول للتقوية، ومفعوله الآخر محذوف، أي: منَّاعٍ للخير النَّاسَ، فإنَّه يتعدَّى لاثنين ولِوَاحِدٍ، فيجوز أن تكون اللاَّم بمعنى من، أي: منَّاع النَّاس من الخير، يمنع أولاده وقرابته من الإسلام، ويقول: لا أعطيكم إن آمنتم فهو لا يفعل الخير، ويمنع منه غيره، ضالٌّ مضِلٌّ.

وإذا تعدَّى لاثنين فالأوَّل له فعل كالإنسان والدابَّة، فإنَّه يقال: منع النَّاس الخير فامتنعوا، أو منع الدَّابة المرعى فامتنعت، وقس على هذا كلَّ ما ليس أصله المبتدأ والخبر، وذكر الثاني هنا لأنَّ المقام له أنسب، لأنَّه لذكر الخروج عن

الخيور، ولتعميم المحذوف، فهو يشمل الدَّوابَّ، فإنَّه قاسي القلب لا يرحم الدَّوابَّ. **ويجوز أن يكون كاللاَّزم بالنظر إلى الأول، كأنَّه قيل لا يفعل الخير.**

﴿**مُعْتَد**﴾ مجاوز للحدِّ في الظُّلمِ، مُسْرِفٌ في الشرور، لا يَتَنَزَّهُ عن شرٍّ أَحبَّته نفسه. ﴿**اثِيمٍ**﴾ كثير الآثام وهي الصغائر والكبائر. ﴿**عُتُلٍّ**﴾ دافع للنَّاس غليظ عليهم بشدَّة الخصومة بالباطل، أو بالضرب أو الحبس، وعن ابن عبَّاس: الشديد الفاتك، أي: القاتل على غفلة.

وقيل: اللَّئيم الفاحش السيِّء الخلق، وقيل: الشديد في كفره، وقيل: الأكول الشروب القويُّ الشديد، لا يزن في الميزان شعيرة، يدفع المَلَكُ سبعين ألفا من هؤلاء في النَّار بمرَّة.

﴿**بَعْدَ ذَالِكَ**﴾ متعلِّق بمحذوف، أي: نذكر بعد ذلك قولنا زنيم، على أنَّه متَّبع لما قبله كالعلاوة للحمل، وخصَّه بذلك لأنَّ الزنامة قبيحة في العقول، ولأنَّها ليست من فعله، كما أنَّ ما قبل من العتلِّـيَّة بعدما فعل ما مرَّ، وليس هذا مرادًا في الآية والله أعلم.

وإن شئت فقد ذكرت العتلِّـيَّة بعد ذلك، وهذه البعديَّة كالترتيب الذكريِّ، بالفاء أو بثمَّ، ويجوز أن تكون بمعنى مع، أي: عَتَلَ مع ذلك، أو زَنَمَ مع ذلك.

﴿**زَنِيمٍ**﴾ ملحق بقوم ليس منهم، أو منتسب إلى غير أبيه، أو إلى غير عشيرته، وعن ابن عبَّاس: إنَّه ولد الزنى، وعنه: **من يعرف بالشرِّ كما تعرف الشاة بالزنمة**، وعنه: من يمرُّ على القوم فيقولون: رجل سوء، يعني يُكثر الشرَّ حتَّى عرف به. وعلى كلِّ حال هو مشبَّه بغُدَّة تتدلَّى في عنق المعز، أو بفلقَةٍ من أُذُنٍ شُقَّتْ، فهي تتدلَّى، وبطرف الجلد من الأكارع.

وفي ديوان حسَّان من نسخة مجوَّدة مكتوبة بالقالب:

زنيمٌ تَداعتْه الرِّجال زيادةً   كما زيد في عُرض الأديمِ الأكارِعُ

[قلت:] والناشئ من نطفة الزنى يخبث غالبًا، وكذا يحمل على الغالب قوله ﷺ : «**لا يدخل الجنَّة ولد الزنى**»[1] أو أراد إنَّ فيه ما يصدُّه عن الطاعة فقد يصدُّه وقد لا يصدُّه، وليس المراد على [غير] معنى الغالب، أو إن أحسن لم يدخل الجنَّة مع السَّابقين لأنَّ فيه ما يمنعه من عمل السَّابقين.

قال ﷺ : «**لا يدخل الجنَّة عاقٌّ، ولا ولد زنية، ولا منَّان ولا مدمن خمر**»[2] بمعنى أنَّ هذه الصفات معرِّضة للموت على الإصرار، أوْ لأنْ لا يكون من السَّابقين عملاً. وقيل: المعنى ولد الزنى لا يدخل الجنَّة بعمل أبويه، بل بفضل الله، على أنَّ أطفال السُّعداء يدخلوها بعمل آبائهم، وأطفال الأشقياء بمحض فضل الله، ولا خير إلاَّ بفضل الله عزَّ وجلَّ .

وقيل: الزنيم من يحبُّ أن يؤتى من دبره. وفي رواية: إنَّ المراد الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان دَعِيًّا في قريش ادَّعاهُ المغيرةُ بعد ثماني عشرة من مولده. وقيل: الحَكَم، طريدُ رسول الله ﷺ ، وقيل: الأخنس بن شريق، وأصله من ثقيف وعِدَادُهُ في زهرة، وقيل: الأسود بن عبد يغوث، وقيل: أبو جهل.

ولا يخفى أنَّه ليس المراد شخصًا واحدًا لقوله تعالى: ﴿كُلَّ حَلاَّفٍ...﴾ الخ. وأقول: سبب النُّزول هؤلاء المذكورون بأشخاصهم مشارًا بهم إلى غيرهم، وهذا

١- رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الصلوات الخمس، رقم١٧٢٣، من حديث جابر بن عبد الله.

٢- رواه **أحمد** في مسند عبد الله بن عمرو، رقم ٦٨٢٣. ورواه **البيهقي** في شعب الإيمان، باب في برِّ الوالدين فصل في عقوق الوالدين وما جاء فيه، رقم٧٨٧٥. من حديث عبد الله بن عمرو مع تقديم وتأخير.

واردٌ في شعر امرئ القيس وغيره.

فلا يبطل ما روى الطبريُّ أنَّه لم يعرف رسول الله ﷺ مَن المُرادُ حتَّى نزلت الآية، فعرف أنَّه أحد هؤلاء، وفي عنقه زنمة، ولا يبحث بأنَّه الزنمة ليست من فعله ولا ذَمَّ فيها شرعًا لجواز ختم الكلام بما لا ذَمَّ فيه بيانًا له بعد ذمِّه، نحو: لا تجالس الفاسق الخائن الذي داره عند دار فلان.

لَمَّا وصف رسول الله ﷺ بالجنون وصفه الله تعالى بعشر أوصافٍ قبيحةٍ، كما أنَّ من صلَّى عليه وسلَّم يصلِّي الله عليه عشرًا.

﴿ان كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ مقدَّر لام التعليل، معلَّقة بـ«تُطِعْ»، أي: لا تطع كلَّ حَلاَّفٍ...الخ لأَن كان ذا مال وبنين، أي: لكونه ذَا مال وبنين. وهو ﷺ بعيدٌ عن طاعة أحَدٍ لِمَالِهِ وبنيه، ولكنَّه إلهابٌ على المداومة والزيادة في البعد عن ذلك.

وَلَمَّا كان بعيدًا عن ذلك تكلَّف له بعضٌ بتعليقه بكذب محذوفًا، أي: كذب ذلك المذموم لأَنْ كانَ، أو بـ«قَالَ» ولو كان معمول الجواب لا يقدَّم على أداة الشرط، للتوسُّع في الجارِّ والمجرور والظرف، كما أجاز بعضهم التوسُّع فيها قياسًا مطلقًا قيل.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ هي أساطير، أشياء سَطَّروها، أي: كَتَبُوهَا وليست من الله، والجملةُ نعت آخر.

﴿سَنَسِمُهُ﴾ نجعل له سمة ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ الأنف، يوم القيامة بالنَّار، قيل: هو تعذيب على أنفه في جهنَّم، وهو قول المبرِّد، وقيل: يُوسَم يوم القيامة على أنفه بالنَّار في المحشر، يعرف أهل المحشر بها كُفرَهُ.

وقيل: الخرطوم وجْهُه يوسم بالسواد قبل دخول النَّار، تسميةً للوجه باسم بعضه، وقيل: الوسم على الخرطوم في الدنيا خطم أنفه يوم بدر بالسيف سِمَةً

يبعث بها، ويبحث بأنَّ هذا واحد والآية كلِّـيَّة، وبحث بأنَّ أبا جهل قتل يوم بدر، والباقين ماتوا قبل بدر إلاَّ الحكم ولم يُسم هو ولا هم.

وقيل: الوسم في الدنيا بالإهانة والإذلال بحيث يكون كالوسم على الأنف، فهو يتلى ذَمُّهُ أبدًا في القرآن في حياته وبعدها.

وفي تسمية أنفه خرطومًا إهانة لاشتهار الخرطوم في أنف الخنزير والفيل، وكأنَّه خنزير، فإمَّا أنَّه شبِّه بأحدهما وسمِّي باسمه ورمز إليه بذكر لازمه، وإمَّا أنَّه سمِّي المطلق بالمقيَّد، ولا يصحُّ أن يكون سمَّى أنفه بالخرطوم للشَّبه، لأنَّ أنفه لم تشبه أنف الخنزير، وصحَّ هذا في الآخرة بأن يبعث وأنفه كأنف أحدهما.

واختير الأنفُ لأنَّه عضو يذكر بالعِزِّ وكذا الوَجْهُ فإذا وُسم فيه فذلك غاية في الهوان، وقد لعن رسول الله ﷺ من كوى دابَّة في وجهها، فكيف في أكرم موضع منه وهو الأنف؟ وممَّا يقال: الجمال في الأنف. قال بعض النَّاس:

وحسن الفتى في الوجه والوجه عاطل فكيف إذا ما الخال كان له حليا

واشتقَّ منه الأنفة في التعزُّز، ويُقال: فلان شامخ الأنف، ويُقال: حمى أنفه، وفي الذَّم جذع أنفه ورغم أنفه.

وقال النضر بن شميل: المعنى: سنحُدُّه على الخمر، أي: على شربها، ويبحث بأنَّ هؤلاء الكفرة ماتوا قبل تحريم الخمر، إلاَّ الحكم فبعده، ولم يحد عليها، ولا يعاقبون عليها في الآخرة إذ ماتوا قبل تحريمها.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ٢١ أَنِ

ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قصَّة أصحاب الجنَّة وعاقبة الغرور

﴿**إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ**﴾ أهل مكَّة بقحط سبع سنين ﴿**كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ**﴾ وهم موحِّدون عند الجمهور، وعن الحسن أنَّهم مشركون [وهذا بعيد].

(نحو) وكَمَا تتعلَّق حروف الجرِّ غير الزائدة وغير ما يشبه الزائد تتعلَّق الكاف على الصحيح، فتتعلَّق بالفعل قبلها هنا، ولو قلت: فعلت كفعل زيد لعلِّقت الكاف بالفعل قبلها، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي: بلوناهم كبلاء أصحاب الجنَّة، فلا حاجة إلى جعلها اسمًا مفعولاً مطلقًا، أي: بلوناهم مثل بلائنا أصحاب الجنَّة، ولا إلى جعل «مَا» اسمًا، أي: كالبلاء الذي بلوناه أصحاب الجنَّة، أو بلاء كبلاء بلوناه أصحاب الجنَّة.

(قصص) قيل: والجنَّة في أرض اليمن قريبًا من صنعاء بينهما ستَّة أميال، تسمَّى تلك الأرض صوران، وكانت لرجل مؤمن من الحبشة يخرج منها حقَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ، ويُطعم منها المساكين، ومات فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق، يطعم المساكين، وأقسموا لا يعطون منها مِسْكِينًا، وبه قال ابن عبَّاس.

وقيل: كانت لشيخ من بني إسرائيل يمسك قوت سنة ويتصدَّق بالباقي، وتقول بنوه: لا تتصدَّق، ولَمَّا مات أقسموا لا يعطون منها مسكينًا[1].

وقيل: كانت لرجل صالحٍ على فرسخين من صنعاء في اليمن، يترك للمساكين ما أخطأه المنجل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القطاف من العنب، وما بقي على البساط تحت النخلة إذا صرمت، وما يَنْتَثِرُ إذا داسوا، فكان يجتمع لهم كثير من ذلك، وكأنَّها كبيرة جدًّا تثمر كثيرًا، أو المساكين الطالبون لذلك قليل، وقال بنوه بعده: هذا المال قليل والله لا نُعطي مسكينًا، نحن كثيرون ذوو عيال فبَكَّروا إلى صرمها خفية.

﴿إِذَ﴾ متعلِّق ببَلَى الثاني. ﴿اقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يقطعُنَّ ثمارها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الدخول في الصباح، وهذا ذكر لحاصل كلامهم، ولو روعي لفظهم لقيل: لنصرمنَّها بالنون، تقول: حلف الزيدون إنَّهم لا يقومون، أو حلف الزيدون إنَّا لا نقوم، فإنَّ لفظهم: والله لا نقوم (بالنُّون)، وتقول: حلف زيد لا يقوم عمْرو، أوْ حلف لا تقوم (بالخطاب)، والخطابُ: لفظه حال الحلف، ولو حلف على الغيبة لقيل: حلف لا يقوم عمرو.

﴿وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾ ويقال: أوسطهم أراد الاستثناء وأمرهم به، ولم يطيعوه فتبعهم، فهو لم يستثن كما لم يستثنوا لا يخرجون منها شيئا للمساكين، كما كان أبوهم يفعل، هذا ما ظهر لي وهو الحقُّ إن شاء الله.

وقيل: لا يرجعون عمَّا قالوا من عدم إعطاء المساكين، وفيه أنَّه لا دليل في الآية على هذا، بل ظاهرها على هذا لا يرجعون عن صرمها مصبحين، ولو

١-ضرب الله مثلاً للمشركين بحال أصحاب هذه الجنَّة لعلَّهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم بالمال والبنين.

كان قد يلمح من الإصباح الإخفاءُ او الاختلاسُ عنِ الطلاَّب إلاَّ بما بعدُ من قوله ﴿يَتَخَافَتُونَ...﴾الخ بخلاف قولنا: ولا يخرجون منها حصَّة فإنَّه ظاهر المعنى مقبول، ولو كان لم يذكر لمن الحصَّة.

وقيل: المعنى لا يقولون: إن شاء الله، وفيه أنَّه إفراط عظيم في القسم، ولفظ الثني صالح لذلك كلِّه، كما تقول: ما قام القوم إلاَّ زيد، فكما خرج زيد عن القوم كذلك خرج ما لم يشأ الله، وخرج الرجوع عن الشيء بعد القول به.

(نحو) والجملة معطوفة على «لَيَصْرِمُنَّهَا»، فقد انسحب عليها القسم السابق إلاَّ أنَّها لم تؤكَّد بالنون، وكأنَّهم استغنوا عن توكيده باحتيالهم بتعجيل الصرم، وقوَّتهم في الاختلاس، أو على «مُصْبِحِينَ» فهي حال بالعطف، وهذا يغني عن جعل الواو للحال من فاعل «يَصْرِمُ»، والمضارع على حاله، لأنَّهم حين الحلف يقولون: لا نستثني، نعم إن عطفناه على «أَقْسَمُوا» فالمضارع لاستحضار الحالة الماضية كأنَّها مشاهدة لغرابتها.

﴿**فَطَافَ**﴾ أحاط بسبب إقسامهم ﴿**عَلَيْهَا**﴾ على الجنَّة ﴿**طَآئِفٌ**﴾ بلاء طائف، أو أمر طائف، لأنَّ إهلاك جنَّتهم عذاب لقلوبهم، فعن ابن جريح: شهاب مستطيل من النَّار خرج إليها من واديها، وقيل: من السماء.

وقيل: المراد طاف عليها ملك طائف، وهو جبريل عليه السلام ، [قيل:] اقتلعها وطاف بها حول البلد ووضعها قرب مكَّة عند الطائف، الذي هو بلدة، ولا يوجد في الحجاز مثلها ماء وشجرًا وعنبًا وثمارًا، وسمِّيت البلدة باسم ما طاف على تلك الجنَّة، **وذلك ضعيف.**

﴿**مِّن رَّبِّكَ**﴾ مرسل من ربِّك، أو ثابت من ربِّك بلا توسُّط مخلوق فيها، وتحقيق هذا والجري على ظاهره، وهو أولى أن يكون الطائف إحراقًا بنار بلا

توسُّط ملك، أو إذْبالها وإزالة نضرتها، أو إفْناؤها أو نقلها، ولو كان ما جرى على يد جبريل آتيًا من الله، وأنَّه هو ملك الخسف والصعق والأسواء، **اللَّهمَّ بك ننجو من الأسواء دنيًا وأخرى.**

﴿**وَهُمْ نَآئِمُونَ**﴾ ليلاً، وهو وقت الاستغراق في النوم. وعن الفرَّاء تخصيص الطائف بالأمر الذي يأتي ليلاً.

(بلاغة) وقيل: «نَائِمُونَ» استعارة تبعيَّة للغافلين غفلة تامَّة، والأوَّل أصحُّ، كما يناسبه قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**﴾ إلاَّ أن يُقال «مُصْبِحِينَ» ترشيح للاستعارة لتبادر أنَّ الإصباح عن النَّوم في اللَّيل، ومعنى ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرمت ثماره، أي: قطعت، أي: كالمصروم، فعيل بمعنى مفعول. وظاهر هذا أنَّها بقيت في مكانها على حالها إلاَّ أنَّها أتلف الله عَزَّ وَجَلَّ ثمارها، فأشبهت في عدم وجود الثمار البستانَ الذي قَطَعَ صاحبُه مثلا ثمارَه، أو المراد أنَّها صرمت ثمارها وخشبها كما يصرم الثمار ويبقى ذلك، أو شبَّه إزالتها أو نقلها بالصَّرم للثمار فقط.

(لغة) وعن ابن عبَّاس: كالرماد الأسود لغة خزيمة، وعنه: الصريم أرض باليمن ذات رمل لا تنبت شيئًا، وقيل: الصريم قطعة من الرمل مستطيلة خرجت من معظم الرمل لا تنبت البتَّة، أو تنبت ما لا ينفع. وقال الفرَّاء: الصريم اللَّيل، احترقت واسودَّت كاللَّيل. وقيل: كالصُّبح في البياض لزوال خضرتها كما يبيضُّ الزرع المحصود، فالصَّريم يطلق على اللَّيل والنَّهار، لأنَّ كلَّ واحد ينصرم عن الآخر.

(لغة) والآن سئلت عن الأصف وليس من تفسير الآية، ويُقال: اللَّصف. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأصف الكَبَر، وأمَّا الذي ينبت في أصله

مثل الخيار فهو اللَّصف، وهو في حديث ذكرته في «تحفة الحبِّ»[1]. وذكر بعض أنَّ اللَّصف ثمرة حشيشه لها عصارة يصطبغ بها، وهو يمرئ الطعام، ويسمِّيه أهل العراق الكَبَر، يعظم شجره ويتَّسع، ومنْبُته القيعان وأسافل الجبال، أو هو أذن الأرنب ورقه كورَق لسان الجمل، وأدقُّ وأحسن، زهرُهُ أزرق فيه بياض، وله أصل ذو شعَب إذا قُلع وحُكَّ الوجه به حَمَّره وحسَّنه، والصحيح أنَّه شيء ينبت في أصول الكَبَر، وأمَّا ثمر الكَبَر فهو الشَّفْلَحُ، قال الجوهري: وهو أيضًا جنس من التمر.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ نادى بعض بعضًا بسبب إقْسامهم ﴿مُصْبِحِينَ أَنُ اغْدُوا﴾ اخرجوا، وعُدِّي بـــ«عَلَى» لتضمُّن معنى: أقبل، أو «عَلَى» بمعنى إلى، أو هو من غدا يَغْدُو عليهم إذا أغار، يجدُّون في الصَّرم كما يجدُّونَ في الإغارة، وعليه يكون الكلام استعارة تمثيلية، و«أَنْ» مفسِّرة، وأنا أعجب ممَّن يصحِّح جواز أن المَصدَرِيَّة داخلة على الأمر ونحوه من الإنشاء فيقدِّرُ هنا: بأن اغدوا.

﴿عَلَى حَرْثِكُمُ﴾ أي: مَحروثكم، أي: بستانكم، فإمَّا تسمية للنخل والشجر حرثًا مجازًا، وإمَّا أن يكون في جنَّتهم حرث فذكروه وحده، اهتمامًا به أكثر من اهتمامهم بالنخل والشجر، بل يطلق الشجر أيضًا على النخل، أو يقدَّر: على حرثكم وشجركم، وإمَّا التسمية للْكلِّ باسم الجزء.

﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ مُريدين للصَّرم، أي: قطع الثمار، حرَّكوا إرادتهم لزيادة التنشيط، وقيل: المراد: إن كنتم جازمين قاطعين برأي الصَّرم.

١- كتَاب تحفة الحبِّ في أصل الطبِّ، من مُؤَلَّفَات الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، نشرته وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

﴿فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يتكلَّمون بإسْرار في شان الصَّرم. و«أَنْ» حرف تفسير كما مَرَّ، ويدلُّ له قراءة إسقاطها: «فتنادوا مصبحين اغدوا على حرثكم»، لا حرف مصدر كما زعموا، والجملة بعد إسقاطها نفس ما تنادوا به، فذلك عين التفسير.

وكذا في قوله: ﴿أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ﴾ للأخذ منها، كما كان المساكين يدخلونها للأخذ في زمان أبينا. و«لاَ» ناهية للمسكين مطلقًا أن يدخُلَها، أو المراد نهيُ بعض بعضًا من تمكين المسكين من دخولها.

﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على غيظ وغضب، ممَّا يفعل أبُوهم، كما يدلُّ له قراءة فتح الرَّاء، أو على منع المساكين من الأخذ، يُقال: حردت الإبلُ إذا منعت ألبَانَها، أي: قلَّتْ، والسَّنَة: قَلَّ مطرها وخصبها، أو المعنى: على انفراد عن المساكين، يُقال: حرد عن كذا، أي: انْفَرَدَ عنه.

(نحو) وهو متعلِّق بـ«غَدَوْا»، أو بمحذوف حال من الواو، كأنَّهم ركبوا الحَرَدَ، وهو مركب لا يوصلهم إلى خيرٍ مَّا.

أَوْ بقوله: ﴿قَادِرِينَ﴾ فقدِّم للفاصلة والحصر الإضافيِّ، أي: إنَّما قدروا على الغضب أو العزم على المنع فقط للمساكين، أو على منع ثمارها عن المساكين لأنفسهم. وعلى كلِّ حال أرادوا منع المساكين فعوقبوا بِمَنْع ثمار جنَّتهم.

(بلاغة) وفي الحرد مشاكلة للحرث، وفي ذلك تهكُّمٌ بهم، إذْ غَدَوْا على حرث وتحصَّلوا على حرْد نتيجةً لهم. ويجوز أن يكون ﴿قَادِرِينَ﴾ بمعنى مضيِّقين على المساكين في الأخذ، فلا يعلَّق به «عَلَى حَرْدٍ»، أو بمعنى قادرين في اعتقادهم على صرمها كلِّها بلا إعطاء مسكين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ رأَوْا مَحَلَّها أو جُدرانها أو حُدُودَها على أنَّها أُتْلِفَتْ أو نُقِلَتْ، أو رَأَوهَا نفْسَهَا على أنَّها أحرقت، وبقيت أو زالت نضارتها وخضرتها وثمارها.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ تائهون عن طريق جنَّتنا، وما هذه جنَّتنا، وهي في موضع آخر غير هذا، أو هذه جنَّتنا أو هذا موضعها لكن أَضْلَلْنَا عن الصَّواب، في نيَّتنا مَنْع المساكين فعوقبنا بالحرمان منها كما قال: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون من خيرها لذلك.

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أحسنهم عقْلاً ورأيًا وديانةً، وقيل: سنًّا، وقد قال لهم: تُوبوا إلى ربِّكم من نيَّةِ منع المساكين وامضوا إلى صرمها، وإعطاء المساكين منها وعصوه وذهب معهم. ﴿أَلَمَ اَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ﴾ تحضيض ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ تذكرون الله، وتتوبون إليه من نيَّة منعكم، لئلاَّ تعاقبوا دنيًا وأخرى.

[قلت:] والتسبيح على نيّة التوبة توبةٌ واعتراف. وقيل: التسبيح الاستثناء بأن يقولوا: إن شاء الله، نزَّهوا الله عن أن يكون غير ما لم يرد كَوْنَه، وكان في شرعهم «سبحان الله» مثل «إن شاء الله» في شرعنا.

(فقه) وشرعُ من قبلنا شرعٌ لنا ما لم ينسخ، حتَّى إنَّ بعض الْحَنَفيَّة قالوا: لو قال: زوجُه طالقٌ سبحان الله، كان استثناء، ولم يقع طلاق، وكذا العتق.

[قلت:] والحقُّ أنَّ الطلاق والإعتاق يقعان ولا يفسَخُهما الاستثناء، وأمَّا غيرهما فلا نحتاج فيه إلى شرع من قبلنا بل نحتاج إلى النيَّة، فإذا نوى بقوله: «سبحان الله» الاستثناء صَحَّ.

وقيل: ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ معناه تستغفرون، عبَّر به عنه لأنَّ التتريه تعظيمٌ لهُ عن أن يُعصى بذَنْب، وقيل: تذكرون الله تعالى شكرًا للنعمة.

﴿قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ نَزَّهْنَاهُ عن أن يُعصى وتُكْفَرَ نعمتُهُ، وهذا إنشاء، أو تَنَزَّهَ اللهُ عن ذلك، وهو إِخبَارٌ خَضَعُوا بِهِ لله ﷻ، وبهذا الخضوع يكون

إنشاءً. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أنفُسَنَا بالمعصية، والمساكينَ بمنع حقِّهم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ الكلامُ في ذلك كُلٌّ لا كلِّيةٌ، فإنَّ بعضًا قال بالصرم منعًا عن المساكين، وبعضًا صوَّب، وبعضًا سكت راضيًا، والأوسط نهى نهيًا ضعيفًا، إذْ كان الواجب عليه أَن لا يذهب معهم. ولوم الأوسط لهم ظاهرٌ، فقد يقولون له ملاومة: هلاَّ عزمت على منعنا؟ ويقول المصوِّب للقائل الأوَّل: غَرَرتَنَا واتَّبعناك، ويقول له: لِمَ اتَّبَعْتَني؟ وللساكت: لِمَ سَكَتْتَ واتَّبعْتَنِي؟ لو نهيتني لاتَّبعتُك أو لَتَدَبَّرْنا.

﴿قَالُواْ يَاوَيْلَنَآ﴾ نادوا هلاكَهُم في اللَّفظ، والمراد حضوره فذلك الوقت وقتُ مجيئه لهم، أو يا حرف تنبيه وويل مفعول مطلق، أي: هلكنا هلاكًا. ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ مجاوزين الحَدَّ في حقِّ الله تعالى، إذ منعنا حقَّ المساكين، أو لم نشكر النعمة إذ لم نصنع صُنع أبينا.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَنْ يُبْدِلَنَا﴾ يُعطينا لتوبتنا ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ من جنَّتنا. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَغِبُونَ﴾ مستأنف، أو تعليل جمليٌّ، وقدَّم «إِلَى رَبِّنَا» اهتمامًا بالله وللحصر وللفاصلة، وللتشويق إلى المتعلَّق، وهو الرغبة، وعدِّيت بـ«إِلَى» لتضمُّن معنى الرجوع.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : إنَّهم تابوا وأخلصوا ودعوا الله أن يبدِّلهم خيرًا منها فيعملوا كأبيهم، فأعطاهم الله تعالى جنَّة خيرًا منها تسمَّى الحيوان، يحمل البغل عنقودًا منها كالرجل الأسود القائم، وهم مسلمون عصوا بذلك وتابوا.

ويُقال: كانوا من أهل الكتاب نصارى الحبشة. قيل: توقَّف الحسن في إيمانهم، لأنَّ المشرك إذا أصيب تضرَّع إلى الله عز وجل وسبَّح واستغفر ورَغِبَ إلى الله تعالى. وقيل: جزم بشركهم.

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ مبتدأ وخبر. و«ال» للجنس، أي: عذاب الله مثل ذلك العذاب الذي أوقعه على أصحاب الجنَّة، فليحذر أهل مكَّة أن يصرُّوا على ما هم عليه، فيصيبهم مثل ما أصاب أهل الجنَّة، ولو كانت للعهد وأشير بلفظ «ذَٰلِكَ» إلى عذاب أهل الجنَّة لَكَان تشبيهَ الشيء بنفسه.

وإن كانت الإشارة إلى ما أصاب أهل مكَّة من القحط، و«الْعَذَابُ» عذاب أهل الجنَّة و«ال» للعهد ـ إنْ صَحَّ ـ فيكون عذاب أهلها شبيهًا بعذاب أهل مكَّة، لكن هذا معنى ضعيف، والقويُّ أن يُشبَّه عذابٌ يستحقُّونه في الدنيا بعذابِ أهل الجنَّة يُهدِّدُهم به.

﴿وَلَعَذَابُ الاَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا لدوامه ومزيد شدَّته. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنَّه أكبر، أو لو كانوا يعلمون شيئًا من أمر الدِّين، وهكذا تستحضر في مثل هذا.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

جزاء المتَّقين وإنكار التسوية بين المطيع والعاصي

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والإصرار على الذنب، والتقديمُ للحصر والاهتمام بما سبق، والتشويق إلى اللاَّحق. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في علمه، أو في الآخرة، لأنَّه لا يتصرَّف فيها غيره، متعلِّق بما تعلَّق به اللاَّم على حدِّ ما مرَّ. ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

الخَالصِ الذي لا يُكدِّرُه شيءٌ من مرض، أو حزن، أو ذلٍّ، أو زوال، أو غير ذلك، أو ألَمِ جسَدٍ، أو استعلاء عدوٍّ، وهكذا...

﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ أَنجُورُ فَنَجْعَلُ؟ أو أيستوي الإيمان والكفر عندنا فنجعل؟ ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ الموحِّدين العاملين ﴿كَالْمُجْرِمِينَ﴾ بالإشراك، أو ما دونه من الكبائر. وذلك ردٌّ لقولهم: إن كان البعث حقًّا كنَّا كمحمَّد وأتباعه إن لم نكن أفضل منهم. والاستفهام للإنكار.

(فقه) والواجبُ على كلِّ مكلَّف تفضيلُ المسلم وحبُّه، وأن يُحبَّ أن يحبَّه المسلمون. والمسلم على دعامة من الياقوت في الجنَّة مع الأعمى والمقعد الصَّابرين.

(وعظ وإرشاد) وإطعامُ المسلم أو الحامل أو المريض سُلَّم إلى الجنَّة. ومن أبغض مسلمًا، أو تَيَمَّمَ بلا عذر، أو أفتى بلا علمٍ تغلي عظامه في النَّار كما يغلي العدس، ومن أبغَضَ المسلمَ، أو أيِس [من رحمة الله] أو أمِن [مِنْ عقابه] لم يَزِنْ عند الله تعالى خردلة. والملائكة تفرح بحبِّ المسلم، ونفقةِ السِّرِّ، والدعاءِ في مكانٍ خالٍ، وذلك ولاية للملائكة، لأنَّه يوافق طبائعهم.

ويُقال: لا يقبل الله تعالى عَمَلَ مُبْغِضِ المُسْلِم، والآيِس والآمِن، إذَا أَحَبَّ الله عبدًا أعطاهُ الصَّلاةَ والصَّوم وحُبَّ المسلم، وإذا أبغضه تركهنَّ، ومن أَحبَّ المسلم وصلَّى وأمرَ ونَهى خلص من الذنوب واستنار عقله، ويحزن الشيطان أربعين يومًا إذا رأى الألفة بين المسلمين. ومن أحبَّ المسلمين نجا معهم من إبليس.

(وعظ) تَمنَّت امرأة أن تكون مع مسلم تعمل ما يعمل، وأخرى أن تكون مع عاصٍ تأمره وتنهاه، وأخرى أن تُعالج طعامًا حارًّا للمسلمين في البرْد، وتبدِّل ثيابهم المبتلَّة بالماء[1].

١-يشير الشيخ إلى قصَّة "مترو" مع زميلاتها، انظر: طبقات المشائخ في المغرب =

(من أقوال السلف) قال أبو مرداس لجنون بن يمريان[1]: إيَّاك ومفارقة المسلمين وبغضهم، والترْكَ بعد الاجتهاد. من أحبَّ المسلمين ورضي بقضاء الله وسخَا، عدل أجرُ ذلك سبع سماوات وسبع أرضين، ويُقال: يكون لمن يُحبُّ المسلمين، ولمن يدعو في الخلوة، ولمن يكسب الحلال لأهله عروقٌ في الإسلام كعروق الشجر في الأرض.

ويُقال: أدرك شابٌّ من بني إسرائيل الجنَّة بثلاث كلمات: «يا ربِّ علمتَ أنِّي أحبُّ طاعتك ولوْ أنِّي أعملُ بمعاصيك، وعلمت أنَّ المسلمين عندي خير من الكافرين ولو كنتُ منهم، وإذا جاءني مسلم وكافر في حاجة أقضي للمسلم دون الكافر». ويُقال: لا يجتمع حبُّ المسلمين وأداء الأمانة وصلة الرَّحم والوفاء بالعهد إلاَّ في المسلم، ويهدمُ الحسناتِ بغضُ المسلمين والنميمة وأيْمَان الفجور والحسد.

﴿**مَا لَكُمْ**﴾ هذا كلام مستقلٌّ عمَّا بعده، ولو تناسبا، والاستفهام توبيخ، أي: أيُّ شيء حصل لكم من خلل الفكر والرأي؟ ﴿**كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ بفضلكم على المؤمنين أو مساواتكم لهم، استفهام تعجيب واستبعاد لذلك عن فهم كلِّ عاقل.

هذا نفي للدليل العقلي على ما يقولون، ونَفَى الدليلَ النَّقليَّ بقوله: ﴿**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ**﴾ بل ألكم كتاب من الله تعالى؟ ﴿**فِيهِ**﴾ أي: في الكتاب، متعلِّق بقوله: ﴿**تَدْرُسُونَ**﴾ أي: تقرأون، وقوله: ﴿**إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ**﴾ فهي

=

للدرجيني، ج٢، ص٣٠٩.

١-أبو صالح جنون بن يمريان الوارجلاني السدراتي من العلماء العاملين الورعين كان شيخ الإباضية بوارجلان في أوائل القرن الرابع. انظر: معجم أعلام الإباضية، ج٢، ص٢٣٢.

محكيَّة بـ«تدرس»، لأنَّ فيه معنى القول، أو ضمِّن تدرس معنى العلم فعُلِّق باللاَّم عن الجملة[1].

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ عهود، إطْلاقٌ للجزء على الكلِّ، فإنَّ العهد يمين وزيادة وملزوم للقسم، أو المراد: أقسام ﴿عَلَيْنَا﴾ نعت «أَيْمَانٌ» ﴿بَالِغَةٌ﴾ نعت ثان، أي: بلغت النِّهاية في التأكيد ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلِّق بـ«لَكُمْ»، لنيابته عن ثبتتْ أو ثابتة أو بتَثْبُت، أو بثابتة، أي: لا تزول عهدتُها إلاَّ إذا جاء يوم القيامة وأنفدنا مضمونها، أو بـ«بَالِغَةٌ» أي: تبلغ يوم القيامة وافرةً لم ينقص منها بعض. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب «أَيْمَانٌ» ولو فسِّر بالعهود، لأنَّ العهد في معنى القسم. هذا نفي لأن يكون لهم من الله وعد بما يقولون، ووعده لا يتخلَّف.

﴿سَلْهُمْ﴾ يا محمَّد سؤال تبكيت ﴿أَيُّهُم بِذَالِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل، ولو قال: أَيُّكم لجاز، لأنَّه ﷺ إذا قصد سؤالهم يقول: أَيُّكم؟ والخطاب قبلُ يقتضي أن يُقال: إنَّ لكم لما تحكمون أَيُّكم بذلك زعيم، لكن ترك خطابهم إلى خطابه ﷺ إسقاطًا لهم عن رتبة الخطاب، بَعْدَمَا خاطبهم.

و«أَيُّهُمْ...» الخ مفعول لـ«سَلْ»، علِّق عنه بالاستفهام، لأنَّ السؤال كالعلم لأنَّه سبب للعلم وملزوم له.

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ بل ألهم؟ ﴿شُرَكَآءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول من العقلاء الماضين أو الحاضرين، أو أصنام آلهة لهم تحكم لهم بأنَّ لهم ما للمسلمين في

١- في نسخة ب زيادة في الإعراب: وجملة «فِيهِ تَدْرُسُونَ..» إلى آخره نعت «كِتَابٌ». و«تَخَيَّرُونَ» صلة «مَا» أو صفتها. والرابط محذوف، أي: الأمر أو الحكم الذي تختارونه، أو أمرًا أو حكما تختارونه. وهاء «فِيهِ» عائدة إلى الكتاب تأكيد.

الآخرة، وهذا نفي لأن يصحَّ لهم تقليد. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ تشهد لهم بذلك ﴿إِن كَانُواْ صَادِقِينَ﴾ في دعواهم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ متعلّق بـ«يَأْتُواْ» قبله، أو بمحذوف للتهويل يقدَّر مؤخَّرًا، أي: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ...» الخ يكون كيت وكيت، أو بـ«خَاشِعَةً»، أو بـ«تَرْهَقُ»، أو هو مفعولٌ به لـ«اذكُرْ».

وهو يوم القيامة. وقيل: هو وقت مرضهم الذي عجزوا فيه، أو يوم الهرم والعجز، أو وقت مشاهدة الملائكة عند الموت، لقوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ ولا تكليف يوم القيامة، ويردُّه أيضًا أنَّه تكليف بما لا يطاق في تلك الأوقات، ولا سيَّما عند المشاهدة، وأيضا المريض ونحوه يمكنه القضاءُ ولو بالإيماء.

(بلاغة) والسَّاق: ما فوق الكعب، وكشْفُها كناية عن شدَّة الأمر، لأنَّه إذا أريد مزاولة أمر عظيم يزال الثوبُ عن السَّاق لئلاَّ يعطِّل عن العمل. أو ذلك استعارة تمثيليَّة. أو الساق أصل الشيء، وهو ما ينبني عليه باقيه، أي: يكشف عن أصل الأمر، وتبدو حقيقته، وتُعاينُ، فالسَّاق استعارة تصريحيَّة أَصليَّة، و«يُكْشَفُ» ترشيح مجاز مرسل عن البيان، أو باق تبعًا للاستعارة. وذلك اليوم ـــ كما قال ابن عبَّاس ـــ أشدُّ زمان في القيامة.

ومن استعمال السَّاق في معنى الشدَّة قول جرير:

أَلاَ رُبَّ ساهي الطرف من مـــازن إذا شمَّرت عن ساقها الحربُ شمَّرا

وقول كعب بن زهير:

فإن شمَّرت لك عن ساقها فدُنْها ربيعُ ولا تســـــأم

[وقول شاعر:

سنَّ لنا قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب لنا على ساق][1]

(أصول الدين) ومن أثبت لله ساقًا على ظاهره أشرك بهذا الاعتقاد، وأشرك بتفسير القرآن به، ويكفي في المتشابه ما ورد التصريح به مضافًا إلى الله تعالى مثل: يد الله، ووجه الله، وعين الله، والاستواء على العرش، فنُؤوِّله بما يليق بوحدانيَّته، وأمَّا ما لم ينسب إليه فما الدَّاعي إلى نسبته إليه وجعله من المتشابه؟

(نقد أحاديث) وما ورد من إثباته على ظاهره في الحديث كذب موضوع، ولو كان في الصحيحين وغيرهما[2]، مثل ما روي عن أبي سعيد عنه ﷺ : «**يكشف ربُّنا عن ساقه فيسجد له كلُّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدًا**»[3].

(تأويله) وإن صحَّ الحديث فالسَّاق فيه عبارة عن شيء يظهره الله لهم ممَّا شاء ممَّا يخلق، أو كناية عن الأمر الشديد. وكذا حديث: «**يتبع كلُّ أحد يوم القيامة معبوده، إلاَّ المؤمنون فيبقون حتَّى يجيء ربُّهم، فيعرفونه بساقه يكشفها لهم، وفيها علامة**» **أعوذ بالله** ﷻ **من الكفر كلِّه**، وإن صحَّ الحديث فمعناه:

١- ما بين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

٢- نقل **الألوسي** في تفسيره عن سعيد بن جبير أنَّه سئل عن الآية: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} فغضب غضبا شديدا وقال: إنَّ أقواما يزعمون أنَّ الله سبحانه يكشف عن ساقه، وإنَّما يكشف عن الأمر الشديد، وعليه يحمل ما في الحديث على الأمر الشديد أيضا، وإضافته إليه ﷻ لتهويل أمره، وأنَّه أمر لا يقدر عليه سواه. الألوسي: روح المعاني، مج١٠، ص٤٣.

٣- رواه **البخاري** في كتاب التفسير، باب {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}، رقم١٨٧١، من حديث أبي سعيد الخدري.

إتيان ملك من ملائكة الله تعالى، ولا يقولون: أنت ربُّنا، وإن قالوا فالمعنى: أنت مَلَكُ ربِّنا، وهذا قول عياض، وهو عالم عظيم[1].

ومن كلامه أيضًا أنَّه يجوز أن يكون السَّاق علامة بينه تعالى وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة، وقد تكون ساقًا مخلوقة جعلها الله علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة، ولكن في كلام آخر له: «يتجلَّى الله في صورة حسنة»، ولعلَّه أراد: يتجلَّى لهم بملَكٍ، وأنَّهم يقولون له: «أنت ربُّنا» بمعنى أنت ملَكُ ربِّنا أو رسول ربِّنَا.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ يدعوهم الله تعالى بما شاء، أو الملَكُ، وقيل: يدعوهم سجود المؤمنين شكرًا يغتبطونه ولا يجدونه، وهو خلاف الظاهر أنَّ الدَّاعي الله أو الملك توبيخًا وتقريعًا على تركهم السجود في الدنيا، وتحسيرًا لهم على أمْر نافع لهم لو فعلوه في الدنيا وفاتهم ولا يداركونه، لا تكليفًا لَهُم.

﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يستطيعونه، وحذف المفعول للفاصلة. يريدون السجود فيجعل الله ظهورهم عظمًا واحدًا لا مفصل له كصياصي البقر. ﴿خَاشِعَةً﴾ حال من الواو في «يُدْعَونَ» أو في «لاَ يَسْتَطِيعُونَ». ﴿اَبْصَاهُمْ﴾ فاعل «خَاشِعَةً». وإسناد الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيه، وحقيقتُه للقلوب.

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ عظيمة، والجملة مستأنفة أو حال. ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ في الدنيا ولا يأتونه، وحذف هذا

١- القاضي عياض، هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في زمانه، ولد سنة ٤٧٦هـ، ولي قضاء سبتة وغرناطة. وتُوُفِّيَ بمراكش مسمومًا على يد يهوديٍّ سنة ٥٤٤هـ. له تصانيف كثيرة. منها: «شرح صحيح مسلم». الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٩٩.

لظهوره. والجملة حال محكيَّة، يدعوهم الرسول والمؤمنون إلى السجود لله وحده مطلقًا.

ومقتضى الظاهر: «يدعون إليه» وأظهره لزيادة التقرير، أو لأنَّ هذا السجود سجود خاصٌّ، وهو سجود الصلوات الخمس، أو المراد به الصلوات الخمس سمِّيت باسم جزئها الأعظم وهو السجود. «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجدًا**»[1]، أو لأنَّ السجود هنا جميع الطاعات معبَّرًا به عن الصلاة، المعبَّر بها عن مطلق العبادات، إذْ كانت أفضَلَها، فهو من بناء المجاز على المجاز، والدعاء دعوة التكليف، وقيل: الأذان والإقامة. ﴿**وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ قادرون عليه.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

تهديد الكفَّار، وأمر النبيء بالصبر والتذكر

﴿**فَذَرْنِي**﴾ إذا كان الأمر هكذا من حالهم فذرني، أو عطف على «يُدْعَونَ» الأخير عطف إنشاء على إخبار. ﴿**وَمَنْ يُكَذِّبُ**﴾ مع من يكذِّب،

١- رواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب ما يقال الركوع والسجود، رقم٤٨٢، من حديث أبي هريرة.

والواو للمعيَّة. ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ القرآن، لا تَطْلبْ أن تشفع لهم، ولا يرِقَّ قلبك عليهم، أو إنِّي كافيك شأنهم في التعذيب.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ نُنَزِّلهم في العذاب درجة درجة بالإمْهال، وإدامة الصحَّة، وازدياد النِّعم، كما جاء الحديث عنه ﷺ **أنَّه إذا رأيت أحدًا مقيمًا على المعاصي، والنعمُ تزداد عليه فاعلم أنَّه مُسْتَدْرَجٌ**، وقرأ الآية. والمؤمن إذا أذنب عجَّل الاستغفار والتوبة، وإذا تجَدَّدت نعمة قابلها بالشكر، والمعنى كُلَّما: جدَّدوا معصية جدَّدنا لهم نعمة وأنسيْناهم شُكرها، وهي سبب إهلاكهم. ﴿مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ذلك استدراج، ويتوهَّمون أنَّ ذلك تفضيل لهم على المؤمنين.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أُمهِلُهُمْ ليزدادوا إثْمًا ويتوهَّموا أنَّ ذلك لِحُبِّ الله سبحانه وتعالى لهم، وإرادةٌ للخير لهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ عقابي، سمَّاه كيدًا، والكيد في الأصل: الاحتيال، لأنَّه بصورة الاحتيال، إذْ فعل بهم ما يُوهم فوزهم ونجاتهم، ومرادُه: إهلاكهم لكفرهم به، وكفر نعمته تعالى. ﴿مَتِينٌ﴾ قَوِيٌّ لا يدفعه شيء، ولا ينقص منه. والجملة متعلِّقة بـ«ذَرْنِي»، وتعليل له، أو بـ«نَسْتَدْرِجُ».

﴿امْ تَسْئَلُهُمْ﴾ بل أتسألهم؟ ﴿أَجْرًا﴾ دنيويًّا على تبليغ الوحي. ﴿فَهُمْ﴾ بسببه ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مصدر ميميٌّ، أي: غرامة. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ مُلزَمون ما يثقلهم، وهذه الجملة مثل قوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَبِّهِ﴾ (سورة الزمر: ٢٢)، معطوفة على قوله تعالى: ﴿تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا﴾ عطف إخبار واسميَّةٍ على إنشاءٍ وفعليَّة.

﴿أَمْ عِندَهُمُ﴾ بل أعندهم؟ ﴿الْغَيْبُ﴾ علم الغيب، أي: الأشياء الغائبة، أو ذوات الغيب، أو اللَّوح المحفوظ، سمِّي غيبًا لأنَّ فيه الأشياء الغائبة. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما يعلمُون من الغيب، فهم يستغنُون عنك وعن علمك، والكتابة

للمحافظة عليه، أو يكتبون من اللّوح المحفوظ.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هو عدم التعجيل بإهلاكهم، فإنَّك منصور في حينك، وفيما بعد، ولو لم يظهر لك النصر الحاضر، أو اصبر على ظهوره.

(سبب النزول) عَرَضَ نفسَهُ عليه السلام على القبائل في مكّة فآذاه ثقيف، فأراد الدعاء عليهم، فنزلت الآية. وقيل: أراد الدُّعاء على الذين تركوا مقامهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بملازمته، وأن لا يفارقُوه، ولو رأوا رسول الله ﷺ والمؤمنين مقتولين تأكلهم الطير، وفارقُوهُ لَمَّا رأوا المشركين منهزمين، فخرج عليهم من ورائهم كمين الكفّار، فنزلت الآية، وعليه فالآية مَدَنيَّة، فيكون «حُكْم رَبِّكَ» قضاؤُه بمفارقة المقام، وانهزام المؤمنين، وموت من مات منهم بذلك. وقيل: أراد أن يدعو على المنهزمين يوم أحد عند اشتداد القتال فنزلت.

﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ فتُبتلى بما ابتلِي به، وهو يونس عليه السلام، وهو ذو النُّون.

(بلاغة) ولفظ «ذو النُّون» أعظم من لفظ «صاحب الحوت»، فإنَّه بمعنى: من له شأن النُّون وقصَّته، وكذا «ذو المال» بمعنى من له المال وتأهَّل له، بخلاف «صاحب الحوت» و«صاحب المال» فإنَّه أفاد صحبةً وهي دون ذلك المعنى، ولو أريد به ذلك المعنى؛ لأنَّ لفظ الصُّحبة ليس صريحًا في ذلك. وتفسير «ذو» بـ«صاحب» تسامحٌ واختصارٌ، كما قال ابن حجر: إنَّ «ذو» تفيد تعظيم الموصوف بها، ففي مدح يونس قال الله عز وجل: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧) ، وفي النَّهي عن متابعته: ﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾. وكذا لفظ النُّون أشْرَف، إذ جعل مبدأ هذه السورة من لفظ الحوت.

(نحو) ﴿إِذْ﴾ متعلِّق بمحذوف حال من «صَاحِبِ»، وإذا أفاد

الإخبار ونحوه كالحاليَّة بالزمان على الذات جاز نحو: «لا تكن اليوم كعمرو أمس». وسواء قدَّرنا: «ثابتًا كصاحب الحوت» أو «مضطربًا كصاحب الحوت»، أو جعلنا «كان» بلا خبر، وكأنَّه قيل: مضطربًا كاضْطراب صاحب الحوت ومغاضبته واغتياظه على قومه، فيجوز تعليق «إذْ» باضطراب صاحب الحوت.

وعبارة بعض: «إذْ» منصوب بمضاف محذوف، أي: لا يكن حالك كحاله وقت ندائه اهـ. وهذا ما أفاد تعليقًا ولا هو كلام صحيح من حيث التعليق، وصحَّ من حيث المعنى.

﴿نَادَىٰ﴾ حذف المنادى، أي: نادَى اللهَ، أو نادى ربَّه، لأنَّ المدار في النَّهي على قوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ وهو جملة حاليَّة من ضمير «نَادَى» لا على النِّداء، لأنَّ النِّداء أمر حسن مأمور به قال: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧) . ومعنى «مَكْظُومٌ»: مملوء القلب على قومه إذ دعاهم و لم يؤمنوا، من كظم السقاء إذا ملأَهُ.

﴿لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّـــهِ﴾ لم يقرن الفعل بتاء التأنيث لأنَّ الفاعل على ظاهر مجازي التأنيث، ولا سيَّما أنَّه مفصول، و«أَن» مَصدَرِيَّة، والمصدر مبتدأ، أي: لولا تدارُكه نعمةٌ من ربِّه (بضمِّ الرَّاء) موجودٌ، أو مدراكةُ نعمةٍ من ربِّه موجودة. والنِّعمة: توفيقُه للتوبة المقبولة.

﴿لَنُبِذَ﴾ طُرِح بعنف ﴿بِالْعَرَآءِ﴾ أي: في العراء، وهي الأرض الخالية من الشجر والنبات والبناء. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لغضبه وذهابه بلا إذن من ربِّه، وَلَمَّا تاب توبةً تُقبل أَلْقَاهُ الله في أرض أنبت الله تعالى عليه فيها شجرة، وهو محمود.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: لنبذ بعراء يوم القيامة، ولا الاستدلال عليه بقوله

تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (سورة الصَّافَّات: ١٤٤) ، لأنَّ الحاصل أنَّ النِّعمة اقتضت أن ينبذ لا بعراء الدنيا، ولولاها لبقي في بطنه إلى يوم يُبعثون. و لم يقل: للَبِث في بطنه إلى يوم يبعثون، وطرح في العراء من مواضع الحشر.

قيل: كيف وصف بالذَّمِّ وهو نبيء؟ فقيل: ذلك قبل النبوءة، والتأجيلُ بالعذاب أن لم يؤمنوا ليس بوحي إليه، وقيل: ذلك من باب «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين». وقيل: إنَّ كلمة «لَوْلاَ» دلَّت على أنَّه لم يقع ما يوجب الذَّمَّ.

ويدلُّ على أنَّه قبل النبوءة قوله تعالى: ﴿**فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ**﴾ عطف على مستأنف محذوف مجرَّد من عاطف، أي: تداركَتْهُ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ، أي: اصطفاه للرِّسالة بعد أن كان نبيئًا في قومه غير رسول، أو اصطفاه للنبوءة والرسالة بعد أن كان في قومه غير نبيء، وغير رسول، يدعوهم إلى الله تبعًا لمن قبله من الأنبياء أو نيابة عن رسول، أو نبيء في زمانه من أنبياء الشام، وبعدُ كان رسولاً أرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون.

﴿**فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ من الكاملين في الصَّلاح بأن يؤدِّي الفرائض والنفل على الوجه الأكمل باجتهاد وإخلاص، ويترك المعاصيَ والمكروهَ، وخلافَ الأَوْلى. ومن قال: كان قبل ذلك غير نبيء صحَّ له أن يقول ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ معناه: من الأنبياء.

﴿**وَإِنْ يَّكَادُ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ «إن» مخفَّفة ﴿**لَيَزْلِقُونَكَ**﴾ يصرَعونك. واللاَّم للفرق بين الإثبات المراد والنفي. وقيل «إِنْ» نافية خفيفة، واللاَّم للاستثناء، يكادون يزلقونك في الأرض كالزلق في سبخةٍ مبتلَّة لشدَّة عدوانهم.

﴿**بِأَبْصَارِهِمْ**﴾ ينظرون إليه نظرًا شديدًا نظر بغض، وذلك مبالغة في

وصف بغضهم له ﷺ ، لأنَّ النظر ولو اشتدَّ ببغض لا يصرع أحدًا فحاصله: لو أمكن أن يزلقوه بأبصارهم لأَزلَقُوه، كأنَّه سَرَتْ عداوتُهُم له ﷺ من قلوبهم إلى عيونهم.

والزَّلَقُ على ظاهره. و«يَكَادُ» مجاز عن الشدَّة، لأنَّ شدَّة بغضهم ونظرهم لا يزلق ولا يقرب من الإزلاق، وفي كلام العرب والعجم ذلك، يُقال: نظر إليَّ نظرًا يكاد يصرعني، ويكاد يأكني، وذكر ذلك بلا لفظ القرب من قال:

يتقارضون إذا التَقَوْا في موطن نظـــــرًا يُزِلُّ مواطِئَ الأقدام[1]

وقيل: «يَكَادُ» على حقيقته، والإزلاق مجاز عن الإهلاك، وإنَّه كان في بني أسد عيَّانون، فأراد بعض منهم أن يَعِينَ رسول الله ﷺ ونجَّاه الله ﷻ فترلت الآية، وكان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة فيرفع جانب الخباء فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنمًا أحسن من هذه، فتسقط طائفة منها وتموت، وطلبه الكفَّار أن يَعِينَ رسولَ الله ﷺ فأجابهم وشرع في ذلك بأن قال:

قد كان قومك يحسبونك سيِّدًا وأخالُ أنَّكَ سَـــيِّدٌ معيون

و لم يؤثِّر فيه شيء، فأنزل الله تعالى الآية، وقالت قريش ليعنوه: ما رأينا مثله ولا مثل حججه، و لم يؤثِّر فيه.

[قلت:] وقراءة هذه الآية تدفع ضرر العين بإذن الله تعالى، والعين حقٌّ كما قال ﷺ : **«العين حقٌّ لو كان شيء يسبق القدر لقلتُ العين»**[2]. وقال

١-أورده صاحب اللِّسان وغيره بلا نسبة. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص١١٢، مادة «قرض».

٢-رواه **عبد الرزاق** في مصنفه، كتاب الجامع، باب الرقى والعين والنفث، رقم: ١٩٧٧٠. **والبيهقي** في شعب الإيمان، الكتاب السابع والسبعون من شعب الإيمان. باب في أن يحبَّ الرجل =

ﷺ : «**لا تزال العين بالجمل حتَّى توردہ القدرَ ولا بالنخلة حتَّى توردها التنُّور**». وأمر المعيان أن يغتسل وتُصبَّ غُسالتُه على المعين. وقال ﷺ : «**إنَّ العين لتُولع بالرجل بإذن الله تعالى حتَّى يصعد حالقا ثمَّ يتردَّى منه**»[1].

(الرقية من العين) وقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله، إنَّ ولَدَ جعفر تُسرع إليهم العين فهل أسترقي لهم؟ قال: «**نعم، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**». وفي ذلك أحاديث كثيرة. قال الحسن: دواء من أصابته العين أن تقرأ عليه هذه الآية.

ولا يختصُّ العين بالنَّفس الخبيثة، وقد يكون من النُّفوس الزكيَّة، وقد كان رسول الله ﷺ يأمر الصحابة بالتحرُّز عن العين بذكر الله، ويمكن أن يكون العين مختصًّا بالنَّفس الخبيثة أصَالةً حتَّى إنَّ النَّفس الزكيَّة يصدر منها عين بحسب خبثها الأصلي. ولا يختصُّ العين بمن يبغض بل يكون أيضًا فيمن يحبُّ.

ولا يختصُّ أن يكون في الأمر الحَسن بل يكون أيضًا في القبيح، وقيل: يختصُّ بالمستحسن، ونسب هذا إلى الشهرة، ويعارضه أخبار النَّاس أنَّه وقع في المستقبح والمستحسن، وفي غير ذلك، فالكفَّار يبغضون رسول الله ﷺ وأرادوا ان يعينوه، ولا دليل على عدم اختصاص العين بما يستحسن في ذلك، لأنَّهم قد استحسنوا منه أشياء مع كفرهم وبغضهم، كبلاغته وجماله وصدقه في سائر كلامه وأحْواله، وما يذكر من القرآن، والقرآن بليغ، كما قال الله تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ﴾. وأيضًا قد يتعاطون عينه ولو لم يستحسنوا منه شيئًا.

(فقه) ويحبس العائن لئلاَّ يضرَّ النَّاس، فإن لم يكن له مال فنفقته من

=

لأخيه المسلم ما يحبُّ لنفسه، باب في إصابة العين، رقم: ١١٢٢٢. من حديث ابن عبَّاس.

١- رواه **أحمد** في مسند الأنصار، رقم ٢٠٧٩٥، من حديث أبي ذرٍّ.

بيت المال. ومن قال: العين تستقلُّ عن الله في التأثير أشرك كإشراك من قال باستقلال النوء بالمطر، ومن قال: تضرُّ بإذن الله فلا كفر، ولو قال: تنبعث قوَّة سُمِّية من عين المعْيان إلى من ينظر إليه، ولكن يكون العين أيضًا بلا نظر إلى شيء.

وروي أنَّ سليمان بن عبد الملك أعجبه جماله في المرآة، فقال: كان محمَّد نبيئنا ﷺ ، وأبو بكر صدِّيقًا، وعمر فاروقًا، وعثمان حبيًا، ومعاوية حليمًا، ويزيد صبورًا، وعبد الملك سائسًا، والوليد جبَّارًا، وأنا الملك الشبابُّ، وأنا الملك الشَّابُّ، فمات قبل تمام الشهر، فلعلَّه عان نفسه، وقد قال ﷺ : «**إذا رأى أحدكم ما يعجبه من نفسه فليقُل ما شاء الله لا قوَّة إلاَّ بالله**»[1].

﴿**لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ**﴾ القرآن لشدَّة بغضهم وحسدهم.

(نحو) و«لَمَّا» ظرف متعلِّق بـ«يَكَادُ» أوْ بـ«يَزْلِقُ». ومن قال: «لَمَّا» الوُجوديَّة حرفٌ قال: يقدَّرُ جوابُها بعدُ لِدلاَلَةِ ما قَبْلُ، وأقولُ: بل أغْنَى ما قبلها عن جوابها.

﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ لشدَّة حسدهم على بلاغة القرآن وبدائعه، ولحيرتهم، ولتنفير النَّاس عنه ﷺ ﴿**إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾ مع أنَّه ليس من شأن المجنون البلاَغةُ والصدْقُ دائمًا وحسنُ السيرة وملازمة الصَّواب.

وجملة «يَقُولُونَ» معطوفة على «يَكَادُ» لا على «يَزْلِقُونَكَ»، لأنَّهم قالوا: «لا قرُبوا من القول بلا فعل». ﴿**وَمَا هُوَ**﴾ أي: الذِّكر. ﴿**إِلاَّ ذِكْرٌ**﴾ تذكير بالصَّواب والحقِّ، وقيل: شرف وفضل، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (سورة الزخرف: ٤٤) . ﴿**لِّلْعَالَمِينَ**﴾ حال من واو «يَقُولُونَ»، والرابط

١- روى **الطبراني والحاكم** في المستدرك من حديث عامر بن ربيعة ما يقاربه معنى آخر الحديث عندهما: «فليدع له بالبركة، فإنَّ العين حقٌّ».

واو الحال، وحصَّتهم في العالمين. [أي: وهم من جملة العالمين].

(نحو) وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، أي: وما هو إلاّ ذُو ذكرٍ، أي: تذكير، أي: مذكِّر، أو ما أمره إلاّ ذكر، أي: تذكيرٌ أو نفسُ الذِّكر مبالغة فتكون الجملة صريحةً في ردِّ دعوى جنونه.

والأولى أنَّ الضمير للذِّكْرِ بمعنى القرآن، وفيه كفاية في ردِّ ذلك بل زيادة، فإنَّ دعوى جنونه بسبب ادِّعائه القرآن من الله ﷻ فإذا كان القرآن من الله ﷻ فقد نفى جنونه بالبرهان، والله أعلم.

وهو الموفِّق والمستعان،
ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليِّ العظيم،
وصلّى الله على سيِّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.

تفسير سورة الحاقّة وآياتها ٥٢

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾

عظم يوم القيامة والاعتبار بما وقع للأمم السابقة

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَاقَّةُ**﴾ السَّاعة الحاقّة أو، الحالة الحاقّة، أو القيامة الحاقّة، وذلك يوم البعث، أو يوم موت الأحياء إلاّ الله.

[قلت:] ومعنى كونها حقًّا في الأوجه كُلِّها أنَّه يجب وقوعها، أو تثبت فيها الأمور الحَقَّة من انكشاف الغطاء عن المحقِّ والمخطئِ، والصِّدقِ والكذبِ والجزاءِ، أو إنَّه تحقُّ فيها الأمور، أي: تظهر حقيقتُها وتشاهد بعد أن كانت أخبارًا، أو إنَّه تغلب معاندَها بإنكاره لها، وتغلبه بالعقاب.

(صرف) كما يقال: حاققته (بألف) أي: عالجت أن أغلبه فحققْتُه (بدون ألف وبالفتح)، أي: غلبته، وأنا أحُقُّه (بضمِّ الحاء) وأنا حاقُّه، وذلك كلُّه بحسب الأصل، ثمَّ كان علمًا بالغلبة ليوم القيامة مثلاً.

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ «مَا» مبتدأ عند سيبويه، والخبر «الحاقّة»، وبالعكس في قول آخر، وهو أرجح، لأنّ معنى: مَن زيد؟ زيد من هو؟ ولا يقصد المتكلّم معنى قولك الذي هو زيد من هو؟ ويناسبُه أنّ الأصل الإخبار بالنكرة عن المعرفة. والجملة خبر «الْحَاقَّةُ» والرابط «الْحَاقَّةُ». والأصل: الحاقّة ما هي؟ بالإضمار وأظهر للتهويل.

وزاد بالإظهار التهويلَ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ الأصل وما أدراك ما هي؟ وفي الاستفهام ــ وهو للتهويل ــ شعور بأنّها لا تُعلم بالحقيقة، لأنّ الاستفهام في الأصل عَمَّا لم يُعلم.

(نحو) وجملة «مَا الحَآقَّةُ» سدَّت مسدَّ المفعول الثاني والثالث لكونه بمعنى أعلم، وقال بعض: عَلَّقَتْهُ عن التعدِّي إلى الثاني بالباء، ولا ثالث له، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْرَاكُم بِهِ﴾ (سورة يونس: ١٦) ، وما تقدَّم أولى. وأَمَّا الباء فللإِلصاق، و«أَدْرَاكُم» أعْرفَكُمْ وجملة «مَآ أَدْرَاكَ مَا الحَآقَّةُ» معطوفة على «مَا الحَآقَّةُ».

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ «ال» للعهد الذِّكري، فإنّ القارعة هي الحاقّة، ومقتضى الظاهر: كذّبت ثمود وعاد بها (بالإضمار)، وأظهر ليصفها بالقرع، أي: الضرب، لأنّ القيامة تضرب النَّاس والجنَّ والملائكة بالإقراع والأهوال، والسَّماءَ بالصَّدع والجبالَ بالدَّكِّ والإطارةِ، والنُّجوم والقمرين بالطمس، والأرضَ بوقوع ما فيها من بناء وبالتبديل.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ﴾ أهلكهم الله ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ بالصَّيحة المجاوزة للحدِّ، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿وَأَخَذَ الذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ (سورة هود: ٦٧) ، كما عبَّر عنها في سورة أخرى (سورة الأعراف: ٧٨) بالرجفة وفي أخرى بالصاعقة،

(سورة الذاريات: ٤٤) ، والرجفة وهي الزلزلة مسبَّبة عن الصَّيحة ولازمة لها، والباء للآلة، تعالى الله.

أو الطَّاغية مصدر بمعنى الطغيان، والباء سَبَبِـيَّة، أي: أهلكوا لطغيانهم، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ (سورة الشمس: ١١) ، لكن ذَكَرَ التَّكذيبَ لاَ الإهلاكَ، إلاَّ أنَّ الإهلاكَ مُسَبَّبٌ عن التكذيب ولازمٌ له.

أو الطَّاغية: الفعلة الطاغية، وهي عقر النَّاقة. أو الطاغية: عاقرُها، فتكون التاء للمبالغة، والباء للسببـيَّة أيضًا في ذلك، وكذا إن قيل: بسبب الفئة الطاغية، وهم الذين قصدوها بالقتل، ورضي الباقون.

والأَوْلى ما تقدَّم، ويدلُّ له قوله تعالى: **﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾** لذكره أنَّها أُهلكت عادٌ بكذا لا بسبب كذا، وإنَّ الأصل في وزن "فاعل" أن لا يكون مصدرًا، وفي ذلك جمع وتفريق، ولو قيل: أُهلكتْ ثمود بطغيانهم وعادٌ بريح لم يكن ذلك فيه.

والصرصر الباردة أو الصائتة **﴿عَاتِيَةٍ﴾** شديدة الهبوب، أو قهرت عادًا، على الاستعارة أو المجاز المرسل، أو عتت عن الخُزَّان الملائكة بإذن الله تعالى على التجوُّز كذلك. ويجوز أن تكون الاستعارة تمثيليَّة. فما قدروا على ردِّها ولا على الهروب منها، ولا على التستُّر عنها، ولا ينفعهم ستر، وهي مأمورة تجبذهم من الستر وتدقُّهم.

وعن الإمام عليٍّ بن أبي طالب: لم تنزل قطرةٌ إلاَّ بمكيال على يدي ملك إلاَّ يوم نوح، فإنَّه تعالى أذنَ للماء دون الخُزَّان فطغى الماء على الخُزَّان فخرج، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ﴾. ولم ينزل شيء من الريح إلاَّ بمكيال على يدي ملك إلاَّ يوم عاد، فإنَّه أذن لها دون الخزَّان فخرجت،

فذلك قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. والْمَثَلُ إذا علم منه أصْلُ المقصود بلا نظر إلى أصل القصَّة جاز أن يُقال: إنَّهُ كناية عن المقصود بلا تناول للتجوُّز الاستعاريِّ والإرساليِّ.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ الجملة نعت ثان أو مستأنفة، وفائدة ذكر التسخير نفي أن تكون بالطبع أو بمجرَّد اقتران الكواكب بعضها ببعض، ونزولها في بعض المواضع، فهي بدون توسُّط شيء أو بتوسُّط الطبع، أو الاقتران لكن بخلق الله ذلك الطبع، وخلق تأثيره وبخلق اقتران الكواكب ونزولها وخلق تأثيراتها.

﴿حُسُومًا﴾ جمع حاسم، كشاهد وشهود، وقاعد وقعود، ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ (سورة البروج: ٦) ، المعنى: متتابعات، مِنْ حَسَمَ الدَّابَّةَ إذا كواها مرارًا متتابعة لداء، شبَّه تتابع اللَّيالي بتتابع الكيِّ على الاستعارة التبعيَّة.

(بلاغة) أو أطلق المقيَّد وهو لفظ الحسم الموضوع لمتابعة الكيِّ على مطلق المتابعة، وأخذ من هذا المطلق متابعة الأيَّام واللَّيالي، واشتقَّ منه حاسم، وجمع على حسوم، أي: توبع حتَّى استأصلهم بالهلاك كما يزال داء الدَّابَّة بالكيِّ المتتابع.

أو معنى الحسم القطع، أي: حاسمات أدبارهم، أو حاسمات الخير عنهم، أو حاسمات لحياتهم. أو الحسم إزالة الأثر، يُقال: حسم الشيء أزال أثره. أو ﴿حُسُومًا﴾ مصدر، أي: تحسمهم حسوما أو لأجل الحسوم.

وإسناد الحسم في ذلك كلِّه من الإسناد إلى الزمان، إلاَّ إذا قدَّرنا: تحسمهم حسوما، فإليه وإلى الريح، ويدلُّ على أنَّه للريح قراءة السدي بفتح الحاء، فإنَّه وصف مفرد، كما أنَّ الريح مفرد فهو حال من مفعول «سَخَّرَ»، أو من «رِيحٍ».

(لغة) وتسمَّى تلك الأيَّام أيَّام العجوز، قيل: لأنَّ عجوزًا توارت في سرب فنزعها الرِّيح في اليوم الثامن فأهلكتها، أو لأنَّها عجز الشتاء، فالعجوز بالواو بمعنى العُجُز (بضمِّ الجيم بلا واو)، وأسماؤها: الصِّن، والصنبر، والوبر، والأمر، والمؤتمر، والمعلن، ومطفئ الجمر، ومكفئ الظعن، والثامنُ هو الأوَّل.

﴿فَتَرَى﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للرؤية لو حضرها، أو تعلم ﴿الْقَوْمَ﴾ عادًا ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأيَّام واللَّيالي، وقيل: في مهابِّ الريح، وقيل: في ديارهم لدلالة الكلام على ذلك، ولو لم يجر له ذكر، والأوَّل أولى لجريان ذكر اللَّيالي والأيَّام ﴿صَرْعَى﴾ جمع صريع بمعنى مصروع.

﴿كَأَنَّهُمُ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أسَافل نخل ﴿خَاوِيَةٍ﴾ خالية عن مغرسها، وذلك تمثيل حَسَنٌ بما يستحسن في التمثيل، ولو كانت أجسامهم أعظم أعجازًا من ذلك، وزاده حسنًا أنَّ أعجازهم أعظم ممَّا فوقها أو تحتها من أجسامهم.

(بلاغة) وفي الآية تشبيه الأقوى بما دونه، فإنَّ أجسام قوم عاد أكبر من أعجاز النَّخل، كما شبَّه الحور باللُّؤلؤ والمرجان في سورة الرحمن، وكما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ (سورة النور: ٣٥) . وقيل: خلت من الأرواح كجذوع نخل بلا روح، وقيل: عذِّبوا سبعة أيَّامٍ تحت الرِّيح وماتوا في الثامن وألقتهم الرِّيح في البحر.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي: نفس باقية، أو هو مصدر كالبقاء.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ ومن معه، ومجيئه مجيئهم ﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ من الأمم، كقوم هود وقوم صالح المذكورين وقوم نوح ﴿وَالْمُوتَفِكَاتُ﴾ القرى التي أَفَكَهَا الله أو جبريل فائتفكت، أي: قلبَهَا فانقلبت، وهي قرى قوم لوط، على حذف

مضاف، أي: أهل المؤتفكات، أو سمّوا باسم المحلّ، أو الإسناد مجازيٌّ عقليٌّ. والدليل في ذلك كلّه لفظ «جَآءَ».

وقوله: ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالفعلة الخاطئة، أو الأفعال الخاطئة، والخطأ إنَّما هو للفاعلين، وإسناده لفعلهم إنَّما هو مجاز عقليٌّ، وذلك مبالغة، أو خاطئة: أفعال ذاتُ خطأ، وذلك مبالغة أيضًا فهو أنسبُ. وقولهم: لا يؤنَّث وزن فاعل في النسب غيرُ مسلَّم، أو أرادوا أنَّه لا يجب تأنيثه أو الخاطئة مصدر بمعنى الخطأ.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أفرد الرسول مع أنَّ المعنى الجمع باعتبار أنَّ كلّ أمَّة عصت رسولَها فيما أمر به، أو نهى عنه، أو سمَّى الرسل رسولاً لأنَّ دعوتهم واحدة، إذ كلٌّ يدعو إلى ما أوحي إليه، ولا أحد منهم يدعو إلى غير الله، أو لأنَّهم يدعون إلى التوحيد وتوابعه، ولو اختلفت بعض شرائعهم، أو لأنَّ الإضافة للجنس فهو كالجمع، وقيل: المراد موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كلاهما.

﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ أي: الله ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشدَّة جزاءً لهم على زيادة قُبح اعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ﴾ جاوز الحدَّ في الكثرة على حدٍّ ما مرَّ آنفًا حتَّى علا فوق أعلى جبال الدنيا خمسة عشر ذراعًا لإصرَار قوم نوح وضُرِّهم إيَّاه ضرًّا شديدًا مع طول مدَّتهم على أنواع الكفر، ومنها إنكار البعث كما أنكره قومه ﷺ ، فليخافوا عليه عقابًا عظيمًا في الدنيا يعقبه عقاب في الآخرة لا ينقطع.

والمشهور أنَّ الطوفان عمَّ الدنيا كلَّها، وقيل: لا، وقيل: بعث نوح غرابًا ليخبره هل نضب الماء فرأى جيفة فوق الماء فأكل منها فلم يرجع إلى نوح، وقيل: رجع، وذلك يناسب أنَّ السفينة فوق الماء لا بين ماء السماء وماء الأرض مسقفة كما قيل.

﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ في أصلاب آبائكم، أو يقدَّر مضاف، أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ السفينة، سفينة نوح عليه السلام، حملناكم فيها حتَّى انقضى الماء أحياء، غير غرقى، والحمل كما يطلق على الرفع والوضع فوق الدَّابَّة والسفينة مثلاً، يُطلق على الإبقاء، تقول لمن أتاك بشيء على ظهره: حمله إليَّ، فلا يلزم أن يقدَّر: حملناكم فوق الماء، وحفظناكم حال كونكم فيها.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ لنجعل الحملة المعلومة من «حَمَلْنَاكُمْ» التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين تذكيرًا لكم بكمال قدرتنا، وقوَّة قهرنا للكفرة، ورحمتنا للمؤمنين.

(صرف) و«تَذْكِرَةً» اسم مصدر هو تذكير، وليس موقعًا على الأذن، بل على الإنسان باعتبار قلبه وعقله، وهذا أولى من جعله بمعنى تذكُّرًا، لأنَّ التذكُّر ليس فعلا للجعلة بل مسبّب، بخلاف التذكير فإنَّها عظة وآية مذكِّرة كالناطق بالتذكير.

ويجوز ردُّ «هَا» «نَجْعَلَهَا» للجارية، وهو المتبادر لأنَّه صرَّح بها وأنَّها أقرب، ومعنى جعل السفينة تذكرة جعلها باعتبار الإنجاء فيها، وباعتبار إدراك بعض أوائل الأمَّة بعض ألواحها على الجودي، وإدراك بعضها ـ فيما قيل ـ بعضُ النَّاس بعد الإسلام بكثير[1].

﴿وَتَعِيَهَآ﴾ تحفظها ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما سَمِعت وتنشره وتعمل به كما قال قتادة: «الواعية هي التي عقلت عن الله تعالى، وانتفعت بما سمعت عن الله تعالى»؛ ولذلك نكَّرها تنكيرًا مفيدًا للقلَّة.

١- راجع: ج٦ من التفسير، ص٤٠٦.

(بلاغة) وإسناد الوعي إلى الأذن مجاز لعلاقة التسبُّب واللُّزوم، والواعي حقيقةً صاحبُ الأذن بقلبه، وفي الحديث مرفوعًا أنَّه قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**إِنِّي دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي**»[1]، قال عليٌّ: فما سمعت شيئًا فنسيته، وما كان لي أن أنسى.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

بيان بعض أهوال يوم القيامة

﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾ نفخ إسرافيل في الصور، وجواب «إِذَا» قولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئذ وَقَعَت الْوَاقعَةُ﴾. ﴿**نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾ نفخة البعث، بدليل ﴿وَقَعَت الْوَاقعَةُ وَانشَقَّت السَّمَآءُ﴾، ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ...﴾ إلى ﴿...تُعْرَضُونَ﴾ فإنَّ ذلك بعد البعث. [وجواب «إِذَا»].

وعن ابن عبَّاس: إنَّها نفخة الموت، واختاره غيري ممَّن تقدَّم، وقال: إنَّه المناسب لما بعدُ، وليس كذلك، والنفخة للوحدة، فـ«وَاحدَةٌ» نعت توكيد، ولا يقبل قول من قال: إنَّ النفخة موضوع للنَّفخ مطلقًا، والوحدة مستفادة من «وَاحدَةٌ»، وأنَّه نعت مقيَّد لا مؤكِّد، وذلك خلاف الظاهر.

وعلى كلِّ حال أفادت الوحدة أنَّ هذه الأمور العظام المعقَّبة للنفخ كفت فيها نفخة واحدة، لا زائد عليها، ومعلوم أنَّه لو شاء لأوقعها بلا نفخ. وحَسُنَ

١- أورده **الألوسي** خبرا في تفسيره مج١٠ ص٥٣، وأورده **ابن كثير** حديثا مرفوعا عن مكحول وقال: رواه ابن جرير من طريق مكحول أيضا مرسلا.

التذكيرُ لمجازيَّة التأنيث، والظهور، والفصل بقوله: ﴿فِي الصُّورِ﴾. وليس كما قيل: إنَّ «نَفْخَةٌ» في معنى الفعل وحرف المصدر، وأنَّه حسن التذكير لهذا أيضًا، فإنَّا لا نسلِّم أنَّ المعنى: فإذا نفخ في الصور أن ينفخ نفخة واحدة، أو إذا نفخ في الصور أَنْ نفخ نفخة واحدة.

﴿وَحُمِلَتِ الاَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ حملها الله تعالى بقدرته، وهو العليُّ العظيم القدير، وهذا أولى من أن يُقال: يرفعها بريح أو ملك، أو بتوسُّط زلزلة يحصل بشدَّتها ارتفاع، أو بخلق قوَّة جاذبة في الهواء، أو هذه القوَّة الجاذبة مخلوقة في الأرض، أو في الهواء كامنة، وإذا كان ذلك الوقت أنهضها الله جلَّ وعلا، أو خلق أو يخلق فيها قوَّة تدفع الجبال.

﴿فَدُكَّتَا﴾ أي: الفرقتان فرقة هي الأرض وفرقة هي الجبال، كقوله تعالى: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (الحجر: ٨٥) . ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ صيِّرتا كالدقيق الحاصل بالطحن فتصير ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ (سورة المزَّمِّل: ١٤) ، وقيل: فرِّقت أجزاؤها، كما قال: ﴿هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ (سورة الواقعة: ٦) ، وقيل: الدكُّ الضرب على ما ارتفع حتَّى يستوي مع ما انخفض، ولا ضرب حقيقة يحصل به التسوية والبسط.

أو المراد: التسوية والبسط، لأنَّهما ينشآن عن الضرب ﴿لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلآَ أَمْتًا﴾ (سورة طه: ١٠٧) ، وأرض دكَّاءُ منبسطة، وبعير أدَكُّ لا سنام له، وأرض دكَّاء سهلة ليِّنة، والأرض في ذلك اليوم كذلك بالدَّكِّ، فقيل: تتفتَّت الجبال وتنسفها الرياح وتبقى الأرض مستوية، والكلام في «دَكَّةً وَاحِدَةً» مثله في «نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ».

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: وقتَ نُفخَ في الصور وحملت الأرض والجبال ودكَّتا، وهو متعلِّق بقوله ﷻ: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: القيامة التي أنكروها، أي: إذا كان

ذلك فقد حصلت القيامة من القبور قبله، فأهل القبور يخرجون ويشاهدون ذلك، وقيل: يقع ذلك ويبعثون على أثره فيشاهدون ما يشاهدون.

(وصف صخرة بيت المقدس) وقيل: ﴿الْوَاقِعَةُ﴾: صخرة بيت المقدس، هي تُرى بين السماء والأرض بلا عمدة من تحت ولا علاقة من فوق، والطوّاف يضرب الجلد المسامت لها بإصبعه فيتحرَّك، فيتبيَّن للناظر أنَّها غير معتمدة عليه، وتدخل تحتها وتجول ولا ترى عمدة، ويجول الطوّاف بعصاه فوقه فيتبيَّن للناظر أنَّه لا علاقة لها. وهي صفراء أكبر من صخرة جبل أبي العبَّاس الوليلي الكبرى[1]، **وتفسير الواقعة في الآية بصخرة بيت المقدس لا يقبل.**

﴿**وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ**﴾ تفتَّت، أو كانت أبوابًا ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ (سورة الفرقان: ٢٥) ، ﴿وَفُتِّحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتَ أَبْوَابًا﴾ (سورة النبأ: ١٩) ، و«ال» في «السَّمَاء» للجنس، وهو هنا مستغرق، أو للاستغراق، فشمل السماوات السبع.

أو المراد: هذه السماء، لأنَّها التي يقرب مشاهدتها ولو كان الستُّ أيضًا تنشقُّ، كما أنَّ المراد بالأرض هذه لا مع الستِّ تحتها، ويناسب هذا قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ ولو احتمل أرجاء السماوات السبع.

﴿**فَهِيَ يَوْمَئِذٍ**﴾ وَقْتَ إِذْ كان ذلك، وذلك وقت متَّسع تقع فيه أمور ــ ياأرحم الرَّاحمين ارحمنا ــ متعلِّق بقوله: ﴿**وَاهِيَةٌ**﴾ ضعيفة، وكلُّ ما ضعف فهو واه، أو شبَّهها بسقاء واهٍ ورمز إليه بلازمه إذ شهر فيما قيل، وهي السقاء إذا انخرق، كقوله:

١- صخرتان كبيرتان، كلٌّ واحدة على شكل بعير على الأرض واقعتان على منكب هذا الجبل، وتحت الجبل مقبرة الشيخ أبي محمَّد. وذلك قبالة مدينة المؤلِّف بميزاب.

خَلِّ سَبيل من وَهى سِقَاؤُهُ وَمَن هُريق بالفـــــلاة مَاؤُه

ولا نسلِّم خصوص هذه الشهرة بل شُهر استعمال «وَهَى» بمعنى ضعف مطلقًا.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ جنس الملائكة، وهو أعمُّ من الملائكة عند بعض، قال بعض أئمَّة أندلس: لا يظهر أنَّه أعمُّ.

(بلاغة) قلت: ولعلَّ دعوى أنَّه أعمُّ أنَّ البيان بالجنس لا يتصوَّر منه بقاء فرد في مقام العموم مع وجود الجنسيَّة، بخلاف العموم بصيغة الجمع فإنَّه تعداد للأفراد، فالبيان بالجنس بيان ببرهان، والأمر كذلك لكن باعتبار الحكم الواقع عليه هو دون الاستغراق، لأنَّ ما للجنس يصلح صرفه ولو لواحد، بخلاف العموم إن قلت: كُلٌّ، فلا يخفى أنَّه أعمُّ، مثل: كُلُّ رجل.

﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ جوانبها التي لم تنشقَّ، والمفرد: رجا، وألفه عن واو. التجأ الملائكة إلى أطرافها خوفًا من عظمة الله ﷻ، أو اجتماعًا للترول. وقد مرَّ أنَّ ذلك كلَّه بعد البعث يشاهده أهل الموقف، يترل أهل كلِّ سماء أضعاف أهل سماء تحتها.

وقيل: ذلك الانشقاق بعد موت الملائكة عند النفخة الأولى، ويحيون قبل سائر الموتى. وقيل: ﴿الْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ على شقِّها، ينظرون إلى شقِّ الأرض وما أتاهم من الفزع، وفي هذا زيادة على ما في الآية، وهو ضعيف.

وقيل: يقفون على الأرجاء لحظة فيموتون ولا يبقى ذو روح حيًّا عند نفخة الموت، لا ملك ولا حوراء ولا غيرهما. وإن فرضنا أنَّ أرواح الموتى حيَّة الآن ماتت في ذلك الوقت. وعن ابن جبير: إنَّ ضمير «أَرْجَائِهَا» للأرض، يحيط أهل كلِّ سماء بأهل سماء تحتها بأطراف الأرض.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: **إنَّ انشقاق السماء وما ذكر تمثيل لخراب هذا العالم**[1]، بل المراد ظاهر ذلك كما جاءت به الأخبار.

﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ**﴾ إلى أرض المحشر، وقيل: في مكانه. ﴿**فَوْقَهُمْ**﴾ فوق الجنِّ والإنس والملائكة وسائر ما بعث، أو فوق الملائكة الذين على الأرجاء. وقيل: الهاء للثمانية في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ لشدَّة الهول، قيل: وأمَّا اليوم فأربعة ﴿**ثَمَانِيَةٌ**﴾ أي: يحمل ثمانيةٌ عرشَ ربِّك فوقهم، أي: فوق ظهورهم، أو فوق رؤوسهم، فـ«فَوْقَهُمْ» على هذا في نيَّة التأخير عن «ثَمَانِيَةٌ». وفي ذلك تعظيم للعرش بكونه فوق ظهورهم، أو رؤوسهم لا بين أيديهم كالمرفوع إلى الصدور، أو متدلِّيًا بالأيدي.

وصرَّح العبَّاس رضي الله عنه بأنَّه فوق ظهورهم، وهو أشدُّ إعظامًا من كونه فوق الرؤوس. وقال ابن العربي: على كواهلهم.

(أصول الدين) وقيل: **الحمل كناية عن عظمة الأمر بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على النَّاس للقضاء العامِّ، وليس الله حالاًّ بالعرش الآن ولا يومئذ.** والقديم لا يتصوَّر مباشرة الحادث له، والقديم لا يتحيَّز ولا يخفُّ ولا يثقل.

وفي ابن ماجه عن العبَّاس رضي الله عنه في تفسير الآية: ثمانية أوعالٍ، بين أظلافهنَّ وأوراكهنَّ ما بين سماء إلى سماء، فوق ظهورهنَّ العرش، ما بين أسفله وأعلاه ما بين السماء والسماء، [قلت:] والمراد ملائكة من نُورٍ بصورة الوعل، وهو تيس الجبل...[2].

١- وهذا ما يميل إليه كثير من العلماء الآن، وأمَّا ما جاءت به الأخبار فليس كلُّ ما نُقِل صحيحًا.

٢- في نسخة «ب»، وفي الطبعة العمانية: زيادة في الحديث عن حملة العرش وأوصافهم، راجعها إن شئت. أو كتاب القزويني في عجائب المخلوقات.

وعن الضحَّاك: ثمانية صفوف، لا يعلمُ عدَّهم إلاّ الله عَزَّ وَجَلَّ .

والحمل على الجمع وظاهره من إرادة الأفراد أولى، كما قال ابن العربي في فتوحاته[1]، [قلت:] تحصَّلت لي من مكَّة نسخة منه بالقالب معها كلام لبعض الأشعرية يبيِّن ما خالف فيه الأَشعَرِيَّةَ، مثل قوله: كقولنا إنّ صفات الله ليست زائدة عليه، وقد أذعنوا له ما لم يذعنوا لغيره، وهو مرادهم بالشيخ الأكبر.

[وعن ابن مسعود: غلظ كُلِّ سماء خمسمائة عام، وبين كُلِّ سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السابعة والكرسيِّ خمسمائة عام، وبين الكرسيِّ والعرش خمسمائة عام. وعن العَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بين الأرضين والسماء اثنتان وسبعون سنة»، أو قال: «إحدى وسبعون»، أو قال: «ثلاث وسبعون، وبين كُلِّ سماء وسماء وفوق السابعة بحر طوله كَذَلِكَ، وفوق البحر أوعال ثمانية، بين ظلف كُلِّ واحد وركبته كَذَلِكَ، عَلَيْهِم العرش، ومن أسفله إِلَى أعلاه مثل ذَلِكَ، وَهَؤُلاَءِ الأوعال حملة العرش». ويروى: أَنَّ بين فوق عين كُلِّ واحد وطرفها خمسمائة عام، وبين شحمة أذنه وكتفه خمسمائة عام، وكذا بين أسفل ظلفه وكعبه، وكذا بين كعبه وركبته][2]، **والله أعلم بصحَّة ذلك**، وقدرة الله تعالى صالحة لأضعاف ذلك أضعافًا لا منتهى لها.

﴿يَوْمَئِذ تُعْرَضُونَ﴾ بالحساب كما يعرض الجند على السلطان والخيل عليه، أو علَى سائسها، أو متولِّي شأنها ليعرف أحوال ذلك. و«يَوْمَئِذٍ» متعلِّق بـ«تُعْرَضُ» بعده.

١- تقدَّم التعريف به وبالكتاب في ج١٣، ص٣٣٢.

٢- ما بين معقوفين إضافة من الطبعة العمانية.

وعن الحسن عن أبي موسى ـــ لا عن أبي هريرة، لأنَّ الحسن لم يسمع من أبي هريرة ـــ : «يعرض النَّاس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأمَّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمَّا الثالثة فعند ذلك تَطَّاير الصحف، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله».

والتقدير: يوم إذ يحمل العرش فوقهم ثمانية، أو يوم إذ نفخ في الصور...الخ. والجملة مستأنفة، ولا حاجة إلى جعلها بدلاً إذا قُدِّر: يوم إذْ نُفِخَ...الخ، للفصل الكثير، ولأنَّ العرض ليس نفسَ وقوعِ الواقعةِ وانشقاقِ السماء ولا بعضَه، وإنْ قيل: بدل اشتمال فتكلُّف.

﴿**لاَ تَخْفَى منكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ فعله خافية، أي: لا يتصوَّر أن يكون الخفاء يومئذ فضلاً عن أن يقال: خفيت خافية، وإنَّما العرض لإفشاء الحال وإقامة الحجَّة وإظهار العدل، فإذا لم تخف عن الله يومئذ فأولى أنَّها لم تخف يوم فعلها، هذا بادئ الرأي، **والأمر عند الله سواء قبلُ وبعدُ، وذلك تهديد.**

وقيل: لا تخفى عن النَّاس كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ (سورة الطارق: ٩) ، والجملة مستأنفة، أو حال من واو «﴿تُعْرَضُونَ﴾»، ويومئذ يعاقبون على لبس الحرير والذهب، وعلى ما أخذوا من مال بالقمار أو الربا، أو على ما هو محرَّم وعلى إخفاء مالٍ ودعوى الإفلاس. [قلت:] أمَّا بلا إخفاء فلا إلاَّ إن كان الإفلاس لإسراف أو صرفٍ في معصية.

(فقه) وإذا ألزم جبَّار ناسًا مالاً جَازَ جمعُه بالعدل على طريقة ما ألزمهم، ولا إثم على جامعه، ومن ألزمه الإثم أخطأ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

حال الأبرار الناجين يوم الحساب

﴿فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه﴾ هو كتاب واحد جامع لكتبه المتعدِّدة بقدر أيَّامه، فإنَّ لكلِّ يوم وليلة قبله صحيفة، وتكتب حسناتُه من حين الطفولة، وقيل توصل صحفُه بعضها لبعض ﴿فَيَقُولُ﴾ لشدَّة فرحه وافتخاره بعد قراءها فيبيضُّ وجهه. ولا كتاب للأنبياء والآلاف السبعين الداخلين الجنَّة بغير حساب، ومنهم الصدِّيق رضي الله عنه ، ولا كتاب له. وأوَّل من يأخذ كتابه عمر، وله شعاع كشعاع الشمس، وبعده أبو سلمة بن عبد الأشدِّ.

(نحو) ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ﴾ مفعول به لـ«اقْرَءُوا» ومفعول «هَآؤُمُ» محذوف لأنَّه فضلة، ولأنَّ اللغة الفصحى أنَّ اسم الفعل لا يتَّصل به الضمير على التنازع، أي: هاؤموه ولو كان مفعولا به لـ«هَاؤُمْ»، لقيل اقرءوه بالعمل في الضمير، لكن قد تحذف الفضلة.

(لغة) ومعنى «هَآؤُمْ» خذوا. وجاءني في هذه الأيَّام كتاب سيبويه بخطِّ القالب، مع شرح صغير، وفيه: «العرب: تقول: هاءَ يا رجلُ بالفتح، وهاءِ يا امرأة بالكسر، وهاؤما يا رجلان، أو امرأتان، وهاؤم يا رجال وهاؤمن يا نسوة» انتهى. وهو متعدٍّ.

وقيل: معناه تعالوا، فيتعدَّى بـ«إلى»، وعلى كلِّ حال ميمه ونونه كميم أنتما وأنتم وأنتنَّ، وقِيلَ: أصله هاكم أسقطت الكاف، وجعل مكانها الهمزة، وَقِيلَ: «هاؤم» كلمة وضعت لإجابة عند الفرح، كما روي: نادى أعرابيٌّ رسول الله ﷺ بصوت عالٍ فأجابه ﷺ بصولة صوته: هاؤم. فالمعنى خذوا يا أصحابي أو تعالوا إليَّ يا أصحابي، أو إنَّ لي فرحًا يا أصحابي فافرحوا معي، يدعو حاضريه إلى قراءة كتابه فرحًا به، ثمَّ يقرأه.

والهاء فيه وفي «حِسَابِيهْ» و«مَالِيَهْ» و«سُلْطَانِيَهْ» و«مَاهِيَهْ» هاء السَّكت تثبتُ وقفًا ووصلاً.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّــي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ﴾ موقن أنِّي ملاق حسابيه، فإنَّ المؤمن لا يشكُّ في الحساب، ولا يرجِّحه بل يجزم به في حياته. ويجوز إبقاءُ الظنِّ على ظاهره، بمعنى أنَّه كان في الدنيا أو عند موته يظنُّ أنَّه ملاقٍ حسابه اليسير الذي وَجَدَهُ في الآخرة، وهو الحساب السَّهل، فالظنُّ في السهولة لا في مطلق الحساب.

وفيه أنَّه ليس كلُّ مؤمن يرجِّح أنَّه يحاسب يسيرًا، بل ذلك لا يجوز لوجوب استواء الرجاء والخوف، نعم يجوز ترجيح الرجاء عند الاحتضار.

[قلت:] فلعلَّ ظَنَّ يُسْرِ الحساب يكون عند الاحتضار، كما قال حذيفة رضي الله عنه عند احتضاره: «الآن الرجاء فيك أمْثَلُ»، ويناسبه أنَّ الشياطين عند الاحتضار على أشدِّ ما يكونون من الإضلال خوف فوت المؤمن عنهم، وقد قال الله تعالى: «**أنا عند ظنِّ عبدي فليظنَّ بي ما شاء**»[1] فمن ظنَّ بعمله خيرًا لكونه قد أحْسَنَهُ جاز له ذلك، وهذا يناسب القول بأنَّه لا بأس ما لم يَعْرَ قلبُه عن الخوف أو عن الرجاء.

والحساب ثلاثة: الحساب الحقيق وهو الذي بمناقشة، وهو للشقيِّ، والحساب الذي هو سهلٌ من أوَّل الأمر، والذي فيه بعض تضييق أو كثيره، ثمَّ يعفى عنه.

ويجوز أن يكون المعنى: إنِّي ظننت أنَّ حسابي يكون عسيرًا لسُوء أعْمالِي

١- تقدَّم تخريجه. انظر: ج٤، ص٤٥٤.

و لم يكن كذلك، وذلك مناسب لفرحه في قوله: «هَآؤُم».

[قلت:] ولا يقبل قول من قال: إنّ الظنّ على ظاهره من حيث إنّ المرء لا يخلو من الوساوس، لأنّا نقول: لا يشكّ المسلم، وما قد يقع ويجتهد في نفيه شيء قليل نادر منقطع، لا يستحضره المؤمن يوم القيامة.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ نوع عظيم من العيش ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ إسناد الرضى إلى العيشة تجوُّزٌ في الإسناد مجاز عقليٌّ، أو مجاز بالحذف، أي: راضٍ صاحبُها.

أو وزن فاعلة هنا للنسب، أي: ذات رضى، أي: ملتبِّسة بالرضى، لكن رضى صاحبها، أو جعلت بنفسها راضية مبالغةً.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ بدل على حذف مضاف، أي: في عيشة جنَّة عالية، أو نعت ثانٍ، والمراد بعُلُوِّها علوُّ قدرها أو علوُّ مكانها، أو يقدَّر: عالٍ درجاتُها، أو عالٍ خيراتُها من بناء وشجر، وتفسيرُه بالعلوِّ الحسِّيِّ والمعنويِّ استعمال للكلمة في حقيقتها ومجازها.

(صـرف) ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطْفٍ (بكسر القاف) وهو ما يؤخذ ويقطع من الثمار قبل الجذاذ، رطبًا أو عنبًا أو غيرهما، وليس جمعا للقَطف (بالفتح) الذي هو مصدر، لأنّ الأصل في المصدر أن لا يجمع إلاّ باعتبار الدلالة على الأنواع، ولا يراد هنا أنواع القطع بل أنواع المقطوع، اللّهمّ إلاّ أن يراد أنواعه باعتبار متعلّقه وهو ما يقطع.

﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة ينالها المضطجع والقاعد والمتكئ والقائم، **أو دُنُوُّها قربُ تناولها وهي عالية إذا أرادها وليُّ الله تدلّت إليه** ولو مضطجعًا. أو ﴿دَانِيَةٌ﴾: غير ممتنعة ببعد ولا شوك، كما يُطلق البعيد بمعنى الممتنع ولو قريبًا.

﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ يُقال لهم: كلوا واشربوا ﴿هَنِيئًا﴾ مفعول مطلق، أي:

أكلا وشربًا هنيئًا. وأفرد مع أنَّ منعوتَه متعدِّد لأنَّه بوزن فعيل بمعنى فاعل، وهو بوزن المصدر، والمصدر يصلح للقليل والكثير. أو يقدَّر: كلوا هنيئا واشربوا هنيئًا، أو هو مصدر، أي: هنــئــتم هنيئًا.

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ أمضيتم من الأعمال الصالحة مطلقًا لا خصوص الصوم على الصحيح، متعلِّق بـــ«هَنِيئًا». أو يتنازع فيه الثلاثة: كلْ واشربْ وهنيئًا. ﴿فِي الاَيــَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضية في الدنيا، وَقِيلَ: أريد أيَّام الصوم.

وقيل: الخالية من الشهوات النفسية من اللذَّات والمعاصي، يقول الله تعالى: **«يا أوليائي طال ما نظرت إليكم في الدنيا، وقد قَلُصت شفاهكم من الأشربة، وغارت أعيُنكم، وخمصت بطونكم، فكلوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيَّام الخالية»**[1].

﴿وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمُ اوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمَ اَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ اِلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ اَلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُومِنُ بِاللَّهِ اِلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ اِلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ اُلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ اِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَاكُلُهُۥ إِلَّا اَلْخَٰطِئُونَ ۝٣٧﴾

حال الأشقياء يوم القيامة

﴿وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ, بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمُ اوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمَ اَدْرِ مَا

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج١٠، ص٦٠، بلاغا عن يعقوب الحنفي.

حِسَابِيَهْ﴾ لِمَا يرى من السُّوء، والمراد تمنِّي أن يكون لا كتاب سُوء لَهُ ولا حساب فضْلاً عن أن يُؤتى كتابا ويدري حسابًا، أو المراد التضرُّر والتحسُّر جدًّا في الحساب والكتاب، حتَّى إنَّه رضي أن يعذَّب بدونهما.

وهو شامل للفاسق يؤتى كتابَه بشماله كالمشرك، ووقف بعض، وقال بعض: يأخذه بيمينه، ولا يتصوَّر هذا إلاّ بناء على أنَّه سيخرج منها إلى الجنَّة، وقال بعض منهم: إنَّه يأخذ كتابه بيمينه بعد الخروج منها.

وكلٌّ يقرأ كتابه، وبذلك وردت الأخبار، وزعم بعض أنَّ بعض المشركين لا يقرأه لدهشه حتَّى لا يُميِّزَ، وبعض يقرأه، وكلٌّ أحد يقرأ كتابه ولو كان لا يعرف القراءة في الدنيا، والشقيُّ يقرأ السطر الأوَّل أسود فيسودُّ وجهه، ولا بياض في كتابه. وشُهر أنَّه يقرأ حسناته أوَّلاً فيفرح، ثمَّ يُعقَّب بسيِّئاته فيشتدُّ كربُه، وأوَّل من يأخذ كتابه بشماله الأسود بن عبد الأشد. وكافر الجنِّ ككافر الإنس، وهو منهم. ومؤمن الجنِّ كمؤمن الإنس.

﴿يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يا ليت الموتة التي متـــتها في الدنيا استمرَّت، وقطعت عنِّي البعث، دلَّ عليها المقامُ ولو لم يَجْرِ لها ذِكر، أو يا ليت هذه الحالة التي أنا فيها أماتَتْهُ، أوْ يا ليت الحياة الدنيا كان بدلها أنَّه لم يخلق.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَه﴾ «مَا» حرف نفيٍ، والمفعول محذوف، ومَالِ فاعل مضاف لياء المتكلِّم، أي: ما أغنى عنِّي المال الذي لي شيئًا، أي: ما دفع عنِّي ضُرًّا، وكان يحسب أنَّ ماله أخلده، وأنَّه يفضل به على غيره في الآخرة إن كانت.

أو «مَا» من قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَالِيَهْ﴾ اسم، و«لِيَهْ» جار ومجرور وهاء السَّكت. وهذا يعمُّ المال والأعوان والجاه والصحَّة، أي: ما أغنى عنِّي الذي لي من المال والأعوان...إلخ شيئًا.

أو «ما» الأولى استفهاميَّة مفعول به، أي: أيَّ شيء دفع عنِّي من الأضرار؟ أو مفعول مطلق، أي: أيَّ إغناء أغنى عنِّي المال الذي لي؟ أو الذي لي من المال...إلخ.

وليس كلُّ أحد من الأشقياء له مال وأعوان وجاه، فإمَّا أن تكون الآية تهديدًا لمن له ذلك من قريش أو غيرهم، وإمَّا أن نجعل «ما» الثانية بحسب الشقيِّ، أي: الذي لي من كذا بحسب ماله ولو جسْمُه وحْدهُ.

﴿هَّلَكَ عَــنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ تَلَفَتْ حجَّتي التي أحتجُّ بها في الدنيا كما قال ابن عبَّاس وجمهور المتقدِّمين، أوزالت حجَّتي إذْ نطقت جوارحي بشركي، أو التسلُّط على بدني الذي أُمِرتُ بأن أطيع الله به. وليس المراد ملكُه وتسلُّطُه على النَّاس وآلاته، فإنَّه ليس ذلك لكلِّ شقي، كما قال عبد بن حميد[1]: «ما كُلُّ من دخل النَّار كان أمير قرية»، إلاَّ إن أريد به تهديد من له ذلك في قريش.

﴿خُذُوهُ﴾ يقول الله ﷻ للزبانية: خذوه من موقفه ﴿فَغُلُّوهُ﴾ اربطوه بالأغلال ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ﴾ مفعول ثانٍ لـ«صَلُّوهُ» بعده، قُدِّمَ على طريق الاهتمام والحصر والفاصلة.

والجحيم طبقة من النَّار، أو النَّار المتأجِّجة مطلقًا. ﴿صَلُّوهُ﴾ أدخِلوه، لكفره بالله العظيم، وأيضًا لتعاظمه على النَّاس إن كان يتعاظم.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ متعلِّق بـ«اسْلُكُ»، والفاء فيه صلة للربط، وقيل: التقدير: ثمَّ مهما يكن من شيء فاسلكوه في سلسلة ذرعها...إلخ، فقدَّم «فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا...»إلخ عوضًا عن المحذوف، وللحصر، كأنَّه قيل: لا تسلكوه إلاَّ في هذه السلسلة لأنَّها أفظع، أو ثُمَّ مهما يكن من شيء ففي سلسلة ذرعها

١- تقدَّم التعريف به في ج١٠، ص١٩٨.

سبعون ذراعًا اسلكوه. و«ثُمَّ» في الموضعين لتفاوت أنواع التعذيب من الغلِّ والتصلية والسلك في سلسلة، كما هو أنسبُ بمقام التهديد، فذلك أولى من الحمل على تراخي الزمان.

﴿ذَرْعُهَا﴾ قياسُها أو مقدارُها في الطول ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ الجملة نعت سلسة والذراع ذراع البدن هكذا، أو ذراع الشقيِّ المربوط بالسلسلة، وذلك تعرفه العرب فيفسَّر به. وعن ابن عبَّاس ذراع المَلِك. وهو مقدار ما بين الكتف وأعلى الأصابع. وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن رسول الله ﷺ : «لو أرسل حجر على رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا و لم تبلغ أصلها» وهي تقطع خمسمائة عام قبل طلوع الفجر.

ومن التخليط الذي لا يشمُّ رائحة القبول ما قيل: الذراع سبعون باعًا، والباع ما بين الكوفة ومكَّة. وقال سفيان الثوريُّ: كلُّ ذراع سبعون ذراعًا من ذراع النَّاس. وعن ابن عبَّاس: لو وضعت حلقة السلسلة على جبل لذاب كالرصاص.

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ ادخلوه بأن تلفُّوها عليه، سمَّى جعله في وسطها باللَّيِّ عليه إدخالاً على طريق الاستعارة لجامع التوسُّط. وعن ابن عبَّاس إنَّ أهل النَّار يكونون فيها كالثَّعلب في الجُبَّة، والثعلب طرف خشبة الرمح، والجبَّة الزُّمجُ وهو مركزه. ونُسبَ الزجَّاجُ النحويُّ المفسِّر للزُّجِّ كاللَّـبَّان والثَّمَّار، لأنَّه كان يبيعه أو يصنعه.

وعن ابن عبَّاس: اسلكوها فيه بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويروى بالعكس، ويروى من منخريه وينظِّمون فيها كما ينظِّم الجراد في العود ويشوى، ففي ذلك قلب. وما ذكرت أولى وعليه الجمهور.

﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ في الدنيا أو في علم الله، والأوَّل أظهر ﴿لاَ يُومِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ﴾ والجملة تعليل جمليٌّ، أي: لأنَّه لا يؤمن بالله العظيم عُذِّب بذلك العذاب العظيم. ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ﴾ إطعام ﴿الْمِسْكِينِ﴾ فـ«طعام»

اسم مصدر هو الإطعام، كالعطاء بمعنى الإعطاء، ويجوز كون الطعام نفس ما يؤكل، فيقدَّر مضاف، أي: ولا يحضُّ على بذل طعام المسكين. ومفعول «يَحُضُّ» محذوف، أي: لا يحضُّ أحدًا على إطعام المسكين فضلاً عن أن يطعمه من ماله.

والحضُّ: الحثُّ، وإذا كان تارك الحضِّ بهذه المنزلة ولو كان يطعمه من ماله فكيف تارك الإطعام؟.

(فقه) ثمَّ إنَّ إطعام المسكين نسخ وجوبه بالزكاة، بقي أنَّه لزم الواجدَ تنجيتُهُ من الهلاك، ولزم وليَّه إنفاقُه. ثمَّ إنَّه يجوز أن يكون ذلك كناية عن إنكار البعث والجزاء فهو لا يحضُّ على إطعامه ولا يطعمه، لأنَّه لا يرجو ثوابًا يأتيه بعد الموت.

[قلت:] والآية تضمَّنت النهي عن أقبح العقائد وهو الكفر، وأشنع الرذائل وهو البخل، وقسوة القلب التي في ضمن البخل. وفي العقاب على ترك الحضِّ خطاب الكافر على الفرع كالأصل.

﴿**فَلَيْسَ لَهُ**﴾ بسبب ذلك ﴿**الْيَوْمَ**﴾ يوم القيامة ﴿**هَاهُنَا**﴾ في مقام الحساب ﴿**حَمِيمٌ**﴾ قريب أو صديق يحميه عن العذاب، أي: يمنعه ﴿**وَلَا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ**﴾ مائع في النَّار، يشبه ما يجري من الجراح إذا غسلت، فهو دم وماء يسيل من لحوم أهل النَّار وذلك هو الصديد، وذلك أولى من تفسيره بالزقُّوم.

وفسَّره بعض بالضريع، قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾ (سورة الغاشية: ٦) . قال ﷺ: «**لو أنَّ دلوًا من غسلين يهراق في الدنيا**

لأنتَن أهلها»[1] رواه أبو سعيد الخدريُّ. لَمَّا منعَ الطَّعامَ في الدنيا أطعمه الله في الآخرة طعام سوء.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يحضُّ أهله على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسة بالإيمان أفلا نخلع نصفها بالصدقة؟ اقتبس ذلك من الآية. وعن الحسن: أدركت أقوامًا يعزمون على أهلهم أن لا يرُدُّوا سائلاً.

(نحو) ووزن «غِسْلين» فعلين، من الغسل، وخبر «لَيْسَ» كلمة «لَهُ» لا «هُنَا»، لأنَّ المقام لذكر مَا لَهُ أو ليس له، لا لذكر ما هنا أو ليس هنا، ولا اتِّصال له بـ«لَيْسَ»، ولو جعلنا الخبر «هنا» لكان «لَهُ» متعلِّقًا بـ«هُنَا»، وقدِّم عليه ـ مع أنَّ الأصل في العامل المعنوي أن لا يتقدَّم عليه معمولُه ولو ظرفًا، وإنَّما كان هنا عاملاً معنويًّا ـ لأنَّه ناب عن ثبت أو ثابت، وليس فيه لفظ ثبت أو ثابت، ولو علَّقناه بثبت أو ثابث المحذوف لكان كالمعنويِّ، لأنَّه أُلْغِي وناب عنه لفظ «هُنَا». ولا يتعلَّق «لَهُ» بـ«لَيْسَ»، لأنَّ «لَيْسَ» لا يعلق بها شيء.

﴿**لاَّ يَاكُلُهُ, إِلاَّ الْخَاطِئُونَ**﴾ الجملة نعت «غِسْلين» أو مستأنفة. و﴿الْخَاطِئُونَ﴾ المشركون والفاسقون، أخطأوا كُلُّهم الصَّوابَ إلى الباطل.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُومِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَّكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا

١-رواه **الحاكم** في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحاقة، رقم٣٨٥٠، من حديث أبي سعيد الخدري.

مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

تعظيم القرآن وإثبات نزوله بالوحي من الله

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ لَأَنا أُقسم، بلام الابتداء فحذفت همز أنا ونونه. أو «لا» ناهية، أي: لا تخطئوا، كما دلَّ عليه ﴿لاَ يَاكُلُهُ, إلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾. أو «لاَ» زائدة للتأكيد، فإذا كان الجواب منفيًّا فلا تأكيد للنفي، وإذا كان مُثْبَتًا كما هنا فهي تأكيد للإثبات، فيرجع إلى معنى قولك: لا تنكروا هذا المثبت، أو نَفَى القسم لظهور الأمر، و«مَا تُبْصِرُونَ» ما تشاهدون من آثار القدرة والأجسام والدنيا والإنس والخَلق والنِّعم الظاهرة.

﴿وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ وأسرارَ قدرته، والأرواح والآخرة، والسماوات الستِّ، والعرش والكرسيِّ والجنَّة والنَّار، والجنِّ والملائكة، والنِّعم الباطنة، واللَّوح المحفوظ، وما ستره ولم يُظْهِرْهُ في اللَّوح، وما في بطن الأرض وسائر الأرضين السبع، وما بينهنَّ، والأرواح، وما في البحر وأرضه. والحاصل العموم في الموضعين.

(سبب النزول) قال الوليد بن المغيرة: محمَّد ﷺ ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عتبة: كاهن، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ من الله تعالى إلى خلقه، والرسول لا يقول من عنده ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى، وهو سيِّدنا محمَّد ﷺ على الصَّحيح،

وقيل: جبريل رسول إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ ، ويردُّه أنَّ الذي يصفونه بالشعر والسحر والكذب والكهانة ونحو ذلك هو سيِّدنا محمَّد ﷺ ، لا جبريل، وأضيف إليه ﷺ ، لأنَّه يبلِّغه إلى النَّاس.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ هذا دليل على أنَّ الرسول هو محمَّد ﷺ لا جبريل، لأنَّ الذي يقولون: إنَّه شاعر هو سيِّدنا محمَّد ﷺ لا جبريل عليه السلام فأبطل قولهم: إنَّه شاعر.

وقيل: المعنى: إنَّه لَقَول جبريل لا قول محمَّد الذي تَدَّعُون أنَّه شاعر، فتحصل من رسالة جبريل رسالة محمَّد، ويبحث بأنَّ الأصل في الرسالة والأكثر أن تنسب إليه ﷺ لا إلى جبريل، فيجب الحمل عليه حتَّى يوجد دليل قاطع.

والحقُّ أنَّ الرسول سيِّدنا محمَّد ﷺ ، لأنَّهم إنَّما يؤمنون أو يكفرون به، وقد ذكر الإيمان بعدُ، ولقوله: ﴿الْوَتِينَ﴾ وقوله: ﴿عَنهُ حَاجِزِينَ﴾.

وهو ﷺ لا يقول الشعر من عنده، وإنْ ذَكَرَ شعر غيره انكسر في لسانه، أو قدَّم وأخَّر وكان يقول:

تَفَاءَل بما تهوى يكن فَلَقَلَّمَا يقال لشيء كان إلاَّ تَيَسَّرَا

يقرأه قراءة النثر، ويقول: «لشيء قد كان» ولا يصحُّ أن يتمَّه صحيحًا، وإن صحَّ فإنَّما يقرأه نثرًا. ويقول:

«ستبدي لك الأيَّام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزوِّد بالأخبار»

وإنَّما هو: «ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[1]». ويقول الصدِّيق: أشهد أنَّك

١- البيت لطرفة بن العبد.

رسول الله، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ, إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة يس: ٦٩) ، وكان يقول يوم الخندق:

«اللّهمَّ لا عَيْش إلاَّ عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجره»

يُكَسِّرُه، فأجابه الأنصار:

«نحن الذين بايعوا محمَّدًا على الوفاء ما بقينا أبدًا»

وعن سلمان أنَّه ﷺ قال يوم الخندق عند ضربه بالمعول:

«باسم الإله وبه بدأنا ولو عبدنا غيره شَقِينَا

فحبَّذَا ربًّا وحَبَّ دِينًا»

وعن البراء بن عازب أنَّه ﷺ قال:

«أنا النَّبِيء لا كَذِب أنا ابن عبد المطَّلب»

وعن جندب أنَّه ﷺ عثَر فأصاب إِصْبَعَهُ جُرحٌ فقال:

«هل أنتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دُميتِ وَفِي سَبِيل الله مَا لقيت»

فإمَّا أن يكسر الوزن بتغيير أو يقرأه نثرًا، وإن قال شعرًا من عنده فإنَّه لم يدر أنَّه شعر ولكن اتَّفق له وزنه وقرأه نثرًا.

﴿قَلِيلاً مَّا تُومِنُونَ﴾ «قَليلاً» مفعول مطلق، أي: تؤمنون إيمانًا قليلاً كالإيمان بالله وأنَّه خلق السماوات والأرض. و«مَا» زائدة لتأكيد القلَّة، أو نكرة تامَّة. والقلَّة بمعنى الضعف، وذلك أنَّ التصديق لم يخل عنه قلوبهم لقوَّة الدلائل، ولكن عاندوا بألسنتهم، مع ما فيهم من الرغبة في أن يكون غير صَادِقٍ وابتغاء العوج والتشبُّث بشُبْهَةٍ مَّا.

وقيل: القلَّة النفي هنا، ولا يخفى أنَّه خلاف الظاهر، فلا يحمل عليه القرآن،

وإنَّما يحمل على النَّفي إذا دلَّ دليل، نحو: أقلُّ رجل يقول كذا إلاَّ زيدٌ، وقال رجل يقول كذا إلاَّ زيد، وقوله:

أُنيخَتْ فألقَتْ بلدة فوق بلدة قليلاً بها الأصواتُ إلاَّ بُغامُها[1].

و لم تستعمل العرب «قَليلاً» في النفي إذا نصب بالفعل.

وقيل: «قَليلاً» ظرف، أي: زمانًا قليلا تؤمنون بألسنتكم، وذلك وقت يقال لهم: مَنْ خَلَقَكم؟ أو مَن خَلَقَ السماوات والأرض؟ ويبحث بأنَّ المقام للإيمان برسول الله ﷺ .

ويجوز أن تكون «مَا» نافية، و«قَليلاً» مفعول مطلق، أو ظرف زمان، أي: ما تؤمنون ولو إيمانا قليلاً أو زمانًا قليلاً، على أن لا صدر لـ«مَا» إذا لم تعمل عمل ليس.

(سيرة) والآية من دواعي عمر إلى الإسلام، جاء يستمع ليْلاً خفيةً، فسمعه يقرأ فقال: شاعر، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، فقال: كاهن، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، وقال: كاذب، فقرأ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ...﴾الخ.

﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ لأنَّ كلام الكهانة ليس على طريق القرآن من الوعظ والإخبار بأحوال القرون السابقة، والوعظ والأحكام الشَّرعيَّة، وقد شاهدوا الكهانة. **﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾** مثل ﴿قَلِيلاً مَّا تُومِنُونَ﴾، لو لَم يهملوا التذكُّر لم يقولوا ذلك.

(بلاغة) وذكر الإيمان مع نفي الشعر، والتذكُّر مع نفي الكهانة لأنَّ

١-البيت من الطويل، وهو لذي الرمَّة في ديوانه: ص١٠٠٤. والبلدة الأولى صدر الناقة، والبغام صوت الناقة. لسان العرب، ج١، ص٤٨٠ مادَّة: «بلد».

مباينة القرآن للكهانة تتوقّف على تذكُّر أحواله ﷺ ومعاني القرآن، ومنافاةُ القرآن للشعر ظاهرةٌ لفظًا ومعنًى لا يحتاج لتذكُّر.

﴿تَنزِيلٌ﴾ مُنَزَّلٌ بلسان جبريل على محمَّد ﷺ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر ثان لـ«إِنَّهُ»، وهذا أولى من أن يكون خبرًا لمحذوف، أي: هو تنزيل. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاَقَاوِيلِ﴾ أي: عالج قولاً كاذبًا.

(صرف) والتقوُّل تفعُّلٌ، والتفعُّل للاكتساب والعلاج، والكذب بالأصالة، كالأمر الصعب الذي يعالَج. والأقاويل جَمْعُ أَقْوَال، فهو جمع الجمع، أو جمع أَقْوُولَة (بضمِّ الهمزة) كأُحدوثة وأُعجوبة، فهو جمع لمُفرد غير مستعمل، والمعروف في الأفعولة التعظيم لا التحقير كما قيل. واختار القول العظيم، لأنَّ كلَّ كلام من القرآنِ عظيمٌ عجيبٌ، فكأنَّه قيل: لو كان تلك الأقوال العجيبة كذبًا منه لانتقَمنَا منه.

﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ يده اليمنى، أي: أَمْسَكْنَاهُ بيمينه. والباء للإلصاق. والإسناد مجازيٌّ، وحقيقته لجبريل. أو يقدَّر مضاف، أي: لأَخَذَ مَلَكُنَا. أو الباء صلة، و«مِنْ» للابتداء متعلِّقة بـ«أخذ»، أو بمحذوف حال من «الْيَمِينِ» على أنَّ الباء زائدة، و«مِنْ» للتبعيض.

ومثل ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ هو عِرْقُ القلب الذي إذا قطع مات صاحبُه، أو عِرقُ الظهر المسمَّى بالنُّخاع، أو عرقُ بين القلب والحلقوم لا حياة مع قطعه، وذلك تصوير للإهلاك بصورة فظيعة، كما يأخذ سيَّاف السلطان رجلا بيده، ويضرب عنقه بالسيف. والإسناد في «قَطَعْنَا» حقيق.

(نحو) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ عطف على «قَطَعْنَا» عطف اسْمِيَّة على فِعْلِيَّة، و«مِنكُمْ» متعلِّق بمحذوف حال من المستتر في

«حَاجزِينَ»، أو من «أَحَد» على قول جواز الحال من المبتدأ وَ«مِن» الثانية صلة لتأكيد النفي في اسم «مَا»، وهاء «عَنْهُ» عائدة إلى رسول الله ﷺ ، المعبَّر عنه بالرسول. والضمير في «تَقَوَّلَ» وما بعده [كذلك عائد إلى الرَّسُول ﷺ]، أي: فما يحول أحد بيننا وبينه، أو عائدة إلى القطع المعلوم من «قَطَعْنَا». و«حَاجزِينَ» خبر «مَا». وجُمِع لأنَّ «أَحَد» منكّر عامٌّ للنَّفي قبله، كقوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥) ، وقدَّم «عَنْهُ» للفاصلة، وبطريق شدَّة الاهتمامِ بقتله لو تقوَّل.

﴿وَإِنَّهُ﴾ الرسول، أو القرآن على حدِّ ما مرَّ، والرسول أولى ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هم مَن كَتَبَ الله عَزَّ وَجَلَّ تَقْوَاهُ يُؤمنُ بِهِ مِن شِرْكٍ ويُؤثِّر فيه، أو يزيد فيه تذكُّرًا بعد الإيمان، وإن شئت فتَذْكِرَةٌ لِكُلِّ أحدٍ وخصَّ المتَّقين لأنَّهم المنتفعون به.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ يا أهل مكَّة، والتبعيض المشهور في النِّصف وما دونه باعتبار من سيؤمن منهُم بعد الفتح، فالمراد من يكذِّب ولا يؤمن، وَقِيلَ: الخطاب للمؤمنين بأنَّ منهم من سيرتَدُّ، والقلَّة واضحة.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن وهذا ممَّا يقوِّي الضمير في «إِنَّهُ» للقرآن ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ عظيمة ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعاقبون على تكذيبه، وحسرة عليهم بمشاهدة نجاة المؤمنين وثوابهم، وليس بممنوع أنَّ الرسول حسرة عليهم إذْ كذَّبوا به وشاهدوا صدقه في الآخرة. وقيل: الهاء للتكذيب، وما تقدَّم أولى وكذا الكلام في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ حقٌّ هو اليقين، وقيل: حقٌّ من اليقين، أو عين اليقين، ويقال: أعلى مراتب العلم حقُّ اليقين، كعلم العاقل بالموت إذا ذَاقَهُ،

ودونه عين اليقين، كعلمه به عند معاينة ملائكته، ودونه علم اليقين كعلمه به في سائر أوقاته.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ نَزِّه الله عز وجل عَمَّا لا يليق به بذكر اسمه العظيم، شكرًا على ما أوحي إِلَيْك من هذا القرآن، ونَفْيِ التقوُّل.

سبحان ربِّي العظيم، سبحان ربِّي الأعلى.

اللّهُمَّ وفِّقنا وأعنّا

وصلِّ على نبيئك محمَّد وآله وصحبه وسلم.

تفسير سورة المعارج وآياتها ٤٤

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾

تهديد المشركين وإثبات وقوع يوم القيامة

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَالَ**﴾ جرى ﴿**سَآئِلُ**﴾ واد سائل ﴿**بِعَذَاب**﴾ كما تقول: سال الوادي بالماء، وذلك استعارة، شبَّه تتابع العذاب بسيلان الماء، أو كناية عن كثرة الهلاك، وذلك عذاب يوم بدر، أو عذاب جهنَّم. وعن زيد بن ثابت: «سائل واد في جهنَّم». والمضي لتحقُّق الوقوع، وذلك من السيلان، كما قرأ ابن عبَّاس: «سَالَ سَيْلٌ»، والسيل: الماء الجاري.

ويجوز أن يكون الأصل: «سَأَلَ» بالهمزة بمعنى دَعَا فقلبت ألفًا، أو على لغة من يقول: سال يسال بمعنى دعا، بالألف في الماضي والمضارع منقلبة عن ياء مكسورة في الماضي مفتوحة في المضارع قلبت ألفا فيهما، وقيل: عن واو، ومن ذلك قول حسَّان إذْ سَألت هذيل رسول الله ﷺ أن يُبيح لها الزِّنى.

سَالَتْ هُذَيْلُ رسول الله فاحشة ضَلَّتْ هذيلُ بما قالت و لم تصب

والمشهور في معنى الدعاء «سَأَلَ» بالهمزة، كما قرأ بها الجمهور، يقال: سأل بالطعام، أي: دعا به أن يُؤتى به، كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ﴾ (سورة ق: ٥١) ، وقد قيل: أصله التعدِّي بنفسه كما هو الظاهر، ولكن قرن بالباء لتضمُّن معنى الاهتمام، أو مجاز عن معنى الاهتمام المتسبِّب للدعاء الملزوم له. وقد قيل: الباء زائدة في المفعول به، أي: طلب عذابًا يقع، وقيل: بمعنى عن.

والسَّائل النضر بن الحارث إذ قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ اَوِ ايتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ (سورة الأنفال: ٣٢) .

أو الحارث بن النعمان إذ بلغه قول رسول الله ﷺ في حقِّ عليٍّ: «من كُنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» فقال: «اللَّهمَّ إن كان ما يقول محمَّد حقًّا فأمطر علينا حجارة من السَّماء أو إيتنا بعذاب أليم، فرماه الله بحجر على دماغه فخرج من دبره فمات. وَلَكِنَّ الموجود في السير أنَّه قال ذلك لعليٍّ في غدير خم، في أواخر سِنِي عمره، فلا تكون السورة مكيَّة، مع أنَّها مكيَّة إجماعا ـــ كما قال القرطبيُّ ـــ إلاَّ ﴿وَالذينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾.

وقيل: أبو جهل، إذ قال: «فأسقط علينا كسفًا من السماء أو إيتنا بعذاب أليم». وقيل: نوح إذ سأل عذاب قومه. وقيل هو رسول الله ﷺ استعجل عذاب قومه.

وتنكير سائلٍ للتعظيم على القولين، والقول بأنَّه واد، [لأنَّه نكرة]، وللتحقير على ما قيل: إنَّه النضر، أو أبو جهل، أو الحارث.

﴿وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: واقع على الكافرين كما قرأ به أُبي، أو اللاَّم للتعليل أو صلة لـــ«وَاقِعٍ». وأجيز أن يتعلَّق بمحذوف نعت لـــ«عَذَابٍ». وعن

الحسن وقتادة: إنَّ أهل مكَّة خوَّفهم رسول الله ﷺ بعذاب فسألوه على من يقع؟ فنزلت.

قيل: على هذا يكون الوقف على «وَاقِعٍ» والابتداء بـ«لِلْكَافِرِينَ»، أي: هو للكافرين، وهو غفلة فإنَّه لا يلزم، فإنَّهم سألوه فنزلت الآية، والإعراب كما مرَّ، ولا إشكال، فجوابهم هو مجموع «سَالَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ» وما في الآية إخبار عن سؤالهم.

﴿لَيْسَ لَهُ, دَافِعٌ﴾ الجملة نعت آخر لـ«عَذَابٍ». وإذا احتمل النعت والحال كما هنا فالحمل على النعت أولى، أو مستأنفة. ﴿مِّنَ اللهِ﴾ نعت آخر لـ«عَذَابٍ»، أو متعلِّق بـ«وَاقِعٍ». و«مِن» للابتداء، ولا معنى لتعليقها بـ«دَافِعٍ» وجعلها للابتداء، إذْ لا يصحُّ أن يقال: لا يبتدئ أحد دفْعَه من الله، وإنَّما يصحُّ أن يقال: ليس له دافع ثابت من الله.

﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ عن ابن عبَّاس: هي السَّماوات، لأنَّ الملائكة تعرج فيها بالأوامر والنَّواهي، أو أنواع الأعمال والأذْكار من المؤمنين، أو المعارج مراتب الملائكة. وعن ابن عبَّاس وقتادة: الفضائلُ والنِّعم، لأنَّ إنعامه وأفضاله مراتب، أو غرف السعداء، أو ما يدلُّ على عظم شأنه تعالى.

ويناسب التفسيرُ بالسَّماوات وما فوقها أو أعمَالِ المؤمنين قولُه تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ لتفضيله، أو لمطلق إثبات عظمة لَهُ.

وشُهِرَ أنَّ جبريل أفضل الملائكة، ألا ترى أنَّه الآتي بكتب الله إلى أنبيائه وسائر الوحي؟ وهو المراد بالروح في الآية.

وقيل: إسرافيل أفضل، ويدلُّ له أنَّه الذي يأخذ من اللَّوح المحفوظ الكتب إلى جبريل، وقيل: الروح ملائكة حفظة على الملائكة، لا تراهم الملائكةُ، كما أنَّ على

بني آدم حفظة من الملائكة لا يروهم، فهم أفضل من سائر الملائكة، وقيل: خلقٌ لله عَزَّوَجَلَّ على صورة الإنسان غير ملائكة حفظة على الملائكة مطلقًا، وقيل: أعظم الملائكة جسمًا، هُو وحدَه صفٌّ وهم كلُّهم صفٌّ. وقيل: «ال» للجنس والمراد أرواح الموتى المؤمنين، لأنَّ أرواح الكفرة تُردُّ من السَّماء الدنيا.

﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عرشه، كما أنَّ الأوامر والنواهي من العرش، تعالى الله عن التحيُّز والجسميَّة والحلول. أو معنى الغاية أنَّ الأمور لا تتجاوزه إلى غيره، بمعنى أنَّه الخالق لها، والمبقيها، والمتصرِّف فيها، والمفنيها، أو إلى مكان خلقه الله لانتهاء الملائكة إليه لا يتجاوزونه.

﴿فِي يَوْمٍ﴾ مقدار من الزمان. [قلت:] ولا يجري الزمان على الله تعالى. وهو متعلِّق بـ«وَاقِعٍ»، وقيل: بـ«دَافِعٍ»، وقيل: بـ«تَعْرُجُ»، وهو أولى.

﴿كَانَ مِقْدَارُهُ, خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ كسنيكُم، وذلك مدَّة وقوف النَّاس في المحشر والحساب، وأمَّا يوم القيامة فلا ينتهي.

وسئل رسول الله ﷺ عن مقدار خمسين ألف سنة: ما أطوله! فقال: «**والذي نفسي بيده لَيَخفُّ على المؤمن حتَّى يكون عليه أهون من صلاة مكتوبة يصلِّيها في الدنيا**»[1]. وعن ابن عمر: «**يوضع للمؤمنين يومئذ كراسي من ذهب، ويظلَّل عليهم الغمام، ويقصر عليهم ذلك اليوم ويهون حتَّى يكون كيوم من أيَّامِكُم هذه**»[2].

١- رواه **أحمد** في مسنده، كتاب مسند أبي سعيد الخدري. باب مسند أبي سعيد، رقم: ١١٣٢٠. وأبو **يعلى** في مسنده، كتاب مسند أبي سعيد الخدري. باب من مسند أبي سعيد، رقم: ١٣٩١. من حديث أبي سعيد.

٢- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج١٥، ص٧١، أثرا عن ابن عمر.

وقيل: العدد عبارة عن الطول لا حقيقته، ويردُّه ظاهرُ الآية والحديثُ المذكور، إذْ أبقى الآية على ظاهرها، وأجابه بالتخفيف على المؤمن، وإنَّما يعبَّر عن الكثرة بالسبعة أو بالسبعين أو نحو ذلك لا بمثل هذا العدد العظيم.

وادَّعى بعض أنَّ الحديث المذكور يدلُّ على أنَّ المراد التطويل لا خصوص العدد، وقيل: المراد أنَّه لو كان قضاء ذلك اليوم بين النَّاس في الدنيا على يد مخلوق أو على أيدي الإنس والجنِّ والملائكة كلِّهم لكان في خمسين ألف سنة، وذلك العدد كناية عن كثرة الحساب.

وقيل: ذلك على ظاهره؛ خمسون موطنًا، كلُّ موطن ألف سنة، والله يفرغ منه في نصف يوم، كما جاء الحديث، أو في ساعة كما في أثر، أو لحظة. وإذا علِّق بـ«تَعْرُجُ» فذلك في الدنيا من وجه الأرض إلى منتهى العرش.

وقيل: من قعر الأرض السابعة غلَظُ كلِّ أرض، وبين كلِّ أرض وأخرى، وسماء وأخرى، وبين الأرض والسَّماء، وبين السَّماء السابعة وقعر الكرسي خمسمائة عام، وذلك أربعة عشر ألف عام، ومن قعر الكرسيِّ إلى العرش ستَّة وثلاثون ألف عام، وذلك خمسون ألف سنة، والملك يصعد إلى العرش في ساعة أو أقلَّ من الأرض السابعة.

وقيل: هذا العدد من الأرض إلى العرش هبوطًا وصعودًا، وقيل ذلك مدَّة الدنيا من حين خلقت، إلاَّ أنَّهُ لا يعرف أحد ما مضى أو ما بقي، وذلك تمثيل **للبعد لا تحقيق للعدد.**

﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿سَالَ﴾، على أنَّ السَّائل النبيء ﷺ سأل تعجيل العذاب، فقال الله ﷻ : ﴿فَاصْبِرْ...﴾ إلخ، أو هو النضر، أو أبو جهل إذ سأل تعجيل العذاب، فضجر ﷺ بذلك، فقيل له:

«اصْبِرْ». أو سيلان الوادي بالشرِّ موعود لقومك فاصبر، **فالصبر الجميل: ما لم يشْكُ فيه إلى غير الله، ولم يجزع قلبُه من الله ﷻ**، وقيل: ما لم يتغيَّر فيه صاحبُه عمَّا هو عليه قبلُ.

﴿**إِنَّهُمْ**﴾ أي: كفَّار مكَّة، أو قومك ﴿**يَرَوْنَهُ**﴾ يرون العذاب الواقع، أو اليوم المذكور في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ على أنَّه يوم الحساب، وعلى أنَّه يتعلَّق بـ«تَعْرُجُ» أو بـ«دَافِعٍ» أو بـ«وَاقِعٍ» أو بـ«سَالَ» من السيلان، أو إنَّهم يرون يوم القيامة المدلول عليه بـ«وَاقِعٍ» في أحد الأوجه. ومعنى ﴿يَرَوْنَهُ﴾ يعلمونه في زعمهم، وذلك راجع إلى معنى الاعتقاد، وكأنَّه قيل: يعتقدون بُعْدَهُ أو استحالتَهُ كما قال:

﴿**بَعِيدًا**﴾ عن الإمْكان أو عن الوقوع ولو كان مُمْكنًا، وإذا أثبتوا شفاعة آلهتهم يوم القيامة لهم فعلى فرض وقوعه، وإذا أُريد عذاب الدنيا فهو مُمْكنٌ عندهم لكن استبعدوه. وجملة «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ... الخ تعليل لقوله: «اصْبِرْ»، ولو كان المستعجلُ النضر أو أبا جهل. وقيل: إن كان أحدهما فمستأنفة، والأوَّل أولى لأنَّ المعنى: اصبر صبرًا جميلاً فقد قرب الانتقام منهم.

﴿**وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾ نعلمه علمًا حقيقًا قريبًا بالزمان، كأنَّه يكون غدًا، أو نراه قريبا من الإمكان، على المشاكلة لرؤيتهم له بعيدًا من الإمكان، وعلى المجاراة لكلامهم، إذ لا معنى لوصف الممكن بالقرب من الإمكان، فإنَّ الممكن ممكن جزمًا لا قريب من الإمكان قربًا فقط.

أو المراد بقُرْبه نفس إمكانه، وقرب الوقوع سبب للإمكان، وذلك واجب بإيجاب الله، وما كان كذلك جاز وصفه بالإمكان، بخلاف ما وجب بالذَّات فإنَّه لا يتَّصف بالإمكان، وهو صفاته، وإن فسَّرنا الكلام بقولنا: يرونه بعيدًا من الإمكان ونراه قريبًا من الوقوع كان نقضًا لكلامهم لا مشاكلة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ﴾ متعلّق بـ«قَرِيبًا»، أي: يقرب وقوعه عقب حصول كونها كالمهل، أو واقع في ذلك اليوم، أو ممكن فيه، أو متعلّق بيقع محذوفًا دلّ عليه «وَاقِعٍ»، أو بدل من «فِي يَوْمٍ» إن علّق بـ«وَاقِعٍ».

(نحو) ومجموع الجارّ والمجرور كأنّه اسم منصوب أو بدل من «يَوْمٍ» على محلّه لصُلُوح إسقاط «فِي» ونصب «يَوْمَ». ويجوز أن يبدل من لفظة المجرور على أنّ فتحة «يَوْمَ» الثاني بناء على قول الكوفيّين بجواز بناء الظرف إذا أضيف لجملة، ولو كان فعلها مضارعًا معربًا.

(نحو) ويجوز تعليق «فِي» بـ«تَعْرُجُ»، وتبدل «يَوْمَ» من «فِي يَوْمٍ»، على أنّ المراد يوم القيامة، وإذا أريد بالعذاب عذاب الدنيا تعلّق «يَوْمَ» بمحذوف، أي: «يوم تكون السماء كالمهل...»إلخ يكون كذا وكذا. ويجوز إبدال «يَوْمَ» من هاء «يَرَوْنَهُ» إذا أعيدت إلى يوم القيامة، ويجوز كونه مفعولاً لـ«اذْكُرْ».

والمُهْل: ما يكون في قعر الزيت، وقيل: ما أذيب من فضّة أو نحاس أو نحوه.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ جمعت مع «ال» للاستغراق ولاختلاف ألوانها بيض وحمر وسود ﴿كَالْعِهْنِ﴾ الصوف مطلقًا، أو الأحمر خلقةً، وهو أضعف الصوف، أو المصبوغ ألوانًا، تكون الجبال كالصوف في الخفّة تطيّرها الريح تسير ثمّ تهدُّ وتدقُّ وتطيّرها الريح وتصيّرها هباءً، ويقال: تصير رملاً مهيلاً ثمّ عِهنًا منفوشًا، ثمّ هباء منثورًا.

﴿وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ﴾ قريب بالنسب أو بالصداقة ﴿حَمِيمًا﴾ عن حاله لاشتغال كلٍّ بحاله، أو لظهور الأحوال بلا سؤال، أو لا يسأله أن يحمل عنه ذنبًا، أو لا يسأله شفاعة أو نصرًا أو منفعة مّا. وقيل لا يسأل حميم أحدًا عن حميم أسعيد أم شقيٌّ؟ وأين هو؟ وهو ضعيف، لأنّ فيه النّصب على نزع الجارّ.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ الواو للأحِمَّاءِ الأوَّلين، والهاء للآخرين، يجعلهم الله تعالى باصرين بهم، فلا يسألون أين أحِمَّاءهم أو أسعِدُوا أم شقوا؟ لظهور السعادة على صاحبها أو الشقاوة، كبياض الوجه وسواده، يبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسألهم، وعن ابن عبَّاس: «يتعارفون ساعة من النَّهار ثمَّ لا يتعارفون»[وهو مضارع بصَّره بالأمر إذا جعله مبصرا له، أي: ناظرا، فأصله يبصرون بهم].

(نحو) وجمع الضميرين لعموم مرجعهما بالتنكير في سياق النفي. والجملة مستأنفة، كأنَّه لَمَّا قيل: ﴿لاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قيل: لعلَّ ذلك لأنَّه لا يبصره؟ فقيل: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ كذا قيل، وفيه أنَّ قوله: ﴿لاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ يتبادر منه الحضور، وإذا قيل: لا يسأل زيد بكرًا تبادر أنَّه يمكنه السؤال وهو حاضر، لكن لا يسأله.

(نحو) فالأولى أنَّ الجملة حال من «حَمِيمٌ» المرفوع، أو من المنصوب، أو منهما، والمعنى: إنَّه لا يقع السؤال من بعض لبعض مع حضورهم لظهور ما يغني عن السؤال، أو للشغل عنه، وليس المعنى على النعت، لأنَّ المقام للعموم فلا يقيَّد بالتبصير، فلو قيل: لا يسأل الأحمَّاء أحمَّاءهم الذين يبصَّرونهم كان دون ذلك المعنى، والآية تفيد أنَّ الأقارب والأصحاب يحضر بعض بعضًا وذلك لحساب المخالطة.

﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ يتمنَّى أو يحبُّ كلُّ مذنب مشرك، وكلُّ فاسق، فـ«ال» للاستغراق، وإفْرادُ ضميره بعدُ باعتبار لفظه. ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ «لَوْ» مَصدَرِيَّة، أي: يَوَدُّ الافتداء، أي: حصول الافتداء، بمعنى يودُّ حصول الاشتغال بالفداء مع قبوله عنه. ﴿من عَذَاب يَوْمَئِذ﴾ هو عذاب لزمه، وهو عامٌّ لا مخصوص، إلاَّ أنَّ كلَّ مجرم يَوَدُّ لو يفتدي ممَّا له من العذاب.

(نحو) والقراءة بإضافة «عَذَاب» لـ«يَوْمَ»، ففتحةُ «يَوْمَ» بناءٌ، لإضافته لمبنيٍّ، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ (سورة النمل: ٨٩) . فكلُّ «يَوْمَ» قبل «إِذْ» في القرآن فتحُه بناءٌ، ولو لم يكن مضافًا إليه، فإذا كان مضافًا إليه كما هنا فهو في محلِّ جرٍّ، وإذا لم يكن كذلك فهو في محلِّ نصب لا معْرَبٌ منصوب، وذلك في قراءة نافع.

(نحو) [قلت:] ومن العجيب جعل «لَوْ» للتمنِّي مع أنَّ «يَوَدُّ» يفيده، فيدَّعى أنَّه لا مفعول له، ويقدَّر: يودُّ المجرم ما لا يدركه، فيبقى «لَوْ يَفْتَدِي» بلا عامل فيتعطَّل، أو يقدَّر له: يقول لو يفتدي...إلخ معبَّرًا به عن: «لو أفتدي» (بضمائر التكلُّم)، أو يضمَّن «يَوَدُّ» معنى القول، والجملة مستأنفة لبيان أنَّه يتمنَّى الافتداء ولو بأعزِّ النَّاس إليه، والمعنى على هذا لا خصوص تمنِّي الافتداء بالأعزِّ إليه. وَقِيلَ: حال من الواو، وجوَّز بعض أن تكون حالاً من الهاء إن كانت الهاء للسائل، أو من الواو إن كانت الواو للسائل.

﴿بِبَنِيه﴾ بدأ بهم الله لأنَّهم أعزُّ، ولم يذكر البنات لأنَّ الكفرة قد يرغبون عنهنَّ، حتَّى إنَّهم يقتلونَّهُنَّ، ولذلك لم يَقُلْ: بأولاده لشموله الإناث، ويجوز أن يراد بالبنين ما يشمل من عزَّت منهنَّ.

﴿وَصَاحِبَتِه﴾ زوجه، قدَّمها لأنَّها إذا أحبَّها تكون أعَزَّ من الأخ للنفع وشدَّة العشرة والألفة، كما أشار إليه بلفظ الصحبة. ﴿وَأَخِيه﴾ مطلقًا، ولا سيما الشقيق. ﴿وَفَصِيلَتِه﴾ أي: عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم، واختاره بعض المحقِّقين، أو عشيرته المنفصلة عنه، أو آبائه الأدنين كما قاله ثعلب، أو الفخذ. ﴿الَّتِي تُئْوِيه﴾ أي: تضمنه بشمولها إيَّاه، أو تضمُّه عند النائبة.

﴿وَمَن فِي الاَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الإنس والجنِّ والملائكة والحيوانات والجمادات. و«مَن» لتغليب العاقل، ويجوز أن يكون اللفظ كناية عن الخلق

كُلِّهم، ولو ملائكة السَّماوات، والسَّماواتِ والأرضين والعرش والكرسيِّ، إذ لا يتصوَّر له أن يحبَّ أن يحرق بالنَّار الدائمة دائمًا فيها اختيارًا لغيره عن نفسه، **والكلام على كلِّ حال باعتبار أنَّه مالك لذلك.**

﴿**ثُمَّ**﴾ لاستبعاد الإنجاء، لأنَّه لا يملك ما ذُكر ولو ملكه وطلب الافتداء به لم يقبل عنه، لا لتراخي الإنجاء، لأنَّه لا يتمنَّى أن يتراخى، بل يُحِبُّ العجلة، ﴿**يُنجِيهِ**﴾ معطوف على «يَفْتَدِي»، والمستتر عائد إلى الافتداء المعلوم من «يَفْتَدِي»، وهو أولى من عوده إلى «مَن».

﴿**كَلَّآ**﴾ ردع للنَّاس عن أفعال المجرم الموجبة لمَا أعدَّ للمجرم، أو ردع للمجرم عن وُدِّه لذلك، وتصريح بأنَّه لا ينجو. ﴿**إِنَّهَا**﴾ أي: النَّار المعلومة من ذكر العذاب، ومن الإخبار عنها بقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**لَظَىٰ**﴾ ألفه للتأنيث، فمنع الصرف، وهو عَلَمٌ على النَّار مطلقًا، أو للدركة الثانية من فوق، أو عَلَم على الجنس الذي هو اللَّهب، كأنَّها نفس اللَّهب الخالص مبالغة، معدول عن «ال».

ويجوز أن يكون بمعنى اللَّهب، فمنع الصرف إجراء للْوَصْل مجرى الوقف. وقيل: الضمير لمبهم فسَّره «لَظَى»، فإن كان ضمير الشأن فضمير الشأن لا يفسِّره إلاَّ الجملة و«لَظَى» مفرد، وإن أريد مبهم غير ضمير الشأن كما هو الظاهر كان المعنى أنَّ شيئًا منها هو لظى، فلا يصحُّ إلاَّ إن أريد أنَّه جيء به على صورة المبهم، ولو أريد به مخصوص هو النَّار، كما يراد بفاعل نعم مخصوص معيَّن، ويعبَّر عنه بالجنس، نحو: نعم الرجل زيد.

﴿**نَزَّاعَةٌ**﴾ خبر ثان، أو نعت لـ«لَظَى» على معنى اللَّهب لا على أنَّه علم ﴿**لِّلشَّوَىٰ**﴾ الأطراف، كالأيدي والأرجل، أو الأعضاء التي ليست بمقتل، كما يُقال: رمى فأشوى، أي: لم يقتل، أو لحم الساقين، أو العصب والعقب، أو محاسن الوجه، وبه قال أبو العالية، أو الدماغ. وكلُّ ما نَزَعَتْ يرجع.

وفسَّر «نَزَّاعَةٌ» بالأكل تنزعه وتأكُله ثمَّ يرجع ولا تنزع العظم، أو الشوى اللحم المشويُّ بالنَّار، تشويه النَّار مثل ذلك، ونزعه قطعه فرقا، أو جمع شواة وهي جلدة الرأس، ونسب لابن عبَّاس.

أرسل أميرٌ إلى أبي ذرٍّ مالاً فقال: أكُلُّ المسلمين أعطي مثل هذا؟ فردَّه وقرأ: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ﴾.

(فقه) وهذا بناء على تحريم عطاء الأمراء عطاء لم يَعْتَدِلْ، أو خيف أن يكون من حرام.

ومرَّ الإمام عثمان بأبي ذرٍّ نائمًا على جدار المسجد، فقال لعبد له: خذ هذه الدنانير وأعطها الرجل إذا يقظ، فإن قبلها فأنت حرٌّ، فلم يقبلها، وقال له العبد في قبولها فكاك رقبتي، فقال أبو ذرٍّ في قبولها استرقاق رقبتي، وهذا لريبة في مال عثمان أو في عطائه أكثر ممَّا له، أو لظنِّه أنَّ عثمان يستميله منتصرًا به.

(فقه) وأجاز عليٌّ أخذ العطيَّة من السلطان الذي بيده حلال وحرامٌ، وكذا ابن عمر وابن عبَّاس، وقال بعض: إن كان أكثر ماله حلالاً فخذ، أو حرامًا فلا، أو سواء فالأفضل الترك، وزعم بعض أنَّه يجوز أخذ عطيَّة السلطان مطلقًا ما لم تعلم أنَّها حرام لم تَقُدْهُ ديانته إلى حلِّه، وخصَّ بعضهم هذا بالدراهم.

﴿تَدْعُواْ﴾ خبر آخر تثبت للمُدْبِر المتولِّي ولا بدَّ له منها، كأنَّها تقول أنت لي وأنا لك، كذا ظهر لي، فيكون الدعاء مجازا استعاريًّا أو إرساليًّا للجذب، أو يخلق الله لسانا تناديه بلا عقل، أو مع عقل كما يخلق ذلك في الأيدي والأرجل والجلود، فتناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وبه قال ابن عبَّاس، وروي أنَّها تقول: إِلَيَّ يا كافر، أو يا منافق.

وروى الخليل عن العرب: دعا بمعنى أهلك، يقولون: دعاه الله، أي: أهلكه، فيجوز تفسير الآية به، وأظنُّ قوله:

دعاك الله من رجل بأفعى إذا نامت العيون سرت عليكا[1]

مصنوعًا، أي: أهلكك الله من رجل، **ويجوز أن يكون إسناد الدعاء إليها مجازا عقليًّا والإسناد الحقيقيُّ للزبانية، أو يقدَّر مضاف، أي: تدعو زبانيتها.**

﴿**مَنْ أَدْبَرَ**﴾ في الدنيا عن الحقِّ أو عن التوحيد ﴿**وَتَوَلَّىٰ**﴾ أعرض عن الطاعة ﴿**وَجَمَعَ**﴾ المال ﴿**فَأَوْعَىٰ**﴾ أوْعاه، أي: جعله في وعاء وخزنه، بلا إخراج للحقِّ الواجب فيه، من زكاة وضيافة لازمة، وإطعام من يجب إطعامه مطلقًا وكفّارة.

وكان عبد الله بن عيْكم[2] لا يربط كيسَهُ ويقول: سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾، وليس الربط حرامًا بل قد يجب الربط إذا خاف التلف بعدم الربط، ولكن جارَى ظاهر الآية.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾

١- البيت لأبي النجم، وأورده صاحب المعجم المفصل بلفظ:

دعاك الله من قيس بأفعى إذا نام العيون سرت عليكا

إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج٥، ص٢٦٢.

٢- عبد الله بن عَيْكُم الجهني قيل له صحبة، أسلم في حياة النبيء ﷺ ، صلّى خلف أبي بكر وعمر، وحدَّث عن عمر وعليٍّ وابن مسعود، تُوُفِّيَ سنة ٨٨هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٢١.

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

الخصال العشر التي تهذِّب طبع الإنسان المؤمن

﴿**إنَّ الانسَانَ**﴾ الجنسُ ثمَّ يُستثنَى المؤمن، أو الإنسان الكافر، والعُموم أولى، لأنَّ الإنسان من عادته الهَلَع ولو نزلت في أبي جهل لأنَّ خصوص السبب لا يخصِّص العموم. ﴿**خُلِقَ هَلُوعًا**﴾ فسَّره الله تعالى كما قال ابن عبَّاس بقوله:

﴿**اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ وحاصلُهُ السرعة هكذا، فهو يسرع إلى ترك الخير وإلى فعل الشرِّ، يقال: ناقة هلوع، أي: سريعة.

[قلت:] وفي ذلك النهيُ عن العجلة إلاَّ الخير بحيث تُحصِّل العجلة إليه بلا خللٍ، وليس تفسيره بالآية لغويًّا بل بيانيًّا لما قصد به فيها، تقول: فلان راغب في الأكل إذا راى طعامًا أكله، وزيد خاشع إذا سمع القرآن بكى، وقد فسَّره ابن عبَّاس بالحريص على ما لا يحلُّ.

وقيل: ﴿هَلُوعًا﴾ شحيحًا بخيلاً، وقيل: ضجورًا، وقيل: ضيِّق القلب.

و﴿الشَّرُّ﴾: الفقر والمرض ونحوهما ممَّا يكره، و﴿الْخَيْرُ﴾: المال والصحَّة وما يرغب فيه، و«ال» فيهما للجنس. و«جَزُوعًا» و«مَنُوعًا» صفتا مبالغة، والجزع أعمُّ من الحزن، فإنَّه حزن يصرف الإنسان عمَّا هو بصدده. ويُقال: جزع الحبل قطعه، وجزعُ الوادي مُنقَطعه.

والمنع: الإمساك عن إعطاء المال وما ينتفع به. و«إذَا» الأولى متعلّقة بـ«جَزُوعًا»، والثانية بـ«مَنُوعًا»، وكلتاهما خارجة عن الشرط.

أفادت الآية أنّ الإنسان مطبوع من أوّل خلقته على الهلع، ويظهر منه إذا نفخ فيه الروح، ولا سيّما إذا ولد. وإنّما أمِرَ ونُهِيَ لأنّ الله عَزَّ وَجَلَّ أقدره على معالجته فيزول أو يضعف، وقيل: إذا غلبه استتر ولم يزل، وكذا في جميع الأمور الطبعيّة إذا كُلِّفَ فيها، وقيل: غير مطبوع عليهما لكن يرسخان فيه حتّى كأنّهما طُبِعَا فيه، وليس كذلك، ألا ترى الصبيَّ كيف يرغب في الرضاع؟ وكيف يبكي إذا زوحم في شيء؟[1].

﴿إلاَّ الْمُصَلِّينَ...﴾ إلخ استثناء متّصل، أي: إلاّ هؤلاء المصلّين فإنّهم لا يجزعون ولا يمنعون، بل يغالبون الجزع والمنعَ، وإن زلّوا رجعوا. **والذَّمُّ والعقاب على عدم العلاج**. وقيل: الاستثناء منفصل، أي: لَكِنِ المصلّون لا يدبرون ولا يتولّون، بل يدومون على التوحيد والعبادات، فهم في مقابلة من أَدْبر وتَوَلّى في عملهم وجزائهم.

﴿الذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ قدَّم «عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ» للفاصلة، وترغيبًا في الاهتمام بالصلاة. قال ﷺ : «**خذوا من العمل ما تطيقون، فإنّ الله تعالى لا يملّ حتّى تملّوا**»[2]. قال ﷺ : «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها**». وروي «**أحبُّ الأعمال إلى رسول الله ﷺ أدومها وإن قلّ**»[3].

١- هذه الفقرة ممّا انفردت به نسخة «ب»، والطبعة العمانيّة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم١٨٥٩. ورواه **ابن حبّان** في صحيحه، كتاب البرِّ والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، رقم٣٥٣. من حديث عائشة.

٣- رواه **أحمد** في مسنده، كتاب عائشة، باب حديث عائشة، رقم: ٢٤٧٨٩. ورقم: ٢٥٨١١ من حديث عائشة.

(سيرة) وكان عمله ﷺ ديمة، وكان إذا صلّى صلاة دام عليها، وكذا ما يفعله من أعمال النفل، إلاَّ أنَّه لا يشهره، بل يرغِّبهم بلطف لئلاَّ يتكلَّف النَّاس ما يشقُّ عليهم، حتَّى كأنَّه واجب، فقد يضجرون أيضًا فيتركونه البتَّة.

وجاء في الخبر وروي حديثًا: «**إنَّ الْمُنبتَّ لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع**»[1] (بضمِّ الميم وشدَّ التاء)، أي: المنقطع في فلاة من الأرض لإثقاله على راحلته بشدَّة السير، أو بعظم الحمل، لا دابَّةً أبقى سالِمَةً، ولا بلدةً قصدها وصَل إليها، ومثل ذلك في العبادات النافلة.

ومعنى دوامهم على صلاتهم في الآية المداومة على الصلوات الخمس بشطورها وشروطها، كما قال: ﴿يُحَافِظُونَ﴾، والإخلال ببعض ذلك ترك لها كتركها البتَّة، والصحيح ذلك.

وقيل: معنى مداومتهم أنَّهم إذا دخلوا فيها داموا معها ولا يخرجون بقلوبهم على قدر الطاقة، ولا يلتفتون، ولا يفعلون ما ينافيها من الأشغال، وكذا قال عمران بن حصين وعقبة بن عامر والزجَّاج، وإنَّه ليس المراد كما تقولون: لا يزالون يصلُّون الخمس وما رتَّبوه لأنفسهم من النَّفل، وما تقدَّم أولى، لأنَّه الظاهر في الآية، ولأنَّه المناسب لما بعد ذلك في الآية، فإنَّه للتكرير، وأيضًا التكرير يعمُّ ذلك وزيادة، وأيضًا ما ذكروه مأخوذٌ من قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ كاف عنه.

١-رواه **البيهقيُّ** في كتاب الصلاة (٦٣٨) باب القصد في العبادة والجهد في المداومة، رقم ٤٧٤٣. **والزبيدي** في الإتحاف، ج٥، ص١٦١، من حديث جابر. وَأَوَّلُ الحديث عندهما هو قوله ﷺ : «إنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإنَّ المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».

وقال أبو جعفر الطبريُّ: المراد في الآية صلاة النَّفل مطلقًا، وقيل: ما ورد منها في السنَّة والفرض، وقيل: الفرض والنَّفل منها مطلقًا، وقال ابن مسعود: المداومة عليها أداؤها في مواقيتها، وهو نصٌّ في أنَّها الصلاة المفروضة، ولا إشكال فيه، لأنَّ مرادَه أنَّه لا يتركها حتَّى يخرج وقتها.

[قلت:] ومِن تركها الإخلالُ ببعضها، ومن ذلك أن يهوي للسجود ويتحامل على جبهته ليوصل الحصيرَ للأرض، فإنَّ ذلك التحريك ليس من الهوي للسجود، بل زيادة ونقص من الهَوي للسجود.

ومن ذلك ركوع نساء هذه البلاد بإيماء قليل لا يصلن أيديهنَّ لركبهنَّ، وكان الواجب عليهنَّ ان يركعن ركوع الرجل، ولا بأس بظهور أعجازها.

﴿**وَالذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ**﴾ نصيب معلوم يوظِّفونه على أنفسهم، مثل أن ينوي أن يتصدَّق في كلِّ يوم جمعة، أو في أوَّل الشهر، أو كلَّ يوم بدرهم، أو رغيف، أو أقلَّ أو أكثر رغبة في الثواب وشفقة على النَّاس، وليس المراد الزكاة، لأنَّها فرضت في المدينة، وعُيِّنَتْ فيها بمقاديرها، وقيل: فرضت في مكَّة غير معلومة المقدار، فكانوا يعطون ما تيسَّر لا مقدَارًا معلومًا وعُيِّنت في المدينة بعدُ، وقيل: المراد الزكاة، وإنَّ هذا مدنيٌّ جعل في سورة مكِّــيَّة كما مرَّ.

﴿**لِّلسَّآئِلِ**﴾ يسأل النَّاس بلسانه أو بإشارته، أو يريهم علامة الحاجة أو نحو ذلك أن يعطوه. ﴿**وَالْمَحْرُومِ**﴾ الذي حَرَمَهُ النَّاس، أي: لا يعطونه لأنَّهم يظنُّونه غنيًّا إذْ تَعفَّف لا يسألهم ولا يتملَّق إليهم، ولا يُريهم علامة الحاجة.

والممدوحون في الآية يتفرَّسون فيه الحاجة فيعطونه، أو يعمُّون بصدقاتهم ويرغبون فيها فيصادفونه، والذين يحرمونه غير هؤلاء الممدوحين.

﴿وَالذينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء على الأعمال، والمراد بالتَّصديق العمل بمقتضاه، تسميةً للمسبَّب باسم السَّبب على التجوُّز الأصْليِّ، واشتقَّ منه «يُصَدِّقُ» على طريق التجوُّز الإرساليِّ التبعيِّ، ومن صَدَّق به ولم يستعدَّ له فكأنَّه جهله، يُقال: مات من علم أنَّه يموت، أي: استعدَّ للموت، ومات من لم يعلم أنَّه يموت، أي: لم يستعدَّ للموت.

﴿وَالذينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّـــهِمْ﴾ قُدِّمَ للفاصلة وللدُّعاء إلى الاهتمام به ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم مع ائتمارهم بما أمروا به، وانتهائهم عمَّا نهوا عنه، استقصارًا لأنفُسهم، وإجلالاً واستعظامًا لله عَزَّجَلَّ، ولأنَّهم لا يدرون بم يختم لهم، ولا يدرون أنَّهم أتوا كما أمروا، قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَالذينَ يُوتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ انَّـهُمْ, إِلَى رَبِّـــهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (سورة المومنون: ٦٠) .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّـــهِمْ غَيْرُ مَامُونٍ﴾ لا يجوز لأحد ـــ ولو كان ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيئًا مرسلاً، من علم بسعادة نفسه ومن لم يعلم ـــ أنْ يأمن عذاب الله تعالى، والخوف فيمن علم سعادة نفسه تعبُّديٌّ وزيادةٌ في العبادة.

﴿وَالذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ, أَوْ مَا مَلَكَتَ ايْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالذينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قدَّم «لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ» لمَا مرَّ، والمعنى: إنَّهم محافظون على حقوق الأمانات والعهود. وجَمَعَ الأمانة لكثرتها وأفرد العهد لقلَّته، ولأنَّ لفظ العهد مصدر في الأصل استعمل بمعنى معهود، ويجوز إبقاؤه على المَصدَرِيَّة، فإنَّه يُقال: رعى المعهودَ ويُقال: رعى عَهْدَهُ.

قلت: ومن كثرة الأمانة أنَّ حقوق الشرع كلَّها أمانة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الاَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ (سورة الأحزاب: ٧٢) ، وكلمة الشهادة قبول للأمانات، والأعضاء وقوَّاتها أمانات، والصلاةُ والزكاةُ

وحقوقُ الأزواجِ والأرحامِ والجارِ والمماليكِ والعيالِ والسيِّدِ والمسلمين، والأموالُ والوعدُ وكلٌّ ما أُمر به أو نُهيَ عنه.

فمن وفَّى بذلك فقد رعاه ومن خان في شيء من ذلك فقد خان. ويروى أنَّ الله عَزَّلَ لَمَّا خلق الفرج في الإنسان قال: «هذه أمانة فحافظ عليها».

وفي الأمالي[1] حدَّثنا أبو عُمر قال: أخبرنا الغطفانيٌّ عن رجاله، قال: سُئل أبو عبد الله جعفر بن محمَّد بن عليٍّ عن قول رسول الله ﷺ : «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2]، قال فأدار دارة كبيرة وأدار في وسطها دارة صغيرة، وقال: الكبيرة هي الإسلام، والصغيرة هي الإيمان، فإذا زنى خرج في ذلك الوقت من الإيمان إلى الإسلام، فإن كفر خرج من الدارة الكبيرة إلى الشرك. والمراد بالإيمان هنا التوحيد والعمل الصالح معا، وبالإسلام التوحيد. والأمالي كتاب لأبي عليٍّ القالي ألَّفه في قرطبة وكان يتردَّد في الحجاز وبغداد ثمَّ دخل أندلس وسكن قرطبة.

قال أنس: خطبنا رسول الله ﷺ وقال: «**لا إيمان لمن لا دين له، ولا دين لمن لا عهد له**»[3]. وقال ﷺ : «**أربع من كنَّ فيه فهو منافق خالص، ومن فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النِّفاق حتَّى يدعها:**

١- تقدَّم التعريف بالكتاب وبصاحبه في ج١٤، ص٣٥٤.

٢-رواه **البخاري** في كتاب الحدود (٦) باب السارق حين يسرق، رقم ٦٤٠٠ و٦٤٢٤ والنسائيُّ في كتاب قطع السارق (١) باب تعظيم السرقة، رقم٤٨٨٥ و٤٨٨٦، من حديث أبي هريرة.

٣- لم نقف على تخريجه بهذا اللَّفظ. وقد روى **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، رقم: ١٩٤ ما يقاربه معنى بلفظ: «لا إيمان لمن لا أمانة له». و**أحمد** في مسنده، كتاب مسند أنس، رقم: ١١٩٧٥، من حديث أنس.

إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1] رواه ابن عمر.

ودخل في الأمانة المستحبُّ والمندوب إليه والمكروه كراهة تتريه، لأنَّ المقام للمدح، فالقائم بهنَّ ممدوح، ولو كان لا عقاب على من لم يقم بهنَّ، وذلك أنَّهنَّ داخلات في الأمر والنَّهي، فالمستحبُّ والمندوب إليه مأمور بهما أمرَ ترغيبٍ لا أمر إيجاب، والمكروه منهيٌّ عنه نهي تتريه لا نهي تحريم.

[فقه:] ومن الأمانة أن يقول لك: هذا سِرِّي عندك أو يتكلَّم لك، ويلتفت لئلاَّ يسمع غيرُك.

﴿وَالذِينَ هُم بِشَهَادَتِهِمْ قَــآئِمُونَ﴾ في التقديم مَا مرَّ، والقيام بأداء الشهادة داخل في رعي العهد، وخصَّه بالذكر ـــ قيل ـــ لإبانة فضْلها، بل لئلاَّ يتوهَّم أنَّه غير واجبٍ، ولأنَّها حقٌّ للعبد محضٌ، وما كان من الأمانة حقًّا للعبد فهذا أحقُّ منه.

(فقه) وكذا القيام بأخذ الشهادة، أي: تحمُّل الشهادة، فإنَّه فرض كفاية، وقد يشمله لفظ الشهادة، أي: بشهادتهم اللاَّزمة لهم أخذًا وأداءً، إلاَّ أنَّ الأخذ فرض كفاية والأداء فرض عين، وقد يكون الأخذ فرض عين إذا لم يوجد من يأخذ إلاَّ اثنان مثلاً، والأداء فرض كفاية إذا لم يمكن أداؤها فاحتاج آخذها إلى من يأخذها عنه. والشهادة كثيرة وأفرد اللَّفظ لأنَّه مصدر، وقرأ بعض بالجمع لاختلاف أنواعها.

[قلت:] ومن أقرَّ بشيءٍ أو فعله وشاهده إنسان و لم يحمله الشهادة أو حمَّله إيَّاها و لم يقبل، وكلٌّ من علم بشيء و لم يحمل فيه شهادة لزمه أن يؤدِّيه، إن طُلبَ إلى أدائه، وقيل: لم يلزمه إذْ لم يُستشهد، قولان.

١- تقدَّم تخريجه في ج٢، ص٣٦٧.

﴿وَالذِينَ هُم عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بدأ الصِّفات بالصلاة وختم بها لفضْلها والترغيب فيها، والتنفير عن التهاون بها، ولأنَّها تجلب سائر الصفات الحسنة، وتنهى عن الصفات السيِّئة، ولأنَّها معراج المؤمنين، ولأنَّها مناجاة ربِّ العالمين، ولذا جعلت قرَّةَ عَيْنِ رسول الله سيِّد الخلق ﷺ[1].

والمراد هنا المحافظة على شروطها ومستحبَّاتها، وحضور القلب فيها، وإعظام مقامها، وما مرَّ في ذاتها، وهذا في أحوالها فلا تكرير، والموصوف بتلك الصفات متَّحدٌ، والعطف تنزيل لتغاير الصفات منزلة تغاير الذَّوات، كأنَّه قيل: إلاَّ المصلِّين الجامعين للدَّوام على الصلاة، وأداء حقِّ المال، والتصديق بيوم الدِّين، والإشفاق من عذاب الله ﷻ، وحفظ الفروج، ورعي الأمانات والعهد، والقيام بالشهادة، والمحافظة على الصلاة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المذكورون ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ خبر «إنَّ»، أو الخبر «مُكْرَمُونَ» و«فِي جَنَّاتٍ» متعلِّق بـــ«مُكْرَمُونَ» وقدِّم للحمل على الاهتمام به وللفاصلة.

﴿فَمَالِ الذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِءٍ مِّنْهُمُ أَنْ يُّدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ

١- يشير إلى الحديث الذي رواه أنس عن الرسول ﷺ، وقال: قال رسول الله ﷺ: «حبِّب إليَّ النساء والطيب، وجعلت قرَّة عيني في الصلاة». رواه **النسائي** في كتاب عشرة النساء، باب حبِّ النساء، رقم: ٣٩٤٠. و**أبو يعلى** في مسنده في كتاب ثابت البناني، عن أنس، باب ثابت البناني عن أنس، رقم: ٣٥٣٠. من حديث أنس.

﴿بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أحوال الكفَّار المكذِّبين للرسول ﷺ في الدنيا والآخرة

﴿فَمَالِ الذينَ كَفَرُواْ قبلَكَ﴾ في الجهة التي تليك، واللاَّم حرف جرٍّ كتبت منفصلة في الإمام، و«مَا» مبتدأ استفهاميَّة تعجيـبيَّة، و«الذينَ» خبر، و«قبَلَكَ» ظرف متعلِّق بمحذوف حال من «الذينَ». ﴿مُهْطعينَ﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في الحال قبله، بمعنى: مسرعين إليك ليسمعوا شيئًا يهزؤون به ويمنعون من ينضمُّ إليه في حاله.

﴿عَنِ الْيَمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ حال أخرى أو حال من المستتر في «مُهْطِعِينَ»، أو متعلِّقٌ بـ«مُهْطِعِينَ»، أو بقوله تعالى: ﴿عزِينَ﴾ قدِّم بطريق الاهتمام بذكر انتشارهم حولك يمينًا وشمالاً، أو هما عبارة عن الجهات الأربع، وهو حال أخرى، أو حال من ضمير الحال في قوله: ﴿عَنِ الْيَمينِ﴾ إذا لم نعلِّق «عَنِ الْيَمينِ» بـ«عِزِينَ» أو علَّقناه بـ«مُهْطِعِينَ».

(لغة) و«عِزِينَ» جماعات مطلقًا، وخصَّ بعضٌ كلَّ جماعةٍ بثلاثة أشخاص لا أقلَّ ولا أكثر، فالاثنان ليسا عزة، والأربعة فصاعدًا ليسوا عزة، وأصْلُها: عزوة، فلام الكلمة واو محذوفة عوَّضت عنها التاء، سمِّيت لأنَّ كلَّ فرقة تعتزي إلى ما لم تعتز إليه الأخرى، أي: تنتسب.

[قلت:] ولعلَّ هذا بحسب الأصل، وإلاَّ فقد يجتمع في جماعة واحدة أفرادٌ كلٌّ واحد من جماعة غير جماعة الآخر، وقد يكنَّ كلُّهنَّ من نسب واحدٍ، وقيل: لاَمُهَا هاءٌ عُوِّضَت عنها التاء.

(سيرة) كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي عند الكعبة ويقرأ القرآن فيجتمع المشركون حوله حِلَقًا يستهزئون بما يقرأ، ويقولون: لئن دخل محمَّد وأصحابه الجنَّة لَنَدْخُلَنَّها قبلهم، ولئن كانت النَّار حقًّا لننجونَّ منها قبلهم، وكما فَضُلْنا في الدنيا بالمال والأولاد والجاه نَفْضُل عليهم في الآخرة.

[قلت:] وأخذ بعض من الآية أن لا يجتمع المسلمون فرقًا بل جماعة واحدة، لأنَّ دينهم واحد، وكلمتهم واحدة لا كالمشركين.

وردَّ الله عَزَّ وَجَلَّ إمْكان دخولهم الجنَّة وهم على الكفر بقوله تعالى: ﴿**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُّدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**﴾ مع اختلاف أديانهم، ولم يجمعهم دين واحد سوى الكفر مع كثرتهم، ودين كلٍّ واحد هواه، فماذا يجمعهم إلى الجنَّة؟ وإنَّما يدخلها من تمسَّك بدين واحد حقٍّ، ولا يوجد هذا إلاَّ إيمانًا بالله ورسوله وإسلامًا. و«جَنَّةَ» مفعول ثانٍ، والأوَّل نائب الفاعل مستتر.

﴿**كَلاَّ**﴾ ارتَدِعُوا عن هذا الطَّمع، وعلَّل الردع بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ**﴾ يعرفون من النطفة والعلقة وسائر الأطوار، فلا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلاَّ بالإيمان والعمل، أو خلقناهم من ذلك فَكَمَا قدَرْنا على خلقهم من ذلكٍ قدرنا على بعثهم، فكيف يكفرون بالبعث وهو في بادي الرأي أسهل من النشأة الأولى؟.

أو إذا رجعوا إلى شيء يستحقُّون به الجنَّة غير الإيمان لم يجدوه، إذ لم يخلقوا من نور كالملائكة، بل من النطفة، وسائرُ الأطوار القذرة لا تناسب عالَمَ القُدْسِ إن لم تُحَلَّ بالإيمان والعمل، والملائكة المخلوقون من نور لم يتأهَّلوا لرضى الله تعالى إلاَّ بالإيمان والطاعة.

أو خلقناهم من نطفة وما بعدها بقدرتنا، ونحن قادرون أن نخلق مثلهم للطاعة فيطيع ولا يستهزئ بالدِّين ونهلكهم. و«مِن» للابتداء في ذلك كلِّه.

أو خلقناهم من أجل ما يعلمون من النبيء ﷺ من الإيمان والعبادة وأصرُّوا على الكفر فمن أين لهم الجنَّة؟ و«مِن» للتعليل، قيل: يدلُّ للوجه الأخير قبلَ هذا قوله تعالى:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ...﴾ إلخ. تقدَّم الكلام في مثل هذا، والمراد: إذا خلقناهم من نطفة فَلاَ أُقْسِمُ...إلخ. والمراد: مشارق الشمس المائة والثمانون، ومغاربها المائة والثمانون، وذلك ثلاثمائة وستُّون، أو مشارق الشمس والقمر ومغاربهما، أو مشارقهما ومغاربهما، ومشارق سائر الكواكب ومغاربها. والمراد: ربُّ المخلوقات كلِّها.

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ونهلكهم لكفرهم بمرَّة، والتفضيل بحسب دعواهم، وإلاَّ فما هم إلاَّ شرٌّ، أو «مِنْ» غيرُ تفضيليَّة، فتعلَّق بـ«نُبَدِّلَ»، فيكون «خَيْرًا» بمعنى حسنين فيقابله قباح، وهم قباح.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بالمنع عمَّا أردنا من خلق بدلهم إن أردناه.

والأولى فيما زعم بعض أنَّ قوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ...﴾ الخ تعليل للردع عن الطمع، كأنَّه قيل: من أنكر البعث فكيف يتَّجه طمعه في الجنَّة؟ والطمع فيها والاستهزاء بالبعث متناقضان. وقيل: المعنى إنَّا لقادرون أن نعطي محمَّدًا ﷺ من هو خير، وهم الأنصار، وقد فعل، والحمد لله أصرُّوا على الكفر فدخلوا النَّار وآمن الأنصار فدخلوا الجنَّة.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ لا تكترث بهم واقطع طمعك عن إيمانهم ﴿يَخُوضُواْ﴾ في إنكار البعث والاستهزاء بالوحي ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ﴾ فاتركهم، إن تركتهم أصرُّوا أيضًا، فلا يؤمنون ألححت عليهم أو تركتهم، فإنَّهم لا يؤمنون حتَّى يلاقوا يوم موتهم.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الاَجْدَاثِ﴾ بدل من يوم موهم المذكور، فإنَّ ذلك كلَّه وقت واحد يبقون في قبورهم بَعْضَهُ، ويخرجون من الأجداث في بعضه، أو يقدَّر: اذكر يوم يخرجون من الأجداث، أو يعلَّق بـــ«تَرْهَقُ».

أو «يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ» هو يوم البعث، و«يَوْمَ يَخْرُجُونَ» بدل من «يَوْمَهُم»، فيقال: كيف يبقون على الخوض واللَّعب بعد الموت إلى أن يبعثوا ؟ الجواب: إنَّ المراد البقاء على حكمهما إلى يوم البعث مع انضمام وقوعهما خارجًا إلى حكمهما قبل الموت، فإنَّهم إذا ماتوا لم ينتقلوا إلى الإيمان النَّافع.

وقيل: يومهم هو يوم بدر، وقيل: يومهم يوم نفخة الموت، على أنَّ الكلام على الكفَّار مطلقًا، لا على خصوص المعاصرين لرسول الله ﷺ لأنَّ المعاصرين له لا يبقون أحياء إلى ذلك الوقت. والأَجْدَاث: القبور.

﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع، بمعنى مسرع ﴿كَأَنَّهُمُ إِلَىٰ نَصْبٍ﴾ مصدر بمعنى مفعول، أي: إلى صنم منصوب للعبادة من دون الله سبحانه، أو بمعنى العَلَم الموضوع للدلالة على الطريق، فإنَّ الكفرة يسارعون إلى الصنم إذا قصدوا عبادته، والمسافرون يسارعون إلى علامة الطريق. [قلت:] ولا تظهر هذه السرعة، **فالأُولى أَوْلى**، نعم إذا تخيَّلوا العلامة وقد ضَلُّوا أسرعوا إلى جهتها ليتحقَّقوا.

وقيل: شبكة ينصبها الصائد، فإذا وقع فيها صيد أسْرع إليها قبل أن ينفلت، وقيل: ما ينصب علامة لنزول المَلك وسيره يسرع إليه الجند. وقُدِّم للفاصلة على قوله تعالى: ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي: يسرعون، وقيل: ينطلقون، والجمهور على الأوَّل.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ إسناد الخشوع إلى الأبصار مجاز عقليٌّ، لأنَّ الخشوع حقيقة للقلب، ولكن لَمَّا كان يظهر أثره في العين أسند إليها. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدة.

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿الذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل على عموم الكفر، ولسان الرسول ﷺ على أنَّ المراد قومه. و«الذِي» نعت «اليَوْمُ»، أو «اليَوْمُ» تابع لـ«ذَٰلِكَ» و«الذِي» خبر، أي: ذلك اليوم هو اليوم الذي يوعدونه من الوعد في الشرِّ أو الوعيد فيه، أو من الإيعاد.

يا حيُّ يا قيُّوم يا ذَا الجلال والإكرام ارحمْنا في الدنيا والآخرة.
وصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم.

تفسير سورة نوح عليه السلام وآياتها ٢٨

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④﴾

رسالة نوح عليه السلام

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا**﴾ قيل: اسمه عبد الغفّار بن لَمك، بفتح اللاَّم وإسكان الميم، وقيل: بفتحهما، وقيل: لامك بألف وفتح الميم ابن متُّوشلخ (بفتح الميم وضمِّ التَّاء مشدَّدة وإسكان الواو وفتح الشين واللاَّم)، وقيل: بوزن متدحرج، ابن أخنوخ (بفتح الهمزة والخاء وضمِّ النون، وقيل: بإسقاط الهمزة، وهو إدريس عليه السلام .

وكان بين آدم ونوح عشرة قرون بعث الله نوحًا لأربعين سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا يدعوهم إلى الله تعالى، وعاش بعد الطوفان ستِّين سنة حتَّى كثر النَّاس، وقيل: ولد بعد موت آدم بمائة وستٍّ وعشرين سنة.

وهو أطول الأنبياء عمرًا، قال ملك الموت: كيف وجدت الدنيا يا أطول الأنبياء عمرًا ؟ قال: «كبيت دخلت من باب وقِلْتُ فيه وخرجت من باب آخر». ولا يعارض بالخضر ولو قلنا: إنَّه ـ أي الخضر نبيء ـ لأنَّ الكلام فيمن يموت قبل قرب الساعة.

وكان قبله آدم رسولا إلى زوجه وأولاده، ويُقال له شيخ المرسلين وآدم الثاني، وهو دقيق الوجه طويل الرأس واللحية والقامة، عظيم العينين غليظ العضدين كثير لحم الفخذين، ضخم السرَّة عظيم الجسم، وقد صوِّرت الأنبياء في حريرة لَمَّا رأى الصحابة صورة سيِّدنا محمَّد ﷺ عَرَفوها كما ذكرته في «ردِّ الشرود» وقبره في مسجد الكوفة، أو بالجبل الأحمر، أو بذيل جبل لبنان، أو بمدينة الكرك.

ولقِّب بنوح لأنَّه كثر بكاؤه على نفسه، قيل: وعلى قومه إذْ دعا عليهم، وأنَّه قيل: رأى كلبًا أجرب قذرًا فبصق عليه فأنطقه الله تعالى: أتعيبني أم تعيب خالقي؟ فتاب ونَاحَ، ولا يصحُّ ذلك وإن صحَّ فإنَّما بصق على الأرض، وعليه بمعنى لأجله، وصحَّح بعض أنَّ اللَّفظ عجميٌّ معرَّب ومعناه بالسريانية الساكن.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بأرض الكوفة وفيها سكن، وهناك أرسل — قيل — إلى من يليها لا إلى أهلَ الدنيا كُلِّهم، وإنَّما أرسل إلى أهل الدنيا كلِّهم سيِّدنا ونبيئنا محمَّد ﷺ ، وشهر غيرُ ذلك.

وشهر أيضًا أنَّ نوحًا عليه السلام أُرسل إلى أهل الأرض كلِّهم، وأنَّ الغرق عمَّ الدنيا كلَّها، وأنَّ النَّاس كلَّهم من أولاده الثلاثة، وقيل: إنَّ الغرق لم يعمَّ الدنيا وأنَّ الهند لم يصله الغرق، كما قيل: إنَّ قومًا آمنوا في موضع بعيد منه، وأحاط بهم الماء كالجدران، وبما يرعون فيه، فيحتمل أنَّه مَنْ لم يصبه الغرق لم يلدوا، ويحتمل أنَّهم ولدوا.

(نحو) ﴿أَنَ انذِرْ قَوْمَكَ﴾ «أَنْ» مفسِّرة لتقدُّم معنى القول دون حروفه لا مَصدَرِيَّة على تقدير الباء لدخولها على الأمر، ولا خارج للأمر فضلاً عن أن يتعدَّى إليه بالباء، وهذه حجَّة لا يحام حولها، وليس كقولك: زيد أَكرمه، لأنَّه معنى مقبول، ولا كقوله تعالى: ﴿أَنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهَا﴾ (سورة

النور: ٩) ، لأنَّ المعنى: اللَّهمَّ اغضب عليها، وهو معنى مقبول قبل التأويل، وحكاية سيبويه: كتبت إليه بأن قم شاذَّة.

﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ الإغراق أو نار الآخرة، ومبدأها من قبورهم، وإنَّما قلت هذا لأنَّ موهم ليس متَّصلاً بدخول جهنَّم، وإن فُسِّر الإتيان بالظهور صحَّ تفسيره بعذاب جهنَّم بعد البعث.

وكأنَّه قال قائل: فما فعل بعد هذا الإرسال؟ أو ما قال بعد هذا الإرسال؟ فأجابه الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر ظاهر الإنذار، من «أبان» اللاَّزم أو مظهر لكم ما خفي عنكم، وهو أمر الدين من «أبان» المتعدِّي. واللاَّم للتقوية، لأنَّ المعنى: إنِّي إيَّاكم منذر، أو للتعليل، أي: أنذركم لأجل نفعكم لا لأجرٍ تعطونيه.

﴿أَنُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأنواع العبادة، أو المعنى وَحِّدُوهُ. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ احذروا عقابه أو عَظِّموه بقلوبكم. ﴿وأَطِيعُونِ﴾ فيما أنهاكم عنه من عبادة غير الله سبحانه، و«أَنْ» تفسيريَّة. ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ مجزوم في جواب، أو أمْرٌ، ولا ضير لأنَّها ليست جازمة، بل الجازم محذوف، أي: إن فعلتم يغفر لكم ذنوبكم كلَّها. والمشهور أن لا تزاد «مِن» في الإيجاب، ولا مع المعرفة فهي للتبعيض.

(فقه) فالمغفور الذنوب السابقة على الإيمان، أو ما يعدُّ ذنبًا يجوز البقاء عليه بعد الإيمان. وأمَّا ما لا يجوز البقاء عليه بعد الإيمان فلا يغفر، بل لا بدَّ من التنصُّل منه، كتزوُّج من لا يجوز تزوُّجه. قال بعض: وكَمَالٍ غُصِبَ وَبَقِيَ إلى الإيمان، وكاستعباد حُرٍّ، وقيل: ذلك البعض ما بينهم وبين الله تعالى، وقيل: مغفرة الذنوب جميعًا بالإيمان مخصوص بهذه الأمَّة.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ عن العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أجل موتكم، ولا يصيبكم بعد موتكم، كقولك: لا أكلِّمه ما دام حيًّا، ومعلوم أنّه لا يكلِّمه إذا مات، وإن لم يعبدوه ويتّقوه ويطيعوا نوحًا لم يجمع لهم ما بين المغفرة والتأخير إلى الأجل المسمَّى، بل لهم التأخير إليه فقط مع العذاب فيه.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فاحذروا أن يجيء وأنتم مصرُّون فتهلكوا. ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهل العلم لسارعتم إلى العبادة والتقوى، أو لعلمتم أنّ أجل الله لا يؤخَّر إذا جاء، أي: إذا قرب مجيئه لأنّه إذا حضر لم يتصوَّر تأخيره، ومرَّ كلام في مثل هذا.

وكان المؤمنون يخافون الإهلاك فوعدهم الله تعالى أن يتمَّ أجلهم المعلوم عنده، وهم آمنون من أن يقتلهم عدوُّهم، ولا يصحُّ ما مُثّل به من أنّ الكفّار على رأس تسعمائة فإن تابوا وآمنوا زادهم مائة وإلاّ أهلكهم، لأنّه ما لِحَيٍّ إلاّ أجل واحد، والله تعالى لا يجهل ولا تبدو له البدوات، وإن قيل: ذلك على التأنيس كالإمداد بخمسة آلاف من الملائكة للنبيء ﷺ صحَّ ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾

مناجاة نوح ربَّه وشكواه من قومه

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا ربِّ ﴿إِنِّي دَعَوْتُ﴾ إلى العبادة والاتِّقاء والإطاعة ﴿قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ دائمًا بلا فتور.

(بلاغة) فقوله: ﴿لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ كناية عن المداومة، وإلاّ فليل ونهار ليل واحد ونهار واحد، وليل ونهار نكرتان مستعملتان في الإثبات للاستغراق، وهذا العموم عرفيٌّ، لأنَّه ليس يستغرق أوقات اللَّيل والنَّهار، بل المراد الإكثار، كفلان لا يضع عصاه عن عاتقه، أي: يكثر السفر.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيَ﴾ إلى العبادة والاتِّقاء والإطاعة ﴿إِلاَّ فِرَارًا﴾ من العبادة والاتِّقاء والإطاعة، والفرار حقيقة بالأرجل، واستعمل في المبالغة في الإعراض، حتَّى كأنَّهم فَرُّوا فلم يحضروا كلامه، وإسْنادُ الزيادة حقيقةٌ إليهم، أي: يزيدون أنفسهم فرارًا فقط، وأسندها إلى الدعاء لأنَّه سبب لها ثبت لهم الكفر.

وَلَمَّا دعاهم كذّبوه فهذا كفر زادوه، ثمَّ إذا دعاهم كفروا أيضًا وكذّبوا، فهذا كفر آخر، وهكذا...

وأيضًا كذّبوا بحجَّته، وإذا جاءهم بحجَّة أخرى كذّبوها، وإذا جاءهم بأخرى كذّبوها أيضًا، وهكذا، ولو قال: لم يجيبوني لم يفد ذلك. و«فِرَارًا» مفعول ثانٍ، ولعلّه هو الأوَّل لأنَّه الفاعل في المعنى، لأنَّ الذي يزداد الفرارُ لا هم.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى العبادة والاتِّقاء والإطاعة، وأجيز عدم التقدير بمعنى: كلَّما صدر منِّي الدعاء، والمرجَّحُ الأوَّل. و«ما» مَصدَرِيَّة، والمصدر ظرف زمان أضيف إليه «كُلّ»، فكأنَّ «كُلّ» ظرف زمان متعلِّق بـ«جَعَلُواْ»، وهذا وما بعده كلام مستقلٌّ لا تفصيل مجمل. ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسبب العبادة والاتِّقاء والإطاعة.

﴿جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ أطراف أصابعهم، كلٌّ واحد يجعل طرفي أصبعين من أصابعه في خرقي أذنيه، لئلاَّ يسمعوا، وذلك حقيقة، **أو المراد عدم قبول ما سمعوا حتَّى كأنَّهم لم يسمعوا** كما لا يسمع من سدَّ أذنيه بأصبعيه.

﴿وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ بالغوا في الاستـــتار عنه بثيابهم بجعلها غاشية لهم مغطِّية، مبالغة في عدم السَّمع، وزيادة أن لا تراه أعينهم، وذلك حقيقة.

أو المراد مزيد الفرار، وقيل: حقيقة لكن لئلاَّ يعرفهم فيدعوهم، وذلك أنَّه يدعو أكابرهم بحسب نظره، ويدعو العامَّة كذلك، ويدعو من لا يعاجله بالأذى حتَّى يتمَّ كلامه، وكلٌّ بحسب مقامه في الدعاء، فكان من يظنُّ أنَّ نوحًا يدعوه يستر نفسه، **وَهَذَا ضعيف ينافي قوله:** ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ وتقدير: كلَّما أردت دعاءهم إلغاء للظاهر إلى الباطن بلا داعٍ.

﴿وَأَصَرُّوا﴾ دَاوَمُوا على الكفر، من الصرِّ على الشيء بمعنى الشدِّ عليه، أي: صاروا ذوي صَرٍّ، أي: ملازمة للكفر. ومن العجيب ما قيل من جعله مِنْ أَصَرَّ الحمار على الأتان إذا رفع أذنيه وسوَّاهما يتبعها للسفاد، تشبيهًا لحالهم في الكفر بحال الحمار، مبالغةً في ذمِّهم، وأَعجَبُ مِنْ قائله مَنْ يستحسنه!.

﴿وَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن اتِّباعي ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ عظيمًا، وقيل: نوعًا من الاستكبار غير معهود، ولا يصحُّ، لأنَّ التنكير يدلُّ على التعظيم، أو التحقير لا على النَّوع، والاستكبار دعوى أنَّ له كِبْرًا وليس له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ هذا تعميم لوجوه الدعوة، وقوله: ﴿لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ تعميم للأوقات.

و«ثُمَّ» للتراخي الرتبي في الموضعين، فإنّ الجهار أشدُّ من الإسرار وأغلظ، والجمع بينهما أغلظ من الإفراد. أو للتراخي الزمانيِّ على الأصل، باعتبار مبدأ كلٍّ من الإسرار والجهار ومنتهاه، وباعتبار منتهى الجمع بينهما لئلاّ ينافي عموم الأوقات المذكورة.

وقد قدَّم لهم الإسْرار لأنَّه أجلب، فالحاصل تقدُّم الإسرار ويليه الجهار، ثمّ الجمع بينهما في مقام واحد، فلا تكرار بين الجهار والإعلان.

والجهار مصدر جاهرَ، والنَّصب على المفعوليَّة المطلقة، لأنّ الجهار نوع من الدعاء، كقعدت القرفصاء، أو لأنّ «دَعَوْتُهُمْ» مستعمل في معنى جاهرتهم، كقمت وقوفا، أو لتقدير مضاف، أي: دعاء جهار، والجهار يستعمل في الدعاء وغيره، أو حال لتأويله باسم الفاعل، أي: مجاهِرًا ولتقدير مضاف، أي: مصاحب جهار، أو مبالغة كأنَّه نفس الجهار. وفي لفظ الجهار مفاعلة، فهو يجهر لهم بالدعاء وهم يجهرون له بالردِّ والإنكار.

﴿فَقُلْتُ﴾ بعد قولي: آمنوا بالله وحده واعبدوه وحده ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ من إشراككم ومعاصيكم، وذَكرَ الله ﷻ نَفْسَهُ بالرُّبوبيَّة لأنَّها أدْعَى إلى الاستغفار **فإنَّ من ملَكَكَ وأنعم عليك يَحِقُّ أن تشكره ولا تكفره.**

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ كثير المغفرة وعظيمها، فإنَّكم كثيرو المعاصي وعظيموها، ومقيمون عليها زمانًا طويلاً ومع ذلك يغفرها بتوحيد ساعة.

وزاد على المغفرة الإحسان إليهم بما يرغبون فيه من إدرار المطر، والإمداد بالأموال والبنين والجنَّات والأنهار في الدنيا، مع ما لهم في الآخرة.

قد قطع الله عز وجل عنهم المطر وأعقم نساءهم أربعين عامًا، أو سبعين، لكفرهم بنوح عليه السلام ، فوعدهم بما ذكر من المطر وما ذكر معه إن آمنوا، وذلك قوله عز وجل :

﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ من جهة السَّماء أو من السَّحاب، وكلُّ ما أظلَّك فهو سماء لك، وسقف البيت سماء. والمدرار: كثيرة الدُرور، أي: السيلان، و لم تلحقه التاء لأنَّ صفات المبالغة لا تلحقها التاء التي للتأنيث.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ في الدنيا وليس المراد في الآخرة كما قيل. ﴿وَيَجْعَل لَّكُمُ, أَنْهَارًا﴾ أعاد لفظ الجعل لتغاير الجنَّات والأنهار، بأنَّ لهم في الجنَّات عَمَلاً دون الأنهار، وَلَمَّا لم يتغاير الأموال والأولاد وكانت من الله عز وجل لم يُعدْ لفظ الإمداد، كذا قيل، وفيه أنَّ لهم في الأموال عملا، وأنَّ الأنهار مناسب للجنَّات بلا إعادة للفظ الجعل.

(بلاغة) فالجعل إنَّما أعيد لشدَّة الاحتياج إلى الأنهار للشرب والغسل والطَّعام، وشدَّة احتياج الجنَّات إليها، إذ لا بقاء لها مع عدم الأنهار، ووجودها بلا بقاء لا عبرة به، و لم يكرِّر الإمداد مع البنين لأنَّ عدم التكرير هو الأصْل إلاَّ لِدَاعٍ لهُ، ولا داعي هنا، بل هنا داع إلى عدمه، لأنَّ الأموال والبنين كشيء واحد في المحبوبيَّة، والمال يتكدَّر بعدم الولد، والولادة تتكدَّر بعدم المال.

وأخَّر البنين لأنَّ آخر أمر الأموال إليهم بإعطاء الأب أو بالإرث، ولأنَّها تحتاج إليهم، ولا سيَّما أهل البَدْوِ، لشأن الرَّحيل والنزول، والحمل على الدَّوابِّ والإنزال عنها، والرعي وتدبير أماكن الرعي.

اشتكى رجل إلى الحسن الجدب، والآخر الفقْر، والآخر عدم ولادة الابن، والآخر جفاف بستانه، فقال لكلٍّ واحد: استغفر الله تعالى، فقال له الرَّبيع بن

صبيح: أمرهم بشيء واحد مع اختلاف مسؤولاتهم؟ فقال: قال الله تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ....﴾ إلخ.

وخرج عمر يستقي و لم يزد على الاستغفار حتَّى رجع، فقيل: لم تستسق؟ فقال: طلبت الغيث بمجادح السَّماء، فقرأ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ....﴾ إلخ. نجمٌ تنسبُ إليه الجَاهليَّةُ المطرَ، وقيل: هو الدبران، خاطبهم بما عرفوا وهو يعتقد أنَّه لا نَوْءَ إلاَّ بالله تعالى.

﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام إنكار لأن يليق سبب ما في عدم رجاء الله عز وجل . ﴿لاَ تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا﴾ لا تخافون. كقول أبي ذؤيب:

«إذا لسعته النحل لم يرج لسعها»

أيْ لم يَخَفْ لسعها. أو المعنى: لا تعتقدون. وقيل: لا تبالون، ويحتمله كلام أبي ذؤيب.

وقيل: لا تأملون ولا تطمعون أن يوقِّركم الله تعالى، أي: يُعظِّمكم بالرضى عنكم والثواب على أعمالكم في الطَّاعة إن عملتم، وهذا لا يناسب قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ لأنَّ خلقهم أطوارًا ليس ممَّا يدعوهم إلى الطمع في الثواب والرضى عنهم.

وعن ابن عبَّاس: لا ترون لله عظمةً، ويُقال: لا تعرفون له حقًّا، ولا تشكرون له نعمةً.

(بلاغة) ومقتضى الظاهر: ما لكم لا تثبتون لله وقَارًا، لَكنَّ لفْظَ الرَّجاء المناسب للظنِّ دلالةٌ على أنَّه ليس لهم في تعظيم الله عز وجل ولو أقلَّ قليل، ولو بلا جزم، بل بنحو ظَنٍّ، مع أنَّه لا أقلَّ من أن يظنُّوا لِقُوَّة الدلالة و كثرتها.

والجملة حال من الكاف. و«لله» حال من قوله: ﴿وَقَارًا﴾ أي: عظمة في نفس الأمر، أو في نفوس النَّاس، أو حلمًا، والحليم يعاقب إذا رأى ما يكدِّر صفو حلمه، أي: لا تخافون عاقبة حلمه، كما فسَّره ابن عبَّاس بالعاقبة.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حال من الكاف، أو من لفظ الجلالة، والمفرد طور، أي: حال، فالأطوار العناصر والأغذية، والنطف والعلق والمضغ والعظام واللُّحوم والخلق الآخر على ذلك الترتيب.

وقيل: الأحوال المختلفة بعد الولادة من الصِّبا والشباب والكهولة والشيخوخة بعدها، والقوَّة والضعف، والألوان والهيئات والأخلاق، والصحَّة والسقم، وكمال الأعضاء ونقصها، والغنى والفقر، والعقل وعدمه، والطول والقصر، وكمال الحواس الخمس ونقصها، وقيل: معناه مختلفين، لا يشبه بعضٌ بعضًا حتَّى لا تمييز.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَات طِبَاقًا﴾ مفعول ثان لـــ«خَلَقَ» بمعنى صَيَّر أن كنَّ طبقًا واحدًا، وجعلهنَّ بالفتق سبعًا، كما في الآية (سورة الأنبياء: ٣٠) ، ومعنى المطابقة أنَّ بعضًا فوق بعض مقابل له، وقيل: تطابقهنَّ في الحسن والاشتمال على الحكم وجودة الصنعة، وهو قول مخالف للظاهر وللأخبار الواردة.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ في مجموعهنَّ، إذ هو في السَّماء الدنيا، لكن لَمَّا جمعهنَّ اسم السماء والشَّفَافَةُ والعلوُّ والتطابق صرن كواحدة، فنسب إليهنَّ ما لواحدة، وليس من باب الكليَّة والجزئيَّة، لأنَّه ليست إحداهنَّ جزء من الأخرى، ولا هنَّ جزء من واحدة.

وعن ابن عبَّاس وابن عمر: إنَّ وجه الشمس والقمر إلى فوق، فهما مضيئان فيما فوقهما أيضًا، فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾. ﴿نُورًا﴾ يضيء الأرض وما فيها ليلاً.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ للدنيا بالضَّوْء كالمصباح في البيت، وضوؤها ذاتيٌّ لها قام بها لم ينعكس إليها من غيرها، كما أنَّ المصباح لم ينعكس إليه الضَّوء من غيره، ولو قبس من غيره، بخلاف القمر فإنَّ ضوءه انعكس إليه من غيره على المشهور انعكس إليه من الشمس. ويقدَّر: وجعل الشمس فيهنَّ، على حدِّ ما مرَّ في القمر، وهي في السَّماء الرابعة على المشهور.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الاَرْضِ﴾ بإنبات آدم منها، أو بالأطوار المتولِّدة منها. ﴿نَبَاتًا﴾ اسم مصدر، أي: إنباتًا عجيبًا.

(بلاغة) وأنبت استعارة لأنشأ تبعيَّة، أو شبَّه الإنسان بنحو النخلة أو الشجرة ورمز لذلك بذكر لازمها وهو الإنبات، ووجه الشبه النموُّ والنفع.

ولا حاجة إلى تقدير: أنبتكم من الأرض إنباتًا فنبتــتم نباتًا عجيبًا، على الاحتباك، وأنبتكم فنبتــتم نباتًا، لمجرَّد كون النبات ثلاثيًّا مصدر الفعل ثلاثيٌّ، إذ يكفي عن ذلك ما مرَّ من جعله اسما للإنبات.

واختار بعضهم هذا التقدير مدَّعيًا أنَّ الإنبات فعلٌ لله تعالى، ولا يَحُسُّون فعلَه حتَّى يعدُّوه عجيبًا، بخلاف نبتــتُّم نباتًا عجيبًا، وفيه أنَّ المشاهد هو صورة الإنسان ومشاهدتُها على ما هي أمر لا يختلف بالإنبات والنبات.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالموت والدفن، ويجوز أن يكون معنى الإعادة فيها ردُّه ترابًا على أنَّه يصير ترابًا أو شبيهًا به. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها بالإحياء والبعث، و لم يعطف بــ«ثمَّ» لأنَّ الزمان من حيث يموت إلى ما لا نهاية له زمان واحد، بخلاف زمان الإنبات وزمان الإخراج فهما جنسان لا جنس واحد. ﴿إِخْرَاجًا﴾ محقَّقًا لا ريب فيه.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: كالفراش تتقلَّبون فيها، ولو كانت كريَّة الشكل على الصَّحيح، إلاَّ أنَّ كريَّتها لا تتبيَّن لنا لعظمها، وإلاَّ أنَّ خطَّ الاستواء بسيط غير كري.

(هيئة) والأرض مكوَّرة على صورة الكرة، ودورها خمسة آلاف ميرياميتر على قياس الفرنسيِّـــين. والماء يغمر الجزء الأعظم من سطحها.

والمغرب جهة غروب الشمس، وهو مقابل للمشرق، والشمال هو الجهة التي أمامك إذا جعلت المشرق يمينك والمغرب شمالك، والجنوب هو الجهة المقابلة للشمال.

(جغرافيا) وكرة الأرض خمسة أقسام أوربا وآسيا وإفريقيا وأمريكا وأوقيانوسيا، وهذه الأقسام متخلِّلَة بالبحر، والبحر المحيط ثلاثة: المحيط المغربي، [ويسمَّى بالفرنسيس: أوسيان أطلنـــتيق]، وهو ممتدٌّ بين أوربا وإفريقيا وأمريكا، والمحيط الأكبر [ويسمَّى بالفرنسيس: أوسيان باسيفيق][1] وهو ممتدٌّ بين آسيا وأمريكا، والمحيط الهندي وهو ممتدٌّ بين إفريقيا وآسيا والأوقيانوسيا، وتوجد بعض أجزاء من البحر المحيط بآسيا، وهي في أوربا أربعة: الأوَّل البحر الأوسط بين أوربا وإفريقيا وآسيا، ويتَّصل من جهة جبل طارق إلى برِّ الشام، والثاني بحر بانطس أو بحر الموسكو بين المملكة العثمانية، ومملكة الموسكو، والثالث بحر الشمال بين جزائر الإنكليز ومملكة سويد، والرابع بحر بلطيق بين مملكة بيروسيا ومملكة سويد ومملكة الموسكو.

وقدَّم «لَكُمْ» للاهتمام بخطابهم، وذِكْر ما يدلُّ على نفعهم، فإنَّ اللاَّم للنفع.

١-ما بـــين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

﴿لِّتَسْلُكُواْ﴾ اللاَّم الأولى استقراريَّة في المفعول الثاني، وليس معناها معنى هذه، وكذا إن علِّقت بـ«جَعَلَ» بمعنى خلق، فإنَّها للنفع وهذه للتعليل. ﴿مِنهَا﴾ أي: فيها، أو «مِنْ» للابتداء، أي: من موضع منها إلى موضع، أو المعنى: لتتَّخذوا منها، ويجوز تعليقها بمحذوف حال من قوله تعالى: ﴿سُبُلاً﴾ فتكون للتبعيض. ﴿فِجَاجًا﴾ نعت «سُبُلاً»، أي: طرقًا واسعة، لأنَّه صفة مشبَّهة، وقيل: غير صفة بل اسم للطريق الواسع، أو للمسلك بين الجبلين، فيكون عطف بيان على القول بجوازه في النكرات أو بدلاً.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيَٓـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُواْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

شكوى نوح إلى الله من مساوئ قومه والدعاء عليهم

﴿قَالَ﴾ لمناجاة الله تعالى ﴿نُوحٌ﴾ أُظهِر لطول الفصل ﴿رَبِّ﴾ يا ربِّ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إنَّ غير المتجبِّرين بالمال والولد، أو المجموع لا الجميع، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾. ﴿عَصَوْنِي﴾ من حين بلَّغت الرسالة إليهم إلى الآن.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ, إِلاَّ خَسَارًا﴾ كَفَرَ أَكَابِرُهم ذَوو المال والولد استغناء بحالهم واتَّبعهم باقيهم تقليدًا أو مداهنةً أو طمعًا أو خوفًا. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ الجمع في «مَكَرُوا» باعتبار معنى «مَن»، والإفراد قبلُ للَفظها، واختير الجمع هنا والإفراد قبلُ ليكون أشدَّ وأعظم في الدلالة على قوَّة المكر، والعطف على «لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ»، أو على «عَصَوْنِي»، وهذا أنسب لكون العاطف هو الواو وهي لا ترتِّب.

والأوَّل أنسب لدلالته على أنَّ المتبوعين ضمُّوا إلى الضَّلاَل الإضْلاَلَ، ولأنَّ ما بعده من صفات المتبوعين الرؤساء، وإذا قلت في الضمير: إنَّه جَمْعٌ فالمراد إنَّه ضمير الجماعة. وفُعَّال بالضمِّ والشدِّ صفة مبالغة، وهي لغة اليمن ككُبَّار هنا، وقراءة في قول الشاعر:

بيضاء تصطاد الغَوِيَّ وتستبي ... بالحسن قلب المسلم القُرَّاء[1]

روي بضمِّ القاف، وكالوُضَّاءِ بالضمِّ والشدِّ في قوله:

والمــــرء يُلْحِقُه بفتـــيان النَّدَى ... خُلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بِالوُضَّاءِ[2]

وسمع أعرابيٌّ جاهلٌ رسولَ الله ﷺ يقرأ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ فقال: «ما أفصح رَبـــَّك يا محمَّد!» لا يدري أنَّ الله سبحانه لا يوصف بالفصاحة ولا بالبلاغة والمبالغة، وإذا أُطلق شيء من ذلك في كلامه فالمعنى اعتباره في كلام العرب.

﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ لا تتركوا احترامها وعبادَتَها إلى عبادة ربٍّ

١- البيت لزيد بن تركي الزبيدي في لسان العرب مادَّة «قرأ»، ج١١، ص٧٩.

٢- البيت لأبي صدقة الدبيري كما في لسان العرب. مادّة: «و.ضــ.أ» ج١٥ ص٣٢٢

نوح ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا...﴾ إلخ ذِكر خاصٍّ بعد عامٍّ لمزية هذا الخاصِّ عندهم، فإنَّ هذه الخمسة أعظم آلهتهم، والثلاثة الأولى أيضًا أفضل الخمسة، ولذلك كانت بإعادة لا، وقيل: لم يعد لا مع الأخيرين لكثرة تكرار لاَ، وعدم اللَّبس لظهور أنَّ السلب كلِّيٌّ لا كلٌّ، ولو لم تتكرَّر. ويذكر الخاصُّ قبل العامِّ أيضًا لمزيَّته نحو: قام زيد والقوم.

(قصص) وكانت أسماؤها أسماء لرجال صالحين من قوم نوح عليه السلام مَاتُوا، فنصب مَن بَعدهم أنصابًا في مجالسهم، وسمَّوها بأسمائهم ليجتهدوا في العبادة إذا رأوها وتُذَكِّرُهم، وذلك بوسوسة الشيطان، ومات هؤلاء النَّاصبون أيضًا واندرس العلم، فعُبِدَتْ.

وعن محمَّد بن كعب القرظيِّ: أسماء لخمسة بنين من ولد آدم عُبَّاد، فمات واحد منهم فحزنوا، وقال لهم الشيطان أصوِّر لكم مثله في قبلتكم تذكرونه إذا رأيتموه، قالوا لا نصلِّي إلى شيء قال نُصوِّره آخر المسجد فرضوا ففعل، وَلَمَّا مات الأربعة صوَّرهم أيضا في مؤخَّره، وما زال أمر دينهم ينقص حتَّى عبدوها وتركوا عبادة الله عز وجل، فأرسل الله إليهم نوحًا.

وذكر عروة بن الزبير أنَّ «وُدًّا» كان أكبرهم وأبرَّهم لأبيه آدم.

ويروى أنَّ «ودًّا» أوَّل معبود غير الله، ويروى أنَّه كان رجلاً مسلمًا محَبَّبًا في قومه، مات فعسكروا حول قبره في بابيل، وجزعوا، فقال لهم إبليس في صورة إنسان: أصوِّرُ لكم مثله يكون في ناديكم فتذكرونه، ففعل، ثمَّ قال: أجعل لكلِّ أحد منكم مثله في بيته، ففعل فهم يذكرونه فدرس العلم ثمَّ عبد الذرِّيةُ تلك الصور.

وانتقلت هذه الأصنام إلى العرب، فكان وُدٌّ على صورة رجل لكلب بدومة

الجندل. ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ هو على صورة امرأة، انتقل إلى هذيل. ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ على صورة أسد، انتقل إلى مراد، ثمَّ لبني غطيف بالجرف عند سبأ، قال أبو عثمان النهدي: رأيت يغوث من رصاص يحمل على جمل أجرد يسيرون معه ولا يهيِّجونه ولا ينزلون إلاَّ حيث برك وحدَهُ بلا مُبْرك فينزلون، فيقولون قد رضي لكم المنزل.

وعن ابن عبَّاس كانت هذه الأصنام الخمسة مدفونة فأخرجها الشيطان للمشركين من العرب. وكانت لهم أصنام أُخر: اللاَّت لثقيف، والعُزَّى لسليم وغطفان وجشم، ومناة لخزاعة بقديد، وأساف ونائلة وهبل لأهل مكَّة، ويسمُّون بعبدِ وُدَّ وعبد يغوث وعبد العزَّى ونحو ذلك.

﴿وَيَعُوقَ﴾ على صورة فرس، انتقل إلى همذان. ﴿وَنَسْرًا﴾ على صورة نسر، انتقل إلى حمير لآل ذي الكلاع.

[قلت:] وما ذكر أنَّها على صورة ما ذكر مُخالفٌ لما ذكر أنَّها على صورة ناس صالحين، وهو الأصحُّ، إلاَّ وُدًّا فإنَّه على صورة رجل وليست باقية على أعيانها، بل يصوَّر مثلها، أو بقيت الأسماء فاتَّخذت العرب أصنامًا بأسمائها. وقد ذكر الألوسيُّ أنَّ الإفرنج أخرجت في حدود الألف والمائتين والستِّين أصنامًا وتماثيل من أرض الموصل كانت منذ نحو ثلاثة آلاف سنة.

﴿وَقَدَ اَضَلُّوا﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ من النَّاس قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسَّكوا بعبادة الأصنام، وليسوا بأوَّل من أضلُّوا، بدليل المُضَيِّ و«قَدْ»، فالإضلال استمرَّ إلى زمان الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة.

أو الكثير هؤلاء الموصون، فالأصل: وقد أضلَّ الرؤساء الموصَيْن المخاطبِين بقوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ فوضع «كَثِيرًا» موضع ذلك.

وقيل: الواو للأصنام لتنزيلهم منزلة العقلاء عندهم، ويؤيِّده القرب، إلاَّ أنَّه

يبعده أنّ المحَدَّث عنهم الرؤساء فهم أولى بردِّ الضمير إليهم، وأيضًا ذكر الخمسة من كلامهم كما قال: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ...﴾إلخ، ﴿وَقَدَ اَضَلُّواْ﴾ من كلام الله تعالى، وأيضًا الإضلال أنسب بالعقلاء، وهو حقيقة فيهم مجاز في غيرهم.

﴿**وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً**﴾ من كلام نوح ﷺ ، كما لا يخفى، ولا يحتمل غيره، وهو ممَّا ينسحب عليه «قَالَ»، فقد عَطَفَ نوحٌ الإنشاء على الإخبار، وهو قوله: «عَصَوْنِي»، ويجوز أن يقدَّر: «قَالَ» معطوفًا بالواو، هكذا: وقال: ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً﴾ فلا تكون نَصًّا في أنّه ﷺ قال هذا بالعطف، وتكون الواو من كلام الله تعالى، كما قال بكر: أطاع الله زيدٌ أكرِمْهُ، فتقول: قال بكر: أطاع الله زيدٌ، وقال: أكرِمهُ، وحذفْتَ «قال» الثاني وأبقيْتَ الواو التي من كلامك.

ولك أن تجعل الواو من كلام نوح عاطفة على إنشاء محذوف، أي: «اُخْذُلْهُمْ ولا تزدْ». ثمَّ إنَّ مقتضى الظاهر: ولا تزدهم إلاَّ ضَلاَلاً، وأظهر ليصفهم بالظُّلم الموجب لهلاكهم، وإشعارًا باستحقاق العذاب، وإبداءً لعذر نوح في الدعاء عليهم.

ولك العطف على «رَبِّ» مع ما بعده، لأنَّ النداء إنشاء، أو لأنَّه بمعنى الشكاية المتضمِّنة للطلب، فمعنى «يَا رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي»: انصرني عليهم، واختاره بعض واستحسنه، وليس كذلك.

والمراد بالضلال ان يخطئوا في احتيال المكر فلا يتمَّ لهم فلا يؤثِّر في دينك، ولا يصلح عليه أمر دنياهم. أو المراد الضلال في الدين، وهذا بعْدَ أن أُوحيَ إليه ﴿أَنَّهُ, لَنْ يُّومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدَ ـــ امَنَ﴾ (سورة هود: ٣٦) ، أو مطلقًا، لأنَّه

أيس منهم.

والزيادة في ضلال الدِّين سببُ الهلاك، كما فَسَّرَه بعض بالهلاك، وبعض بالعذاب، وبعض بالضلال في أمر الدنيا، وإذا قلنا: في الدِّين، فإنَّ الله تعالى أباح له ذلك، وإلاَّ فإنَّه مبعوث للصرف عن الضلال، ولا يكفي جوابا أنَّه قاله بعد أن أوحي إليه ﴿أَنَّهُۥ لَنْ يُّومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدَ ـــ امَنَ﴾.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمُۥ﴾ «مِن» للتعليل متعلِّقة بـــ«أُغْرِق» بعدها، وقدِّم للحصر على طريق الاهتمام بذكر ما أوجب الإغراق، وللتشويق إلى ذكر ما يترتَّب على الخطايا، و«مَا» صلة للتأكيد، أو نكرة تامَّة «خَطِيئَاتِهِم» بدل منها.

﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ عظيمة، قيل: أو نوعًا منها، وذلك نار البرزخ التي يحرق بها قبل البعث، يحرقون بها في الماء، وفي ذلك إثبات عذاب القبر وفي ذلك خطاب الكفَّار بفروع الشرع، لأنَّ الخطيئات يشمل غير الشرك والله قادر. وقد قيل:

لا تعجبنَّ لأضداد إذا اجتمعت فالله يجـــمع بـــين الماء والنَّار

ألا ترى أنَّ النَّار تنزل من السَّحاب؟ وأنَّها تستخرج من العود الأخضر؟. وإن أريد نار الآخرة، أي: سيدخلون نارا بعد الموت، فالفاء لمجرَّدالسببـــيَّة لا اتِّصال فيها، أو هي للاتِّصال وفصلُ البرزخ كَلاَفصل عند الله ﷻ ، وأيضًا وجود السبب بمنزلة وجود المسبَّب.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ﴾ لم يصادفوا لأنفسهم، ففيه عمل عامل في ضميرين لمسَمًّى واحد بلا تبعيَّة، لأنَّ أحد الضميرين مجرور بالحرف، مثل هذا في القرآن

كثير لا يختصُّ بباب «ظَنَّ». ولك جعْل «يَجدُوا» بمعنى يعلموا.

﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ حال من قوله ﷻ: ﴿أَنصَارًا﴾ كلٌّ واحد لم يجد ناصرًا عن العذاب، وفيه تعريض بأنَّ آلهتهم لم تقدر على نصرهم، وتَهَكُّم بأنَّ لهم أنصارًا لا تقدر على نصرهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ يا ربِّ ﴿لاَ تَذَرْ عَلَى الاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿دَيَّارًا﴾ بفتح الدَّال وشدِّ الياء بمعنى أحدًا، ولا يستعمل في الإثبات، وأصله دَيْوَارًا بوزن فَيْعَال، قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء، ومعناه: يسكن دارًا، أو يدور، أي: يتحرَّك، لا بوزن فَعَّال من صفات المبالغة، وإلاَّ قيل دَوَّار.

و«الأرض» إمَّا عامَّة على أنَّه أُهلك كُلُّ من فيها وَكُلُّهُم كفَّار إلاَّ الأطفال والمجانين من الطفوليَّة، عمَّهم عذاب الدنيا، ويبعثون على غير كفر، وقيل: أعقموا أربعين عامًا أو سبعين عامًا[1]، ومن آمن لم يغرق ولَوْ لَمْ يكن في السَّفينة كما روي أنَّه سار في الأرض بعد الخروج من السفينة ووجد قومًا فقال: لماذا لم تغرقوا؟ قالوا: ما قلت في دعائك؟ فقال قلت: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فقالوا: لسنا كافرين[2].

ويحتمل أنَّه ليس في الدنيا إلاَّ قومه الكافرون، ومن آمن منهم، ويجوز أن يكون أباح الله له الدعاء على الكُفَّار ولو أنَّهم لم تبلغهم دعوته.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ كلّهم أو بعضهم ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ الذين

١- وقد استْبعد الشيخ هذا القول. انظر: ج٦، ص٤٠٧.

٢- انظر: ج: ٦، ص: ٤٠٧.

آمنوا، ويضلُّوا أولادهم إذا بلغوا، على أنَّهم لم يعقموا، وأولاد من آمن، وهذا ظنٌّ منه لكثرة ما رأى منهم في طول عمره، أو أيقن بقوله تعالى: ﴿لَنْ يُّومِن...﴾ إلخ (سورة هود: ٣٦) ، وكان الرجل يأتي بولده ويقول: لا تؤمن بهذا، فإنَّ أبي قد أوصاني أن لا أومن به، ونشأوا على ذلك موصًى بعد موصٍ.

﴿وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ لأنَّ الكبار يضلُّون الصغار، قال محمَّد بن كعب القرظيُّ: ما دعا عليهم إلاَّ بعد أن أُخرج من أصلابهم كلُّ من يؤمن.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ذنوبي، وقيل: أراد غفران دعائه على قومه انتقامًا، وهو خطأ، إذ لا ينتقم نبيء، بل دعا نصرةً للإسلام.

قلت: واعلم أنَّه جرت عادة بني مضاب إذا قرأوا آيات وسورا مخصوصات آخرهنَّ سورة النَّاس أن يبسملوا ويقرأوا ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...﴾إلخ، وقلت لهم: إنَّ أصحابنا كرهوا قراءةَ البسملة وسط قراءة القرآن، والبَدْءَ بها في غير أوَّل سورة في قراءة القرآن، فتركوها.

وقال جاهل: إنَّ قولنا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...﴾ إلخ السورة ليس قرآنًا لأنَّا دعونا به دعاء. وهذا كفر شرك، لأنَّه نقص من القرآن، وقد يعتبر قوله: لأنَّا دعونا به تأويلا فيكون نفاقًا، والأولى أن لا يعتبر، لأنَّه يقرؤه على أنَّه قرآن، فقد تناقض كلامه، والناقصُ من القرآن ملعون كالزائد فيه.

وليس قوله ﷺ : «بَلَى» بعد قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ زيادةً، ولا تتوهَّم الزيادة، ومن نسب الزيادة في القرآن إليه ﷺ فقد أشرك، ومن فعل مثل ما فعل النبيء ﷺ حَلَّ له وَأَدَّى السُّنَّة، و لم يكن ذلك منه زيادة فيه.

وكان أهل نفوسة وأهل جربة يصلُّون على النبيء ﷺ ويسلِّمون إذا قرأوا اسمه في القرآن جماعة أو فرادى.

وذكر الأخضريُّ[1] أنَّه من ذكر اسمه أو سمعه صلَّى عليه، وأنَّ كلَّ دعاء أو عبادة منه مقبول ومنه مردود إلاَّ الصلاة عليه فمقبولة، أي: لأنَّها نفع له ﷺ .

﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ أي: لمك وأُمِّي شَخَى، وكانا مؤمنين لا مشركين، ولذلك دعا لهما بالمغفرة. وعن ابن عبَّاس: أباؤه كلُّهم مسلمون إلى آدم عليه السلام ، وقيل: أراد آدم وحوَّاء. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ منزلي، وهو الأظهر، وفي معناه: أهلي، وهو مشهور، أو سفينتي، أو مسجدي، ونسب للجمهور وابن عبَّاس، وقيل: شريعتي، على الاستعارة، كما يُقال لمدينة: دار الإسلام، وقبَّة الإسلام، وفسطاط الدين.

﴿مُومِنًا﴾ أخرج به زوجه وابنه كنعان، وقيل: لم يجزم بخروج كنعان إلاَّ بعد ما قيل: ﴿إِنَّهُ, لَيْسَ مِنَ اَهْلِكَ﴾ (سورة هود: ٤٦) . ﴿وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ من لدن آدم إلى آخر الدهر، من الإنس والجنِّ، وهذا تعميم بعد تخصيص. ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ أراد قومه، أو العموم فيدخلون.

وأظهر على الأوَّل لِمَا علمت من اعتبار ذكر وصفهم الموجب للتَّبار، ولو قال: ولا تزدهم ــ بردِّ الهاء إلى قومه الكافرين ــ لم يشكل، لكن أظهر لذلك. ﴿إِلاَّ تَبَارًا﴾ هلاكا، وهو أولى من قول مجاهد: خسارًا، وكما

١-هو عبد الرحمن بن محمَّد الصغير بن عامر الأخضريُّ، من أهل بسكرة جنوب قسنطينة بالجزائر، ولد سنة ٩١٠هـ، وهو أديب منطقيٌّ، له مشاركة في بعض العلوم، وهو صاحب منظومة «جوهر المكنون»، و«الدرَّة البيضاء» في الفرائض. تُوُفِّيَ سنة ٩٥٣هـ. وضريحه في زاوية بنطيوس. معجم أعلام الجزائر، ص١٤.

أجابه الله عَزَّوَجَلَّ في قومه بالهلاك أجابه في الدعاء للمؤمنين بالغفران، جعلنا الله الرَّحمن الرَّحيم منهم.

عن ابن عبَّاس: أوَّل من يدعى يوم القيامة قوم نوح، فيقولون: ما بلَّغنا شيئًا، فيقول: يا ربِّ بلَّغتهم تبليغًا مشهورا حتَّى بلغ خاتم النبيئين محمَّدًا ﷺ وأمَّته، فيؤتى بهم فيصدِّقونه بما في هذه السورة، فيقولون: كيف شهدت علينا أنت وأمَّتك وأنتم آخر النَّاس؟ فيقول رسول الله ﷺ : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا...﴾ إلى آخر السورة، فتقول الأمَّة: هذه شهادتنا نشهد ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنِ اَلَه الاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة آل عمران: ٦٢) ، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة يس: ٥٩) ، أشهدُ أنَّ القرآن حقٌّ.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.

تفسير سورة الجنّ وآياتها ٢٨

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

إيمان الجنّ بالقرآن

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُل**﴾ لقومك لعلّهم يؤمنون بك كما آمن الجنُّ بك، وليسوا من جنسك، وكيف لا يؤمنون بك وهم أفضل من الجنِّ وأعقل؟.

قيل: الجنُّ حيوان هوائيٌّ يتشكّل بأشكال مختلفة. وقيل: جواهر، لا أجسام ولاَ أعراض، بعضها شرِّيرة كريهة محبَّة للشرور، وبعضها خيِّرة كريمة محبَّة للخيور، ولا يعلم عدَّة أنواعهم إلاَّ الله عزّ وجلّ، وقيل: أجسام مختلفة لطيف وكثيف، علويٌّ وسفليٌّ، أقدرها الله تعالى شأنه على أفعال عجيبة.

﴿**اوحِيَ إِلَيَّ...**﴾ إلخ صريح في أنّه لم يؤمر بموعدٍ لهم ومعرفةٍ وقَصْدٍ لأَنْ يعظهم بالقرآن، بل حضروه وهو لا يدري بهم، بل علم بالوحي؛ فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ ولا رآهم وإنَّما انطلق بطائفة من أصحابه لسوق عكاظ».

وقد حيل بين الجنِّ والسماء بالشهب فقالوا: ما ذلك إلاَّ لشيء حدث، فاضربُوا مشارق الأرض ومغاربها، فمرَّ من ذهب إلى تهامة منهم بالنبيء ﷺ وهو يصلِّي الفجر بأصحابه بنخلة، فاستمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين السَّماء، ورجعوا إلى قومهم وقالوا: «يَا قَوْمَنَا...» إلخ فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ اوحِيَ إِلَيَّ...﴾ إلخ وعكاظ سوق صغيرة معروفة بقرب مكَّة، تقصدها العرب في الجَاهليَّة في كلِّ سنة مرَّة وفي أوَّل الإسلام، وتهامة ما نزل على بلاد نجد من بلاد الحجاز، سمِّيت تهامة لتغيُّر هوائها، ومكَّة من تهامة، ونخلة من أودية مكَّة قريب منها.

وليس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ...﴾ إلخ (سورة الأحقاف: ٢٩) ما يصرِّح بأنَّه ﷺ على عهد بهم وعلى قصد بصرفهم إليه إلاَّ بعد إخبار الله تعالى بالصرف، ولا دليل فيه على أنَّه أرسلهم إلى قومهم نُذُرًا بل سمعوا فأنذروا قومهم.

وأمَّا ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال عن النبيء ﷺ : «أتاني داعي الجنِّ فذهبت معه، وقرأت عليهم القرآن، وانطلق بنَا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم» [قلت:] فهو واقعة أخرى. ووفادة الجنِّ [عليه] ستُّ مرَّات والحافظ حجَّة، والمثبت مقدَّم على النَّافي، كابن مسعود وأبي هريرة، إذ حكيا هذه ولم يعلم ابن عبَّاس بها فنفاها أو نفاها عن أَنْ تفسَّر بها الآية هذه.

وقصَّة الجنِّ وكلامهم معه ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل كانت سنة إحدى عشرة من النبوءة، وابن عبَّاس صغير وما ناهز الحلم إلاَّ في حجَّة الوداع.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : صلَّى النبيء ﷺ العشاء ثمَّ انصرف، فأخذ بيدي حتَّى أتينا مكان كذا، فأجلسني وخطَّ عليَّ خطًّا وقال لا تبرح، وأتاني رجال

منهم كالزط، وقال: ما جاءني إلى السحر، وجعلت أسمع الأصوات، وقلت: أين كنت يا رسول الله؟ قال: أرسلت إلى الجنِّ، فقلت ما الأصوات التي سمعت؟ قال: أصواتهم حين ودَّعوني وسلَّموا عليَّ. **وأحاديث القصَّة كثيرة.**

وعن ابن عبَّاس: كان للجنِّ مقاعد يستمعون من الملائكة، فلمَّا بعث رسول الله ﷺ منعتهم الملائكة منها بالشهب، فأخبروا إبليس فقال: هذا لأمرٍ حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائمًا يُصلِّي بين جبلين في مكَّة فأخبروه، فقال: لهذا الحدث مُنِعتم.

﴿**أَنَّهُ اسْتَمَعَ**﴾ عالجوا السَّمع، قال عكرمة: سمعوا ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وقيل: سورة الرَّحمن.

واعلم أنَّه إذا ذكر في حديث أو أثر أوَّل السورة بلا ذكر بسملة فاعلم أنَّها مرادة، [قلت:] ولا تذكر تخفيفًا واختصارًا، مع العلم بها بأنَّها أوَّل كلِّ سورة سوى سورة التوبة. وقد تذكر كما مرَّ آنفًا.

﴿**نَفَرٌ**﴾ ثلاثة من أهل حرَّان، وأربعة من أهل نصيبين، التي باليمن، وعن عكرمة: اثنا عشر ألفًا، والأوَّل أظهر، وهم من الشيصبان وهم أكثر الجنِّ عددًا، وعامَّة جنود إبليس منهم، والمشهور في اللغة أنَّ النفر ما بين الثلاثة والعشرة، وقد يُطلق على ما فوق العشرة، كما روي عن الشعبيِّ: حدَّثني بضعة عشر نفرًا، وقد يُطلق على المفرد كما في كلام الشعبيِّ هذا.

ويُطلق النفر على الجنِّ كما في الآية، وعلى الإنس، وعلى الرجال والنِّساء، وقيل: يطلق الرهط والنَّفر إلى الأربعين، وإنَّ الرهط يرجعون إلى أب واحد كما يُقال: رهط من الأنصار، بخلاف النفر، فلا يشرط فيه وحدة الأب، وأطلق على القوم في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (سورة الكهف: ٣٤) .

﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ واحده جنِّيٌّ، وهو مطَّرد في مثل ذلك، كإنسٍ وإنسيٍّ وعربيٌّ، وبربر وبربريٌّ، وتُرْك وتركيٌّ. والجنُّ أجسام عاقلة ناريَّة لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (سورة الحجر: ٢٧) ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (سورة الرحمن: ١٥) ، والمراد أنَّ النَّار تغلَّبت عليهم كما أنَّ آدم من تراب معه ماء.

وقيل: أجسام ناريَّة تغلَّب عليها الهواء، وكلُّهم يقبلون التشكُّل بأشكال مختلفة، وقيل: صنف منهم، ومن شأنهم الخفاء، ولهم قوَّة على الأعمال الشَّاقَّة.

[قلت:] وألَّفت رسالة في إمكان رؤيتهم على صورهم ووقوعها، وفي بعض التفاسير ما نصُّه: وقد تُرى بصور غير صورها الأَصليَّة بل وبصورها الأَصليَّة التي خلقت عليها كالملائكة عليهم السَّلام، وهذا للأنبياء عليهم السَّلام ومن شاء الله تعالى من خواصِّ عباده عزَّ وجلَّ منها ما إنْ حُبِسَ انحبس، وما لا ينحبس.

﴿فَقَالُواْ﴾ أي النَّفر لَمَّا رجعوا إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ كلامًا يقرأ وكتابًا يقرأ، ومعنى كلامًا يقرأ يجمع بعضه لبعض يسرد، والمقصود كتاب من السَّماء. ونكِّر تعظيمًا. ﴿عَجَبًا﴾ بليغ في العِظَم، كأنَّه نفس العجب، كما تقول: زيد صوم إذا أكثر الصَّوم، أو بمعنى مفعول أي معجوبًا به.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ الحقِّ والصَّواب من التوحيد والإيمان ﴿فَئَامَنَّا بِهِ﴾ بذلك القرآن عقب سمعنا بلا تأخير، كلَّما تمَّ كلام آمنَّا به، ويجوز عود الضمير إلى الله تعالى إلاَّ أنَّ إظهار «ربّ» بعدُ يناسب عوده إلى «قُرْءَانًا». والباء صلة للفعل مُعَدِّية له أو سببيَّة.

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لما في ذلك القرآن من الدلائل المسموعة، ومعانيها المطابقة لإدراك عقولنا، والتفريع بالفاء والتعقيب منسحبان على «لَن

نُشْرِكَ» فكان بالواو.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي ربُّنا، وقوله: ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ معترضة قبل مجيء الخبر وهو قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ أو الهاء للشأن و«تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا» خبر، و«مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا» خبر ثان، لأنَّ الجدَّ العظمة، و«تَعَالَى» تعاظم عظمة ربِّنا، وهذه مبالغة، كما إذا بالغتَ في قيام زيد أسندت إلى قيامه قيامًا، فقلت: قام قيامُه (بالرفع).

أو الجدُّ: الملك والسلطان أو الغنى، والجمهور على الأوَّل وفي جميع ذلك هو مستعار من الجدِّ بمعنى البخت، وليس قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ﴾ تفسيرًا لـ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ كما قيل به في وجه جعل الخبر «تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا»، بل ذِكْرٌ لبعض ما شمله، فترك العطف لقصد الإخبار استقلالاً لكونه تفسيرًا كما قيل.

وهو على كلِّ حال متعالٍ عن الصاحبة والولد لجدِّه بمعنى العظمة، أو السلطان أو الغنى.

سمعوا من القرآن ما ينفي عنه الصاحبة والولد اللّذين اعتقدهما كفرة الإنس والجنِّ، فوعظوا به قومهم الواصفين له تعالى بهما.

﴿وَإِنَّهُ...﴾ إلخ من كلامهم عطف على «إِنَّا سَمِعْنَا» وكذا ما يأتي بعدُ، والجملة اثنا عشر [آية]، آخرها ﴿وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ (بالكسر) إلاَّ «أَنَّهُ اسْتَمَعَ»، و«أَنَّ الْمَسَاجِدَ» فليسا من قول الجنِّ بل مِمَّا أُوحي، وهما بالفتح إعْمالاً لقوله: ﴿أُوحِيَ﴾.

﴿وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليس، كما هو ظاهر الإفراد، وذلك قول الجمهور، وقيل: مردة الجنِّ، والجمع مستفاد من جعل الإضافة للجنس، وعلى الأوَّل الإضافة للعهد. ﴿عَلَى اللهِ شَطَطًا﴾ بُعْدًا وهُوَ نسبة الصاحبة

والولد إلى الله ﷻ ، مدحهم باعتقادهم أنَّ قول ذلك بعيد جدًّا حتَّى كأنَّه نفس البعد، أو يقدَّر مضافٌ، أي: ذا شطَطٍ، أو يُؤَوَّل بالوصف ويكفي المدح بمجرَّد اعتقادهم بُعده.

﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الاِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ فقلَّدنا السفيه، والآن لَمَّا ظفرنا بالدليل على نفيه تُبْنا ورجعنا إلى الحقِّ، و«كَذِبًا» مفعول للقول، ونصبه القول مع أنَّه مفرد لأنَّه عبارة عن الجملة، فإنَّ معنى «كَذِبًا» أنَّ لله صاحبةً وولدًا، وليس مفردًا محضًا، كقولك: قال زيد الله، أي: ذكر لفظ الجلالة.

وسَمَّوا القول كذبًا مبالغةً، والأصل: قولا مكذوبًا، أو قولاً ذا كذب، أو هو مفعول مطلق، والمفعول به محذوف، أي: يقولون: اتَّخذ الله الصاحبة والولد قولاً كذبًا.

(نحو) وإذا وقعت «أَنْ» بفتح الهمزة وإسكان النُّون أو بشدِّها بعد «عَلِمَ» أو «ظنَّ» أو نحوهما كفَى المصدر عن مفعولين لاشتمال اللَّفظ قبل التأويل على المسند والمسند إليه، وقيل: المصدر مفعول أوَّل، والمفعول الثاني محذوف وجوبًا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أن لَّن تَقُولَ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾ (سورة المزمل: ٢٠) ، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ (سورة التوبة: ٧٨) ، أي: ظننَّا انتفاء قول الإنس والجنِّ...إلخ ثابتًا، ألم يعلموا علم الله سرَّهم ونجواهم ثابتًا ؟.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الاِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ يعتصمون بهم، ويلتجئون إليهم في دفع الآفات.

كان إذا أمسى الرجل من العرب في واد وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته: «يا عزيز هذا الوادي، أعوذ بك من السُّفهاء الذين في طاعتك»، يريد السُّفهاء سفهاء الجنِّ، وبالعزيز كبيرهم في الرئاسة. وقال رسول الله ﷺ بدله:

«إذا أصاب أحدًا منكم وحشةٌ أو نزل بأرض مجنَّة فليقل: أعوذ بكلمات الله التَّامات اللاَّتي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شرِّ ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السَّماء وما يعرج فيها ومن فتن النَّهار ومن طوارق اللَّيل إلاَّ طارقًا يطرق بخير»[1].

وعن كردم بن أبي السائب الأنصاريِّ: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة أوَّل ما ذكر رسول الله ﷺ بمكَّة فأوانا المبيت إلى راعي غنم، فلمَّا انتصف اللَّيل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الرَّاعي فقال: «يا عامر الوادي جارَك»، فنادى منادٍ لا نراه يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشْتَدُّ حتَّى دخل الغنم، و لم تصبه كدمةً، فأنزل الله تعالى بمكَّة ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الانسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

قلت: وفي الآية إطلاق الرَّجل على الجنِّ، وهو وارد في الحديث وسائر كلام العرب حقيقةً لا مجازًا، فلا حاجة إلى تأويل بعضهم الآية بتعليق «مِنَ الْجِنِّ» بـ«يَعُوذُونَ»، وأنَّ المعنى: إنَّه كان رجال من الإنس يعوذون من شرِّ الجنِّ برجال من الإنس، يقول الرجل مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنِّ هذا الوادي، فإنَّ هذا تكلُّفٌ مناف للظاهر الذي عليه الجمهور، دعاه إلى هذا التكلُّف أن لا يطلق الرَّجل على الجنِّ، ثمَّ نقول: إنَّه سمع من كلام العرب، والأصل أنَّ إطلاقه عليهم حقيقة، ومن نفى أنَّه حقيقة أجازه على التجوُّز، والصوابُ أنَّه حقيقة كما يطلق المرأة عليهم والطفل والشيخ والذكر والأنثى.

١-أورده **الألوسي** في تفسيره، مج١٠، ص١٠٧ خبرا وقال: أخرجه أبو نصر السبحري في الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عبَّاس، وقال: حديث غريب جدًّا.

﴿فَزَادُوهُمْ﴾ الواو للرِّجال العائذين، لأَنَّهم المَحَدَّث عنهم، وهم من الإنس، والهاء للجنِّ. ﴿رَهَقًا﴾ تكبُّرًا وعتوًّا، تقول الجنُّ المتعوَّذُ بهم: سُدْنا الجنَّ والإنس، وبذلك قال مجاهد وقال قتادة وأبو العالية: الرهقُ الإثم، فالمعنى أنَّ الإنس زادوا الجنَّ إثْمًا، لأَنَّهم عظَّموهم فزادوا استحلاَلاً لمحارم الله تعالى.

ويجوز عود الواو لرجال الجنِّ، والهاء لرجال الإنس العائذين، بمعنى: إنَّ الجنَّ زادوا الإنسَ إثمًا بأن أضلُّوهم حتَّى استعاذُوا بهم، وقدَّر بعض: فاتَّبعوهم فزادوهم رهقًا.

[قلت:] ومن العياذة بالجنِّ إلقاء الملح والرماد حيث عثر الإنسان، أو أصيب بضُرٍّ ظنًّا أنَّ ذلك من الجنِّ، ومن العياذة بهم ذبح شاة في نفس الموضع الذي يريدون حفر البئر فيه، أو في دار يريد الحفر فيها للبئر، **وكلٌّ ذلك حرام،** لأنَّ قصدهم التملُّق إلى الجنِّ بالقاء الملح والرماد، فهو كالذبح لهم، وكذا إلقاء الكسبرة أو نحوها لهم بنار أو بلا نار.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي: الإنس الكفرة ﴿ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيُّها الجنُّ، أو إنَّ الجنَّ الكفرة ظنُّوا كما ظننتُم أيُّها النَّاس الكفرة، فعلى هذا الوجه يكون هذا من كلام الله عز وجل ، والأوَّل أظهر، لأنَّ الكلام قبلُ وبعدُ للجنِّ، ووجهه أنَّهم بيَّنوا للجنِّ أنَّ ما عليه الإنس من إنكار البعث خطأ كما أخطأتم بذلك، وقد جمعكم وإيَّاهم الخطأ، ووجْهُ الثاني أنَّ المتبادر ان يقولوا: أنتم ظننتُم كما ظنُّوا، والخطاب للجنِّ لو كان ذلك من كلام الجنِّ المستمعين.

﴿أَن لَّنْ يَّبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته، أو لن يبعث الله رسولاً، والأوَّل أولى بدليل الاستقبال بـ«لَنْ»، ولو كان المراد نفي الرسالة لأطلقوا نفيها و لم يخصُّوه بالاستقبال، إلاَّ أن يكونوا نصارى كفَّارا يقولون: ختمت النبوءة بعيسى.

(نحو) واسم «إنّ» ضمير الشأن و«لَنْ يَّبْعَثَ...» إلخ خبر «إنّ»، والمصدر مفعول به على التنازع، وإعمال الأوَّل هنا أولى من الثاني، لأنّ الأوَّل سيق له الكلام، والثاني بطريق التشبيه، واللّفظ قبل التأويل بالمصدر مشتملٌ على المسند والمسند إليه، فاكتفي به عن المفعولين، أو المفعول الثاني محذوف وجوبًا، أي: ظنُّوا كما ظننتم انتفاء بعثِ الله أحدًا ثابتًا فحذف ثابتًا كما مرَّ.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾

حديث الجنّ عن أحوالهم وأنفسهم

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ﴾ طلبنا خبَرَها أو سماع كلام أهلِهَا، واللّمس المسيسُ للاختبار، استعير للطلب لجامع التوصُّل بكلٍّ إلى المطلوب، وقيل: عبَّر به عن الطلب على التجوُّز الإرسالي، استعمالاً للّفظ في لازم معناه، والطلب لازمٌ للّمس للاختبار، كذا قيل، وفيه أنّ المسَّ للاختبار هو نفس الطلب.

وليسوا يصلون إلى السَّمآء لأنّ بينها وبين الأرض خمسمائة عام، وَهَبْ أنّهم وصلوها لَكِنَّ غلظها كذلك فكيف يسمعون ؟ والله عَزَّ وَجَلَّ قادر، لَكِنَّ الظاهر أنّ مرادهم طلب معرفة ما ذُكر، إلاّ أنّه أتى من السَّماء إلى ما تحتها قريبًا

من الأرض وَلَمَّا أتى منها نسب إليها وعبَّر بلمسها. أو السَّماء **ما فوق من الجوِّ أو الجهة. أو يقدَّر مضاف، أي: جهة السَّماء.**

﴿**فَوَجَدْنَاهَا**﴾ لقيناها فقوله: ﴿**مُلِئَتْ**﴾ حال على تقدير «قَدْ»، لأنَّ الفعل ماضٍ مثبت، وأجيز بلا تقدير. أو معنى «وَجَدْنَاهَا» علمناها، فـ«مُلِئَتْ» مفعول ثانٍ، ومن قبل بعثه ﷺ لم تملأ، بَلْ فيها مواضع للسَّمع خالية عن الرَّصد.

﴿**حَرَسًا**﴾ اسم جمع لا جمع، لأنَّه بوزن المفرد، كفرح، وقيل: جمع حارس كخادم وخَدَم، والصَّحيح الأوَّل، ويدلُّ له وصفه بالمفرد، وهو قوله ﷻ: ﴿**شَدِيدًا**﴾ وعلى أنَّه جمع فإنَّما وصف به لأنَّه بوزن المصدر، كصهيل، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (سورة التحريم: ٤) ، وقوله: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (سورة فاطر: ١٠) ، إذا قيل إنَّه جمع كلمة لا اسم جمع، و«حَرَسًا» تمييز محوَّل عن الفاعل بمعنى: إنَّ الحرس والشهب مالئان للسَّماء.

﴿**وَشُهُبًا**﴾ جمع شهاب، وهو ما قبس من النَّار، ولا مدخل لِلَمْسِ السَّماء ووجودها مملوءة حرسًا شديدًا وشهبًا في الإيمان، فكيف يساق ذلك في جملة ما سيق للإيمان ؟ والجواب أنَّ المراد إنَّا نُخبركم بذلك، وأنَّ ذلك دلالة على قدرة الله ﷻ ، وأنَّه حُفظ للوحي الحادث الآن، أو يفسَّر: آمنَّا بما ينسحب على ذلك ونحوه، ممَّا لا يدخل في الإيمان.

﴿**وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا**﴾ موضعًا قريبًا منها ﴿**مَقَاعِدَ**﴾ بدل من «موضع» المحذوف، والمفرد مَقْعَد (بفتح الميم والعين)، أي: موضع القعود، وهي مواضع قعود في الهواء يطيرون إليها، وقيل: يقف واحد على آخر حتَّى ينتهوا إليها، وهو مرويٌّ عن رسول الله ﷺ .

﴿لِلسَّمْعِ﴾ لأجل أن تسمع ما تقول الملائكة، متعلّق بـ«نَقْعُدُ»، أو بمحذوف نعت «مَقَاعِدَ»، أي: ثابتة للسَّمع، أو يقدَّر كونٌ خاصٌّ، أي: صالحة للسَّمع، لخُلُوِّها عن الحَرس والرصد والرَّمي بالشهب.

﴿فَمَنْ يَّسْتَمِعِ الاٰنَ...﴾ إلخ عطف على «إِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ...» إلخ. و«الآنَ» ظرف للزمان الحاضر، وهو وقت متَّسع يرمى بالشهب في بعضه قبل تكلُّمهم بهذا أو بعده، وفيه على الظنِّ في وقت التكلُّم وما بعده، والمضارع للتجدُّد، وحكاية ما مضى يقينًا، والحال والاستقبال ظنًّا، وقيل: «الآنَ» هنا للاستقبال لقوله: ﴿يَسْتَمِعِ﴾، وهو مضارع للاستقبال.

﴿يَجِدْ﴾ يَلْقَ ﴿لَهُ﴾ لنفسه، وفيه عمل عامل واحد في ضميرين لمسمًّى واحد، متَّصلين بلا تبعيَّة في غير باب «ظنَّ» وما ألحق به، وهو مقيس، لأنَّ أَحَدَهُما بحرف جرٍّ، وهو كثير في القرآن مقيس، فلا تَهِمُوا.

﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ نعت مبالغة، كأنَّه نفس الرَّصد، وهو الحرس والمراقبة، أو يقدَّر: براصد، أو بمصاحب رصد، وهو مفرد. وإنْ جعلناه اسم جمع أو جمع راصد على ما مرَّ آنفًا فإنَّما وُصِف المفرد به لقوَّته جدًّا، كأنَّه شهب متعدِّدة كقوله:

كَأَنَّ نُسُوعَ رَحْلِي حين ضَمَّتْ حوالب غُرَّزًا وَمعًى جِيَاعًا[1]

إذ وصف المعى (واحد الأمعاء) بجياع، وهو جمع.

(نحو) ويجوز ــ على بعد ــ أن يكون اسم جمع، والمنعوت جمع محذوف، أي: يجد له ذوي شهاب رَصَدًا، أي: راصدين، ويجوز أن يكون

١-البيت من الوافي للقطامي في ديوانه، ص٤١. إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج١١، ص١٩٣.

مصدرًا تعليلاً، أي: لأجل الرَّصد، وفيه اختلاف الفاعل، فإنَّ فاعل الوجود الشيطان، وفاعل الرَّصد الملائكة، فإنَّ الرَّصد للملائكة يرصدون المستمع فيرجمونه بالشِّهاب لئلاَّ يستمع، فيحترق ويبقى حيًّا أو يموت، وإن جعل علَّة لمحذوف نعت لـ«شِهَابًا»، أي: شهابًا عُدَّ للرَّصْدِ صحَّ، والأصل عدم الحذف.

وفي الآية وجود الرَّجم بالشُّهب، ومقاعد للسَّمع، قبل بعثه ﷺ، ولكن كُثِّرَ بعد بعثه ﷺ وشُدِّدَ، فالذي من آياته ﷺ كثرتُه وتشديدُه، أو كان الرَّمي قبله ﷺ لحوادث، وَلَمَّا بعث كان لرجم الشياطين عن الاستماع، أو له ولغيره.

[قلت:] ويقع في رمضان مع أنَّه روي أنَّ الشياطين تصفَّد فيه، فنقول: صفِّدت فيه المردة دون عامَّتهم، وإنَّما صفِّدت عن مضرَّة النَّاس لا عن الاستماع، ومن أدلَّة وقوع الرَّمي في الجَاهِلِيَّة قوله ﷺ في جماعة من الأنصار وقد رمي بنجم فاستنار: ما كنتم تقولون لهذا في الجَاهِلِيَّة؟ قالوا: نقول يموت عظيمٌ أو يولد عظيمٌ. ووقوعه في أشعار الجَاهِلِيَّة كقول بشر بن أبي حازم:

والعير تتبعها الغبار وجحشها ينقض من خلفها انقضاض الكوكب

وفي ذلك ردٌّ لقول من قال: لا رمي قبل مبعثه بالشهب، وقيل: كان قبل وبعد، و لم يزدد بعد.

﴿**وَإِنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ**﴾ أراد الله عَجَلَّ ﴿**بِمَن فِي الاَرْضِ**﴾ بكثرة حراسة السَّماء وتشديدها بالرَّمي ﴿**أَمَ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**﴾ خيرًا، ذكروا الله في الخير و لم يذكروه في الشرِّ مع أنَّ الكلَّ خلق لله تعالى تأدُّبًا في اعتقادهم، إذْ لم ينسبوا الشرَّ إليه تعالى.

قيل: أو فاعل الشرِّ عندهم إبليس وأتباعه، لكن هذا باعتبار جاهليَّتهم، ويردُّه أنَّ هذا الكلام بعد إسلامهم، وأنَّ قولهم: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الاَرْضِ﴾

بمعنى أريد بهم من جهة السَّماء، ولا يتوهَّمون أنَّ إبليس في جهة السَّماء أراد الشرَّ بمن في الأرض، ويجاب بأنَّهم حكوا ما يقولون في جاهليَّتهم، ألا ترى إلى قولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ ؟ .

وإنَّما ذكروا شأن الإسلام بعدُ في قولهم: ﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ...﴾ إلخ لا في هذا الكلام، وكذا قوله:

﴿وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ أرادوا به صلاح الدنيا والعرف، كمكارم الأخلاق، لا صلاح الدِّين، فإنَّ هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن، كما قالوا: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ فإنَّ المراد: طرائق في الكفر، ويُجاب عن قولهم: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي الاَرْضِ﴾ بأنَّه لاَ يَلْزَمُ أن تكون الإرادة في اعتقاد ممَّن في السَّماء.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ «دُونَ» نعت لمبتدأ محذوف خبره «مِنَّا»، أي: ومنَّا قوم دون ذلك الصَّلاح منغمسون في الفساد من مساوئ الأخلاق، وهذا الحذف مطَّرد إذا كان الموصوف المحذوف بَعْضَ اسمٍ مجرور بـ«مِنْ» مقدَّم، والنعت ظرف، كقولهم: منَّا أقام ومنَّا قعد، أي: فريق أقام وفريق قعد.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ تفسير لقولهم: ﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وفي «دُونَ» معنى «غير»، والمعنى: كنَّا ذوي طرائق قدد، أي: ذوي مذاهب مختلفة، وهذا أولى من تقدير المضاف أوَّلاً هكذا: كانت أحوالنا طرائق، لأنَّ الأوَّل متمكِّن في محلِّه، والتغيير بالأواخر أولى، ولا بدَّ من التقدير، لأنَّ المقام ليس لمبالغتهم في الطرائق، فضلاً عن أن يُقال: بالغوا حتَّى جعلوا أنفسهم نفس الطرائق القدد. وهو جمع قدة، أي: قطعة من قطع، قال الشاعر:

القابض الباسط الهادي بطاعته في فــتنة النَّاس إذْ أهْوَاهُمُ قِدد

﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ﴾ علمنا ﴿أن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الاَرْضِ﴾ مَرَّ إعراب مثله، و«فِي الاَرْضِ» حال من المستتر، كائنين في أيِّ موضع من مواضع الأرض بالاستتار، ولو في أقطارها أو جوفها. ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل، وهو حال، أي: هاربين في الأرض، ومصاحبين الهروب، قيل: أو مصدر منصوب على التعليل، وليس كذلك، لأنَّه بمعنى: نعمل إعجاز الله ليحصل الهروب، وليس هذا المعنى صحيح، أو تمييز عن الفاعل، أي: لن يُعجزه هَرَبُنَا.

ويجوز أن يكون معنى الآية: لن يعجز الله تعالى إذا أراد بنا أمرًا من إهلاك أو غيره من التصرُّفات، ولن نعجزه هربًا إن طلبنا مع سعة الأرض طولاً وعرضًا. وقيل: هربًا إلى السَّماء لو استُطِيع.

﴿وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ القرآن ﴿ءَامَنَّا بِه﴾ على الفور بلا تأخير. ﴿فَمَنْ يُّومِنْ بِرَبِّـهِ﴾ أي: لأنَّه من يؤمن بربِّه ﴿فَلاَ يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف، أو فقد لا يخاف، بـ«قَدْ» التي للتحقيق، وإنَّما قدِّرت لأنَّ قوله تعالى: «لاَ يَخَافُ» يصلح أن يكون شرطًا فيجب تجريده من الفاء، وجزمُه.

(نحو) وأجاز ابن مالك أن لا يقدَّر المبتدأ وَلاَ «قَدْ»، وأنَّ الجملة في محلِّ جزم لكثرة ورودِ ذلك في المنفيِّ بـ«لاَ» ، وَوَرَدَ بلا نفي أيضًا، مثل: ﴿فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنهُ﴾ (سورة المائدة: ٩٥) .

﴿بَخْسًا﴾ نقصًا على الظلم في الجزاء، ويستعمل البخس بمعنى النقص ولو بلا ظلم. ﴿وَلاَ رَهَقًا﴾ ذلاًّ يغشاه، ومادَّة « ر هـ ق » الإشراف على الشيء، يُقال: غلام مراهق، أي: يقارب. وتغشى النَّار الكفرة والنَّار غاشية لهم، واللَّيل يغشى النَّهار.

والمعنى: إنَّ الله عدلٌ لا ينقص من حسنات المؤمن أو من ثوابه، ولا يجورُ عليه بعدم قبول توبته، وقد تاب نصوحًا، ولا بزيادة في سيِّئاته ولا يحمل ذنب غيره عليه، ولا بإذلاله، وقد فعل ما يُعزُّه.

وليس في هذا المعنى ما يوهم أنَّ الله يجور على الكافرين، بل هو بأعماله يستحقُّ النقص عن بلوغ الخير، لا ينالُه البتَّة، ويستحقُّ الإذلال، وذلك أولى من أن يفسَّر البخس والرهق بالجزاء بهما، استعمالا للسبب في مقام المسبَّب، بمعنى أنَّ الله تعالى لا يبخس أحدًا، ولا يُقارب ظلمه، فليس المؤمن يخاف جزاء يترتَّب عليهما، وما مرَّ أولى، لأنَّه حقيقة ظاهرة المعنى لا مجاز.

﴿**وَإِنَّا**﴾ معشر الجنِّ ﴿**مِنَّا الْمُسْلِمُونَ**﴾ من حين سمعنا وهم نحن ﴿**وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ**﴾ المائلون عن الإسلام، وهم من حضر منَّا القرآن ولم يؤمن، وسائر الجنِّ الكفرة، أو من الجنِّ مسلمون بالإنجيل الذي لم يغيَّر، وعمل به، وترتَّب على ذلك، أنَّهم قسمان: أهل جنَّة وأهل نار، كما قال: ﴿**فَمَنَ اسْلَمَ**﴾ من الجنِّ والإنس، وقيل: أرادوا: الجنُّ أَذْعَنُ للتوحيد والعمل بمقتضاه. ﴿**فَأُوْلَئِكَ**﴾ أي: من أسلم، والجمع لمعنى «مَن»، كما أنَّ الإفراد في «اَسْلَمَ» لِلَفظها، وإشارة البعد لتعظيمهم.

﴿**تَحَرَّوْا**﴾ قصدوا ﴿**رَشَدًا**﴾ صلاحًا عظيمًا يوصلهم إلى الجنَّة، ولم يذكر الجنَّة بل سبيلها كذكر الشيء بذكر برهانِهِ الذي لا يتخلَّف، وهو لا يخلف الوعد ولا الوعيد.

﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ**﴾ من الجنِّ والإنس، على حدِّ ما مرَّ في ﴿مَنَ اسْلَمَ﴾ ﴿**فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾ توقد بهم، كما توقد النَّار الدُّنيَويَّة بالحطب، وذلك استعارة أو تشبيه بليغ، قولان، في مثل: زيد أسد، أو إنَّ زيدًا أسدٌ، أَوْ كان زيدٌ أسدًا. وذلك في كلام الجنِّ، وقيل: من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ فرَّعه عن كلام الجنِّ،

وهو خلاف الظَّاهر، لأنَّ الكلام قبلُ للجنِّ، والأصل أن لا يكون كلام من أحد والتفريع عليه من غيره.

[قلت:] وأخطأ من قال: إنَّ لكَفَرة الجنِّ عقابًا وليس لمطيعهم ثواب، والله أعدل من ذلك، وقد علمت أنَّ ثوابهم في لفظ الرشد المتسبِّب للجنَّة.

﴿وَأَن لَّوِ اِسْتَقَامُواْ عَلَى اَلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ نَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

بسط النعم على الإنسان فتنة له أحيانا

﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُواْ**﴾ إلخ عطف على «أَنَّه اسْتَمَعَ»، كأنَّه قيل وأوحي إليَّ أن لو استقاموا، واسم «أَنَّ» ضمير «هُمْ»، أي: وأنَّهم، أو الشأن، أي: وأنَّه، والواو للإنس والجنِّ، وقيل: للجنِّ، وعن ابن عبَّاس: للقَاسِطِينَ، والمراد: لو دخلوا الدِّين واستقاموا عليه. وفي ردِّ الضمير للجنِّ نظر، لأنَّه قيل: لا ينتفعون بالمطر ولا يحرثون إلاَّ إن أُريد بسقي الماء الغدق الكناية عن توسيع الرزق.

﴿**عَلَى الطَّرِيقَةِ**﴾ دين الإسلام ﴿**لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا**﴾ مُطْبِقًا واسعًا، وخصَّ الماء مع أنَّ المراد مطلق توسيع الرِّزق لأنَّ الماء أصل المعاش، وكثرته سبب للسعة، كما قيل: «المالُ حيث الماء، والوبال حيث الاشتهاء»، ولعزَّته عند العرب ولا سيَّما الأعراب.

﴿**لِّنَفْتِنَهُمْ**﴾ نختبرهم ﴿**فيه**﴾ هل يشكرون؟ أي: نعاملهم معاملة المختبر، فالكلام استعارة تمثيليَّة، ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا...﴾ إلخ (سورة الأعراف: ٩٦) ، وقيل: ﴿لَوِ اسْتَقَامُوا﴾: لو ثبتوا على الدِّين السَّابق، لأنَّ الجانَّ ـ وهو إبليس ـ كان مؤمنًا عابدًا ثمَّ كفر وعصى، فالمعنى: لو دام على دينه

وتبعه أولادُه الجنُّ على طريقتهم التي هي الكفر، و لم يُسلموا باستماع القرآن لوسَّعنا عليهم الرزق استدراجًا لنعذِّبهم تعذيب من وُسِّع عليه و لم يشكر، وهو فوق تعذيب من لم يوسَّع عليه.

وقيل: لو كفر من أسلم من النَّاس، **وكلا القولين خروج عن الظاهر**، فإنَّه لا دليل على الاستدراج، فإنَّ اللَّفظ يعمُّ الاستدراج وغيره، فإنَّ الاختبار أعمُّ من الاستدراج، وكَأَنَّ قائله راعى أنَّ لفظ الفتنة أظهر في الاستدراج، ثمَّ إنَّه لا يخفى بُعد استعمال الاستقامة على الطريقة الاستقامة على الكفر، وأيضًا يعارضهما قوله تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ...﴾ إلخ.

ولا دليل لهما في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُّعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ**﴾ كما زعم بعض أنَّه توكيد لمضمون السَّابق من الوعيد، أي: لنستدرجهم فيتَّبعوا الشهوات التي هي موجبة للبطر الذي منه الإعراض.

ويبحث فيه بأنَّه توكيد لقوله: ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وأنَّه ذكر لبعض ما شمله الاختبار، و«ذِكْرِ رَبِّهِ» أي: ذكره لربِّه بالإيمان، وقيل: بمعنى عبادة ربِّه تجوُّزًا، وقيل: ذكره تذكيره، وفي هذا أضيف المصدر للفاعل، وكذا إن فُسِّر بالموعظة أو بالوَحْي.

﴿**نَسْلُكْهُ**﴾ تعدَّى لاثنين لتضمُّن معنى ندخله، أو يقدَّر: نسلك به، فحذف الباء واتَّصلت الهاء بـ«نَسْلُكْهُ». ﴿**عَذَابًا صَعَدًا**﴾ مصدر نعت به مبالغةً، حَتَّى إنَّ العذاب نفس الصعود عليهم، أو بمعنى الوصف، أي: صاعدًا عليهم، أي: عذابًا عاليًا على المعذَّب، وهذا الصعود معنويٌّ لا حسِّيٌّ، لأنَّ العالي عليه حِسًّا هو ما يعذَّب من سلاسل ومقامع ونار، وغير ذلك لا تَوَجُّعُهُ.

أو العالي توجعه فهو راجع إلى معنى المشقّة والغلبة، فكأنَّه قيل: عذابًا شاقًّا أو غالبًا، يُقال: فلان في صعد من أمره، أي: في مشقّة.

وفي الحديث الأمر بذكر خصال الخاطب للنِّكاح، فكان عمر يقول: ما تصَعَّدني شيء كما تصَعَّدني خطبة النِّكاح، أي: ما غلبني، وكانوا يذكرون خصال آباء المتزوِّج، وخصاله التي اكتسبها، فشقَّ عليه معرفته بها، ومدح المتزوِّج بها في وجهه وعشيرته، ولحضور النَّاس، ونَظَرِ بعضٍ لبعضٍ حسدًا، أو استهزاء وتعجُّــبًا من ذكره.

وعن أبي سعيد الخدريِّ: ﴿صَعَدًا﴾ جبل في النَّار، يعالجون صعوده لينجوا من النَّار، فكلَّما وضعوا أيديهم وأرجلهم عليه ذاب. وقيل: جبل في جهنَّم من صخرة واحدة أملس يجبر على صعوده، كلَّما وصل أعلاه انحدر إلى أسفله، فعلى أنَّه جبل في القولين يكون بدلا من «عَذَابًا» على حذف مضاف، أي: عذابًا عذاب صعدٍ، أوْ هُو المفعول الثاني و«عَذَابًا» تعليل، أي: نسلكه صعدًا للتعذيب.

قيل: لَمَّا قرأ القرآن وسمعه الجنُّ قالوا: نحن بعيدون منك، فنزلت الآية وهي قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

تعجُّب الجنّ من دعوة الرسول
وخلود العصاة في النّار

﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ**﴾ وهذا على أنّ المراد بـ«المَسَاجِد» الأرض مطلقًا كما قال ﷺ : «**جعلت لنا الأرض مسجدًا**»[1]، والصحيح المواضع المعدَّة للصلاة والعبادة. ﴿**لِلّهِ**﴾ مختصَّة به، وبنيت له.

والعطف على «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» والعاطف أغنى عن ذكر «أُوحِيَ»، وكأنّه قيل: وأوحي إليّ أنّ المساجد لله، وقيل: بتقدير اللاّمِ متعلّقة بـ«تَدْعُو» بعده، أي: لا تدعو مع الله أحدًا لأنّ المساجد لله، أي: لا تدعو مع الله أحدًا فيها.

كانت اليهود والنَّصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم كفروا، فأمرنا بإخلاص العبادة لله تعالى إذا دخلنا مساجدنا، لأنّ الإشراك فيها أشدُّ قبحًا، وقال الحسن: المساجد كلُّ موضع سجود، مصلًّى أو مسجدًا أو غير ذلك، والأرض كلُّها مسجد لهذه الأمَّة، كما روي: «**جعلت لي الأرض مسجدًا**» و«**حيثما أدركتكم الصلاة فصلُّوا**»[2].

ومَنْ قَبلَنا يصلُّون في بيعهم وكنائسهم، إلاّ من خصَّ كعيسى عليه السلام، والخضر ومن أشبههما في السياحة من الأنبياء، إلاّ أنّ الخضر من هذه الأمَّة بعد

١- رواه **البيهقيُّ** في كتاب الطهارة، باب الدليل على أنّ الصعيد الطيِّب هو التراب، رقم١٠٥٤، من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاريُّ** في كتاب التيمم (١) باب قوله تعالى: {فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...} رقم٣٣٥. وَأَوَّلُ الحديث قوله: «أعطيت خمسا لم يعطهنَّ أحد قبلي...»، من حديث أبي هريرة. كما رواه **مسلم** في كتاب المساجد، رقم١ (٥٢٠) وَأَوَّلُ الحديث قوله: «أيُّ مسجد وقع في الأرض أوَّلا...»، من حديث أبي ذرٍّ.

بعثة النبيء ﷺ وكذا عيسى إذا نزل، فالأرض كلُّها له مسجد، قال ﷺ: «**لو كان موسى حيًّا لَم يسعه إلاّ اتّباعي**»[1]. والله أخبرنا أنّ الأرض جعلت للصلاة فلا تجعلوها للمعصية، ولا تسجدوا فيها لغير الله تعالى.

وقيل: المساجد المسجد الحرام، أي: الكعبة نفسها، أو الحرم كلُّه، والجمع لأنّ كُلّ ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة، أو لأنّه قبلة المساجد.

وقيل: هو وبيت المقدس، كما روي عن ابن عبَّاس: أنّه لا مسجد حين نزلت إلاّ هما، واثنان جمعٌ حقيقةً أو مجازا، **وذلك كُلُّه خلاف الظاهر، والظاهر ما مرَّ أوَّلاً**، ورواية ابن عبَّاس هذه لا توجب تفسير الآية بهما.

وقال سعيد بن جبير: المساجد جمع مسجَد (بفتح الجيم) وهي القدَمان والركبتان والكفّان والوجه، وفي الحديث: «**أمرت أن أسجد على سبعة آراب، ولا أكفَّ شعرا ولا ثوبًا**». وقيل: المساجد جمع مَسجد (بفتح الميم) مصدر بمعنى السجدة.

﴿**فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَدًا**﴾ فيها. هذه الفاء ومثْلُها ممَّا يتبادر تعليق الظرف فيما بعدها تُشبه فاء الجواب، لتضمُّن الكلام معنى الشرط، كأنّه قيل: فإن لم تُوحِّدوه فلا تدعوا مع الله أحدًا فيها، فإنّه أقبح إشراك.

والخطاب للجنِّ، لِمَا روي أنّهم قالوا: كيف نشهد الصلاة معك يا رسول الله على بعدنا عنك؟ فنزلت، بمعنى اعبدوا الله حيثُ كنتم تقبل عبادتكم إن لم تشركوا، وقيل: الخطاب عامٌّ.

﴿**وَأَنَّهُ, لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ**﴾ محمَّد رسول الله ﷺ ﴿**يَدْعُوهُ**﴾ يعبده بصلاة الفجر في نخلة. والجملة حال من «عَبْدُ». وعبَّر بالعبد لذكره ﷺ نفسه بلفظ

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج١٠، ص٤٣٥.

التواضع، يقول: «إنِّي عبد الله ورسوله»، لأنَّ الآية على لسانه، وأيضًا لينبِّه اللهُ الجنَّ على أنَّ العبادة من العبد لا تُستَبْعَدُ إذ تعجَّبوا من صلاته وصلاة أصحابه بصلاته معه.

﴿كَادُواْ﴾ أي: الجنُّ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ متعلِّق بـ«يَكُونُونَ»، أو بمحذوف حال من قوله: ﴿لِبَدًا﴾ أي: متضامِّين بالزحام ليشاهدوا ما هو عليه من القيام والركوع والسجود والقراءة بمن معه، ولم يروا مثله قبل ذلك، فتعجَّبوا.

واللِّبد جمع لِبْدَة، كسِدْرَة وسِدَر، وهي الشيء المتلبِّد الملتصق بعضه ببعض. وذلك استعارة، أو تشبيه بليغ. وقيل: الواوان لكفَّار قريش والعرب، وقيل: للجنِّ والإنس، والمعنى على هذين القولين الاجتماع على عداوته ومخالفته وإطفاء نوره لَمَّا قام يدعوهم إلى توحيده وما يتعلَّق به من العبادة، وأبى الله إلاَّ نصرهُ وتَبْديدَ لِبَدهِمْ.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أعبده ﴿وَلآَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ في العبادة، وهي أمر تقبله العقول، لا أمر يتعجَّب منه، أو يوجب الإطباق على عداوتي.

﴿قُلِ اِنِّي لآَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا﴾ أي: نفعًا، والرشد سبب للنَّفع فعبَّر به عنه، والمالك للضرِّ والنَّفع هو الله سبحانه وتعالى، أو الضرُّ: مضرَّة الدِّين، والرشد صلاحه، كما قرأ أُبيٌّ: «غَيًّا وَلاَ رَشَدًا»، والضرُّ مسبَّب عن الغيِّ، فعبَّر به عنه.

وإنَّما القادر على الخذلان والتوفيق الله عز وجل، ولا أجبركم على الرشد، ولا دليل على أنَّ الأصل: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا ولا غيًّا ولا رشدًا فحذف من كلٍّ واحد ما يقابل ما في الآخر على طريق الاحتباك.

﴿قُلِ﴾ يا محمَّد لأعدائك، وقد قالوا: اترك ما تدعونا إليه نُجِرْكَ ﴿اِنِّي لَنْ

﴿يُجِيرَنِي﴾ لن يمنعني ﴿مِنَ اللهِ أَحَدٌ﴾ من عذابه، وما أراد بي من سوء إن أراد بي ذلك، وقيل: لَمَّا ازدحم عليه الجنُّ قال سيِّدهم وردان ألاَ أرحلهم عنك ؟ فترل قوله تعالى: ﴿قُلِ اِنِّي لَنْ يُّجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ﴾.

﴿وَلَنَ اَجِدَ مِن دُونِهِ﴾ من دون قضائه، متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿مُلْتَحَدًا﴾، أو بمحذوف حال منه، وهو اسم مكان، أي: موضع الْتحاد، أو مصدر ميميٌّ، أي: التحادًا، وأجيز تقديم معمول المصدر الظرفيِّ عليه ولو انحلَّ إلى الفعل وحرف المصدر.

والالتحاد: الميل والانحراف، وقد فسَّر الكلبيُّ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ بمدخل في الأرض، والسُّدِّيُّ بالحرز. وهذا وما قبله بيان منه في عجزه عن أمر نفسه، وقوله: ﴿لآَ أَمْلِكُ﴾ بيان لعجزه عن أمر غيره.

﴿اِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِه﴾ استـــثناء متَّصل من قوله: ﴿لآَ أَمْلِكُ﴾، والفصل بما بينهما ولو طال لا يضرُّه، لأنَّه بمناسب وتأكيدٌ. وإن فسَّرنا الضرَّ والرشاد بالغيِّ والصلاح كان الاستـــثناء منقطعًا، أو من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، فيرجع إلى الاتِّصال كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكـــتائب[1]

وذلك بالنظر إلى «ضُرًّا»، أي: لا أملك لكم ضرًّا «إلاَّ بلاغًا...»إلخ. وإن استثني من «مُلْتَحَدًا» كان منقطعًا، لأنَّ البلاغ والرسالات ليست من الملتحد. وعن الحسن: إنَّ الاستـــثناء منقطع، أي: لن يجيرني أحد لكن إن بلَّغت رحمني ربِّي. وقيل: المعنى: لن أجد شيئًا أعتصم به إلاَّ أن أبلِّغ، فهو متَّصل.

١- البيت من الطويل للنابغة الذبياني في ديوانه، ص٤٤. انظر: إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج١، ص٣٤٥.

و«مِنْ» للابتداء، أو بمعنى «عن»، كما قال ﷺ : «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**»[1]، وما تقدَّم أولى، والمعنى: لا أملك لكم إلاَّ تبليغًا منه أو عنه، ورسالاته التي أرسلني بها الله عز وجل ، وقيل: «رِسَالاَت» معطوف على لفظ الجلالة، أي: إلاَّ أن أبلِّغ عن الله وعن رسالاته.

﴿**وَمَنْ يَّعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ بالإشراك أو بالكبيرة مُصِرًّا عليها. ﴿**فَإِنَّ لَهُ**﴾ للعاصي، واللاَّم للاستحقاق ﴿**نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ**﴾ حال مقدَّرة من ضمير الاستقرار. والجمع لمعنى «مَن». ﴿**فِيهَآ أَبَدًا**﴾ بلا نهاية.

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ**﴾ من الوعد، لأنَّه يستعمل في الشرِّ والخير، أو من الوعيد، أو من الإيعاد، والمراد: عذاب جهنَّم، وقيل: يوم بدر، ويدلُّ للأوَّل قوله: ﴿قُلِ اِنَ اَدْرِي أَقَرِيبٌ...﴾ إلخ فإنَّه ردٌّ للمشركين في إنكار البعث، فإنَّ النضر بن الحارث قال: متى يكون يوم القيامة؟ فأوحى الله عز وجل : قل لهم: هو واقع لا محالة، ولا أدري وقته، كما في الآية بَعدُ.

و«حَتَّى» حرف ابتداء، ولا تخلو عن غاية، والتفريع من الغاية، وكأنَّه قيل: فإذا رأوا، فالحاصل أنَّهم لا يزالون مكذِّبين فإذا رأوا العذاب المعدَّ لهم. وقدَّر بعض: دعهم حَتَّىٰٓ إِذَا... إلخ، وهو ضعيف.

وأجاز بعض أن يكون غاية لقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ إن فُسِّرَ بالتلبُّد على الكفر، ولو طال الفصل، لأنَّه بأمور مناسبة له، ولا يخفى أنَّ كثرة الفصل

١- رواه **البخاريُّ** في كتاب الأنبياء (٥٠) باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم٣٤٦١. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، رقم٢٦٦٩، مع زيادة في آخره، من حديث عبد الله بن عمرو.

تُضْعفُهُ ولو حسن المعنى، ولا بأس بالتفريع على قوله: ﴿فإنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ...﴾ إلخ، أي: هي لهم وعيدًا، فإذا رأوها إنجازًا.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ السين لتأكيد الوعيد لا للاستقبال، لأنَّ الاستقبال أفادته «إذَا»، ولو جعلت للاستقبال كان المعنى: إذا تمَّ الاستقبال المعبَّر عنه بـ«إذَا» استأنف استقبال آخر، وليس ذلك مرادًا، لأنَّ علمهم بمن هو أضعف ناصرًا يحصُل باستقبال «إذا» حينَ تمَّ، فإذا رأوا العذاب علموا ذلك قبل دخولهم النَّارَ، ولا يتأخَّرُ علمهم إلى دخولها.

﴿مَنَ اضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ وهو هم لا النَّبيء ﷺ والمؤمنون، ـ وصلَّى الله على من أسلم رُوحَه لمحو وُجُوده، وسلَّم إليه كلِّيَّته لدوام شهوده، ليكون بالفناء بقاؤه، وبالغيبة لقاؤه، وبالفقر غناؤه، وبالذُّلِّ عزُّه وولاؤه ـ . والجملة استفهاميَّة معلَّق عنها «يَعْلَمُ»، أَوْ موصولة مفعول لـ«يَعْلَمُ» بمعنى يعرف، وحذف صدر الصِّلة، أي: من هو أضعف لطولها.

﴿قُلِ اِنَ اَدْرِےٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيَ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ اِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدَ اَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾

تعيين وقت السَّاعة مختصٌّ بالله عالم الغيب

﴿قُلِ انَ ادْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ حالٌّ متوقَّع في كلِّ ساعة، أوْ له أجَلٌ كما قال: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّـيَ أَمَدًا﴾ أي: زمانًا بعيدًا، بدليل جعله مقابلاً لقوله: ﴿اَقَرِيبٌ﴾، وإلاَّ فالأمد يستعمل في القريب والبعيد، ويحتملهما، وإذَا أريد التخصيص نصب الدليل كالمقابلة هنا، وكوصفه

بالبعيد في قوله ﷻ : ﴿تَوَدُّ لَوَ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ, أَمَداًۢ بَعِيدًا﴾ (سورة آل عمران: ٣٠) ، ويُقال: أمد قريب.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ نعت «رَبِّــي» أو خبر لمحذوف، أي: هو عالم الغيب. و«ال» للاستغراق، أي: عالم كلِّ غيب، أو للعهد، والمعهود الغيب المستغرق. ﴿فَلاَ يُظْهِرُ﴾ إظهارًا تامًّا، وإذا أظهر على غيبه أحدًا فليس بالكُنْه ليثبت تفرُّد الله ﷻ بعلم الغيب. ﴿عَلَىٰ غَيْبِه أَحَدًا﴾ الإضافة للعهد الاستغراقي، أي: غيبه كلِّه لا يُطْلع الله أحدًا على شَيْءٍ مَّا منه، فالعموم للسلب الكلِّي، ولو تقدَّم السلب على مفيد العموم.

(بلاغة) أو الإضافة للاختصاص، والمختصُّ به العموم المستغرق، وأظهر و لم يضمر لتأكيد شأنه، والفاء للتفريع على تفرُّده تعالى بعلم الغيب.

[قلت:] وللأولياء كرامات، ولا مانع من أن يخبر الله تعالى أحدًا بإلهام أو ملك على غير طريق النبوءة، أو بغير ذلك، وبالجنِّ تسمع من الملائكة، وإنَّما الممنوع أن يعلم بلا إخبار من الله تعالى.

قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : «**لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناسٌ مُحَدَّثُونَ من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمَّتي أحدٌ فعمر بن الخطَّاب**»[1]. والمحدَّث (بفتح الدَّال مشدَّدة): من يُلقَى في قلبه، وذلك واقع وجائز، ولو كان أمرًا خارقًا للعادة، وليس فيه التباس بالنبوءة، لأنَّ صاحبه لا يدَّعي النبوءة. وأحكامُ النجوم وغيرها لا تفيد القطع.

١-رواه **البخاريُّ** في كتاب مناقب الصحابة (٦) باب مناقب عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، رقم٣٦٨٩ ، من حديث أبي هريرة.

﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الاستـــثناء منقطع، أي: لكن من ارتضى من رسول فإنَّه يظهره على بعض غيبه، بقدر ما يليق بالحكمة، إظهارًا بغير الكنه من وظائف الرسالة. و«مِنْ» للبيان، أي: هو رسول مًّا من الرسل، متعلِّقة بمحذوف، حال من الرابط المحذوف، أو من «مَنْ».

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ يجري ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ كناية عن جميع جهاته ﴿رَصَدًا﴾ حرسًا من الملائكة عليهم السَّلام، تحرسه من تعرُّض الشياطين له، بسلب أو تخليط أو إلقاء على الكهنة قبل الرسول. ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الضمير المستتر عائد إلى «مَنْ»، وهو الرَّسول المرتضى ﴿أَن﴾ أي: أنَّه، والضمير للشأن. ﴿قَدَ اَبْلَغُواْ﴾ أي: أبلغ الملائكة الرَّاصدون إليه، أي: إلى ذلك الرَّسول ﴿رِسَالاَتِ رَبِّـــهِمْ﴾ الموحى بها إليه التي أظهرها الله تعالى لهم وللملائكة الرَّاصدين لا بالكنه.

والمشهور أنَّ المبلِّغ جبريل وحده، وضمير الجمع في الموضعين مرعاة للمجموع، إذ كان جبريل من جملة الملائكة، كقولك: بنو تميم أكرموا زيدًا، والمكرم واحد وإكرامهم واسع وتريد واحدًا.

ولا مانع من إرادة الجمع، لأنَّه قد يجيء غير جبريل، كإسرافيل وحده، أو مع جبريل، أو الجمع تعظيمًا لجبريل، وجاء عن ابن عبَّاس: «لا آية إلاَّ معها أربعة من الملائكة يحفظونها حتَّى تصل النبيء ﷺ » وقرأ الآية. ويروى أنَّه جاء مع سورة الأنعام سبعون ألف ملك.

﴿وَأَحَاطَ﴾ الله تعالى ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عند الرَّصد ﴿وَأَحْصَىٰ﴾ أي: الله ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ممَّا كان أو يكون، أو هو في حال النُّزول ﴿عَدَدًا﴾ فَرْدًا فَرْدًا وجُزْءًا جُزْءًا.

[قلت:] وأصحاب الكرامات ليسوا على يقين ممَّا انكشف لهم، بل ترجيح، بخلاف الرُّسل فإنَّهم على يقين، فإنَّ حاصل الآية: ليعلم الرَّسول أنَّ ما أبلغ إليه حقٌّ من الله لا شيء [منه] من غير الله تعالى، وأنَّه أبلغته إليه الملائكة الآتون به من الله ﷻ . ويجوز أن يكون ضمير «يَعْلَمَ» لله ﷻ ، ويجوز أن يُراد بضمير الجمع في الموضعين الرُّسل، أَفرَدَ الضمير أوَّلاً مراعاة للَّفظ في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ وَجَمَعَهُ بعد ذلك مراعاة لِمَا قصد به من الجنس، فالمعنى: ليعلموا أنَّهم قد أبلغوا إلى أقوامهم ما هو حقٌّ.

والله الموفِّق

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم

تفسير سورة المزّمّل وآياتها ٢٠

هذا اسم من أسماء النبيء ﷺ وآتاه الوسيلة، فمن سمعه في قراءة القرآن أو غيرها فلْيُصَلِّ عليه كسائر أسمائه المختصَّة به وغير المختصَّة به، ففي الطبرانيِّ أنَّه ﷺ ارتقى على المنبر فأمَّن ثلاث مرَّات ثمَّ قال: أتدرُونَ لِمَ أمَّنت؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال جاءني جبريل فقال: **«إنَّه من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعَدَهُ الله وأسحقه، قلت: آمين، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرَّهُمَا دخل النَّار فأبعده الله، وأسحقه، قلت: آمين، ومن أدرك رمضان فلم يغفر له دخل النَّار فأبعده الله وأسحقه، قلت: آمين»**[1].

وفي الطبرانيِّ والبزَّار أنَّه ﷺ دخل المسجد وصعد المنبر فقال: آمين آمين آمين، ولَمَّا انصرف قيل: يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئًا ما كنت تصنعه ؟ فقال ﷺ : إنَّ جبريل تبَدَّى لي في أوَّل درجة فقال: **«يا محمَّد من أدرك والديه فلم يدخلاه الجنَّة فأبعده الله، ثمَّ أبعده، فقلت: آمين، ثمَّ قال لي في الدرجة الثانية: ومن أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فأبعده الله ثمَّ أبعده، فقلت: آمين، ثمَّ تبدَّى لي في الدرجة الثالثة فقال لي: ومن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله ثمَّ أبعده فقلت: آمين»**. وروى ابن خزيمة وابن حبَّان واللَّفظ له أنَّه ﷺ صعد المنبر فقال: **«آمين آمين آمين»** فقيل: يا رسول الله، صعدت المنبر فقلت: آمين آمين آمين؟ فقال: **«إنَّ جبريل أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النَّار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، ومن**

١-راجع الجزء ١١، ص٣٣٩ لهذا الحديث وما بعده في تفسير الآية { إِنَّ اللهَ وَملاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ} (سورة الأحزاب: ٥٦).

أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرّهما فمات فدخل النّار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، **ومن ذكرت عنده فلم يصلّ عليك فمات فدخل النّار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين»**. وفي الترمذيّ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ عليك، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثمّ انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم يدخلاه الجنّة**». وفي الطبرانيّ عن الحسين بن عليٍّ: «**من ذكرتُ عنده فخطئ الصّلاة عليَّ خطئ طريق الجنّة**»، وكذا لابن الْحَنَفِيَّة، إلاّ أنّه قال: «**نسي الصّلاة**» بدل «**خطئ الصّلاة**»، ومثله لابن ماجه والطبرانيّ. وفي النسائيِّ وابن حبّان عن الحسين مرسلاً وفي الترمذيِّ موصولا بعليٍّ: «**البخيل من ذُكرتُ عنده ولم يصلّ عليَّ**». وفي رواية ابن أبي عاصم: ألا أخبركم بأبخل النّاس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**من ذكرت عنده فلم يصلّ عليَّ فذلك أبخل النّاس**».

قلت: ويبعد حمل ذلك الوعيد على من ترك الصلاة عليه عند سماعه اشتغالا بلهو أو لعب محرّم أو بوجه مشعر بعدم تعظيمه ﷺ .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾

تثبيتٌ وإرشاد للنبيء ﷺ عند بدء الدّعوة

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ أصله: «الْمُتَزَمِّلُ»، كما قرأ

به أُبيٌّ، أبدلت التَّاء زايًا وأدغمت في الزَّاي، وهو من التفعُّل للطلب، أي: زمِّليني يا خديجة، رَضِيَ اللهُ عَنهَا. أو للمطاوعة على أنَّه بلا أمر منه.

(سيرة) كان يتعبَّد في حراء فجاءه جبريل أوَّل ما جاءه فضمَّه حتَّى بلغ منه الجهد وأطلقه، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فضمَّه كذلك إلى ثلاث، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق: ١-٥)، فرجع إلى خديجة رَضِيَ اللهُ عَنهَا كالمغشيِّ عليه أو كالمحموم، فقال: زمِّليني زَمِّليني، فلحقه جبريل وهو مزمَّل أو بعد الخروج عن الغطاء. والتزمُّل التغطِّي، والتزميل التغطية. وقيل: تزمَّل بثيابه دون أن يأمر بتزميله.

على أنَّ قريشًا قالوا في دار النَّدوة: سَمُّوه باسم ينفر النَّاس عنه، فقيل: ساحر، فقالوا: ليسه، فقالوا: كاهن، فقالوا: ليسه، وقالوا: مجنون، فقالوا: ليسه، وقاموا على أن يقولوا: مفرِّق بين الأحبَّة، فبلغه ذلك فتزمَّل في ثيابه كالحازن، فأتاه جبريل في حينه فناداه باسم مشتقٍّ من فعله، على عادة العرب في ذلك تأنيسًا له كالملاعب وتنشيطًا على تلقِّي الوحي، وكذا على القول الأوَّل.

كما غاضب عليٌّ فاطمةَ لشيء بينهما، ونام على تراب لصق بجنْبه، فدخل عليه رسول الله ﷺ فقال: «قُم يا أبا تراب»، فكان هذا كنية له بعدُ.

[قلت:] وليس كما قيل: إنَّه عتاب لطيف بالرأفة ليستعدَّ لمَا وعد الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي...﴾ إلخ وأنَّ التزمُّل كفعل من لا يهمُّه أمرٌ، فإنَّ ذلك سوء أدب، وإنَّما يفسَّر خطابه بالعتاب حيث هو ظاهر فيه بلا تكلُّف، كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَبَس...﴾ إلخ، ويندفع سوء الأدب بأن أراد نَهْيَه عن شكل من لا يهتم بما يُهِمُّ، وقد تزمَّل في ثيابه للصَّلاة.

وقيل: المراد المستعدُّ لحمل أعباء الرسالة، فيكون استعارة تبعيَّة، مِنْ تَزَمَّلَ

الحملَ الثقيلَ، أي: عالج حمله، وفيه أنَّه نبيء حين نزول ذلك، وإنَّما يكون رسولاً بعدُ، إلاَّ أن يقال: إنَّه سيكون متَحَمِّلاً للرسالة، وما هنا استعداد له، أوْ هذا بعد قصَّة خديجة المذكورة.

وجاء في حديث جابر بن عبد الله أنَّه قال ﷺ: «**كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمَّد، إنَّك رسول الله**». وقيل: تزمَّل في ثيابه فخرج ولقيه جبريل عند الباب فقال له: يا أيُّها المزَّمِّل، وقيل: نام متزمِّلاً في ثيابه فناداه بذلك. والصَّحيح الأوَّل، وعليه الجمهور.

﴿**قُمِ الَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ قم في اللَّيل إلى الصَّلاة والذِّكر، وقيل: ﴿**قُم**﴾ بمعنى صلِّ ﴿**نِّصْفَهُ,**﴾ قيل: هو بدل «قَليلاً» بدلَ كلٍّ، وفيه تسمية النِّصف قليلاً، والهاء للَّيْل، ويوجِّه تسمية النِّصف بعضًا وقليلاً بأنَّ النِّصف المقوم فيه قويٌّ كأنَّه الكلُّ، والنِّصف الآخر كأنَّه أقلُّ من النِّصف، قيل: أو سمَّاه قليلاً بالنسبة إلى الكلِّ، وفي هذا الإبدال بيان ما أبهم، وهو قوله تعالى: ﴿**قَلِيلاً**﴾.

﴿**أَوُ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً**﴾ أي: من النِّصف ﴿**اَوْ زِدْ عَلَيْهِ**﴾ أي: على النِّصف إلى الثلثين، وهكذا قُلْ على ما ظهر لي، وإلاَّ فقل: الضَّمير في «مِنْهُ» للَّيل، لأنَّ الكلام مبنيٌّ على اللَّيل. وفي الوجه الأوَّل ردُّ الضمير للأقرب، وعلى الثاني يكون المعنى: قم نصف اللَّيل، أو انقص من اللَّيل قليلاً، وهذا القليل ما دون النِّصف.

وحاصل الوجهين أن يقوم نصف اللَّيل أو أقلَّ من النِّصف، أوْ أكثر من النِّصف، وقد يتقوَّى الثاني بأنَّ فيه جعل معيار النَّقص والزَّيد النِّصف المقارن للقيام، وهو أَوْلى مِنْ جعله النِّصف العاري منه بالكلِّيَّة وإن تساويا كمِّيَّةً، وأجيز إبدال «نصْفَ» من «قَليلاً» مع جعل «قَليلاً» الثاني نصف النِّصف وهو الرُّبع، وهاء «عَلَيْه» لهذا القليل، والمزيد على هذا القليل الذي هو الربع نصف الربع، أي: قم نصف اللَّيل أو انقص من النِّصف قليلاً نصفه، أو زد على هذا القليل

قليلاً نصفه، كأنَّه قيل: قم نصف اللَّيل أو نصف نصفه، أو زد على نصف النِّصف نصف نصف النِّصف، فاللَّيل على ستَّة عشر قسمًا فيقوم ثماني ساعاتٍ أو أربعًا أو ستًّا.

والحاصل أنَّه خُيِّر بين أمرين: أن يقوم أقلَّ من نصف اللَّيل جزمًا، وأن يختار أحد الأمرين النقصان من نصف اللَّيل، والزِّيادة عليه. أو خُيِّر بين ثلاثة: بين قيام نصف اللَّيل، وبين قيام أقلَّ من النِّصف، وبين قيام الزَّائد عليه، على جعل «نِصْفَهُ» بدلاً من «قَلِيلاً».

وعن الكلبيِّ: القليل الثلث، وعن وهب بن منبِّه أنَّه ما دون العُشر والسدس. والآية دليل على جواز استـــثناء النِّصف.

(تهجُّد) وكانوا لا يدرون ثلث اللَّيل، أو ثلثيه أو نصفه، فكانوا يحتاطون حتَّى يكونوا على يقين من القدر مُدَّةَ سَنَة عند عائشة، فانتفخت أقدامهم، وقيل: ستَّة عشر شهرًا، ونسخ ذلك بالخمسٍ المفروضات. ولا سورة نسخ آخرُهَا أوَّلُها إلاَّ هذه.

﴿**وَرَتِّـــلِ**﴾ في قيام اللَّيل وغيره ﴿**الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً**﴾ ميِّزْ كلَّ حرف من آخَر كأنَّ بينهما فسحة كما يكون ترتيل الأسنان، وهو تفسُّح سنٍّ عن أخرى خلقةً أو صنعةً، وهو بالصنعة حرام كما في الحديث[1].

وعن الإمام عليٍّ أنَّه سئل رسول الله ﷺ عن ترتيل القرآن فقال:

١- يشير إلى الحديث الذي رواه **الربيع والبخاريُّ** في صحيحَيْهما: «لَعَنَ اللَّهُ النَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ، وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ». الربيع كتاب الأشربة (٤١) باب في الْمُحَرَّمَات، رقم٦٣٧. والبخاري كتاب التفسير (٣٦٤) باب {وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} رقم٤٦٠٦ و٤٦٠٥. من حديث ابن عبَّاس.

«بَيِّنْهُ تَبْيِينًا ولا تنثره نَثْر الدَّقل، ولا تَهُذَّهُ هذَّ الشِّعر، قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن هَمَّ أحدكم آخر السورة». وكان ﷺ **يمدُّ ويقرأ حرفًا، ويقف على رأس كلِّ آية.**

والقرآن إمَّا بمعنى القراءة لكتاب الله تعالى، وإمَّا بمعنى كتاب الله سبحانه.

﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ**﴾ اختار هذا على أن يقول: سنوحي إليك، لأنَّ الإلقاء عليه مشعر بالثقل، والقرآن ثقيل كما قال ﷻ : ﴿**قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ هو القرآن المتلوُّ، وثِقْلُهُ معنويٌّ، فإنَّه شاقٌّ لما فيه من التكاليف من الأوامر والنَّواهي والحدود وللوعيد، ولا سيَّما على رسول الله ﷺ ، فإنَّه يشقُّ عليه أخذه عن جبريل، فإنَّه يعرق جبينه عند أخذه عنه ولو شتاء، كما روي عن عائشة، ويعمل به ويحفظه ويعلِّمُهُ النَّاس، ويأمرهم به.

وفي ذلك ثقل حسِّيٌّ، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا: إذا أوحي إليه راكبًا على ناقته وضعت جرانها فما تقدر أن تتحرَّك، حتَّى يفرغ، وقرأت: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي...﴾ إلخ. وأوحي إليه وفخذه على فخذ زيد، فكادت ترضُّ فخذ زيد.

وقيل: ثقله شدَّة جودة معناه ولفظه، ويُقال للشيء الذي له شأنٌ عظيم: إنَّه ثقيل. قال البخاريُّ ومسلم والرَّبيع عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا وعن أبيها: إنَّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ وعلى آله: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ : «**أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهذا أشدُّه عليَّ، فينفصم عنِّي وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلِّمني فأعي ما يقول**»[1].

١- رواه **الربيع** في مسنده (٢) باب في ابتداء الوحي، رقم٢، من حديث عائشة.

وقيل: ثقله لزوم التجرُّد للتأمُّل فيه، وتصفيَّة السِّرِّ. وقيل: كثرة ثوابه، وقيل: يعبَّر عن هذا بثقله في الميزان، وقيل: ثقله لما فيه من المحكم والمتشابه، والنَّاسخ والمنسوخ.

وقيل: ثقيل على المشركين والمنافقين، لأنَّه يضادُّهم، وخصوصًا على المنافقين، لأنَّه يفضحهم. ويُقال: كلُّ حرف في اللَّوح المحفوظ كجبل لا تطيق الملائكة كلُّهم على حمله واستخراجه، إلاَّ إسرافيل فأقدره اللهُ على ذلك **ولا مستند لهذا. أو الثقل في ذلك كُلِّه مجاز.**

قيل: ولا يُقال: سورة أو آية خفيفة، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ وصف القرآن بالثِّقل.

﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ**﴾ أي: النَّفس، أو النُّفوس التي تنشأ في اللَّيل، أي: تنهض للعبادة فيه ــ صلاة أو غيرها ــ من النَّوم. وأنشأ الله الشيءَ: بعثَهُ، ونشأ شيءٌ حدث.

[قلت:] وأخطأ من قال: إنَّ اللَّفظ حبشيٌّ معرَّب، وهكذا كلُّ لفظ صحَّ في لغة العرب إذا ادَّعى أحدٌ أنَّه معرب فقد أخطأ وعصى.

والإضافة بمعنى في، قيل: أو على، أي: قام متغلِّبًا على اللَّيل، وأجاز بعض أنَّه مصدر، كالعافية والعاقبة، والإضافة بمعنى في كذلك، أو من نسبة الفعل إلى زمانه، كقولك: قام ليلُه (بالرفع).

وقيل: ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ على معنى العبادة فيه ولو لم يتقدَّم نَوْمٌ، وسواء أوَّل اللَّيل وآخره ووسطه، وهو قول زين العابدين. وعن عائشة: القيام بعد النَّوم. وقيل أيضًا: ناشئته ساعاته، لأنَّه تنشأ ساعة بعد ساعة. وقيل: ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾: ساعاته الأُوَّل، والنَّاشئة: ذات أو عبادة أو ساعة. والإخبار بـــ«أَشَدُّ وَطْئًا» مجاز إذا فسِّر بساعة أو عبادة.

وعن الكسائيِّ: ساعته الأولى، كما قيل عن ابن عمر وأنس: إنَّهما ما بين المغرب والعشاء. وعن زين العابدين عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب أنَّه كان يصلِّي بين المغرب والعشاء، ويقول: هذه ناشئة اللَّيل. وقيل: كلُّ صلاة بعد العشاء هي ناشئة اللَّيل.

وقيل: العبادة آخره. وعن ابن عبَّاس وابن الزبير: اللَّيل كلُّه ناشئة، وما بين المغرب والعشاء ساعة، كما بين الفجر وطلوع الشمس.

﴿**هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا**﴾ أي: موافقة بأن يوافق القلب اللِّسان، وعبادة النَّهار دون ذلك لعوارض تشغل، والمعنى: يواطئ قلبها لسانها، على أنَّ الناشئة النَّفس أو النُّفوس، والإسناد مجازيٌّ، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه إن أريد بالناشئة القيام، أو العبادة، أو السَّاعة، أو السَّاعات.

أو﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أثقل على النَّفس لاعتيادها النَّوم فيه. وعن ابن عبَّاس: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أضبط لأداء العبادة، لأنَّ الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وقيل: أسهل للمصلِّي، لأنَّ النَّهار للتصرُّف في الأشغال بخلاف اللَّيل، والإسناد مجازيٌّ. أو المعنى: أشدُّ موافقة لما يراد من الإخلاص، فلا مجاز.

﴿**وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ أصوب قراءةً، وأصحُّ قولاً من النَّهار لِهَدْأَةِ النَّاس، وسكون الأصوات. وقيل: أبين قولاً بالقرآن، وأبعد من الرياء، وأكثر ثوابًا.

﴿**إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً**﴾ أي: تصرُّفًا طويلاً في أشغالك الدُّنيَويَّة المباحة وسائر العبادة بين النَّاس، وكالنَّوم لتـتقوَّى به على عبادة اللَّيل.

(بلاغة) واللَّفظ مستعار من التنقُّل في الماء، أو مجاز مرسل، من استعمال المقيَّد في المطلق، فذلك جامع لعمل الدِّين والدنيا، وهو أنسب للمقام.

وقيل: السَّبح: الفراغ الباقي لِمَا فات، وهو أن يعمل بالنَّهار ما فاته من عبادة اللَّيل، وهو مناسب لـ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ اَرَادَ أَن يَّذَّكَّرَ أَوَ اَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢) ، ففيه تلويح إلى شكر الله تعالى على أنَّه لم يكلِّفه استيعابهما، وعلى إثباته تدارك ما فات فذلك كلُّه للدِّين، ولا شيء فيه من الدنيا. و«فِي» متعلِّقة بما تعلَّق به «لَكَ» أو بـ«سَبْحًا» المَصْدَرِ، للتصرُّف في الظروف، فلا بأس بتقديم المعمول الظرفيِّ عليه.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ دُمْ على ذِكره دوامًا عرفيًّا، وهو الإكثار، لا حقيقيًّا كالمَلَك لا يفتر عن الذِّكر، إذْ لم يخلق الله ذلك في طاقة البشر، وهذا تعميم للعبادة بعد تخصيصها باللَّيل.

والإضافة للجنس، فشملت أسماءَه، مثل: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا ذا الجلال والإكرام، أنت سبُّوح قدُّوس لا إله إلاَّ الله، الحمد لله، سبحان الله العظيم، سبحان ربِّي العظيم، سبحان ربِّي الأعلى، الله أكبر ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، وسائر العبادات المشتملة على اسم الله، وقراءةَ القرآن، وزاد بعضٌ دراسةَ العلم، لأنَّها في معنى ذكر الله تعالى.

﴿وَتَبَتَّلِ﴾ انقطع ﴿اِلَيْهِ﴾ بقلبك، فذلك عبادة بالجارحة وعبادة بالقلب، أو تأكيد لما قبله، والانقطاع إليه قلبًا وظاهرًا، ورفض الدنيا. وقيل: تَوَكَّلْ. ﴿تَبْتِيلاً﴾ مقتضى الظاهر: تبتُّلاً، فهو اسم مصدر للفاصلة، ولأنَّ التبتُّل متضمِّن لمعنى التبتيل، وقيل: قال: ﴿تَبْتِيلاً﴾ إشارة إلى معنى بتِّل نفسك، أي: احملها على التبتُّل، وأيضًا لا بدَّ من التَّبتيل حتَّى يحصل التَّبتُّل.

وذكر التبتُّل أوَّلاً لأنَّه المقصود، و«التبتيل» ثانيًا لأنَّه صَرْفٌ إلى التبتُّل، وفعْلٌ موصل إليه، وهو قطع النَّفس إليه، والتبتيل تصرُّفٌ، والمشتغل بالتصرُّف لا يكون متبتِّلاً، إلاَّ أنَّ هذا الصرف عبادة أيضًا لأنَّه آلة للتبتُّل.

﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: هو ربُّ المشرق، أو مبتدأ خبره قوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾. و«ال» للاستغراق، فشملت مشارق الشمس والقمر والنُّجوم ومغاربها، وقرأ ابن عبَّاس: «رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ» بالجمع، ومرَّ كلام في ذلك[1].

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ عطف إنشاء على إخبار، والفاء سَبَبِيَّة، اتَّخِذْهُ وَكِيلاً لأنَّ له المشارق والمغارب، مالكٌ لكلِّ شيء، فهو الذي يتوكَّل عليه، ويفوَّض الأمر إليه، إذ ليس في يد غيره شيء.

و«وَكِيلاً» فعيل بمعنى مفعول، على الحذف والإيصال، والأصل: وكيلاً إليه، أي: موكولاً إليه، حذف الجارُّ وانتصب مدخوله كالمفعول، فوصل بـــ«وكيل» بستر ضمير رفع في «وَكِيلاً» بدلاً منه.

ولا مقابلة بين التبتُّل والتوكُّل فضلاً عمَّا قال بعض المحقِّقين: إنَّ مقام التوكُّل فوق مقام التبتُّل، لأنَّا فسَّرنا التبتُّل بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة، والتوكُّل ترك الأمر لله تعالى، وأمرنا بالجمع بينهما، وإنَّما يكون ذلك لو فسَّرنا التبتُّل بالخضوع إليه تعالى في طلب الحوائج، لِمَا في التوكُّل من رفع الاختيار.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من قولهم: ساحر، وقولهم: مجنون، وقولهم: كاهن، وقولهم: مفتر، وقولهم: أساطير الأوَّلين، وقولهم: يعلِّمه بشر، وقولهم: يفرِّق بين الأحبَّة.

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ بأن لا تكافِئَهُمْ على سوئهم، وَكِلْ أمرهم إلى الله تعالى، فَسَيُكَافِئَهُمْ، فهذه تسلية له ﷺ، كما قال:

١- راجع في هذا الجزء تفسير الآية ٤٠ من سورة المعارج.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨)﴾

تهديد الكفَّار وتوعُّدُهم

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ سأنتقِمُ منهم مطلقًا، فيدخل هؤلاء أوَّلاً، أو المراد هؤلاء الصناديد المستهزئون أو بعضهم، وعليه فمقتضى الظاهر: ذرني وإيَّاهم، وعبَّر عنهم بموجب الانتقام وهو التكذيب. وقيل: المراد المتكفِّلون بالإطعام يوم بدر.

(بلاغة) والواو للمعيَّة، والجملة مجاز مركَّب بدون استعارة، عبارة عن «إنِّي أنتقم منهم». ويجوز أن يكون استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه صور اقْتراف المعاصي مرَّة بعد أخرى، والإمْهالَ ـــ مع العَدِّ على المعاصي عَدًّا بَعْدَهُ الانتقامُ في الدنيا والآخرة ـــ بصورة متَعَدٍّ على غيره، مع العَدِّ على ذلك المتَعدِّي عَدًّا يليه العقاب على ذلك التعدِّي، اغْتياظًا عليه، إلاَّ أنَّ الله تعالى لا يغتاظ، لأنَّه لا يلحقه ضرٌّ ولا نفعٌ.

﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ التنعُّم، تلذُّذًا بالمال وصحَّة البدن واللِّباس والمركب، وهو مصدر، إمَّا بالكسر فهو نفس ما يتنعَّم به، وإمَّا بالضمِّ فالمسرَّة. ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ اعتقد أنَّ الله مَهَلَهُمْ، عَبَّر عن اللاَّزم والمسبَّب بالملزوم والسبب، وذلك أنَّ الممهِّل هو الله تعالى لا رسوله ﷺ. ﴿قَلِيلاً﴾ زمانًا قليلاً أو تمهيلاً قليلاً، والشدُّ للتعدية لا لتكثير الكُفَّار الممهَّلين، إلاَّ أن يُقال: اختار الشدَّ عن الإمْهال لذلك.

﴿انَّ لَدَيْنَآ﴾ عندنا ﴿أَنكَالاً﴾ جمع نِكْلٍ (بكسر النُّون) وهو أوفق لهذا الجمع، أو بفتحها، والأوفق لهُ: أَنكُل وهو القيود الشديدة، وهو المعروف في اللُّغة، وفسَّرها الكلبيُّ بالأغلال، وعن الشَّعبيِّ: لم تجعل الأنكال في أرجلهم حَبْسًا عن الهروب لأنَّه لا موضع في النَّار يهربون إليه يستريحون فيه، أو ينجون فيه، ولا يفوتون الزَّبانية بل لِتَسْتَقِلَّ بهم إذا أرادوا الارتفاع.

﴿وَجَحِيمًا﴾ نارًا شديدة الاتِّقاد ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ صاحب نشب في الحلق ، ثمَّ بَعْدَ شدَّة ينزل يحرق ما في بطونهم، فيخرج مع ما فيها من الأمعاء، ثمَّ تعاد، يجبرون على أكله، أو يخلق الله فيهم اشتهاءه لكونه بصورة طعام، فلا يجدون من أنفسهم حذرًا منه، وذلك هو الضَّريع والزَّقُّوم. وعن ابن عبَّاس: شوك من نارٍ لا ينزل ولا يخرج. ﴿وَعَذَابًا اَلِيمًا﴾ هو عذاب عظيم، نوع آخر من العذاب لا يعرف قدره إلاَّ الله تعالى الرَّحمن الرَّحيم.

وعن أبي داود أنَّ النبيء ﷺ سمع رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً﴾ فصعق. وروي أنَّه ﷺ قرأها ولَمَّا بلغ ﴿أَلِيمًا﴾ صعق. وأمسى الحسن عند خالد بن حسَّان صائمًا، فأتاه بطعامٍ، فعرضت له الآية فقال: ارفعه، وكذا عرضت له في اللَّيلة الثانية والثالثة وقال: ارفعه، فجاء ابنه بثابت البنانيِّ ويزيد الضبي ويحيى البَكَّاء[1] فلم يزالوا به حتَّى شرب شربة من سويق. [قلت:] ولا يجوز تكلُّف الصعق.

﴿يَوْمَ﴾ متعلِّقٌ بـ«عذاب»، أو بمحذوف نعت له، أو حال، أو بـ«اَليمًا» أو بـ«ذَرْنِي» أو بمتعلَّق «لَدَيْنَا». ﴿تَرْجُفُ﴾ تضطرب وتتزلزل. ﴿الاَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ بذاتها كما هُو ظاهر العطف، أو تبعًا لتزلزل الأرض.

١-يحي بن مسلم، أو ابن سُلَيم، أبو مسلم البكَّاء البصريُّ مولاهم، وقد ضعَّف المحدِّثون رواياته، إلاَّ أنَّه زاهد كثير البكاء. تُوُفِّيَ سنة ١٣٠هـ. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج٢، ص٣٦٧.

﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ أظْهرَ إعظامًا للهوْل إذ كانت تذوب مع عظمها وصلابتها وارتفاعها.

(لغة) ﴿كَثِيبًا﴾ ككثيب، وهو الرَّمل المجتمع، ومادَّة كثب للجمع، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: مكثوب ثمَّ تغلَّبت عليه الاسميَّة فصار اسمًا لذلك الرَّمل، فلا يتحمَّل ضميرًا. وذلك تشبيه بليغ، أو استعارة، أو حقيقة بأن يُصيِّرها الله تعالى رملاً مرتفعًا عريضًا على صورة الجبل.

﴿مَّهِيلاً﴾ صفة مشبَّهة بمعنى رخوًا ليِّـنًا تدخلها القدَم، وقيل: فعيل بمعنى مفعول، يُقال: هاله فهو مهيل، أي: نثره، ثمَّ يكون كثيبًا ثمَّ يهال. وقيل: كثيبًا بالفعل مهيلاً بالقوَّة، وبعد ذلك يطار بالفعل.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ﴾ الآن ﴿إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب للمكذِّبين المعهودين أو لبعضهم، على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، الالتفات لجليل، ألا ترى إلى الاستشهاد عليهم بالرَّسول وتشبيه تكذيبهم لرسول الله ﷺ بتكذيب فرعون لموسى عليه السلام ، مع المواجهة لهم بذلك، كأنَّه ينتقم منهم الآن مع مَن ينتقم منهم به في الآخرة، كما فعل ذلك بفرعون؟ وقيل: الخطاب للعموم، فلا التفات، إلاَّ إن أريد بالمكذِّبين العموم.

﴿رَسُولاً﴾ هو محمَّد ﷺ فعَصَيْتُموهُ ﴿شَاهِدًا﴾ يوم القيامة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بما فعلتم من الشِّرك وما دونه من المعاصي.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ هو موسى عليه السلام ، ولم يُذكر للعلْم به، وليحصل تعظيمه بتنكير «رَسُولاً» كـ«رَسُولاً» الأوَّل. والكاف حرف، أي: إرْسالاً ثابتا كإرسالنا إلى فرعون، أو اسمٌ، أي: إرْسالاً مثل إرسالَنا إلى فرعون. ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ المعهود، ولم يضمر له ولا لفرعون تفظيعًا

لشأن عصيانه، من حيث رسول الله ﷺ لا من حيث إنَّه موسى، وكذلك أظهر «رسول» الأوَّل ولم يقل: إنَّا أرسلنا إليكم محمَّدا ولا سيَّما وقد وصف بالشهادة عليهم، ولو آمنوا به لكان شاهدًا لهم.

﴿**فَأَخَذْنَاهُ**﴾ بالإغراق ﴿**أَخْذًا وَبِيلاً**﴾ ثقيلاً بالمشقَّة والإيجاع كالكلإ الوبيل الوخيم الذي لا يهضم في البطن. والأخذُ الوبيلُ غيرُ داخل في التشبيه، لأنَّهم لم يؤخذوا أخذًا وبيلاً حين نزول الآية إلاَّ من حيث تخويفهم بأنَّهم قد استوجبوا الأخْذَ الوبيل الذي لفرعون أو أشدَّ، فأمهلهم بلطفه.

﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ...**﴾ إلخ ترتيب على الإرسال والعصيان ﴿**إِن كَفَرْتُمْ**﴾ بقيتم على الكفر، وقيل: هو على ظاهره لكن جيء به على صورة الشكِّ تنبيهًا على بُعد الكفر مع تبليغ هذا الرَّسول إليهم، حتَّى كأنَّه لم يقع وشَكَّ في وقوعه.

﴿**يَوْمًا**﴾ مفعول به لـ«تتَّقي»، أي: كيف تتَّقون نفس ذلك اليوم فلا يأتي عليكم؟ أو كيف تتَّقون هول ذلك اليوم؟ أو كيف تتَّقون عذاب اليوم؟ أو هو ظرف لـ«تتَّقي»، أي: كيف تعبدون الله في ذلك اليوم فتنجوا، والآخرة ليست دارَ عملٍ فاعْملُوا الآن. قيل: أو هو مفعول لـ«كَفَرْتُمْ» بمعنى: أنكرتم، كيف يرجى إقلاعكم عن الكفر وقد جحدتُم ذلك اليوم؟.

﴿**يَجْعَلُ**﴾ ضمير «يَجْعَلُ» لليوم، على التجوُّز بالإسناد إلى زمان الفعل، فإنَّ الجاعِلَ حقيقةً هو اللهُ تعالى. والجملة نعت «يَوْمًا»، والرابط ذلك الضمير، وإن رددنا الضمير إلى الله تعالى فالرابط محذوف، أي: يومًا يجعل الله فيه ﴿**الْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾ جمع أشيب كأحمر وحُمْرٌ، وأصله شِوب كسر الشِّين لتبقى الياء.

والشيبُ حقيقة، فعن ابن مسعود: يقول الله تعالى لآدم عليه السلام: «قم فابعث بعث النَّار من ذرِّيتك، فيقول: يا ربِّ لا علم لي إلاَّ ما علَّمتني، فيقول

الله ﷻ : ابعث من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيساقون إلى النَّار» وهؤلاء من يدخل النَّار بغير حساب، وهم ياجوج وماجوج وما أشبههم من بني آدم، وحينئذٍ يشيب كلُّ وليد.

وجاء في ذلك حديث مرفوع في الصَّحيحين: يقول الله ﷻ : يا آدم، فيقول: لبَّيك وسعديك والخير في يديك، فيُنادَى «إنَّ الله يأمرك أن تُخرج من ذرِّيتك بعث النَّار، قال: يا ربِّ، وما بعث النَّار؟ قال: من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون»، وفيه «أيُّنا ذلك الرَّجل»، فقال ﷺ : «**أبشِرُوا، الرجلُ منكم، والباقون من ياجوج وماجوج**»[1].

وفيه «**أرجوا أن تكونوا رُبع أهل الجنَّة**»، فكبَّروا، ثمَّ قال: «**ثلث أهل الجنَّة**» فكبَّروا ثمَّ قال: «**شطرهم فكبَّروا**» وهذا الترتيب أوقع في النَّفس، وأبلغ في الإكرام، وظهور الاعتناء بهم، وتكرير البشارة، وتجديد الشكر.

وفي حديث آخر: «**أهل الجنَّة ثمانون صفًّا أنتم ثلثان منهم**» وقوله ﷺ : «**الرَّجل منكم**» تمثيلٌ، لأنَّه يكون أيضًا من الأمم السَّابقة، والخطاب في «منكم» لبني آدم لا للصَّحابة خصوصًا. وممَّا يزاد به شيب قوله: «ابعث بعث النَّار»، وأنَّه تسعمائة وتسعة وتسعون.

صلُّوا على المختار فهو شفيعكم في يوم يبعث كلُّ طفـــل أشيـــبا

(قصص) وكم ميِّتٍ ورد في الأخبار أنَّه بعث في الدنيا أشيب وقد مات غير أشيب، ومن ذلك أنَّ عيسى عليه السلام رأي قيحًا يخرج من قبر، فقال: يا ربِّ ما هذا؟ قال: صلِّ ركعتين، فصلَّى ودعا، فخرج إنسان منه نصف لحيته

١- رواه **البخاري** في كتاب الأنبياء (١٠) باب قصَّة ياجوج وماجوج، رقم: ٣١٧٠، ورقم: ٤٤٦٤ و٦١٦٥ و٧٠٤٥، من حديث أبي سعيد الخدري.

أشيب، فقال له ما هذا ؟ فقال: متُّ بلا شيب، فنودي بي وتوهَّمت البعث فشاب نصف لحيتي، وقال: وما حالك؟ فقال: في خير إلاَّ أنّي كنت قاضيًا فاستمعت إلى كلام خصم دون آخر فهذا القيح يخرج من الأذن لذلك.

وقيل: جعل الولدان شيبًا **عبارة عن الشدَّة، لأنَّ من اشتدَّت عليه الهموم أسرع إليه الشيب، أو هو وصف لذلك اليوم بالطُّول** وتمثيل له، بأنَّ الولدان يبلغون فيه أَوَانَ الشيب، لا حقيقة الشيب، ولا ذلك المقدار فقط من الزَّمان، بل أطول.

ونقدِّم له لا إله إلاَّ الله والإيمان بكلِّ ما يجب الإيمان به، [قلت:] ونسأله التوفيق للوفاء، وإكثار الصَّلاة والسَّلام على النبيء ﷺ ، وذلك على العموم.

وقال السُّدِّيُّ: هم أولاد الزنى، وقيل: أولاد المشركين، وهما ضعيفان إذ لا وجه للتخصيص، ولا ذنب للولدان المذكورين.

وقوله: ﴿**السَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ**﴾ نعت آخر، والهاء لليوم، والباء للآلة، أي: منشقٌّ بذلك اليوم لشدَّة هوله مع عظمها وقوَّتها، فما بالك بغيرها؟ والباء بمعنى في، أي: منشقَّة فيه لهوله، ويجوز أن يكون الانفطار عبارة عن ثقله عليها الآن في الدنيا لشدَّته وخوفها أن يقع، والثِّقل سبب للانشقاق في الجملة، ولا انشقاق حقيق، ولكن تمثيل وتخييل.

[قلت:] والصَّحيح أنَّ الانشقاق حقيق، وأنَّه يوم القيامة. وإن رددنا الهاء إلى الله ــ كما هو مذهب مجاهد ــ فالرابط بين النعت والمنعوت محذوف، أي: منفطر فيه بالله، أي: بأمره.

(صرف) والسَّماء يذكَّر ويؤنَّث، والتأنيث أكثر كَمَا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (سورة فصلت: ١١) ، ولو كان مذَكَّرًا لَقيلَ: قالا

تغليبًا على الأرض، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا﴾ (سورة الطور: ٩) ، ومن تذكيره قول الشّاعر:

ولو رفع السَّماءُ إليه قومًا   لحقنا بالسَّماء وبالسَّحاب

وهاء «إليه» للسَّماء، ولم يقل: رفعت السَّماء إليها، وقيل: ذُكِّر لتأويله بالسَّقف، والحكمة الإدهاش بزوال أداة الإظلال تمثيلاً بزوال الظلّ لزوال السَّقف.

وقيل: التذكير للنَّسب، أي: ذات انفطار، كمرضع، أي: ذات رضاع، وحائض، أي: ذات حيض. وقيل: بتأويل شيء منفطر، بمعنى أنَّه تبدَّلت وزال حكمها، ولم يبق لها إلاَّ اسم شيء. ولا يصحُّ أنَّ السَّماء اسم جنس مفردُهُ سماءة، وأنَّه ذُكِّر لذلك كشجر وبقر وكَلِم، لأنَّ كلاًّ من السَّماء والسَّماءة مفرد.

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ الجملة نعت آخر لـ«يَوْمَ»، والرابط الهاء عائدة إليه. وإضافة الوعد إليه إضافة مصدر لمفعوله، والفاعل الله، أو الهاء لله، والإضافة للفاعل، والمفعول ضمير اليوم محذوفًا، أي: وعْدُ الله به.

□ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ □

التخفيف من قيام الليل
والأمرُ بتلاوة القرآن والقيام بالأعمال الصالحة

﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ هذه الآيات المتلوَّة أو الأمور المضمونة فيها من رجف الأرض، وكون الجبال كثيبًا مهيلاً، وجعل الولدان شيبًا، وانفطار السَّماء ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة.

﴿فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ إلى رضى ربِّه ﴿سَبِيلاً﴾ يوصله إليه، وهو الإيمان والعمل. ومفعول «شَآءَ» مقدَّر من جنس الجواب، كما هو المعتاد، أي: من شاء اتِّخاذ السَّبيل الموصلة إلى الخير اتَّخذَ... إلخ، أو من شاء اتِّخَاذ السَّبيل إلى ربِّه اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً، أي: لم يُمنعْ من اتِّخاذ السَّبيل، وقدَّره بعض من غير الجواب هكذا: من شاء الاتِّعاظ، أي: حصول الاتِّعاظ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ﴾، أي: أقلَّ من ثلثي اللَّيل، فإنَّه يلزم من قرب الشيء إلى آخر قلَّة الاحياز، فعبَّر بالملزوم عن اللاَّزم، أو استعارَ الدُّنوَّ للقلَّة، وفي ذلك جعل الثلثين قليلاً لأنَّ «أدنى» اسم تفضيل، والجواب: إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عَدَّهما قليلاً باعتبار عظمته. وأولى من ذلك أن نجعل «من» ليست تفضيليَّة، بل التي يتعدَّى بها الدُّنوُّ، تقول: دنا من كذا، ونُخْرِجُ «أَدْنَى» عن التفضيل، فيكون المعنى: ما يقرب من ثلثي اللَّيل.

﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ عطف على «ثُلُثَي» فيكون يقوم ما يقرب من الثلثين تارة، وما يقرب من النِّصف تارةً، وهو ما فوق الثلث بقليل، وما يقرب من الثلث تارة، وهو ما دون النِّصف، ما لم يصل ثلثًا كالرُّبع.

والحاصل أنَّه يقوم أقلَّ من الثلثين وأقلَّ من النِّصف وأقلَّ من الثلث، وهذا فيما علم الله تعالى أنَّه يقع من رسول الله ﷺ والطائفة التي معه، وقوله تعالى: ﴿قُمِ الَّيْلَ...﴾ إلخ فيما أمره الله به، وبذلك يُجاب عن التخالف بين قراءتنا

بالجرِّ وقراءة نصب «نصفَهُ» و«ثُلُثَهُ» عطف على «أَدْنَى»، فإنَّ حاصلها أنَّك تقوم أقلَّ من الثلثين وتقوم نصف اللَّيل تارة، وتقوم ثلث اللَّيْل أخرى.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الذينَ مَعَكَ﴾ عطفًا على المستتر في «تَقُومُ» لوجود الفصل، كأنَّه قيل: تقوم أنت وطائفة من الذين معك أدنى من ثلثي اللَّيل، و«مِنْ» لتبيان، أي: وطائفة هم الذين معك، وقيل: للتبعيض، والبعض الآخر يقوم غير القيام المذكور. وقيل: لم يجب عليه، وهو ضعيف.

﴿وَاللهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ والنَّهَارَ﴾ يخلق مقادير ساعاتهما ويعلمها، وأنتم لا تعلمونها فلا بأس عليكم في نقص مِمَّا عُيِّن لكم، إذْ لا تصلون إلى حسابه لدقَّته، يعجز عنها أصحاب الآلات.

﴿عَلِمَ أَن﴾ أنَّ الشأن أو أنَّكم ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تطلبوا تقدير الأوقات، فعامَلَكُم بالأوسع، ولا سيَّما أنَّ العرب يشقُّ عليها الحساب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بترك المقدار في القيام، شبَّه الترخيص بقبول التوبة لجامع رفع العقاب.

(سيرة) قال سعدُ بنُ هِشَام لعائشة: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ ، فقالت: ألسْت تقرأ ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟ قال: بلى، قالت: «فإنَّ الله تعالى افترض قيام اللَّيل في أوَّل السُّورة هذه، فقام نبيء الله وأصحابُه حولاً وأمسك الله تعالى خاتمتها اثنا عشر شهرًا في السَّماء»، يعني لم تنزل الخاتمة «حتَّى أنزل الله تعالى في آخر السورة التخفيف، وصار قيام اللَّيل تطوُّعًا» وفي رواية عنها: «دام ثمانية أشهر»، وعن قتادة: عامًا أو عامين.

وقيل: القيام وَجَبَ، إنَّما التخيير في المقدار، ثمَّ نُسخ بعد عشر سنين، **وقيل: وجب عليه ﷺ دون غيره**، كما قال: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (سورة الإسراء: ٧٩) ، أي: زيادة واجبة.

وعن ابن عبَّاس: وجب على الكلِّ ثمَّ نسخ عن غيره، فمن شاء تطوَّع، وبقي الوجوب عليه إلى أن مات، وقيل: فرض في مكَّة ثمَّ نسخ وجوبه عنهم، وعنه: بالصَّلوات الخمس، وهذا في البخاري ومسلم[1].

ويروى عن ابن عبَّاس أنَّه صلَّى ركعة بالفاتحة والآية الأولى من البقرة، وركعة بالفاتحة والآية الثانية منها، فقال: «هذا قراءة ما تيسَّر»، وقيل: الآية في قراءة القرآن بلا صلاة، فقيل: مائة آية، وقيل: السورة التي قلَّت آياتها كسورة الكوثر وكسورة الإخلاص.

وعن أنس مرفوعًا: «**من قرأ خمسين آية في يوم وليلة لم يكتب من الغافلين**»[2]، من قرأ آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية لم يحاجَّه القرآن يوم القيامة، ومن قرأ خمسمائة كتب له قنطار من الأجر، وروي: أربعون آية، وروي: عشرون بدل خمسين.

وعن أبي هريرة مرفوعًا: «**من قرأ عشر آيات لم يُكتب من الغافلين**»[3]. وكان عبد الله بن عمرو بن العاصي يصوم الدَّهر ويقرأ القرآن كلَّ ليلة، فقال ﷺ: «**صُم يومًا وأفطِرْ يومًا كداود، واقرأ القرآن في كلِّ شهر**» قال أطيق أكثر فقال: «**في كلِّ عشر**» فقال: أطيق أكثر، فقال: «**في كلِّ سبع ولا تزد على ذلك**».

١- انظر: **البخاري** في كتاب التهجُّد (١٠) باب كيف كان صلاة النبيء ﷺ وكم كان يُصَلِّي من الليل، رقم: ١٠٨٩ وما بعدهُ. من حديث عائشة. ورواه **مسلم** في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٢٦) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم٧٦٤. من حديث ابن عبَّاس.

٢- رواه **الدارمي** في كتاب فضائل القرآن، باب ومن قرأ خمسين آية، رقم٣٣٢٠، من حديث عبد الله بن عمرو.

٣- رواه **الدارميُّ** في كتاب فضائل القرآن، باب ومن قرأ عشر آيات، رقم٣٣١٧، من حديث تميم الداري.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ أي: صلُّوا ما تيَسَّر لكم من الصَّلاة في اللَّيل عبَّر عن الصلاة بجزئها الذي هو القراءة، كما عبَّر عنها في غير هذه الآية بجزئها الذي هو الرُّكوع، وبجزءها الذي هو السُّجود.

وقيل: فرض الله تعالى القيام بمقدار معيَّن في قوله تعالى: ﴿قُمِ الَّيْلَ...﴾ إلخ ثمَّ نسخ بمقدار مَّا منه في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُم فَاقْرَءُوا...﴾ إلخ ثمَّ عن الأمَّة وجوبُه بالصَّلَوات الخمس، وقيل: وجب عليهم القيام ثمَّ نسخ وأمروا بقراءة شيء من القرآن، أي: إن شقَّ عليكم فاقْرأوا بدلَهُ شيئًا من القرآن على النَّدب. وفي الأثر: «من قرأ مائة آية»، وفي أثر: «خمسين في ليله لم يحاجَّه القرآن»، وفي أثر: «كُتِب من القانتين».

(فقه) [قلت:] وأخطأ من أجاز الصَّلاة بدون فاتحة الكتاب، فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**لا تُجزي صلاة لم يُقرأ فيها بفاتحة الكتاب**»[1] وعنه أنَّه قال ﷺ : «**كلُّ صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خدَاج**»[2]، أي: نقصان عن حدِّ الإجْزاء، فهي باطلة، بدليل الحديث الآخر المذكور، وحديث أبي هريرة: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أخرج وأنادي: لا صلاة إلاَّ بفاتحة الكتاب**»[3] وذلك في كلِّ ركعة للإمام والمأموم والفذِّ.

(فقه) ومن ترك حرفًا واحدًا عمدًا فسدت صلاتُه، ومن ترك ما دون النِّصف بلا عمدٍ صحَّت صلاته، ولو علم في الوقت، لأنَّ ترك القليل كعدم

١- رواه **البخاري** في كتاب صفة الصلاة (١٣) باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم٧٢٣. **ومسلم** كتاب الصلاة (١١) باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلِّ ركعة، رقم ٣٩٤، من حديث عبادة بن الصامت.

٢- رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (٣٨) باب القراءة في الصلاة، رقم٢٢٢ من حديث أنس بن مالك.

٣- أورده **الألوسيُّ** في تفسيره، مج١٠، ص١٤١، من حديث أبي هريرة.

التَّرك، وإن ترك نصفًا أو أكثر بلا عمد فسدت، لأنَّ ذلك كَتَركِ الكلِّ. وأقول: تفسد بترك القليل والكثير سهوًا، اللَّهمَّ إلاَّ حرفًا أو كلمة سهوًا، وزعم الشافعيُّ أنَّه تجب قراءة الفاتحة في نصف الصلاة، وأبو حنيفة يغني بالتسبيح عنها في الرَّكعتين الأخيرتين في الرُّباعيَّة وفي الثالثة من المغرب، وزعم الحسن البصريُّ أنَّه تكفي في ركعة واحدة.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ تعليل جمليٌّ، أي: نسخ عليكم وجوب القيام لأنَّه علم ان سيكون، أي: إنَّه، أي: الشَّأن، أو إنَّكم سيكون منكم مرضى، فخفَّف على الكلِّ ليحصل الاتِّفاق في ذلك، ولا يثبت التخالف.

(فقه) ومن يصلِّ قاعدًا بإيماء فليخفض للسجود أكثر ممَّا يخفض للرُّكوع، ويكون ركوعه أسفل، لأنَّه إيماء كالسجود، والتحيَّة ليست إيماء فهي على حالها في الصحَّة، إلاَّ أنَّه ينحني في قراءتها بعض انحناء ليجد رفعًا إلى قراءة الرَّكعة الثالثة، لأنَّ شأن القراءة أن تصحب بالرفع، ولا قراءة إلاَّ برفع من السُّجود أو من التحيَّات، إلاَّ قراءة الركعة الأولى، أو قراءة ما أحرم فيه على ركعة واحدة.

(فقه) وإن صلَّى نفلاً مستندًا صحَّ، ولو كان يقع لزوال ما استند إليه لجواز النَّفل مضطجعًا، والاستناد أولى من الاضطجاع، فليُصَلِّ الفرض مستندًا ولو كان يقع لزوال ما استند إليه، لأنَّ ذلك صورة قعود، والقعود أولى من الاضطجاع.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ﴾ يمشون مسافرين للتجر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أريد ما يشمل المسافرين في البحر لأنَّهم في الأرض أو خصَّ الأرض لأنَّها أشدُّ في التعب. وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أي: يطلبون، حالٌ. ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ بعضَ فضل الله تعالى من رزق، وذلك مانع من قيام اللَّيل، فنسخ عمَّن لم يُسافر أيضًا للتوافق.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قرن الله المسافرين للتجر بالمجاهدين في سبيل الله تعالى لفضلهم، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحبُّ إليّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي جبل ألْتمِسُ من فضل الله تعالى» وتلا الآية.

وعن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : «**ما من جالب يجلب طعامًا إلى بلد من بلاد المسلمين فيبيعه لسعر يومه إلاّ كانت منزلتُه عند الله بمنزلة الشهداء**»، ثمّ قرأ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ...﴾ إلخ [1]. ويروى عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «**أيُّما رجل جلب شيئًا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرًا مُحتسبًا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء**». فالأجر لمن يبيع بسعر يومه، أي: في وقته ولو بعد يوم أو يومين أو أكثر غير منتظر للغلاء، وإن انتظره حلّ له، لأنّه جالب من سفر، لكن لا ثواب له.

وقد يعمَّم الفضل بما يشمل السفر للعلم أو للزيارة أو لأمر دينيٍّ، ولا يُعارضه الحديثُ وكلامُ عمر، لاحتمال أنّهما بيان لبعض ما يشمله اللّفظ.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنهُ﴾ من القرآن بلا مشقّة في الصَّلاة وغيرها. ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة وهي الخمس، فُرِضَتْ في مكّة ليلة الإسراء لكنّ السورة من أوّل ما نزل والإسراء متأخِّر. ﴿وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة في المدينة.

فهذه الآيات مدنيّات جعلن في سورة مكّـــيَّة، أو حقّقت الصلاة المفروضة والزكاة في المدينة، ونزل أصلهنّ في مكّة، لكن هذا لا يتّجه في الصَّلوات الخمس، لأنّهنّ حقّقن في مكّة، ولو اتّجه في الزّكاة بأن بُيِّن نصابُها في المدينة.

١- أورده **السيوطيُّ** في تفسيره، مج١٠، ص١٤٢، وقال: أخرجه ابن مردويه. وأورده **السيوطيُّ** في الدرّ، ج٦، ص٣١١. وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث ابن مسعود.

[قلت:] ولعلَّ المراد بالصَّلاة ما وجب قبل الخمس ثمَّ نسخ بالخمس، وبالزَّكاة ما يجب التصدُّق به ثمَّ نسخ بالزكاة المعيَّنة، وعبارة بعض: الآية ممَّا تأخَّر حكمه عن نزوله.

﴿**وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضًا**﴾ اسم مصدريٌّ، أي: إقراضًا ﴿**حَسَنًا**﴾ استعار الإقراض للإنفاق في وجوه الأجر، أو الاستعارة تمثيليَّة بأن شبَّه الإنفاق للأجر والإثابة عليه بقرض المال وردِّه.

[قلت:] ومعنى الحسن الإنفاقُ من حلاَل، والإخلاَصُ على وجه يدخل السُّرور على الفقراء أو الأغنياء أو الحيوان بلا مَنٍّ ولا أخذ عوضٍ، وقد قيل: المراد الزَّكاة المذكورة أعاد ذكرها بهذه الطريقة.

﴿**وَمَا تُقَدِّمُواْ**﴾ في الدُّنيا ﴿**لأَنفُسِكُمْ**﴾ في الآخرة ﴿**مِّنْ خَيْرٍ**﴾ عمل صالح من صدقة وصلاة وزكاة وصوم وأمر ونهيٍ، وتعليم علم وغير ذلك من العبادات ﴿**تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ**﴾ تَلْقَوا ثوابه مُدَّخرًا. ﴿**هُوَ**﴾ تأكيدٌ للهاء، استعارة لضمير الرَّفع للنَّصب و«خَيْرًا» حال من الهاء، وإن جعلنا «تجد» بمعنى تعلم كان مفعولاً ثانيًا له، وكان لفظ «هو» ضمير فصل واقعًا بين معرفة هي الهاء، وما يلحق بالمعرفة، فإنَّ اسم التفضيل في حكم المعرفة، إذا بقي على التَّفضيل، ولذا لا تدخل عليه «ال»، لكن إن قرن بــ«مِنْ» التفضيليَّة وإلاَّ جازت «ال».

﴿**خَيْرًا**﴾ ممَّا توصون به ﴿**وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾ ما عَمِلَ من طاعة في الحياة خيرٌ ممَّا يوصى بسبعين، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أيُّكم ماله أحبُّ إليه من مال وارثه**»؟ قالوا: يا رسول الله ما أحد إلاَّ ماله أحبُّ إليه من مال وارثه، قال: «**اعلموا ما تقولون**» قالوا: ما نعلم إلاَّ ذلك يا رسول الله،

قال: «**ما منكم رجل إلاَّ مال وارثه أحبُّ إليه من ماله**» قالوا كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إنَّما مال أحدكم ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر**»[1].

﴿**واسْتَغْفِرُواْ اللهَ**﴾ من ذنوبكم فإنَّكم لا تخلون منها، ولو أقمتم الصَّلاة وآتيتم الزَّكاة وأقرضتم الله قرضًا حسنًا، ولستم تخلون من تقصير ولو في حال العبادة، فقد يصدر الرياء لحظة، ويغفل عنه، وقد يصدر استشعار دخول الجنَّة بها حال عملها ولو لحظة، ويغفل عن الاستغفار، وقد يعتدُّ بها و لم يستغفر الله. ﴿**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ على العموم في المستغفرين وفي الذنوب.

والله أعلم وهو الموفِّق

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

١-رواه **ابن حبان** كتاب الزكاة باب صدقة التطوع رقم٣٣٣٠ من حديث الحارث بن سويد.

تفسير سورة المدّثّر وآياتها ٥٦

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

إرشادات للرسول ﷺ في بدء الدعوة

﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ أصله: المتدثّر كما قرأ به أُبي، أبدلت التّاء دالاً وأدغم، منْ تَدثّر بمعنى: لبس الدِّثار، وهو ما فوق الثوب الذي يلي البدن، كما قال ﷺ في مدح الأنصار أو في تفضيلهم على سائر النّاس غير المهاجرين، أو غير قريش، أو على قريش أيضًا والمهاجرين أيضًا من وَجْه: «**الأنصار شعار والنّاس دثار**»[1]، والشعار الثّوب الذي يلي الجلدة والشعر.

نودي ﷺ باسم من فِعْلِه ملاطفة ومؤانسة له على حدِّ ما مرَّ في المزَّمِّل، عن ابن عبَّاس.

(سبب النزول) صنع الوليد بن المغيرة طعامًا لقريش فأكلوا فقال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فاختلفوا على حدِّ ما مرَّ، ثمَّ اتَّفقوا على أنّه ساحر مُؤثِّر، فحزن رسول الله ﷺ فقنع رأسه وتَدثّر، ونزلت إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

١- رواه **ابن ماجه** في المقَدِّمَة، فضائل الأنصار، رقم: ١٦٣، مع زيادة في آخره هي قوله: «ولو أنّ الناس استقبلوا واديًا أو شعبا، واستقبلت الأنصار واديًا لسلكت وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار». من حديث سهل بن سعد.

قال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ إذْ سألته عن الآية: «**لَمَّا قَضَيْتُ جوَاري بحِرَاءَ وقد جاورت فيها شهرًا هبطتُّ فنوديت، فنظرت يمينًا وشمالاً وخلفًا فلم أر شيئًا فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسيٍّ في الهواء، ورعبت، فقلت لأهلي: دثِّروني دثِّروني، وصبُّوا عليَّ ماء باردًا، فنزلت ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَاهْجُرْ﴾**».

وفي رواية: «**لَمَّا قضيت جواري في حراء هبطت فاستبطنت الوادي...**»إلخ.

وعن جابر: إنَّها أوَّلُ ما نزل، ولا يصحُّ عنه هذا، فإنَّ هذه السورة نزلت بعد سورة المزَّمِّل بثلاث سنين، وهو وقت إرساله، وكان قبلها نبيئًا غير رسول، ألا ترى إلى قوله: «**فإذا الملك الذي جاءني بحراء**»، فإنَّه جاءه فيها فضمَّه فقال: اقرأ وأطلقه، وقال: ما أنا بقارئ، كان ذلك ثلاثًا، وفي الثالثة قال: ﴿ اقْرَأْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فجاء أهلَه فقال: زمِّلوني زمِّلوني.

فأوَّل ما نزل سورة اقْرَأْ، وكان إسرافيل يتعهَّدُه بكلمات، ولَمَّا تمَّت ثلاث سنين رجع إليه جبريل وأمره بالإنذار، وهذا التدثُّر هو التزمُّل لا تدثُّر آخر.

[قلت:] ولعلَّ الخطاب بـ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ الَّيْلَ﴾ بعد أن كان له أصحاب يقومون بقيامه لا في قوله: «زمِّلوني»، إذ لا أصحاب له حينئذ، اللَّهمَّ إلاَّ إن كان له أصحاب على الهدى قبل النبوءة، وليس هذا معروفًا.

ولعلَّ جابرًا أراد الأوَّليَّة بالإضافة إلى الإرسال بالإنذار، أي أوَّل ما نزل من الإرسال بعد فترة الوحي.

(الردُّ على الصوفية) وقيل: «المدَّثر» الغائب في حراء أو في ثيابه، أو في صورة عن الحقيقة المحمَّديَّة، أو عن أنظار الخلق، فلا يعرف حقيقته إلاَّ الله

تعالى، والقولان للمتشدِّقين الصوفيَّة، يُغيِّرون القرآن عن ظواهره إلى ما هو خارج عن معناها، وحقيقتُه يعلمها الله تعالى وحده كما قال في البردة:

أعيى الورى فهمُ معـناه فليس يُرى للقـرب والبعد فيه غيرُ منسجم
كالشمس تظـهر للعـين من بُعد صغيرةً وتُكلُّ الطرف من أَمَمِ
فمبلـغ العلـم فيـه أنَّـه بَشَـرٌ وأنَّـه خـير خلق الله كُلِّهم[1]

وقيل: المدَّثِّـر بالنبوءة والكمالات، وقيل: المستريح الفارغ، لأنَّه في ثلاث السنين الأولى لم يكلَّف بالتبليغ، وفي ذلك كلِّه نودي بذلك تأنيسًا.

﴿قُمْ﴾ من مضجعك، أو قم من فراغكَ، أو تشدَّد بالعزم وقم بالرسالة، وذلك قبل فرض الصلوات الخمس ﴿فَأَنذِرْ﴾ عشيرتك، لأنَّ الأقارب أحقُّ بالتقديم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٤) ، أو أنذر النَّاسَ كلَّهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاس بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة سبأ: ٢٨) .

والمراد: أنذرْهم العذاب إن لم يؤمنوا، ولم يقل هنا: وبشِّر، لأنَّ هذا مقام بدَأ لمن توغَّلوا في الكفر، فإنَّما يناسبهم التقريع، مع أنَّه لا يخلو الإنذار من التلويح إلى التبشير. ولا مانع من تقدير: «وبَشِّر» فحذف، والحكمة في حذفه ما ذكرت من البدأة، ولا من تتريله مترلة اللاَّزم، أي: قد استرحت فاشرع في الإنذار.

١-الأبيات للبصيري في بردته، والبصيري هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البصيري، ولد بدلاص ونشأ ببوصير ثم انتقل إلى القاهرة، وتعلَّم علوم العربية والأدب فقال الشعر في جده وهزله، ومن أشهر قصائده الهمزية والبردة وتوفي بالأسكندرية سنة ٦٩٥هـ. أحمد الهاشمي جواهر الأدب: ج٤ ص٤٦٧.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ عن الشريك وصفات النّقص، والتقدير: واعبد ربَّك فكبِّره، فحذف المعطوف عليه، أو كبِّر ربَّك، وعلى هذا الفاء صلة، لشبه الشرط والجواب، أو يقدَّر: ومهما يكن من شيء فكبِّر ربَّك، ولَمَّا حذف ذلك قدَّم «ربَّكَ»، وكذا في نظائر ذلك.

(سيرة) ولَمَّا نزلت، قال: الله أكبر، وكبَّرت خديجة وفرحت، وعلمت أنَّه الوحي، وكانت تنتظره لِمَا تسمع به من علماء أهل الكتاب، ومن عمِّها ورقة بن نوفل والكهَّان. والشيطان لا يأمر بالتكبير.

وقدَّم تكبير الله على الجمل الآتية لأنَّه تعظيم لله تعالى، وتوحيد عن الشريك، ولا شيء قبل ذلك، وللتشجيع لرسول الله ﷺ على الإنذار، وعدم المبالاة بالنَّاس، لأنَّه أكبر من كلِّ شيء وهو يحفظه.

وعن أبي هريرة: قلنا: يا رسول الله، بم نفتح الصَّلاة ؟ فنزل: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

(نقد الرواية) [قلت:] وفيه أنَّ السورة من أوائل ما نزل، وإسلام أبي هريرة بعد الهجرة بسنين ثلاث، ولعلَّه توهَّم أنَّه نزلت حين أجابه ﷺ بأن غاب مدَّة يسيرة فأجابه، أو لبث هناك مدَّة قليلة فأجابه، أو التقدير بِمَ نفتح الصَّلاة ؟ فقال: إنَّه نزل فيما مضى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عبارة عن التخلُّق بمكارم الأخلاق والأمور الدِّينيَّة، وتجنُّب مساوئ الأخلاق والمكروهات، وما خالف الدِّين، لأنَّ من لا يرضى بتنجُّس ثيابه ودنسها أولى أن لا يرضى بتنجُّس بدنه ودنسه، ويُقال: فلان طاهر الثَّوب، ونقيُّ الذيل، بمعنى برئ من العيوب والأدناس، وفي عكس ذلك يُقال: فلان دنس الثَّوب، إذا كان فيه وصف خبيث، كالزنى والغدر، وإذا وفَّى وأصلح قيل: طاهر الثَّوب.

وإلى ذلك يرجع قول بعض: طهِّر ثيابك عن أن تكون مغصوبة أو محرَّمة بوجه مَّا، وقول قتادة: طَهِّر نفسك عن المعاصي، وقول مجاهد: أَصْلِحْ عَمَلَكَ، وكذا عن ابن عبَّاس، وعنه: تجنَّب الغدر، وقول الحسن والقرطبيِّ: حَسِّن خُلُقَك.

وقول بعض: الثَّياب عبارة عن النَّفس، وعن ابن جبير: الثَّوب القلب، وقول بعض: الجسم، وقول بعض: طهِّر دثارات النبوءة عن أدناس الطبيعة، كالحقد وقلَّة الصبر، وذلك كلُّه كناية لا مجاز.

واختير في الكناية أنَّها حقيقة يؤخذ منها معنى مُرادًا، والثوب كالشيء اللاَّزم للإنسان، وهو مشتمل عليه، فحكموا به عن الإنسان، يُقال للغادر: إنَّه لَدَنسُ الثَّوب، ويُقال: الكرم في ثوبه والعفَّة في إزاره، وإذا عفَّ الرَّجل وصَدقَ ووفَّى قالوا: هو طاهر الثِّياب.

وقيل: الثِّياب: النساء، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٨٧) ، وتطهيرهنَّ بالأدب والأمر الشرعيِّ، وقيل: المراد اختيار المؤمنات العفائف، ويبعد ما قيل: المراد النَّهي عن جماع الحيض والدبر.

وقيل: تطهيرها غسلها من الأنجاس مطلقًا لا لخصوص الصَّلاة، وكان المشركون لا يبالون بالأنجاس فأمر بخلافهم.

قيل: لَمَّا ألقوا عليه ساجدًا فرث شاة ودمها رجع حزينًا فتدثَّر فنزل ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ لا يمنعك سفههم عن الإنذار، وكبِّر ربَّك عن أن لا ينتقم منهم، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن الدَّم والفرث.

وقيل: طهِّر ثيابك عن النَّجس للصلاة، واعترض بأنَّ المقام ليس لها إلاَّ ما قيل المراد بالتكبير تكبير الإحرام، ومرَّ ما فيه. وقيل: ﴿ثِيَابَكَ﴾: بدنك اغسله

من الأنجاس بحيث يشمل الاستنجاء المعهود، ويبحث بأنَّه كان في المدينة. وقيل: اجعل ثيابك قصيرة فوق الكعب لا تنجرُّ على الأرض كما يفعل المتكبِّر، ومن لازم ذلك تنجُّسها وتوسُّخها، وفيه تكبُّر.

وقد جاء مرفوعًا: «**إنَّ إزارة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا بأس ما لم تكن تحت الكعب، وما تحته في النَّار**»[1]. أو طهِّر ثيابك للصَّلاة عن الأنجاس والأوساخ، وكان ﷺ يغسل ثيابه عن الأوساخ الظاهرة للصلاة ولغيرها، [قلت:] وفي الآية وجوب اللِّباس للصلاة ولا صلاة للعاري.

﴿**وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ الرجز العذاب، عَبَّر به عن سببه وملزومه وهو المعصية، أو يقدَّر مضاف، أي: مُوجب الرِّجز، أو المراد التجوُّز بالإسناد الإيقاعي، أو المراد العذاب بلا تجوُّز، أي: اهجر العذاب بترك المعاصي، أو الأمر القبيح، أو الصنم مطلقًا، أو اسم لأساف ونائلة، أو النَّفس الأمَّارة بالسُّوء.

أو الدنيا، وقد مرَّ أنَّ الدنيا أهون على الله تعالى من ذراع خنزير ميِّت بال عليه كلب في يد مجذوم، والنبيء ﷺ متَّصف بذلك الهجر، وتحصيل الحاصلِ لا يجوز، فالمراد: دُمْ على الهجر، أو زِدْ منه، أو الخطاب له والمراد غيره، كقولهم: «إيَّاك أعني واسمعي يا جارة».

﴿**وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ**﴾ لا تُعْطِ أحدًا شيئًا طالبًا أو طامعًا أن يعطيك أكثر منه. والجملة حال من المستتر في «تَمْنُن»، ولا يخفى أنَّ تقديره: «لأن تستكثر» بحذف اللاَّم، وأنَّ ورفع الفعل خلاف الأصل، فلا ينبغي التخريج عليه.

١- رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (١٤٥) باب في الثياب والصلاة فيها وما يستحبُّ من ذلك، رقم: ٢٧٢. مع اختلاف في اللفظ وزيادة في آخره. وروراه **أبو داود** في كتاب اللباس، باب في قدر موضع الإزار، رقم: ٤٠٩٣، من حديث أبي سعيد الخدري.

(فقه) وذلك حرام على النبيء ﷺ[1]، وقيل: مكروه، والصَّحيح الأوَّل، وحلال لغيره حيث لا رِبًى.

ولا رجوع فيما أعطى الله تعالى على الصَّحيح، قال شريح: المستغزر يُثاب من هبته، ويحتمل أنَّه أراد أنَّه يُعْطَى قدر هبته. قال بعض: هُما ربوَان: رِبًا حرامٌ ورِبًا حلالٌ، فالحلال الهديَّة يهديها الرَّجل ليعطى أكثر منها، والحرام الرِّبا المنصوص عليه.

أو المعنى: لا تعط وأنت تعتقد أنَّ ما أعطيت كثيرٌ، فإنَّ ذلك إعجاب، ولولا بُخل في فاعل ذلك لما فعله.

أو لا تمنن بحسناتك على الله تعالى، معتقدًا كثرها، فإنَّ ذلك مبطلٌ لها، وكذا لا يحسن لفاعل الحسنات أن يعتدَّ بها لأنَّها من الله تعالى، ولا يدري هل قبلت أو هل صحَّت.

وأمَّا مدح النبيء ﷺ : «**مَن إذا أحسن استبشر وإذا أساء استغفر**» فمعناه يستبشر طامعًا في فضل الله تعالى لا مُعْتَدًّا بها، فإنَّه يعتقد كأنَّه لم يعملها من حيث إنَّها لا تستقلُّ في جلب نفع أو دفع ضُرٍّ، والمعنى: لا تضعف عن عملك بترك الزيادة قانعًا بما صدر لك منه.

[قلت:] ومن ذلك أن يقول: دَعَوْتُهم فلم يقبلوا، فيترك دعاءهم. ويُقال: حبل منين، أي: ضعيف.

أولا تقطع عملك مستكثرًا لمَا صدر منه، ولا تَمْنُن على أصحابك بما تُعَلِّمهم من أمر الدِّين مثل المستكثر عليهم.

١- أي إعطاء أحد شيئا طالبا أو طامعا أن يعطيه أكثر.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ على أذى المشركين وأداء الفرائض، وعلى المصائب وعدم الاستكثار إن دعتْك إليه نفسُك وعلى القتال إذا فُرِضَ عليك، أوْ إنْ فُرض عليك، وسائر العباداتِ وعن الشَّهوات.

وعن ابن عبَّاس: الصبر في القرآن ثلاثة: صبر على أداء الفرائض، وله ثلاثمائة درجة، وصبر على المحارم وله ستُّمائة، وصبر على المصائب عند الصدمة الأولى، وله تسعمائة، قال ﷺ : **«أسألك من الصبر ما تهوِّن به عليَّ المصائب»**[1]. قال الله سبحانه وتعالى : **«إذا أصبتُ بَدَنَ عَبْدِي أو مَالَهُ أو وَلَدَهُ فصبر جميلا لم أنصَبْ لَهُ ميزانًا أو أنشر له ديوانًا»**[2].

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ نفخ نفخة البعث على الصَّحيح، وقيل: نفخة الموت. والنفخ صوت، عبَّر عنه بسببه وملزومه، لأنَّ النَّقر الضرب على شيء ليحصل الصوت، والفاء سببيَّة، أي: اصْبر لأنَّ لهم يومًا عسيرًا ينتقم منهم فيه، وهذا ممَّا يُقَوِّي ما ذكرتُ لَكَ من أنَّ هذه السورة بعد ثلاث سنين من النبوءة، إذْ تضمَّنت التشديد على الكفرة والتسلية له ﷺ .

﴿فِي النَّاقُورِ﴾ فَاعُول، من النقر المعبَّر به عن مسبَّبه ولازمه، وهو الصوت. ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ﴾ الإشارةُ إلى وقت النقر المعلوم من «إِذَا» لا إلى نفس «إِذَا»، والبعد لعظم الهول.

(نحو) و«يَوْمَ» توكيد لـ«ذَلِكَ» مبنيٌّ على الفتح، مثل قعد جلس زيد، كأنَّه قيل: ذلك اليوم، ولا يجوز أن يكون بدلاً، لأنَّ بدل الكُلِّ

١- أورده **الألوسيُّ** في تفسيره مج١٠، ص١٥٠. بدون أن يخرِّجه ولا أن يذكر سنده.

٢- أورده **الزبيدي** في الإتحاف، ج٩، ص٢٧. كما أورده **الألوسيُّ** في تفسيره، مج ١٠، ص١٥٠. وأوَّل الحديث عندهما هو قوله: قال الله تعالى: «إذا وجَّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثمَّ استقبل ذلك بصبر جميل...» بدون تخريج ولا سند.

لا بدَّ أن يفيد شيئًا غير الأوَّل، كالأخوَّة في: «جاء زيد أخوك»، والزيديَّة في «جاء أخوك زيد». أو متعلّق بمحذوف حال من «يَوْمَ» على سبيل التجريد، كأنَّه تولَّد منه يوم آخر لشدَّته، أو على أنَّ العامَّ كلٌّ لجزئه وظرفٌ له، بمعنى أنَّه بعض منه، كما تقول: يوم عاشوراء في المحرَّم، بمعنى أنَّه جزء منه.

(نحو) أو يومئذ في محلِّ رفع خبر للتعظيم، كما تقول: زيد هو زيد، و«أنا أبو النجم وشعري شعري». وقد حمل على ذلك حديث: «**من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»[1]. فـ«يَوْمٌ» بعده بدلٌ أو خبر ثانٍ.

﴿**يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ متعلّق بـ«عَسِيرٌ»، ﴿**غَيْرُ يَسِيرٍ**﴾ نعت مؤكِّد لمنعوته، وهو «يَوْمٌ عَسِيرٌ» كأنَّه قيل: يوم عسير على الكافرين غير يسير عليهم، يُعطَوْنَ كتبهم في شمائلهم، وتسودَّ وجوههم، ويُعذَّبون. ولا حاجة إلى تعليقه بـ«يَسير» مع ما فيه من تقديم معمول المضاف إليه على المضاف، ولو أجازه بعض في «غَيْرَ» تنزيلا لها منزلة «لا» النافية، حيث قيل: لا صدر لها إذا لم تعمل عمل لَيْسَ ولا عمل إن.

[قلت:] وعلى كلِّ حال أشارت الآية إلى أنَّه لا عسر يومئذ على المؤمنين، ولو كانت تصيبهم شدَّة هي دون العسرة.

١- رواه **البخاريُّ** في كتاب بدء الوحي (١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. رقم: ١. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب فضائل الجهاد (١٦) باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا. رقم: ١٦٤٧. وأوَّل الحديث قوله ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى...»، من حديث عمر بن الخطَّاب.

وعن بهز بن حكيم صلَّى بنا زرارة بن أوفى فقرأ: ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّـــرُ﴾ ولَمَّا بلغ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ خرَّ مَـــيِّـــتًا فكنت فيمن حمله[1].

وعن ابن عبَّاس: لَمَّا نزلت ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور؟ وحنى جبهته يستمع متى يؤمر**» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل وعلى الله توكَّلنا**»[2].

ولفظ «عَسِيرٌ» يغني عن ذكر «غَيْر يَسِير»، ولكن ذكر «غَيْرُ يَسِيرٍ» تأكيدًا، كقولك: أنا محبٌّ لك غير مبغض، أو ذُكِرَ على معنى أنَّه غير يسير كما هو يسير على المؤمنين.

(قصص) لَمَّا جمع أدفنوش[3] لعنه الله عَزَّ وَجَلَّ جموعًا كثيرة لملاقاة أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين[4] الذي دخل أندلس للجهاد، قال مُعجَبًا بحاله: أقاتل بهذا الجيش ربَّ محمَّد والإنس والجنَّ والملائكة، ورأى في نومه أنَّه ركب فيلاً وفي يده طبل صغير يضرب فيه، فلم يعرف قسِّيسوه تأويلها، فسأل موحِّدًا فاستعفاهُ فأبى، فقال: تهلكون لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ مع قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ

١- رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (٧٤) باب تفسير سورة المدثِّر، رقم: ٣٨٧١. من حديث بهز بن حكيم.

٢- أورده **السيوطيُّ** في تفسيره، ج٦، ص٣١٣. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة والطبرانيُّ وابن مردويه. كما أورده **الألوسيُّ** في تفسيره، مج ١، ص١٥٢. من حديث ابن عبَّاس.

٣- هو الفونس السادس، وقد تغلَّب عليه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في المعركة الأخيرة بالقرب من بطليوس بعد أن استفحل أمره، وتعرف هذه المعركة الفاصلة بالزلاقة.

٤- تقدَّم التعريف به في ج٦، ص٣١.

﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فكانت الدَّائرة عليه كما عُبِّر، وفيها طُعن طعنةً أعرجته إعراجًا لازمًا له بقيَّة عمره إلى أن مات هَمًّا وحزنًا لقتل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ابنه، ولقتل عساكره إلى جهنَّم ودار الذُّلِّ.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾

تهديد زعماء المشركين

﴿ذَرْنِي وَمَن خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ حال من الياء، ذرني وحدي معه، فإنِّي أكفيك في الانتقام منه، أو من التاء، أي: لم يشركني في خلقه أحد، فهو في قبضتي أهلكه بلا حاجة إلى معين لي، أو من «مَن» أو من ضميره المحذوف، أي: خلقته منفردًا عن المال والولد والرئاسة. وهو الوليد بن المغيرة على الصَّحيح، وقيل: إجماعًا.

[قلت:] وذلك ممَّا يؤيِّد قولي: إنَّ السورة هذه نزلت بعد ثلاث سنين، لأنَّ شأن الوليد وأحواله ليست أوَّل الوحي، وكان يلقَّب في قومه بالوحيد لانفراده عنهم بالأموال والأولاد واستحقاق الرئاسة، فتهكَّم الله عزَّ وجلَّ عليه بلفظ «وحيد» على أنَّه حال من «مَنْ» أو الهاء المقدَّرة، أو بصرفه إلى الوحدة العظيمة في الخبث أو إلى الوحدة من أبيه إذْ كان دعيًّا.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ, مَالاً مَّمْدُودًا﴾ مبسوطًا أو مزيدًا تستمرُّ زيادته، وعن النعمان بن بشير: المال الممدود الأرض، لأَنَّها مُدَّت، والصحيح العموم.

وقد قيل: له الضرعُ والزرعُ والتجارةُ والإبلُ والبقر والجنان والعبيد والجواري والخيل، في مكَّة والطائف وما بينهما، وله بستان في الطائف لا تنقطع ثماره صيفًا ولا شتاءً.

وعن عمر رضي الله عنه : إنَّه المال المستغلُّ شهرًا بعد شهرٍ، وذلك مدٌّ لا انقطاع له. وعن ابن عبَّاس: له ألف دينار، وعن قتادة: ستَّة آلافٍ دينار، وقيل: تسعة آلاف مثقال فضَّة، وعن سفيان الثوريِّ: أربعة آلاف درهم، وعنه: ألف ألف درهم.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضورًا معه في مكَّة يتمتَّع بهم لاستغنائه عنهم في العمل لوجود الخَدَمة، وحضورًا في المجامع لوجاهتهم، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه، وهم عشرة عند مجاهد، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة، الوليد بن الوليد وخالد وهشام أسلموا، والعاصي وقيس وعبد شمس وعمارة قتل يوم بدر كافرًا أو قتله النَّجاشيُّ لجناية في حرمه، ولم يصحَّ ما روي من إسلامه.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ كفراش على فراش بالجاه والرئاسة والجمال وطول العمر حتَّى إنَّه يلقَّب بريحانة قريش، واجتماع المال والجاه هو الكمال عند أهل الدنيا. وعن ابن عبَّاس وسَّعت له ما بين اليمن والشَّام.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنَ اَزِيدَ﴾ له مالاً وولدًا وتمهيدًا على ما هو له في الدنيا، أو أزيد له الجنَّة في الآخرة، لِمَا روي أنَّه قال: إنْ كان محمَّد صادقًا فما خلقت الجنَّة إلاَّ لي.

و«ثُمَّ» للاستبعاد، فإنَّه في غنًى تامٍّ لا مزيد له في شأن مثله، وإنَّه في كفر النِّعمة يستحقُّ النُّقص لا الزِّيادةَ، ومثل ذلك الاستبعاد قولُك: تسيء إليَّ ثمَّ

ترجو إحْساني؟ وليس خارجًا عن التفاوت الرتبي كما قال بعض: نُزِّل البعدُ المعنويُّ مترلة البعد الزمانيِّ.

﴿كَلَّآ﴾ لا تطمع، وكأنَّه قيل: لِمَ قطع رجاءه؟ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ معاندًا لأدلَّة التوحيد وآيات القرآن والعناد يمنع الزيادة، وقد قيل: إنَّه عالم بأنَّ الحقَّ مع النبيء ﷺ وجحد بلسانه، فما زال بعد نزول الآية كما قال مجاهد في نقص من مَاله وولَدِه حتَّى هلَكَ. فذلك جزاؤه في الدنيا، وأمَّا الآخرة ففي قوله تعالى:

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ سأجعله غاشيًا عقبة شاقَّة المصعَد، كثيرة الارتفاع، وأكلِّفه صعودَهَا، فعن الكلبيِّ: الصعود: صخرة يصعدها في أربعين خريفًا لا ينفَّس له، يجبد من قدَّامه بسلاسل، ويضرب من خلفه بمقامع.

وقال أبو سعيد الخدريُّ: قال رسول الله ﷺ : «**الصَّعُود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفًا، ثمَّ يهوي فيه كذلك أبدًا**»[1]. وعنه ﷺ : «**يكلَّف أن يصعد عقبة من النَّار، كلَّما وضع عليها يده ذابت، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع قدمه ذابت، وإذا رفعها عادت**»[2].

وكأنَّه قيل: لِمَ هذا الوعيد؟ فأجاب بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ وفيه أنَّه لا عاقل يقول: لِمَ هذا العذاب بعد أن سمع أنَّه كان لآياتنا عنيدًا، **فالتحقيقُ**

١- رواه **الترمذيُّ** في كتاب تفسير القرآن، (٧١) باب ومن سورة المدَّثر، رقم: ٣٣٢٦. **والحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (٧٤) باب تفسير سورة المدَّثر، رقم: ٣٨٧٣. وأوَّل الحديث عنده قوله ﷺ : «الويل واد في جَهَنَّم...» الخ، من حديث أبي سعيد.

٢- أورده **الألوسيُّ** في تفسيره، مج١٠، ص١٥٤. **والسيوطي** في الدر، ج٦، ص٣١٤. وقال: أخرجه عبد الرزَّاق وسعيد بن منصور والفرابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر والطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقيُّ. من حديث أبي سعيد بنفس المعنى وزيادة.

أنَّ هذا بيان لعناده. وقيل: بدل من الجملة قبله بَدَلَ بعض، لأنَّ هذه بعض من العناد، والمراد: فكَّر في نفسه ما يقول في القرآن ومحمَّد، وقَدَّر في نفسه ما يقول.

﴿**فَقُتِلَ**﴾ بسبب التفكُّر والتقدير المذكورين، وذلك ذَمٌّ على ظاهره، أي: لُعِنَ، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ (سورة البروج: ٤) ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٠) ، وقيل: عُذِّب. ﴿**كَيْفَ قَدَّرَ**﴾ استفهام تعجيب من موافقته ما تقصد قريش.

(بلاغة) أو ظاهره ذَمٌّ، والمراد مدحٌ تَهَكُّمًا، نحو: قاتله الله ما أشجعه، وأخزاه ما أشعره. وأصل هذا الباب أنَّ الإنسان إذا بلغ في الوصف مبلغًا عظيمًا يستَحِقُّ أن يدعو عليه حاسدُه بالسوء. أو حكاية لِمَا قالته قريش عند سماعهم كلام الوليد في شأن القرآن، والرسولِ ﷺ، وهو قوله: «إنَّه سحر يؤثَّر».

(سيرة) جاء إلى النبيء ﷺ فقرأ عليه القرآن فرقَّ له، وقال له أبو جهل: يا عمُّ إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، فإنَّك أتيت محمَّدًا تريد أن تصيب ممَّا عنده، فقال: «قد علموا أنِّي أكثرهم مالاً»، قال: فَقُلْ قولاً يعلمون أنَّك كاره له، فقال: «والله ما فيكم أعلم بشعر الإنس والجنِّ أو الرجز منِّي، وما يقوله محمَّد لا يشبه ذلك، وإنَّ له لحلاوة وطلاوة، مثمر الأعلى مُغْدِقُ الأسفلِ، يعلو سواهُ ويحطِّمه».

وذهب إلى منزله ولم يرجع إليهم فقال: لا يرضون عنك حتَّى تقول فيه، فقال: دعني حتَّى أفكِّر، ففكَّر فقال: ما هو إلاَّ سحر يؤثَّر، فعجبوا.

ويروى أنَّه لَمَّا نزل ﴿حم﴾ إلى ﴿الْمَصِيرُ﴾ [أوَّل سورة غافر] قرأها النبيء ﷺ في المسجد مصلِّـيًا، ولَمَّا علم أنَّ الوليد يسمع أعادها، فذهب إلى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: «سمعت من محمَّد كلامًا ليس من كلام الإنس أو الجنِّ،

وإنَّ له لحلاوة...» إلى آخر ما مرَّ، فقال قريش: صَبَأَ الوليدُ، والله لتصبأنَّ قريش كلُّها، فقال أبو جهل: أكفيكموه.

فجلس إليه حزينًا، فحرَّك منه ما سكن بأن قعد متحزِّنًا، فقال له الوليد: ما لك يا ابن أخي حزينًا ؟ فقال: ما لي لا أحزن وقد صبأت إلى محمَّد، وابن أبي قحافة في آخر عمرك، لتصيب من فضلة طعامهما، وهكذا عند قريش.

فقال: قد علموا أنِّي أكثرهم مالاً وهل يَشبَع محمَّد وابن أبي قحافة حتَّى تبقى لهما فضلة ؟ فأتاهم الوليد فقال: تقولون محمَّد مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: كاهن، فهل رأيتموه يتكهَّن؟ وتقولون: إنَّه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا ؟ وتزعمون أنَّه كاذب، فهل جرَّبتم عليه كذبًا قطُّ ؟ وفي كلِّ ذلك يقولون: اللَّهمَّ لا، وكانوا يسمُّونه قبل النبوءة الأمين لصدقه، قالوا: فما هو؟ ففكَّر فقال: ما هو إلاَّ ساحر يأثر السِّحر من مسيلمة وأهل بابل، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فتفرَّقوا معجبين بهذا الكلام منه. [قلت:] وليس معتقدًا أنَّه سحر، لكن أرضاهم بذلك كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ (سورة النمل: ١٤) .

﴿**ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**﴾ تعجيب أبلغ من الأوَّل بدليل «ثُمَّ»، كأنَّه قيل: قتل بأشدِّ نوع من القتل، أو عذِّب، أو الأوَّل في شأن الشعر والثاني في شأن الكهانة، لأنَّه ولو نفاهما لكن ليثبت غيرهما من السحر، والتعجيبُ به تعجيبٌ بهم، والتهكُّم به تهكُّمٌ بفرحهم بما قال.

وقيل: قُتلَ على أيِّ حال قَدَّر من الكلام، فلا تكرير، ويجوز أن يكون ذلك تكريرًا لذَمِّه كُلَّما فعل، ولو عشرًا أو أكثر كلَّما فَعَلَ لُعِنَ، فـ«ثُمَّ» لترتيب الزمان أو مع الرتبة.

﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الزمان والتراخي، وكذا فيما يأتي. ﴿نَظَرَ﴾ فكَّر مرَّةً أخرى في أمر القرآن، أو نظر في وجه رسول الله ﷺ أو في وجوه القوم. ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قَطَّبَ وجْهَهُ إذ لم يجد مطعنًا، أو قطَّب في أوجه القوم، أو في وجه رسول الله ﷺ . ﴿وَبَسَرَ﴾ تَعَجَّل بالعَبْس قبل أوانه، والبسر الاستعجال بالشيء قبل وقته، وقيل: اشتدَّ عبسُه.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن رسول الله ﷺ ، أو عن الحقِّ الذي فيه الكلام وهو القرآن، أو زاد إدْبارًا عن الحقِّ مطلقًا. ﴿واسْتَكْبَرَ﴾ عن الحقِّ واتِّباع محمَّد ﷺ .

﴿فَقَالَ﴾ كلامًا آخر، وهذا تفسير للإدبار. ﴿إِنْ هَذَآ﴾ أي: القرآن. ﴿إِلاَّ سِحْرٌ يُوثَرُ﴾ يُروَى عن مسيلمة أو عن أهل بابل، أو يُختَار ويرجَّح على غيره من السحر. ﴿إِن هَذَآ إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ يَسار وجَبْر يُعلِّمانه.

والسحر يكون قول بشر وغير قوله كقول الجنِّ، وقول البشر يكون سحرًا وغير سحر، فهذه الجملة ليست عين الأولى، فليست توكيدًا لها محْضًا بل تتضمَّنه، إذ المرادُ بكلٍّ واحدة نفي كونه قرآنًا من الله.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ وعيد على قوله: ﴿سِحْرٌ يوثَرُ﴾ وقوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ وعيدٌ على عناده في الآيات، أعني أنَّه مرتَّب عليه ولو شمل العناد قوله: «سحرت» أو كلتا الجملتين وعيد على الإطلاق.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الثانية بدل اشتمال من الأولى، معلِّلاً بأنَّ «سَقَرَ» مشتملة على الشدائد وعلى الجبل، لأنَّا نقول: الاشتمال يكون في المبدل منه على البدل كاشتمال زيد على العلم في أعجبني زيد علمُه لا العكس.

ذكر البشر هنا وفي قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (سورة المدَّثر: ٣١) ، بمعنى النَّاس أو الإنسان، وذكره فيما بينهما بمعنى الجِلد، ففي ذلك جناس تامٌّ

لفظيٌّ وخطّيٌّ. وإن أريد بالذي بينهما النَّاس أو الإنسان فلا جناسَ، والجمهور على أنَّه الجلد.

(نحو) ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ مبتدأ و«مَا» خبره، كذا أقول في مثل هذا، لأَنَّ المراد: سقر ما هي؟ لا أيُّ شيء هو سقر؟ وسيبويه يعكس والمراد: ما حالها؟ بدليل قوله عَزَّ وَجَلَّ :

﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ لأنَّ هذا جواب بالوصف لا بالذات وكأنَّه قيل: ما أدراك ما حال سقر؟ فأجاب بأنَّ حالها أنَّها لا تبقي شيئًا ألقي فيها إلاَّ أهلكَتْهُ، ولا تذر ما أهلكت بلا عود، بل يعود، وإسناد عدم الترك بلا عودٍ إليها من الإسناد إلى المكان، وحقيقته لله تعالى.

أو لا تبقيه كُلَّه بلا إحراق ولا تحرقه كلَّه بل يبقى القلب، ولا تبقي شيئًا فيها إلاَّ أهلكته، وإذا عاد لم تتركه بلا عذاب، بل تعذِّبه كأوَّل مرَّة، قيل: لكلِّ شيء فترة وملالة إلاَّ جهنَّم. وفيه أنَّ الملائكة لا تفتر عن التسبيح.

وقيل: لا تبقي أحدًا من أهلها بلا دخول، ولا تذر أحدًا ممَّن دخلها بلا تعذيب، وقيل: لا تبقي من فيها حيًّا ولا تذر ميِّتًا كقوله تعالى: ﴿لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىٰ﴾ (سورة الأعلى: ١٣) ، أي: كُلَّما احترقوا جدِّدوا. وعن السُّدِّيِّ: لا تبقي لحمًا ولا تدع عظمًا، ووجهه أنَّ اللَّحم قبل العظم، وقيل: ﴿لاَ تَذَرُ﴾ توكيد لقوله: ﴿لاَ تُبْقِي﴾ والجملة مستأنفة.

﴿لَوَّاحَةٌ لِلبَشَرِ﴾ أي: هي لوَّاحة للنَّاس، أو للإنسان أو للجلود والجلد الواحد بشرة، والمعنى: مغيِّرة لظاهر الجلود بالتسويد، وبعد ذلك تهلكهم، ولا بأس بذكر التغيير بعد ما ذكر ما هو أعظم وهو الإهلاك، لأنَّ المراد ذكر أوصافها، ولا سيَّما إن قلنا: التغيير عند القرب منها، والإهلاك بعد، ثمَّ إنَّهم لا

يخلون عن لون كلّما هلكوا وعادوا، وذلك اللّون هو السَّوادُ بها حتَّى إنَّهم لأشدُّ سوادًا من اللّيل. يُقال: لاحه يلوحه إذا غيَّره.

أو ﴿لَوَّاحَةٌ﴾: ظاهرة ظهورًا عظيمًا للنَّاس، أو للإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَّرَىٰ﴾ (سورة النازعات: ٣٩) . وجاء أنَّها تظهر لهم من مسيرة خمسمائة عام، تُجَرُّ بسبعين ألف زِمَام مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك.

﴿عَلَيْهَا تسْعَةَ عَشَرَ﴾ الأصْلُ في العدد عند الإطلاق الصرفُ إلى الأفراد لا إلى المئات أو الآلاف، إلاَّ بدليل، فـ﴿عَلَيْهَا تسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملكًا خازنًا قائمًا عليها، وإمَّا المعذِّبون لأهلها فلا يحصي عددهم إلاَّ الله تعالى. وهم أقوياء يسوق أحدهم أمَّة من النَّاس، وعلى رقبته جبل يرميهم في النَّار ويُلقي عليهم الجبل.

قال أبو جهل: سمعت أنَّ محمَّدا يقول: إنَّ خزنة النَّار تسعة عشر رجلاً أيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ فقال له أبو الأشَدِّ أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديدًا أنا أكفيكم سبعة عشر، عشرةً على ظهري وسبعة على بطني فاكفوني أنتم اثنين، وعنه أدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بالأيسر عن الصِّراط فنمضي إلى الجنَّة.

وقيل: تسعة عشر صفًّا، وقيل: تسعة عشر صنفًا، ويردُّهما حديث أبي جهل إذ سمع النبيء ﷺ به، ولم يخبره أنَّهم صفوف أو أنواع، وكذا كلام الجمحي، ويردُّهما أيضًا أنَّه عاب عليهم استقلالهم بقوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ افتتنوا بقلّة عددهم وبتوهُّم أنَّهم يلون عذاب أهل النَّار بأنفسهم، وليس كذلك، فإنَّ التسعة عشر رقباء على الزبانية المعذِّبين لأهلها.

(ما المراد بالتسع عشر) وحكمة التسعة عشر، فيما قيل ــ والله أعلم ــ الحواسُّ الخمس الظاهرة، والخمس الباطنة، والقوَّة الباعثة كالغضبيَّة

والشهويَّة، والقوَّة المحرِّكة، فهذه اثنا عشر، والطبعيَّة السبع، وهنَّ الثلاث المخدومة، القوَّة النَّامية، والغادية والمولِّدة، والأربع الخادمة، الهاضمة والجاذبة والدَّافعة والماسكة.

أو جهنَّم سبع: ستٌّ للمشركين يعذَّبون بثلاث: الاعتقاد، وترك القول، وترك العمل، أنواعًا من العذاب، والثلاث في الستِّ بثمانية عشر، لكلِّ صنف ملائكة يعذِّبونها وهم ثمانية عشر صنفًا، وواحدة لعصاة الموحِّدين لهم صنف من الملائكة يعذِّبونهم بترك العمل نوعًا يناسبه.

قيل: إنَّ الساعات أربع وعشرون، خمس للصلاة لم يخلق في مقابلتها زبانية لبركة الصَّلاة الشاملة لمن لم يصلِّ، فتبقى تسعة عشر، أو لأصناف المشركين ستُّ دركات، وناسب أنَّ صنفًا من الملائكة في الوسط واثنان في الطرفين، وذلك بالضرب ثمانية عشر، وبقيت واحدة للعصاة الموحِّدين.

أو إنَّ العدد قليل من الواحد إلى التسعة، وكثير من العشرة إلى ما لا نهاية له فجمع بين نهاية القليل وهو تسعة، وبدأة الكثير وهو عشرة، فالعدد جامع بين أكثر القليل وأقلِّ الكثير.

ويُقال: ستَّة يقودونهم إلى النَّار وستَّة يسوقونهم، وستَّة يضربونهم، والتاسع عشر مالك خازن النَّار، وقيل: فيها تسعة عشر دركًا على كلِّ درك ملك، وقيل: تسعة عشر لونًا من العذاب لكلِّ لون ملك، والله أعلم بحقيقة الأمر[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

١- انظر تفسير مفاتح الغيب للرازي، ج٨، ص٣٥٨ وروح المعاني للألوسي، ج٩، ص٢٢٣.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

عدد خزنة جهنَّم وامتحان الخلق بعددهم

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ القائمين عليها الذين هم تسعة عشر، أعينهم كالبرق الشديد، وأنيابهم كالقرون، يخرج اللّهب من أفواههم بين كتفي أحدهم مسيرة سنة، يدفع أحدهم في النَّار سبعين ألفا دفعة واحدة، قال عمرو بن دينار يدفع مرَّة أكثر من ربيعة ومضر.

﴿إِلاَّ مَلاَئِكَةً﴾ غير جنس الإنس والجنِّ، لئلاَّ يستريح أصحاب النَّار المعذَّبين بها إليهم لو كانوا من جنسهم، ولأنَّ ذلك أبعد من أن ترقَّ قلوبهم على المعذَّبين بالنَّار، ولو جعلهم من جنسهم لجعلهم لا يرقُّون عليهم، ولأنَّ الملائكة أقوى الخلق، ولأنَّهم أشدُّ غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ ، لأنَّهم أعرف بحقِّ الله.

(بلاغة) ومقتضى الظاهر: وما جعلناهم إلاَّ ملائكة بالهاء عائدة إلى تسعة عشر، لكن أظهر ليصفهم بصحبة النَّار تنبيهًا على أنَّهم قائمون بها. ولا يخفى من تعميم العذاب والكفرة أنَّ المراد بـ«سَقَر» طبقات النَّار كلُّها لا خصوص طبقة تسمَّى «سَقَر».

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ وهي تسعة عشر ﴿إِلاَّ فِتْنَةً لِّلذِينَ كَفَرُواْ﴾ باستقلالهم واستهزائهم بهم كما مرَّ. والمعنى: خلقناهم تسعة عشر ليصل خبرهم الكفَّار فيفتتنوا.

أو المراد بالجعل الإخبار، وقيل الأصْل: وما جعلنا عدَّهم إلاَّ تسعة عشر، فعبَّر بالمسبِّب وهو الفتنة عن السبب وهو العدد.

وفيه أنَّه لا فائدة في قولك: وما جعلنا عدَّهم إلاَّ تسعة عشر للذين كفروا، بعد قوله: عليها تسعة عشر، فضلاً عن أن يُقال: هو الأصل، ولا كبير فائدة في التنبيه على عدم التخلُّف المذكور، وقيل أيضًا: تنبيهًا على عدم تخلُّف المسبَّب عن سببه هنا.

﴿**لِيَسْتَيْقِنَ**﴾ بنبوءة محمَّد ﷺ ورسالته ﴿**الذينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**﴾ اليهود والنَّصارى و﴿الكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل والزَّبور والصحف، وكلُّ كتاب نزل قبل نبيء فقد أوتيه هُو وأمَّتُهُ. واللاَّم متعلِّق بـ«جَعَلْنَا»، أي: حصرنا عدَّهم من حيث الإخبار بها في الفتنة لِيَسْتَيْقِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ، وذلك أنَّه ذُكر في التوراة والإنجيل أنَّ الله تعالى يبعث نبيئه محمَّدا ﷺ ويخبره بعددهم فيفتتن به قومه، فيكون ﷺ قد أخبر بما في كتبهم فيوقنوا برسالته.

(نقد إعراب) وقدَّر بعض: فعلنا ذلك ليستيقن، وبعض عطف «لِيَسْتَيْقِنَ»، على «للذينَ كَفَرُوا» بحذف العاطف ولا يقبل هذا، وأولى في هذا المعنى أن يجعل «لِيَسْتَيْقِنَ...»الخ بدل «فِتْنَةً» إذْ تضمَّنت فتنتهم استيقان أهل الكتاب إذ ذكرت في كتابهم علامة لرسالته، وبدل الاشتمال قد يستعمل بلا رابط، كما هنا.

وقد يُقال: إيجادهم تسعة عشر علَّة للاستيقان، لأنَّ الإيجاد سبب للإخبار، والإخبار سبب للاستيقان، فهو سبب بعيد لكن فيه تكلُّف.

وقيل: المراد بأهل الكتاب اليهود، لأنَّ اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبيء ﷺ عن خزنة جهنَّم، فقال: الله ورسوله أعلم، فأخبر الرجل النبيء ﷺ ، فنزل في

حينه ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ والسورة مَكِّيَّة فلعلَّ الرجل لقي اليهود في سفر أو في المدينة أو دخل اليهود مكَّة، لأنَّهم قد يدخلونها قبل الفتح وقبل الهجرة.

﴿وَيَزْدَادَ الذِينَ ءَامَنُواْ إِيمَانًا﴾ من غير أهل الكتاب، وإن كان قد آمن بعض أهل الكتاب قبل نزولها دخل هنا. ﴿وَلاَ يَرْتَابَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالْمُومِنُونَ﴾ تأكيد لما قبل هذا من ازدياد الإيمان والاستيقان، ونفيٌ لأن تبقى شبهة أو تحدُث.

ولم يقل: ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتابوا، وليقول الذين في قلوبهم مرض بردِّ واو «يَرْتَابُوا» إلى أهل الكتاب والمؤمنين، لأنَّ نفي الارتياب عن أهل الكتاب مقابل لجحودهم، ونفيه عن المؤمنين مقابل لإيمانهم، ولئلاَّ يتوهَّم رجوع الواو إلى المؤمنين، فقط لقرب ذِكرهم.

﴿وَلِيَقُولَ الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ أو نفاق على أنَّ السورة كلَّها مَكِّيَّة، فيكون ذلك إخبارًا بالغيب بأنَّه سيكون النفاق في المدينة، أو هذا مدنيٌّ جعل في سورة مَكِّيَّة، ولا مانع من أن يكون في أهل مكَّة قبل الترول من قرب من الإسلام فشكَّ. ﴿وَالكَافِرُونَ﴾ المصرُّون على الشرك بلا شكٍّ في الوحي، في مكَّة أو في المدينة.

(نحو) ﴿مَاذَآ﴾ اسم واحد مركَّب مفعول به لـ«أَرَادَ» من قوله: ﴿أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أو مبتدأ وخبر، وما بعده صلة «ذَا»، والرابط محذوف، أي: أراده، و«مَثَلاً» تمييز أو حال.

والمراد أنَّ هذا العدد مستغرب استغراب المثل. أو المراد ما شُبِّه مضربه بمورده بأن يكون قد عدُّوهُ مثلاً لاستغرابه ونسبوه إلى الله تهكُّمًا. والإشارة للتحقير.

وغرضهم نفيُ أن يكون ذلك من الله تعالى على أبلغ وجه، وأفرد قولهم «هَٰذَا» بقوله «وَلِيَقُولَ» مع أنّه من فتـــنتهم للإشعار باستقلاله في الشناعة.

وروي أنّ أبا جهل قال: أما لربِّ محمَّد أعوان إلاّ تسعة عشر؟ فقال الله عز وجل مع هؤلاء التسعة عشر جنودٌ للتعذيب لا يعلمها إلاّ الله عز وجل ، وأعيد اللاّم للفرق بين العلّتين لأنّ مرجع الأولى بالهداية وهي مقصودة بالذات، ومرجع هذه الضلال المقصود بالعرض الناشئ من سوء اختيار الضالّين.

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ قيل: قدِّم للحصر. ﴿**يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ يضلُّ الله من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته عند مشاهدة الآيات بحسب اختيارهما، إضْلالاً وهِداية ثابتين كإضلال مَن ذُكر، وهداية من ذكر، لا غيرهما على أنّها اسم.

﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ**﴾ مخلوقاته التي تشبه حصون القتال، وناسب ذلك أنّ الملائكة مسلّطون في النار على أعداء الله عز وجل ، وذلك قيل من الجند، وهي الأرض الغليظة التي فيها الحجارة. أو المراد مطلق جُموع خَلْقه، ومنها ملائكته المذكورون. وعلى كلِّ حال لا يعلم أنواعها وأفرادها وأحوالها وصفاتها ﴿ **إِلاَّ هُوَ** ﴾ عز وجل .

قال أبو جهل: أما لربِّ محمَّد أعوان إلاّ تسعة عشر؟ فنزلت، كما مرَّ، فالظاهر أنّ المراد العدد فقط، لأنّ كلامه لعنه الله عز وجل فيه، لكن لا مانع من الزيادة في الجواب، بل قد تستحسن، وقد تكون لا بدَّ منها.

[قلت:] وأكثرُ الخلق الملائكة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أطّت السَّماء وحُقّ لها أن تئطّ ما فيها موضع قَدَمٍ إلاّ وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد**»[1]، أي:

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٨، ص٢٢٤.

صاتَتْ بثقل الحمل وذلك كناية. والمراد أنَّه لم يفرغ منها قدرُ قدمٍ، ففي موضع كُلِّ قدمٍ ملك عدد أقدام مثلاً يصدق عليها أنَّ فيها ملكًا، ويحتملُ أنَّها تنطوي حتَّى يكون في مقدار قدم واحد ملك.

ويُقال: مخلوقات البَرِّ عُشُر مخلوقات البحر، والمجموع عشر مخلوقات الجوِّ والمجموع عشْرُ ملائكةِ السَّماء الأولى، والمجموع عُشُرُ ملائكة السَّماء الثانية، وهكذا. والمجموع عُشُر ملائكة الكرسيِّ، والمجموع عشر ملائكة الحافِّين بالعرش، والمجموع أقلُّ قليل بالنسبة إلى الملائكة الهائمين الذين لا يعلمون أنَّ الله تعالى خلق سواهم، والمجموع أقلُّ قليل بالنسبة إلى ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى وعزَّ وجلَّ.

﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى﴾ تذكرة ﴿لِلْبَشَرِ﴾ كلَّما ذُكر الإنسُ فالجنُّ مثلُهم إلاَّ ما لم يمكن. والعطف على «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» والضمير لـ«سَقَرَ»، فإنَّ ذكرَهَا عظةٌ للكافرين والفاسقين على كفرهم وفسقهم، ولا سيما قد ذُكِر صفاتُها وأحوالُها، وقيل: للآيات الناطقة بأحوال سقر، وقيل: لعدَّة خزنتها، وقيل: للجنود.

﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ﴾ ردع عن إنكار سَقَرَ، وقيل: عن قول أبي جهل ونحوه بمقاومة الملائكة التسعة عشر، وفيه أنَّه ليس في الآية ذكر ادِّعاء مقاومتهم، وإنَّما هي ردع عن إنكار سقر أو مع إنكار التسعة عشر، أو عن إنكار ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾، وقيل: صلة للقسم بعدها، كأنَّه قيل: احذر المخالفة، وقيل: حرف تأكيد واستفتاح، وقيل: بمعنى حقًّا.

﴿وَالَّيْلِ إِذَ اَدْبَرَ﴾ أي: إذا يدبر، والماضي بمعنى المستقبل بعد أدوات الشرط، وإدبارُه ذهابُه. أنشأ الله القسم حين النُّزول معلِّقًا إلى إدباره بعدُ، أو المراد: إذا أدبر، أو وقع قسمًا، ويجوز أن يراد بإدباره حاله آخر الشهر.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أضاء، وكأنَّه قيل: والصبح إذا ظهر، ولا يخفى أنَّ ظهور الشيء غيرُه. ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ جواب القسم، وجواب «إِذَا» أغنى عنه القسم، و«ها» عائد إلى «سَقَرَ»، وقيل: إلى النذارة، وقيل: للحال، أو القصَّة، وقيل: للساعة المدلول عليها بـ«سَقَرَ» وذِكر أحوال الآخرة.

(صرف) والكُبُر جمع كُبْرَى، بألف التأنيث إلحاقًا لها بهاء التانيث، فإنَّ فُعَلَة (بضمٍّ ففتح) يجمع على فُعَل (بضمٍّ ففتحٍ) كما جمع الْقاصِعَاء على القواصع، بوزن فواعل، الذي هو جمع فاعلة تتزيلاً لألف التأنيث في قاصعاء منزلة تاء فاعلة.

والمعنى أنَّ سقر مثلا واحدة من الأمور الكبار الجاريَّة عليهم غير المتناهية، وهذا أنسب بالمقام، أو إنَّها واحدة منهنَّ لكنَّها أعظمُ من باقيها، نقول: بلغتنا البربرية: «فُلانٌ واحِدٌ منهُم» إذا عظم احتياله مثلا.

وقيل: «الكُبَر» الدَّركات السبع: جهنَّم ولظى والحطمة وسقر والسَّعير والجحيمُ والهاوية، وأنت خبير بأنَّ الظاهر أنَّ المراد بسقر دار العذاب مطلقًا لا خصوص تلك الطبقة.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ مصدر لا وصفٌ فهو تمييز ناصبُه «إِحْدَى»، لأنَّ المعنى عظيمة، وعن الحسن واللهُ ما أنذر بشيء أدْهى من النَّار، أو المعنى: إنذارًا، أو مفعول مطلق، أي: أنذر إنذَارًا.

وقيل: هو وصف حال من اسم «إنَّ» ووجهه أَنَّ «إنَّ» للتَّأكيد فكأنَّها حدث يقبل التقييد بالحال، وهو ضعيف، أو من ضمير في «إِحْدَى»، وعليهما فعدم التاء لكونه بوزن المصدر، أو للنسب.

أو ﴿نَذِيرًا﴾ هو الله، أي: ادع نذيرًا أو ﴿نَذِيرًا﴾ هو النبيء ﷺ ، فيكون حالاً من المستتر، أي: ادع النَّاس نذيرًا. أو منادًى، أي: يا نذيرًا للبشر. يقال: جاء الحاج يا فلان. ويبعد أنَّه حالٌ من ضمير «قُم» أوَّل السورة.

﴿**لِمَن**﴾ بدل من «لِلْبَشَرِ» بدل بعض. ﴿**شَآءَ مِنكُمْ أَنْ يَّتَقَدَّمَ**﴾ إلى الخير ﴿**أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾ عنه، أو يتقدَّم إلى سَقَرَ أو يتأخَّر إلى الجنَّة، أو يتقدَّم إلى الطاعة أو يتأخَّر عن المعصية، أو يتقدَّم بالإيمان أو يتأخَّر بالكفر.

(نحو) وضمير «شَآءَ» لـ«مَن» وأجيز لله تعالى، أي: لمن شاء الله تقدُّمه أو تأخُّره، أو «لِمَن» خبر، والمصدر ممَّا بعدُ مبتدأ، أي: لكلٍّ منكم التقدُّم أو التأخُّر، وهذا ضعيف، ولكن فيه التهديد، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُومِن﴾ (سورة الكهف: ٢٩) .

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُّوتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَّشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

اعتراف المجرمين بأخطائهم

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قدِّم للحصر ﴿رَهِينَةٌ﴾ مرهونة عند الله تعالى، ويُقال: مرهونة في النَّار بما كسبته، أو بكسبها، فـ«مَا» اسم أو حرف مصدر، ورهينة فعيل بمعنى مفعول لحقته التاء على القلّة، أو ليست للتأنيث بل للمبالغة، أو تغلّبت عليه الاسميَّة كالنطيحة. أو هو مصدر أُخبر به عن الذَّات للمبالغة كالشَّتيمَة بمعنى الشَّتم.

﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنَّهم فكّوا أنفسهم بالتوحيد والطَّاعة كما يفكُّ الرهن بقضاء الدين، وهم المؤمنون المخلصون، أضيفوا لليمين لبركة اليمنى، وهم مَيَامينُ، أي: مباركون على أنفسهم، وبه قال عليٌّ وابن عمر.

أو أضيفوا لليمين لأنَّهم يعطون كتبهم بأيمانهم، أو لأنَّهم عن يمين آدم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف:١٧٢) ، وقال الله عز وجل : «**هؤلاء إلى الجنَّة ولا أبالي**»، وقال لأهل الشمال: «**هؤلاء إلى النَّار ولا أبالي**». وعن عليٍّ: أطفال المسلمين، ورجَّحه بعض الصوفيَّة.

وقيل: الملائكة لجواز إطلاق النفس عليهم والكسب، وعليه ابن عبَّاس، وعليه فالاستــثناء منقطع، لأنَّه لا ذنب لهم يرهنون فيه.

وكأنَّه قيل: ما بالُهم؟ فقال: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: هُم في جنَّات عظيمة لا يعلم غايتها إلاَّ الله تعالى، أو «في جنَّات» حالٌ من «أَصْحَابَ الْيَمِينِ»، أو حال من الواو في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أو يتعلّق بهذا الفعل، وقدِّم في الوجهين للفاصلة، ولطريق الاهتمام.

والمراد بالتساؤل هنا وقوع السؤال بينهم، لا بشرط أن يكون كلُّ واحد منهم يسأل الآخر، بل كلٌّ سأل الآخر كما هو أصل التفاعل، أو

سأل بعض بعضًا فقط، ومن أين لنا أن نقول: المراد هنا خصوص سؤال بعض بعضًا لا كُلٌّ واحد للآخر، ومن ذلك أن يسأل زيد بكرًا عن مجرم، ويسأله بكر عن مجرم آخر.

وبعدما يَسْأَلُ بعضٌ بعضًا، أو يسألون الملائكة، أو يتساءلون المجرمين، كما عُدِّيَ ترامَى وتداعى، فقيل: تداعيناه وتراميناه، يقولون ما ذَكَرَ الله تعالى بقوله:

﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**﴾ أي: قائلين: ما أدخلكم فيها، أو لا مفعول به في المعنى ليتساءل إلاَّ قولُه: ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾، أو «يَتَسَآءَلُونَ» يتضمَّن معنى القول، فالجملة بعده مفعول به له.

﴿**قَالُواْ**﴾ في جواب السؤال ﴿**لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾ الصلاة الواجبة، وكأنَّه قيل: بِمَ أجابوا ؟ فقال الله عز وجل : ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ...﴾ إلخ.

ومقتضى الظاهر: انتفاء كوننا من المصلِّين، أي: سلكنا فيها انتفاءُ كوننا من المصلِّين، أو الذي سلكنا فيها انتفاءُ كوننا...إلخ، لكن عدلوا إلى ما هو المقصود المتحسَّر عليه، معرضين عمَّا سواه ممَّا يطابق السؤال، و لم يقصد بالذات.

(أصول الدين) وفي ذلك دليل على خطاب المشركين بفروع الشرع، إذْ لَوْ لَمْ يخاطبوا بها لم يُعذَّبوا على ترك الصَّلاة، وذلك كثير في القرآن وكذا في قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**﴾ الإطعام الواجب كالزكاة وَالكَفَّارَة، ولَو لَم يخاطبوا بالفروع لم يعذَّبوا بترك الإطعام.

وأجيب بأنَّ المراد: لم نكن من المعتقدين لوجوب الصلاة والإطعام، أو «الْمُصَلِّينَ» كناية عن المؤمنين، فسَلكهم في سقر شركُهم، وبأنَّ ذلك كلام من المشركين، فيمكن أن يكونوا كاذبين أو خاطئين، وإنَّما سلكهم الإشراك.

[قلت:] والحقُّ أنَّ التأويل خلافُ الأصلِ، ولا يحسن التأويل بلا داعٍ، ولا سيما مع كثرة دلائل الخطاب بها. وأيضًا المراد التحذير، فلو كان قولهم ذلك كذبًا أو خطأً لم تحصل في ذكره فائدة.

وأجيب أيضًا بأنَّ المقصود في الجواب بالذَّات هو قولهم المذكور بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ﴾ وقولهم المذكور بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّىٰٓ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ فإنَّ الخوض والتكذيب إشراك، فعُذِّبوا بهما، وأمَّا ذكر عدم الصلاة وعدم إطعام المسكين فزيادة في الجواب لمزيد تحسُّرهم على ما فاتهم من التوحيد وتوابعه.

قلنا: لا يخفى أنَّ الأصل خلاف الزيادة، والأصل إجراء الكلام على ظاهره إلاَّ لدليل يُعيِّنُ التأويل ويُوجبُه.

والخوض: القول في رسول الله ﷺ بالسحر والكهانة ونحوهما، أو القولُ بذلك وبما يلهي ولا نفع فيه، أو فيه معصية، ومن ذلك ذكر الأضاحيك، وذكر ما بين الزوجين، وذكر حروب المسلمين على وجه التنقيص، وذلك مستعارُ من الخوض في الماء، أو استعمال للمقيَّد في المطلق على التجوُّز الإرسالي.

ويوم الدين: يوم البعث والجزاء، وفيه أهوال عظيمة غير الجزاء، واقتصروا على إضافته للجزاء لأنَّه الأهمُّ.

(بلاغة) وأخَّروا التكذيب بيوم الدِّين عن ترك الصَّلاة وإطعام المسكين وعن الخوض مع أنَّه أعظم لتفخيمه، كأنَّهم قالوا: وكنَّا مع ذلك مكذِّبين بيوم الجزاء، ولبيان أنَّ تكذيبهم به استمرَّ مع تلك الجنايات حتَّى أتاهم اليقين، أي: الموت الذي أيقنوا به بإتيان مقدِّماته، أو بعد وقوعه، فحين أتاهم أدركوا الحقَّ

حين لا ينفعهم الإدراك، كأنّه لم يدركوا إلى أن ماتوا، أو حضرت مقدِّمات الموت، ولا إشكال في ذلك.

وقيل: «الْيَقِينُ» صحَّة ما وعدوا به من البعث والجزاء، وحقِّية ما يقول محمَّد ﷺ كُلِّه، والمراد مجموع تلك الجنايات لا كلٌّ واحدة، فإنّ من المشركين من اجتمعت فيه، ومنهم من لم يكن له مال، فلا إطعام عليه.

(فقه) والشيء بالشيء يذكر، ذكر الشيخ عامر[1] نفعنا الله ببركته ورحمه الله ما حاصله أنَّه من لم يتَّخذ وطنًا لا صلاةَ له، لأنَّه لم يتعيَّن له موضع يُصلِّي فيه أربعًا من موضع يصلِّي فيه اثنتين، ومن لم يصلِّ هلك، إلاَّ أنَّه ذكر بعد ذلك رخصة أنَّه يكفي الإنسان صلاتُه أربعًا في منزله الذي وجد فيه أباه يصلِّي فيه أربعًا ولو لم يعرف الوطنَ ولا وجوبَ اتِّخاذه.

قلت: إلاَّ أنَّه إذا سافر لزمه معرفة حدِّ الفرسخين من ذلك المنزل ليصلِّي ركعتين، إلاَّ أنَّه إن جاوزهما بلا معرفة بهما فكان يصلِّي الرباعية ركعتين كفاه أيضًا، و لم يضرَّه جهله بالفرسخين، فليكتف بهذه الرخصة لما مضى.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ هم أصنامهم وسائر معبوداتهم التي يدَّعون أنَّها تشفع لهم، ففي تسميتها شافعةً تهكُّمٌ، أو المراد انتفاء الشافع فضلاً عن أن

١-الشيخ عامر بن علي الشَّمَّاخِي: كتاب الإيضاح، ج١، ص٦٢٥، ٦٢٩.
عامر بن علي الشماخي «ت.: ١٣٩٠/٧٩٢» من أجداد أحمد الشماخي صاحب كتاب السير. أخذ عن أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي «ت. ٧٢٢هـ» اشتهر بالاستقامة منذ صغره. جلس للتدريس والتأليف طول حياته. وقد درَّس بمتيون ١٣ سنة وتحوَّل إلى يفرن سنة ٧٥٦هـ. من أبرز تلاميذه البرادي صاحب كتاب الجواهر. توفي متقدم السن. له مؤلفات عدّة منها: كتاب الديانات، وكتاب الإيضاح...فرحات الجعبيري، البعد الحضاري: ص١٢٣.

يشفع، وذلك من نفي اللاّزم بانتفاء الملزوم، والسبب بانتفاء المسبَّب كقولك: «لا أراك هنا»، أي: لا تكن هنا فضلا عن أن أراك.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾ عن التذكير بالقرآن وغيره، أو المراد التذكُّر ﴿مُعْرِضِينَ﴾ بلا سبب، وقدَّم «عَنِ التَّذْكِرَةِ» للفاصلة. و«مُعْرِضِينَ» حال من الهاء. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في «مُعْرِضِينَ». والحمر: جمع حمار، والمراد حمر الوحش، لأنَّ حمر الإنس لا تلاقي الأسد، ولأنَّ الغالب أن لا تجتمع حمر الإنس، بل ينفرِدُ كلُّ حمار منها بصاحبه المالك له، اللهمَّ إلاَّ أن تجتمع في البادية للتوالد. والاستفعال هنا للمبالغة لا للطلب، أي: أنفرت إنفارًا شديدًا، اللهمَّ إلاَّ على معنى أنَّها طلبت من نفسها النفار، أو استَنفرَها فزعُها بالأسد.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ دليل على أنَّ سبب الاستنفار في «مُسْتَنفَرَةٌ» هو القسورة، وهي الأسد، من القسر بمعنى القهر والغلبة، ذَمَّهُم بأَنَّهم يفرُّون من سماع القرآن فرار الحُمر من الأسد. والقسورة لفظ عربيٌّ لا حبشيٌّ معرَّب كما قيل، وذلك هو الصَّحيح، وعليه الجمهور.

وعن ابن عبَّاس الرجالُ الرُّماة الصائدون، وهو رواية عن مجاهد، وقيل: أصوات النَّاس، وقيل: حبال الصيَّادين، وقيل: نبلهم، وقيل: الرجال الأقوياء، وكلُّ قويٍّ قسورة. وعن ثعلب: القسورة أوَّل اللَّيل تَفِرُّ من الظلمة. وهو في معنى الجمع إلاَّ في هذا القول، والقول الأوَّل.

(بلاغة) شُبِّهُوا في سرعة النُّفور عن الحقِّ بالحمر الوحشيَّة، وفي ذلك استهجان لهم، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (سورة الجمعة: ٥) .

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ عطف على محذوف، أي: لا يكْتفون بالتذكرة بل يريد كلٌّ واحد أن يؤتى صحفًا متعدِّدة كثيرة من السَّماء على أيدي الملائكة، أو تطير إليهم تنشر فيها أنّ محمَّدًا رسولُ الله ﷺ ، أو تنزل منشورة غضَّة طريَّة غير مطويَّة.

(سبب النزول) قالوا لرسول الله ﷺ : «إن سرَّك أن نتَّبعك فأت كلَّ واحد منَّا بكتاب من السَّماء من ربِّ العالمين إلى فلان بن فلان فيه الأمر باتِّباعك» فنزلت الآية.

والحديث صريح في أنّهم طلبوا لكلِّ إنسان صحيفة واحدة، ولفظ الآية أن يؤتى كلُّ فرد صحفا متعدِّدة، وذلك مبالغة في الامتناع، وقد تحمل الآية على ما في الحديث، بأن يراد بـ«كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُم» مجموعهم، يحصل لكلِّ فرد منهم صحيفة واحدة، فتلك صحف متعدِّدة، من قسمة الجمع على الجمع، كقولك: لبس القوم ثيابهم.

ومثل ذلك الحديث حديث أبي صالح[١] قالوا: «إن كان محمَّد صادقًا فليصبح تحت رأس كلٍّ منَّا فيها صحيفة فيها براءة وأمنة من النَّار»[٢]، فجعلوا لكلِّ واحد صحيفة واحدة.

١- أبو صالح ذكوان بن عبد الله مولى أمِّ المؤمنين جويريَّة الغطفانيَّة. كان من كبار العلماء بالمدينة ولد في خلافة عمر ﷺ ، وحدَّث عن كثير من الصحابة منهم: سعد بن أبي وقّاص وعائشة وابن عباس وأبو هريرة ولازمه. حدَّث عنه ابنه سهيل بن أبي صالح والأعمش والزهريُّ وغيرهم. وثَّقه أحمد بن حنبل. تُوُفِّيَ سنة ١٠١هـ . الحمصي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٧٢.

٢- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج١٠، ص١٦٩. **والسيوطي** في الدر، ج٦، ص٣١٨. وقال: أخرجه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد.

وليس من معنى الآية ما قيل: إنَّهم كانوا يقولون: بلغنا أنَّ الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوبًا على رأسه ذنبُهُ وكفّارتُه فأتنا بمثل ذلك، إلاَّ أن يراد بالصحف المنشَّرة الكتابات الظاهرة المكشوفة.

﴿**كَلَّآ**﴾ ردعٌ عن إرادة إيتاء الصحف ﴿**بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ**﴾ لعدم خوفهم منها ورسوخ إنكارها في قلوبهم، أعرضوا عن التذكرة لا لعدم إيتاء الصحف فَلَوْ أُوتُوهَا لم يؤمنوا ولاقْتَرَحوا غيرها.

﴿**كَلَّآ**﴾ ردع عن الإعراض وعدم خوف الآخرة ﴿**إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ**﴾ أي: القرآن المعبَّر عنه بالتذكرة، أو المعلوم من لفظ التذكرة المطلق يشمل القرآن وغيره. ﴿**فَمَن شَآءَ**﴾ أن يذكر القرآن بالإيمان به ﴿**ذَكَرَهُ**﴾ لأنَّه مَفهُومٌ ليس محجورًا عنه، فَيَسْعَدُ دُنيًا وأخرًى.

﴿**وَمَا تَذْكُرُونَ**﴾ بمجرَّد اختيارهم في حال من الأحوال ﴿**إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ**﴾ إلاَّ حال مشيئة الله، أو لا يذكرون لشيء إلاَّ لأن يشاء الله عزّ وجلّ .

﴿**هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ**﴾ أهل أن يتَّقي المكلَّفون عذابه بالإيمان والعمل ﴿**وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ لذنوب التائب.

قرأ رسول الله ﷺ : ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فقال: «**قد قال ربُّكم أنا أهل أن أُتَّقَى فلا يجعلْ معي إِلَهٌ، فمن اتَّقَانِي ولَمْ يَجْعل معي إلهًا آخر فأنا أهلٌ أن أغفِر له**»[1]، رواه أنس.

١- رواه **الترمذيُّ** في كتاب تفسير القرآن (٧١) باب ومن سورة المدَّثِّر، رقم: ٢٣٢٨. **والحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (٧٤) باب تفسير سورة المدَّثِّر، رقم: ٣٨٧٦. من حديث أنس.

(أصول الدين) ويتمسَّك بذلك من يقول: الموحِّد لا يدخل النَّار، ولو أصرَّ على الفسق، والأَشْعَريـّة القائلون بجواز دخول الموحِّد الفاسق الجنَّة مع إصراره، والأَشْعَريـّة الآخرون القائلون بوقوع ذلك لبعض الأمَّة، **وليس كذلك،** فإنَّ المراد بالتَّقوى التوحيدُ والعمل مع ترك الإصرار، وعن ابن عمر وأبي هريرة وابن عبَّاس مثل ذلك الحديث.

وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى إنِّي لأجدني أستحي من عبدي يرفع إليَّ يديه أن أردَّهما من غير مغفرة**» قالت الملائكة: إلهنَا ليس لذلك أهلا ؟ قال الله تعالى: «**لكنِّي أهل التَّقوى وأهل المغفرة، فإن تركوا التَّقوى فلست أترك المغفرة إذا أنابوا إلَيَّ**»[1].

اللهمَّ اجعلنا من أهل هذه الآية.
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

١-أورده **السيوطيُّ** في الدر، ج٦، ص٣١٨. **والألوسي** في التفسير، مج١٠، ص١٧٠. الجزء الأوَّل منه وقالا: أخرجه الترمذيُّ في نوادر الأصول. من حديث الحسن.

تفسير سورة القيامة وآياتها ٤٠

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ① وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ② أَيَحْسَبُ الْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ③ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ④ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ⑤ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَٰمَةِ ⑥ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑩ كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬ بَلِ الْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ⑭ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ⑮ ﴾

إثبات البعث والمعاد ودلائله

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ «لاَ» نافيةٌ أي لا أقسم به لعظم شأني، وأنا صادق مصدَّقٌ عند المؤمنين، ولو كنت أقسمُ بما شئتُ إذا شئت لحكمة. أو لا أقسم به لوضوح الأمر، وفي ذلك إعظام ليوم القيامة في هذا المقام، أي لو كنت أقسم لأقسمتُ به، كقولك: «لا أقسم بالله» إذا عظَّمتَ الحلف بالله تعالى.

أو ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي من شأنه الإقسام به قلبا لإنكارهم له، كقوله تعالى في إثبات حياة الغُزاة إذْ قال المشركون ماتوا: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا...﴾ إلخ.

[قلت:] ولا نقبل تفسير القيامة بمطلق موت الإنسان، من قول المغيرة بن شعبة: «يقولون القيامة وقيامَةُ كُلِّ أحد موته»، وقول علقمة لجنازة حَضَرها: «أمَّا هذا فقد قامت قيامته»، لتواتر «يوم القيامة» ليوم البعث.

وقيل: [«لاَ»] نافية لمحذوف، أي: لا ينتفي البعث كما زعمتم بل هو ثابت أقسمُ به، ويرُدُّهُ ذِكر «لا» مع العطف بعدُ، وقيل: «لا» صِلَةٌ للتَّأكيد تزادُ أوَّل الكلام كما تزاد وسطه كقوله:

لا وأبـيكِ ابنـة العامرِيِّ لاَ يدَّعي القوم أنِّي أفِرّ[1]

وقوله:

خَليلِيَّ لا والله مـا من مُلِمَّةٍ تَدُومُ على حيٍّ وإن هي حلَّتِ

وقيل: إنَّما تزاد وسطا، وهنا وسط، لأنَّ القرآن ككلام واحد، ويردُّه أنَّه ككلام واحد في تصديق بعضه بعضًا وتقييده ببعض، لا في مثل هذا، كما أجيب في قوله تعالى: ﴿يَآ أَيـُّهَا الذي نُزِّلَ عَلَيْه الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الحجر: ٦) ، بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (سورة القلم: ٢) .

وقيل: لام الابتداء وألفُ أنا، وقيل: لام الابتداء أُشْبِعتْ ودخلت على المضارع، وعلى أن لا نفي للقسم لا جواب له، ولا بأس بهذا.

وقيل: الجواب مطلقًا محذوفٌ، تقديره «لتبعثنَّ» وقيل: جوابه ﴿أَيحْسبُ الانسَانُ﴾ ويردُّه أنَّه لا خارج له إلاَّ بتأويل: إنَّ الإنسان مخطئ في ذلك، وقيل: «بَلَىٰ قَادِرِينَ»، ويردُّه أنَّه جواب، وأنَّه جواب لغير القسم، وقيل: اللاَّم في خبر «إنَّ»، أي: «إنِّي لا أقسم» وأشبعت بألف زائدة، ويدلُّ لمثل هذا قراءة قنبل «لأُقْسِمَ» بلا إشباع.

وقيل: لام قسم دخلت على المضارع دون أن يؤكَّد بالنون، ومثل ذلك في قوله: ﴿**وَلآَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ المؤمنة والكافرة، من شأنها أن تأتيَ بما تلام عليه فهو للنسب، ولا مفعول له، أو تلوم نفسَها فلَها مفعول.

١-البيت من المتقارب لامرئ القيس. انظر: إميل يعقوب: شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج٣، ص٣٤.

قال رسول الله ﷺ : «**ما من نفس فاجرة ولا بَرَّة إلاّ تلوم نفسها يوم القيامة، إن عملت خيرًا قالت: كيف لم أزد منه؟ وإنْ عملت شرًّا قالت: ليتني لم أعمله**».

وضمَّت النَّفس اللَّوامة إلى يوم القيامة لأنَّ المقصود بعثها فيه للجزاء، وفيه تظهر سعادتُها أو شقوها، وليس اللَّوم داخلا في التعظيم، بل تعظيمها لكونها خلقة عجيبة، صالحة للأمور العظام، ولا سيَّما نفس المؤمن، وفائدة ذِكر اللَّوم الزجرُ والتنبيه على ما سيقع.

أو خصَّها ليوم القيامة مرادًا بها نفس المؤمن الممدوحة بتمنِّي زيادة الخير، وأن لا تكون أساءت تجتهد ولا تزال تلوم نفسها وتنسبها للتقصير، وقيل: نفوس الأخيار التي تلوم الأشرار يوم القيامة.

أو «لاَ» الأولى صلة، والثانية نافية، أيْ: أقسم بيوم القيامة لعِظَمِه، ولا أقسم بالنَّفس اللَّوامة اللَّوَّامة لخسَّتها. أو «النَّفس اللَّوَّامة» التي لم تزل تلوم نفسها على الطاعة وتجتهد، أي: لا أقسم بها لأنَّ الأمر ظاهر. وقيل: المراد نفس آدم إذ لم تزل تندم عن الأكل من الشجرة الموجب لإخراجه من الجنَّة.

والنَّفس اللَّوَّامة دون «الأمَّارة بالسوء»، تعمل المعصية وتندم جدًّا، والأمَّارة بالسوء: المبالغة في المعصية، وهي مأوى الشرور، وتوبتها قليلة. والمطمئنَّة: الراسخة في الخير، وهذا اصطلاح، وإلاَّ فالنفس أمَّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربِّي. وقيل: نفس الشقِيِّ لامته على المعصية الموجبة للشقوة، تقول: «يا حسرتي على ما فرَّطت».

﴿**أَيحْسِبُ الاِنسَانُ**﴾ الجنس، المشركون، والاستفهام للتوبيخ، وإنكارًا للياقة.

(سيرة) وقيل: «ال» في «الإنسان» للعهد الذي عند رسول الله ﷺ في عديٍّ بن ربيعة ختن الأخنس بن شريق، وهما اللّذان يقول فيهما رسول الله ﷺ : «اللّهمَّ أكفني جاري السوء»، قال: يا محمَّد: حدِّثني عن يوم القيامة متى يكون؟ وكيف يكون أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم يا محمَّد لَمْ أُصدِّق ولَم أومن به، أَوْ يَجمعُ الله تعالى هذه العظام ؟ فنزلت.

ومعنى «أوْ يجمع الله» (بإسكان الواو): حتَّى يجمع الله، أو إلاَّ أن يجمعها الله الآن قبل يوم القيامة، أو ذلك بفتح الواو على أنَّ الهمزة قبلها للاستفهام الإنكاريِّ.

وقيل: الإنسان أبو جهل، يقول: أيزعم محمَّد أنَّ الله يجمع هذه العظام بعد بلاها وتفرُّقها ويعيدها خلقًا جديدًا ؟ فنزلت الآية، **والعموم أوْلى** ولو كان سبب النُّزول خاصًّا، وخصوصُه لا ينافي العموم.

ويجوز أن يكون الإنسان الرجلين: عَدِيَّ بن أبي ربيعة والأخنس، باستعمال اسم الجنس في حِصَّتين من العموم.

وذَكَر العظام مع أنَّ الجلد والشعر واللَّحم فوقها وتبلى قبلها لأنَّ العظام قالب الجسم ويـبنى عليه، ولأنَّهم يذكرون العظام ﴿**أَلَّن نَّجْمَعَ**﴾ أنَّه، أي: الشأن، أو أنَّه أي: الإنسان، أو أنَّا لن نجمع ﴿**عِظَامَهُ**﴾ بعد تفتُّـتها وفنائها من حيث كانت في البَرِّ والبحر وفي بطون الحيوان، ومن حيث انتقلت ولو بعَدَدٍ من بطن أو غيره، إلى بطن أو غيره، بأن يُؤكَلَ آكلُها وهكذا...

﴿**بَلَىٰ**﴾ لسنا لا نجمعها بل نجمعها.

(نحو) ﴿**قَادِرِينَ**﴾ حال من ضمير «نَجْمَعَ» ونجمعها المقدَّر تأكيد لمعنى «بَلَى»، والأصل أن لا يقدَّر، لأنَّ حرف الجواب مغن عنه، وهو في معناه،

ولا تتوهَّم أنَّ الجملة أبدًا تقدَّر بعد حرف الجواب، بل لا تقدَّر أبدًا إلاَّ إذا دلَّ دليل على تقديرها كما هنا، إذْ لو لم نقدِّرها لم نجد ناصبًا لـ«قَادِرِينَ»، وإذا قدِّرت فهي تأكيد. ولو ادُّعِيَ أنَّ في «بَلَى» ضميرًا كما في «نَجْمَعَ» لنيابته عنه لم يبعُد كلَّ البعد.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ في الدنيا وفي الآخرة، أي: أصابعَهُ من اليدين والرجلين أو أطراف الأصابع بأن يجعلها متساويةً في الطول أو القصر أو الغلظة أو الرِّقة.

أو تسويتُها جعلها في البعث على حالها في الدنيا، أو إلصاق بعضٍ ببعض حتَّى تكون كوسط الكفِّ، فلا يصحُّ له بها عمل ما يعمل بها متفرِّقة، من قبضٍ وبسط وتناول، أو جعلها بلا مفاصل، **وتفريقُها فضلٌ من الله لتلك الأعمال.**

(قصص) لَمَّا خلق الله آدم وأهبط قال طائر أو وَحش لسمكة: حدثَ حيوانٌ يقبض ويبسط! فقالت: لا نَسْلَمُ منه في البحر ولا أنت في الجوِّ أو البرِّ.

وخصَّ البنان لتعدُّدها مع لطفها واشتمالها على مفاصل، وقيل: لأنَّها آخر ما يتمُّ به الخلق.

﴿بَلْ يُرِيدُ الانسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ اللاَّم صلة في المفعول به، أي: يريد الفجور في مستقبله كما أراده في الماضي والحال، فهو منغمس فيه لا يلوح له الإقلاعُ، يُقدِّم الذنبَ ويؤَخِّر التوبة ويقول: سوف أتوب حتَّى يموت قبل التوبة.

وقيل: يطول أملُه، ويقول: أصيب كذا وأصيب كذا ولا يذكر الموت، وقال ابن عبَّاس: يُكذِّب بما أمامه من البعث والحساب.

(نحو) ووجه الإضراب الانتقاليِّ بـ«بَلْ» أنَّ العزم على الدوام في الشرِّ أقبح، فلو عاش إلى آخر الدهر لم ينقلع وقد نوى ألاَّ ينقطع عنه،

فقد تكتب عليه هذه المدَّة الطويلة في معاصيه أو نيَّته لها كتابةَ عزمٍ لا كتابةَ وقُوع فِعلٍ.

والعطف على همزة الاستفهام وما بعدها فلا مدخل له في الاستفهام، أي: انتقل من حسابه إلى ما هو أعظم وهو دوامه في الكفر، ويجوز أن يقدَّر له استفهام، أي: بل أيُريدُ، وإن عطف على ما بعد الهمزة انسحب عليه استفهامُها.

و«أَمَامَهُ» اسم مكان استعير للزمان المستمرِّ لجامع الاحتواء، وقيل: المفعول محذوف، أي: يريد الإنسان شهواته ومعاصيه ليفجر أمامه، أي: ليمضي عليها أبدًا.

(بلاغة) وأعاد ذكر الإنسان تأكيدًا لقبح كفره المذكور من حيث إنَّ الإنسَانيَّة تأباه، لأنَّ وضع الإنسان عل ما هو عليه من العقل والفهم يَجُرُّ إلى الإيمان، حتَّى كأنَّه يتصوَّر بصورة الغباوة وليست به، لظهور أدلَّة العقل وكثرتها.

﴿يَسْئَلُ﴾ سؤال عناد وتعنُّت ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ متى يكون؟ والزمان لا يكون ظرفًا للزمان، فالمعنى في مثل ذلك: أيُّ زمانٍ يحصل عقبه يوم القيامة مثلاً، أو أيُّ زمان يتصوَّر فيه أنَّه يومها. والجملة مستأنفة استئنافًا نحويًّا، كقوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ (سورة المؤمنون: ٣٦) ، والجملة مفعول «يَسْئَلُ» علِّق عنه.

﴿فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ...﴾ إلخ عطف على «يَسْئَلُ»، والفاء للترتيب الذكريِّ، والمعنى: تَحيَّرَ فزعًا من هول يوم القيامة، منْ بَرَقَ الرجلُ: إذا نظر إلى البرق فَدُهِشَ بَصَرُهُ، وغير ذلك من الأفعال المشتقَّة من أسماء الأجناس، قال ذو الرمَّة:

ولو أنَّ لقمان الحكيم تعرَّضت لعينيه ميٌّ سافرًا كادَ يَبْرُق

أي كادَ يصير كمن دُهش بصرُه بالنظر إلى البرق، أي: وجه مي حال كونه سافرًا.

(لغة) ويُقال: قَمِر الرَّجلُ إذا دهش بصرُه بالنظر إلى القمر، وشَمِسَ إذا دهش بالنظر إلى الشمس لمعاناة تحقيق النظر إليها، وذَهِبَ الرَّجلُ إذا دهش بصره بالنظر إلى الذَّهب لرغبته فيه، وبقر إذا دهش لرغبته في البقر، وذلك لغة في بَرِق بالكسر بذلك.

(قراءة) والفتح قراءة نافع، ومحبوب[1] بن الرَّحيل من أصحابنا العمانيِّــين تُرْوى عنه القراءة وغيرُها، ويجوز أن يكون المفتوح من البريق بمعنى اللمع، تبرق أبصار الكُفَّار من رؤية جهنَّم، أو عند الموت، أي: تدهش، أو يلزم منظرا واحدًا، أو تتحيَّر لِمَا ترى.

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه مع مقابلته للشمس، أو ذهب لاجتماعه بها وجرمُه باقٍ للنَّاظر. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ يُطلعهما الله من المغرب مجتمعين. ويُروى: أسودين مكوَّرَيْنِ كأنَّهما ثوران عقيران في النَّار.

(قصص) ويروى: ويلقيان في البحر فيكون نارًا، وكلٌّ واحد أكبر من البحر فيوسعه الله أو يصغرهما، والله قادر، وقد قيل: إنَّ القمر إلى الشمس كالبعوضة إلى الفيل.

وقيل: يجمعان ويقرَّبان إلى أهل المحشر لتشتدَّ الحرارة، وقيل: جمعا في ذهاب الضوء، فيكون الجمع قيل: عبارة عن التساوي في الصفة، ولو كان كذلك لأغنى عنه أن يقول: «فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ».

١- محبوب بن الرحيل أبو سفيان، من علماء الإِبَاضيَّة في النصف الثاني من القرن ٢هـ، أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم والربيع بن حبيب، وكان حجَّة في السيرة النَّبَوِيَّة وأخبار أهل الدعوة، وفقهه رواه أبو غانم الخراساني في مدوَّنته. فرحات الجعبيري: البعد الحضاري، ص١٠٨.

(لغة) ويُقال: في كلٍّ واحد من الشمس والقمر: خَسَفَ وَكَسَفَ، ونصَّ السعد ـــ كما لا يخفى ـــ أنَّ التأنيث مع الظاهر المجازيِّ التأنيث أولى. وإنَّما لم يُقرَنْ «وَجُمِعَ» بالتاء رعايةً لحال القمر، وهي المذكورة. ولا حاجة إلى قول الكسائيِّ: التذكير باعتبار النورين أو الضياءين.

﴿يَقُولُ الانسَانُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذ﴾ إذْ تقع هذه الأمور أو إذْ وقعت وكأنَّها وقعت لتحقُّق الوقوع. ﴿ايْنَ الْمَفَرُّ﴾ إلى أين الفرار؟ في أيِّ موضع نَلْتَحِقُ به فنحَصِّله؟ لأنَّه لم يقل: إلى أين المفرُّ، والاستفهام للنفي، أي: لا فِرارَ، أو هو حقيقيٌّ لدهشه فهو يطلب الفرار.

وقرأ الحسن بن عليٍّ من آل البيت بكسر الفاء، على أنَّه اسم مكان على القياس، أي: أين موضع الفرار؟ على معنى: أيُّ مكان يجاوره موضع الفرار؟ أو مصدر ميميٌّ شذوذًا كالمرجع، بمعنى الرجوع. وذلك اليوم يوم القيامة عند الجمهور وهو المنصور.

وعن مجاهد: ﴿بَرَقَ الْبَصَرُ﴾ عند الاحتضار و﴿خَسَفَ الْقَمَرُ، وجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ يوم القيامة، كقولك: إذا أحسنت اليوم إلى زيد وجاء أبوه غدًا أكرمك. ويجوز أن يكون الكلُّ عند الاحتضار، فالخسوف ذهاب ضوء البصر والقمر مستعار للبصر.

وجَمْعُ الشمسِ والقمرِ استتباعُ الروح حَاسَّة البصَر، كما جاء الحديث بأنَّ عين المحتضر تتبع الروح وتنظر إليه حال الخروج، والشمس استعارة للروح، وذلك كما أنَّ نور القمر من الشمس على الصَّحيح.

والخسوف ذهاب نور بصره، وجمع الشمس والقمر وصولُ الروح إلى الأرواح القُدُسيَّة المنزَّهة عن النَّقائص التي كانت الروح تقبس منها العقل، التي هي أرواح الملائكة، فالقمر الروح، والشمس مكان لحضيرة القدس،

والملائكة الأعلون.

[قلت:] وإن لم يعجبك هذا فاضرب به وجوه الصوفيَّة الخارجة عن طريق الجنيد[١] قبَّحهم الله عزَّ وجلَّ.

﴿كَلاَّ﴾ ردع عن طلب المفرِّ أو كَـ«أَلاَ» الاستفتاحيَّة، أو بمعنى حقًّا. ﴿لاَ وَزَرَ﴾ لا ملجأ على الإطلاق، وأصله ـ قيل ـ الجبل، لأنَّ العرب تتحصَّن بطلوعه عند الشدَّة أو الخوف، وقد قيل: لا جبل لكم تتحصَّنون به، فهو تمثيل لعموم نَفْيِ التحصُّن واشتقاقه من الوزر وهو الثِّقل، وطلوعُ الجبل ثقيل، وأيضًا هو ملجأ عن الأمر الثقيل، ثمَّ شاع في كلِّ ملجأ جبلٌ أو حصن أو سلاح أو غير ذلك.

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ التَّقديم للحصر، أي: إلى ربِّك وحده لا إلى غيره ولا إليه مع غيره، أو إلى حكمه أو مشيئته استقرار أحد في الجنَّة أو النَّار. وهو مصدر ميميٌّ، أو موضع الاستقرار وهو الجنَّة والنَّار، أي: حكمهما يرجع إلى ربِّك، يدخل من شاء ما شاء منهما. وينبغي تقدير الكون خاصًّا، أي: مُنتهٍ إلى ربِّك.

وقوله: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾ من كلام الله سبحانه وتعالى يقوله في الدنيا للإنسان، أو يقولُهُ لَهُ في الآخرة إذا قال: أينَ المفرُّ؟ أو من كلام الإنسان يقوله الإنسان في الآخرة لنفسه بعد قوله: «أَيْنَ الْمَفَرُّ».

وأمَّا قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ فمن كلام الله لنبيئه صلى الله عليه وسلم في الدنيا، والخطاب له صلى الله عليه وسلم، لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

١- تقدَّم التعريف به في ج١٠، ص٢٩٧.

وأجيز أن يكون مع «كَلاَّ لاَ وَزَرَ» من كلام الإنسان يُخاطب نَفسه يقول: لنفسه: إلى ربِّك يومَ إذْ بَعَثَنَا المستقرُّ، أو يُخاطب به صاحبه.

﴿يُنَبَّؤُاْ الانسَانُ﴾ مطلقًا مؤمنًا أو كافرًا ﴿يَوْمَئِذِم بِمَا قَدَّمَ﴾ من خير عمله أو شرِّ عمله ﴿وَأَخَّرَ﴾ من خير لم يعمله أو شرٌّ لم يعمله، ويجازى على ذلك بعد الإخبار به، تحقيقًا للأمْر، وإقامةً للحجَّة عليه أَوْ لَهُ. أو الإخبار به كناية عن الجزاء. أو بما قدَّم من أعماله في الدنيا على الآخرة، أو بما قدَّم في الدنيا من حسنة وما أخرَّ منها لم يعمله، أو بأوَّل عمله وآخره وهو قول مجاهد.

أو بما قدَّم لنفسه من الخير والصدقة، وما أخرَّ بأن أوصى به أو وقَفَه أو تركه للوارث، أو أمرًا صالحًا تركه يجري بعد موته، وإن قلنا: بما قدَّم من المعصية وأخَّر من الطاعة فـــ«الانسَانُ» الكافر خاصَّة.

﴿بَلِ الانسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي: بصيرٌ، والتاء للمبالغة لا للتأنيث، برهان على نفسه تنطق جوارحه بما فعل، والمراد الكافر لقوله: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾، أي: على أعماله، وسمِّي البرهان بَصِيرَة لأنَّه مسبّبٌ ولازم عن الإبصار، أو التاء للتأنيث، أي: حجَّة بصيرة، وإسناد البصر إلى الحجَّة مَجازٌ، لأنَّ البصير صاحبُها، أو الإنسان عين بصيرة، أو شبَّه الإنسان بالحجَّة ورمز إليها بلازمها وهي الإبصار. وقيل: المراد جوارح الإنسان على نفسه بصيرة، أي: شاهدة.

و«عَلَى نَفْسِهِ» متعلِّقٌ بـــ«بَصِيرَةٌ»، وقدِّم بطريق الاهتمام. وقدِّر بعض محذوفًا، أي: إنَّ الإنسان على نفسه عين بصيرة. و«بَصِيرَةٌ» على كلِّ حال خبر، وأجيز أن يكون مبتدأ خبره «عَلَىٰ نَفْسِهِ»، والجملة خبر «الانسَانُ»، أي: عليه عين بصيرة أو حجَّة بصيرة.

والآية من باب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ, أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النور: ٢٥) . ويجوز أن تكون الآية تجريدًا بأن جرَّد من

الإنسان إنسانًا آخر. وقيل: البصيرة ملكان يكتبان أعماله، فلا تجريد، وقوله: «عَلَىٰ نَفْسِه» خبر «بَصِيرَةٌ».

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ الواو عاطفة على محذوف، أي: لو لم يلق معاذيره ولو ألقاها، لأنّه قد شهد عليه شاهد من نفسه بتكذيب عذره، والجملة المقدَّرة متعلّقة بمحذوف، أي: يجازى على أعماله لو لم يلق ولو ألقى. أو بقوله: ﴿يُنَبَّؤُا﴾ لأنّه يدلّ على المحذوف، أو مراد به ذلك المحذوف والجملة المقدَّرة حال من ضمير «يُنَبَّؤُا» أوْ ضمير «بَصِيرَةٌ».

وإلقاء المعاذير عبارة عن مبالغته بالإتيان بكلّ عذر يمكنه، شُبِّه الإتيان بالعذر بإلقاء الدَّلو في البئر للاستقاء، وقيل: إلقاء المعاذير طرحُها والاسْتسْلام، وقيل: إحالة بعض على بعض، كما قال عنهم تعالى: ﴿لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ﴾ (سورة سبأ: ٣١) .

(صرف) والمعاذير جمع معذرة على غير قياس، إذْ لا واو بعد ذال مفردِه، ولا ألف ولا ياء، فالقياس حذف يائه، إذ لم يُسمع «معذار»، أي: عذر، وأثبته بعض، وعليه فالجمع قياس، وعبارة بعض أنّه اسم جمع.

وقيل: المعاذير جمع معذار، بمعنى الستر بلغة اليمن، أي: ولو ألقى ستوره على نفسه في الدنيا حين العمل، لأنّ الملائكة شاهدة عليه حال الستر، وكذا جوارحُهُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَـتِرُونَ أَنْ يَّشْهَدَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ (سورة فصلت: ٢٢) .

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْاخِرَةَ ٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥﴾

حرص النبيء ﷺ على حفظ القرآن وحال الناس في الآخرة

(سبب النزول) وكان ﷺ يُحرِّكُ لسانه بالقرآن حين النُّزول مخافة أن لا يحفظ أو ينسى، ولمزيد حبِّه للقرآن وحرصه على التبليغ، فنزل قوله تعالى: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**﴾ فكان يُصغي ولا يُحرِّك، فإذا فرغ جبريل وجد في نفسه ما نزل به بلا علاج ولا زيد ولا نقص، فالخطاب للنبيء ﷺ ، والهاء للقرآن ولو لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُّقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْـيُهُ﴾ (سورة طه: ١١٤) . ﴿**لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ لتأخذه على عجل.

وعلَّل ذلك بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ**﴾ في صدرك لا ينفلت عنك منه شيء. ﴿**وَقُرْءَانَهُ**﴾ مصدر مضاف للمفعول، أي: إثبات قراءته على لسانك متى شئت، وحيث شئت. وقيل: تأليفه على لسانك، وقيل: جمعه.

﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ**﴾ تلوناه ــ والإسناد مجازٌ، لأنَّ التالي جبريل عليه السلام ــ وأثبتناه على لسانك وفي قلبك، أو جمعناه فيهما، فالإسناد حقيقة. ﴿**فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ**﴾ قارئًا له بعدهُ لا مجاريا له حين كان يقرأ.

أو اتَّبِعْ قراءته بالدَّرس والعمل به، فيرسخ في قلبك ولسانك وجوارحك. [قلت:] وهذا ضعيف، لأنَّ المقام لذكر الدَّرس لا لذكر العمل.

والهاء لجبريل، أضيف إليه لأنَّه نزل به، وهو بمعنى المقروء أو بمعنى القراءة وهو يقرأه.

﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ بيان ما أشكل من معانيه وأحكامه قبل مضيٍّ وقت الحاجة إلى البيان، وكان ﷺ سأل جبريل في حين نزوله عن معنى بعض ما

نزل. و«ثُمَّ» للتراخي الرتبيِّ، أو لمطلق الترتيب الذكريِّ. أو البيان: الإظهارُ لا بيان المجمل.

(أصول الدين) وعلى كلِّ حال لا دليل في الآية على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وقد فسَّره البخاريُّ بأنَّ علينا أن نُبيِّنه بلسانك، ويدلُّ لذلك أنَّ الكلام في بيان القرآن كلِّه لا في بعضه فقط.

﴿**كَلَّا**﴾ ردعٌ لرسول الله ﷺ عن العجلة، ولو في طلب العلم وأمر الدين، لأنَّها إذا كانت على حدٍّ غير لائق كان الخللُ، كأنَّه قيل له ﷺ : لا تعجلْ ولو طُبعتَ كغيرك على العجلة، كَمَا عَمَّ في قوله: ﴿**بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾ الدنيا، إلاَّ أنَّه ﷺ لا يوصف بحبِّ الدنيا ولا بترك الآخرة. ﴿**وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ**﴾ وليس الله تعالى يسامحك فيما يسامح غيرَك من العجلة لعُلُوِّ منصبك، فلا يعاقبك في أن يستفزَّك الطبع البشريُّ.

وتحريكه ﷺ لسانه بالقرآن قبل النَّهي عنه وقت نزوله طاعةٌ لا ذنب، لأنَّ الأصل قبل الوحي الإباحة، ولا سيما أنَّ ذلك من جنس العبادة، وبعد النَّهي عن التحريك يكون التحريك ذنبًا، ولا يفعله.

(نحو) وقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الاِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ فإنَّ الفجور أمام لحبِّ العاجلة[1]، وفُصل بما يناسب. وقيل: متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَلَوَ اَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، أي: إلقاؤُكَ معاذيرك لا يفيدك نجاة، لأنَّك أصررت لحبِّ العاجلة حتَّى أنكرت هذا اليوم.

١- كذا في النسخ.

وقيل: لم يدخل ﷺ في هذا الخطاب، كما قرأ جماعةٌ: «يُحبُّونَ» و«يَذَرُونَ» بالغيبة. والخطاب للكفَّار، أو لكلٍّ من يصلح، أو الخطاب له ﷺ ولغيره، والمراد غيره.

وقيل: الخطاب في قوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ﴾ وما بعده إلى: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ للإنسان في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿يُنَبَّؤُا الانسَانُ﴾، يُقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (سورة الإسراء : ١٤) ، فيتلجْلجُ لسانه للسرعة في القراءة وللخوف، فيقال له: «لاَ تُحَرِّكْ...» إلخ فإنَّه علينا بالوعد والحكمة جمعُ أعمالك وقراءتُها عليك، فاتَّبع قراءها بالإقرار، وعلينا بيان جزائها، فالهاءاتُ لكتاب الإنسان.

وأجيز أن تكون الهاءات ليوم القيامة، أي: لا تحرِّك لسانك بذكره في شأن وقته، ولا في شأن ما يقع فيه، وعلينا بيان أحواله، وما عليك إلاَّ أن تستعدَّ له بما يناسبه وتبليغ الوحي، ولا يكن في قلبك مَيْلٌ إلى أ ن نُبيِّـــنَهُ وقد بلَّغت وكفَى، أو لا ينفع الصراخ عند الأصمِّ.

﴿**وُجُوهٌ**﴾ المركَّبة على الأعناق، أو المراد أجساد، وعليه عبَّر بالبعض الأفضل على الكلِّ، وهو مبتدأ ولو نُكِّر للتفضيل وللتعظيم. ﴿**يَوْمَئِذ**﴾ أي: يوم إذ برق البصر وخسف القمر...إلخ، وكذا في «يَوْمَئِذ» السابق واللاَّحق متعلِّق بما بعده، لا نعت لـــ«وُجُوهٌ»، لأنَّ الذَّوات لا تُقيَّد بالزمان إخبارًا ولا وصفًا ولا حالاً لعدم الفائدة، وإن يُفدْ جَازَ، والتقدير: يوم إذ جاءت الآخرة.

﴿**نَّاضِرَةٌ**﴾ حسنةٌ مُسفرةٌ بيضٌ مشرقةٌ متهلِّلة غضَّة طريَّة لمَا في القلب من السرور، خبَرُ «وُجُوهٌ». وقدَّم «يَوْمَئِذ» للحمل على الاهتمام بذلك اليوم، لأنَّ فيه فوز المؤمن وتدمير عدُوِّه الكافر، وللفاصلة. وليس نعتًا لـــ«وُجُوهٌ» والخبر

«نَاضِرَةٌ»، لأنَّ الأصل في النَّعت أن يتقرَّر عند المخاطب أو يكون بمنزلة المتقرِّر قبل الخطاب به. ﴿إِلَىٰ رَبِّـــهَا﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ قدِّم بطريق الاهتمام والحصر وللفاصلة.

(أصول الدين) وهذا الحصر المتبادر يفيد أنَّه ليس المعنى: تنظر أبصارهم إلى ذاته تعالى، لأنَّ مدَّعي الرؤية لا يقول ينظر إلى ذاته فقط دائمًا، وإن قيل: التَّقديم ليس للحصر، بقي أنَّ النظر إلى الذَّات، ولو أقلَّ من لحظة موجب للتحيُّز تعالى الله عنه.

و«نَاظِرَةٌ» خبر ثان، ومعناه منتظرة. ومِنْ تعدِّي النظر بمعنى الانتظار بـــ«إِلَى» قَوْلُهم: «أنظر إلى الله ثمَّ إليك»، أي: انتظر فضل الله ثمَّ فضلك، وقول الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمـــن يأتي بالفلاح[1]

وقول الشاعر:

كلُّ الخلائق ينظرون سجاله نظر الحجيج إلى طلوع هلال

وقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ اِلَىٰ مَيْسُرَةٍ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٠) . قال الإمام عليٌّ: ﴿نَاظِرَةٌ﴾: تنتظر متى يأذن لهم ربُّهم في دخول الجنَّة.

و«إِلَى» بمعنى النِّعمة، مفعول مقدَّم، أو يقدَّر مضاف، أي: إلى مُلك ربِّها، أو ثواب ربِّها، أو رحمة ربِّها، والنظر بالعين. أو الأصل: إلى إنعام ربِّها، والنظر بمعنى الانتظار. ولا يرجون الرَّحمة إلاَّ من الله تعالى كما لا يعبدون إلاَّ إيَّاه.

١- البيت لحسَّان بن ثابت كما في كتاب «البعد الحضاري للعقيدة عند الإِبَاضِيَّة»، ص٣٢٢. وقد أتى بشواهد أخرى من كلام العرب.

(أصول الدين) [قلت:] وكلُّ حذف أو تأويل ولو كان خلاف الأصل مقدَّم على عدمه، إذا كان عدمه يؤدِّي إلى التشبيه أو نحوه. والتقدير والتأويل هما المناسبان لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (سورة الشورى: ١١) المتَّفق عليه، ولكونه لا يتحيَّز ولا يتَّجه ولا يتجسَّم كما هو المتَّفق عليه، ولكون المتنزِّه عن الحوادث لا تدركه الحوادث كما هو المتَّفق عليه، ولتنزُّهه عن الحلول كما هو المتَّفق عليه، ولتنزُّهه عن الزمان كما هو المتَّفق عليه، وذلك كلُّه بالذات وما بالذات لا يتخلَّف باختلاف الأزمنة، ولتنزُّهه عن اللَّون والطول والقصر والغلظة والرِّقة.

ورؤيتُه تنقض هذه الأصولَ كلَّها وتثبت غيبته عن المواضع الأخر والتجزُّؤ، ولزمهم أنَّ الله محسوس لخلقه.

(أصول الدين) وهؤلاء قوم لا يخفى غلطهم في بعض الأصول كما قالوا: إنَّ موسى سمع كلام الله النفسيَّ القديم، أثبتوا الكلام النفسيَّ وأثبتوا له «مسموع»، مع أنَّه غير صوت.

وقد أبطل هذا بعض حُذَّاقهم، وشنَّع على الغزاليِّ والأشعريِّ في قولهما بسماع الكلام الأزليِّ، وقال: اتَّفقوا على أنَّه لا يُسمَع غيرُ الصوت، وقد رجع إلينا من قال منهم: معنى سماع الكلام الأزليِّ أنَّه معلوم بسماعنا من الشرع، وإنَّ الكلام النَّفسيَّ ثابت، قلنا أيضًا: لا نُسلِّم ثبوت الكلام النَّفسيِّ.

ولا عاقل يتركُ ما هو توحيدٌ إلى ما يُخالفه. ووضعوا أحاديث منها: أنَّه ينظر إليهم وينظرون إليه، ولا يقطعون نظرهم حتَّى يحتجب عنهم. ومنها: أنَّ أكرمهم على الله سبحانه من ينظر إليه صباحًا ومساءً. [وإن سلَّمنا بصحَّتها فعلى التأويل].

ولا يغني عن مدَّعي الرؤية دعوى أنَّها ليست على المعتاد، لأنَّ حاصلها الانكشاف، وهو منزّه عنه، ولا يضرُّهم الانتظار، لأنَّ ما هم فيه من النضرة نعمة عظيمة تنفي همَّ الانتظار، بل جعل الله الانتظار نعمة أخرى.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ لمَا في القلوب من الحزن والضّيق على حدِّ ما مرَّ. ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ الجملة خبر ثان على حدِّ ما مرَّ، والوجوه المركَّبة على الأعناق، أو الأجسام، والمراد وجوه الكفرة.

والبسور شدَّة العبوس لما في القلب، والظاهر من السُّوء على عكس قوله عزّ وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وإسناد الظنِّ للوجوه تجوُّز، وهو ممَّا يقوِّي أنَّ الوجوه الأجسام، لَكِنَّ البسور يقوِّي الوجوه المركَّبة على الأعناق. ويجوز ـ على بُعدٍ ـ أن نردَّ الضمير إلى الوجوه المركَّبة مرادًا به الأجسام على الاستخدام.

و﴿تَظُنُّ﴾ توقن، ودخل على «أَنْ» الناصبة للفعل لأنَّه بلفظ الظنِّ، ولو قيل: «يعلم» لم تجئ بعد. وقيل: الظنُّ على ظاهره بمعنى تتوقَّع، وأنَّ كلَّ سوء كانوا فيه يتوقَّعون شرًّا منه، وفيه أنَّ هذا يكون بعد دخول النَّار والكلام هنا فيما قبله، لكن لا مانع من توقُّع شرٍّ بعد شرٍّ قبله.

(لغة) والفاقرة: الداهية العظيمة، تصيب فقار الظهر وتكسرها، كقولك: ركبتُه، أصبت ركبته. أو الفاقرة: وسم أنوفهم بالنَّار، يُقال: فقرتُ البعير إذا وسمت أنفه بالنَّار. وفُسِّر هنا بدخول النَّار.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِن كَذَّبَ

وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

تفريط الكفَّار في الدنيا والتنديد بإنكارهم للبعث

﴿كَلَّآ﴾ ارتدعوا عن حبِّ العاجلة فإنَّها تنقطعون عنها بالموت الذي هو باب الجزاء على الأعمال. ﴿إِذَا﴾ جوابها مقدَّر بعد المساق، أيْ: كان ما لا يفي به الكلام، أو كان ما كان، أو انكشفت حقيقة الأمر، أو حضر للإنسان ما فعل. ﴿بَلَغَتِ﴾ أي: الرُّوح، أو النَّفسُ دلَّ عليها ما تقدَّم من الكلام في شأن الآخرة. وقوله: ﴿مَن رَّاق...﴾ إلخ كقول حاتم:

أَمَاوِيُ لا يغني الثَّراءُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضَاقَ بها الصَّدر

وكقول العرب: أرسلت، يريدون أرسلت السَّماء المطر.

﴿التَّرَاقِيَ﴾ عظام الصَّدر من الجانبين، والمفرد تُرْقُوة، بوزن فُعْلُوَّة بإسكان العين وضمِّ اللاَّم.

﴿وَقِيلَ مَن رَّاقٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: وقال بعض الحاضرين أو بعض النَّاس، و﴿رَاقٍ﴾ كقَاضٍ: من يرقى، يتكلَّم بما يشفى به المرض أو الجنون، أو يفعل فعلاً يحصل به الشِّفاء في كلِّ ذلك بإذن الله عزَّ وجلَّ، كآيات الشِّفاء.

أو الرَّاقي: الطبيبُ مطلقًا الشامل لذلك، أي: مَنْ راقٍ منكم أيُّها الحاضرون؟ أو من غيركم فيجاء به ليرقيه ؟ والظاهر أنَّ الاستفهام حقيقيٌّ، وعن عكرمة: استفهام استبعاد، أي: لا تنفعه الرقى.

وقيل: قال بعض الملائكة لبعض: أيُّكم يرقى ؟ أي: يعرج بروحه، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فالاستفهام حقيق، وفيه أنَّ هذا يحتاج إلى نقل أنَّ

الملائكة تقول ذلك، وفيه أيضًا أنّ ملائكة الرّحمة ينافيها ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ...﴾ إلخ وقدْ يُجاب بأنّ هذا قول عن ابن عبّاس، وما قاله إلاّ وقد صحّ عنده، وأنّ الضمير للإنسان الشامل للمؤمن والكافر، ولا مانع من تخصيص بعض ما يشمله بذكر شأنه وهو الكافر.

(فلسفة) واستُدِلّ بالآية على أنّ النّفس جسم لا جوهر مجرَّد، إذ لا يتّصف الجوهر المجرَّد بحركة ولا تحيُّز، ويردُّه أنّ النّفس في الآية الحيوانيَّة، وهي جسم، والروح هي الجوهر المجرَّد، وأيضًا المراد ببلوغها التراقي قرب انقطاع التعلُّق، وهو ممَّا يتَّصف به المجرَّد لأنّه لا يستدعي تحيُّزًا ولا حركة ولا سكونًا.

والجمهور على أنّ النّفس ــ وهي الرُّوح ــ جسم لطيف جدًّا ألطف من الضوء عند القائل بجسميَّته، والنّفس الحيوانيَّة مركب لها، وهي سارية في البدن سريانَ ماء الورد في الورد، والنّار في الفحم.

﴿وَظَنَّ﴾ رجَّح المحتضِر الذي بلغت روحه تراقيه، لأنّه راغب في الحياة الدنيا الحبــيبة له، فما دام فيه الروح يطمع فيها. أو معناه: أيقن، أو سمّى إيقانَه ظنًّا تهكُّما به. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: ما نزل به من مقدِّمات الموت. ﴿الْفِرَاقُ﴾ موجب الفراق للدنيا، أو موجب لفراق الروح الجسد.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ الْتوَتْ عليها عند شدَّة الموت، والباء بمعنى «على» كما رأيت، أو للملابسة. أو التفاف إحداهما بالأخرى طيُّهما عن المشي والتصرُّف والوقوف عليهما، أو يبسهما بالموت لا تملكان تحرُّكًا، كأنّه لُفّت إحداهما بالأخرى، ولو استوتا و لم تلتو إحداهما على الأخرى، لأنّ الروح تخرج أوَّلا من القدمين والساقين فيبردان.

و«ال» للعهد، لأنّه معلوم أنّ للّذي بلغت روحه التراقي ساقين أو عوض عن المضاف إليه، أي: ساقه بساقه.

أو الساق الشدَّة، **أي: اجتمعت عليه شدَّة** فراقه للدنيا التي اشتدَّ حُبُّه لها، وشدَّة قدومه على ربِّه لخوف العذاب على التقصير إن كان مؤمنًا، وإن كان كافرًا فإنَّه يعرف أنَّه من أهل النَّار قبل خروج روحه. والتعريف على حدِّ ما مرَّ لأنَّه استعير ذلك من ساق البدن. أو ذلك استعارة تمثيليَّة في اشتغال النَّاس ببدنه غسلاً وكفنًا ودفنًا وغير ذلك، والملائكة تنقل روحه إلى السَّماء فتردُّ إلى القبر حسنة الحال، أو سيِّئتها.

يُقال: الساق بالسَّاق الشدَّة بالشدَّة، وذلك شدَّة فراق الدنيا في شدَّة الموت، أو شدَّة الموت مع شدَّة الآخرة. أو تتابعت عليه الشدائد، لا يخرج من شدَّة إلاَّ دخل الأخرى أشدَّ منها. وعن ابن عبَّاس: أمر الدنيا وأمر الآخرة، فهو في آخر أيَّام الدنيا وأوَّل الآخرة، ويُقال: الملائكة تجهِّز روحه والنَّاس يجهِّزون جسده.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾ متعلِّق باستقرار «إِلَىٰ رَبِّكَ»، أو بما بعده للتوسُّع في الظروف وللفاصلة. **﴿الْمَسَاقُ﴾** تقديمُ الخبر للحصر، والمساق مصدر ميميٌّ، وفي ذلك إخبار عن المصدر بما يتبادر التعلُّق به، ولو كان غير مراد، ولو قيل: السَّوْق إلى ربِّك تبادر أن يتعلَّق «إلى» بالسَّوْق، مع أنَّه ليس كذلك، بل يتعلَّق بمحذوف خبر.

(نحو) ويُستدلُّ بذلك على أنَّ اسم «لاَ» مبنيٌّ وما بعده خبره في نحو: لا مَلْجَأَ من الله، ولا حول عن معاصي الله، ولا قُوَّة على طاعة الله إذا لم نُنَوِّن ذلك.

ويقدَّر مضاف، أي: إلى حُكم ربِّكَ، أو موعود ربِّك من جنَّة أو نار، والسَّائق الملك أو الملائكة، وإن اعتبرنا أنَّ السائق الله عَزَّوَجَلَّ لم يقدَّر مضاف، أي: يسوق الله لا غيره من شاء إلى الجنَّة أو النَّار، وهذا السوق أَمْرُهُ إلى الله لا إلى غيره ولا مع غيره.

﴿فَلاَ صَدَّقَ﴾ ما يجب التصديق به، وهو الله تعالى ورسوله والوحي. ﴿وَلاَ صَلَّىٰ﴾ فرضًا ولا نفلاً، والنَّفل لا يعتبر بلا فرض. والضميران على حدٍّ ما مرَّ للإنسان آنفًا، أو إلى الإنسان في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الانسَانُ﴾ وعليه فالعطف قيل: على ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ...﴾ إلخ (سورة القيامة: ٦) على أنَّ هذا السؤال إنكار للبعث، فكأنَّه قيل: أنكر البعث فلم يصدِّق ولم يصلِّ، وذلك يتضمَّن التعجيب منه إذْ أنكر يوم القيامة، ورتَّب على إنكاره نفي التَّصديق والصلاة.

وقيل: من التصدُّق بالمال بمعنى لا أعطى الصدقة، كزكّى: أعطى الزكاة، فيكون كقوله: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ...﴾ إلخ (سورة المدثر: ٤٤) ، والأولى العطف على «التَفَّتِ السَّاقُ» على أنَّ الفاء لترتيب الذكر.

(أصول الدين) وفي الآية خطاب الكافر بالفروع، إذْ عُنِّف بترك الصَّلاة أو بترك الزَّكاة، والصَّلاة، **وفي الآية تعظيم الصَّلاة بأنَّها تلي التوحيد،** وأخبر الله سبحانه أنَّ ذلك منه ليس توقُّفًا لشكٍّ بل جزم بالكفر بقوله تعالى:

﴿وَلَكِن كَذَّبَ﴾ بالحقِّ. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عنه، فلا يتكرَّر مع قوله تعالى: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ﴾. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ «ثُمَّ» للترتيب الذكري الرتبي في البُعد، أي: أخبركم بعد ذلك بأمر منه عظيم في القبح، وهو أنَّه مع قوله الفظيع وتكذيبه وتولِّيه ذَهب إلى أهله مُطمَئِنًّا فرِحًا لم يخف معاجلة العذاب على ذلك.

(صرف) والتمطِّي: التبختر، قيل: لأنَّ المتبختر يمدُّ خطاه، وأصله التَّمطُّط قلبت طاؤه الثالثة ياء، وفي الماضي ألفًا لتوالي الأمثال، كتقضَّى البازي أصله: تَقَضَّضَ، قلبت الضَّاد الثالثة ألفًا، وتظنَّى أصله: تظنَّن فالإعْلالُ عارضٌ.

أوْ تَمَطَّى من المَطَا وهو الظَّهر، والمتبختر يَلْوِي ظهره، فألِف «تَمطَّى»

على هذا بدل من الواو الذي هو لام الكلمة، لاَ من أحَدِ الأمثال، فالإعلال فيه أصيل لا عارض.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا مشت أمَّتي المطيطا، وخدمتهم بنات فارس والروم جعل الله بأسَهُم بينهم، وسلَّط شرارهم على خيارهم**»[1].

وقيل: الآية نزلت في أبي جهل، وكان التبختر عادة في أبي جهل، وكثيرًا في قومه من بني مخزوم، وقد مرَّ أنَّ قوله: ﴿أيَحْسِبُ الانسَانُ...﴾ إلخ فيه، وقد مرَّ لك أنَّ تعميم الإنسان فيما مضى للبرِّ والفاجر لا يُعارضه ذكر ما للفاجر خصوصًا، والحاصل أنَّ الحُكم على الجنس بأحكام لا يضرُّ فيه تخصيص بعض الأفراد بحكم منها.

﴿**أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ**﴾ خطاب للكفَّار كلِّهم على سبيل البدليَّة، وقيل: لأبي جهل، ويلتحق به غيرُه، وذلك كلمة تهديد. قيل معناه ويل لك مرَّة بعد أخرى، أو أنت أجدر بهذا العذاب.

(صرف) فقيل: «أَوْلَى» اسم تفضيل من الولي بمعنى القرب، ثمَّ غلب في قرب الهلاك والدعاء بالسوء، نائبًا عن المصدر، كأنَّه قيل: هلاكًا أولى لك، بمعنى: أهلكك الله تعالى إهلاكًا أقرب إليك من كلِّ شرٍّ وإهلاك، كما غلب «بُعْدًا» و«سحقًا» في الهلاك.

وقال الأصمعيُّ: «أَوْلَىٰ» فعل ماض، أي: قارب لك هُو، أي: الهلاك، يدلُّ عليه السياق، وقيل: ماض، فيه ضمير لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى على صورة الدعاء، أو يقدَّر: قُل دَاعِيًا، أي: أولاك اللهُ ما تكرَه. واللاَّم في ذلك كلِّه زائدة، أو بمعنى «مِنْ».

(صرف) وقيل: اسم فعل بمعنى: وليك. وقيل: اسم تفضيل خبرًا لمبتدأ

١- أورده **الألوسي** في تفسيره: مج١٠، ص١٨٧، بدون تخريج ولا ذكر للسند.

محذوف يقدَّر في كلِّ مقام بما يليق، فيقدَّر للكافر: النَّار أولى لك، أي: أنت أحقُّ بها.

والجملة تأكيدٌ للأولى، والترتيب ذكريٌّ، أو مؤسِّسة لِشَرٍّ آخر أعظم من الأوَّل كأنَّما قيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك في القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النَّار.

وعن ابن عبَّاس: قال رسول الله ﷺ ـــ أي: لأبي جهل ـــ : «**أولى لك فأولى ثمَّ أولى لك فأولى**» فأنزله الله تعالى، يعني أنَّه في اللَّوح المحفوظ حين خلق القرآن قبل خلق آدم، ويُروى أنَّه لَمَّا نزلت الآية أخذ رسول الله ﷺ بمجامع ثوب أبي جهل لعنه الله في البطحاء، وقال: «**أولى لك فأولى، ثمَّ أولى لك فأولى**»، فقال: أتتوعَّدني يا محمَّد؟! والله لا تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعل لي شيئًا، أنا أعزُّ من مشى بين جبليها. ولَمَّا كان يوم بدر صرعه الله شرَّ صرعة، وقتله الله أشدَّ قتلة، وكان ﷺ يقول: «**إنَّ لكلِّ أمَّة فرعونًا وفرعون هذه الأمَّة أبو جهل**».

﴿**أَيَحْسَبُ الانسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾ ذكر هذا بعد قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الانسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ للتَّأكيد وزاده حسنًا ذكر إنكار الحشر قبله تكريرًا لإنكاره قبلُ، أي: إنَّه، أي: الإنسان أو الشأن. و«سُدًى» مفعول ثانٍ لـــ«يُتْرَكَ»، أي: مهملاً، أو حال، ومعنى إهماله أن لا يكلَّف ولا يجازى، أو يترك في قبره بلا بعث، والاستفهام إنكار.

(أصول الدين) [قلت:] قيل: الآية دليل عقليٌّ على البعث، من حيث إنَّ الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح، وذلك تكليف، وهو لا يتحقَّق إلاَّ بالمجازاة، وقد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة، فلا بدَّ من البعث لتكون الآخرة.

ويردُّه أنَّه لا يلزم الجزاء على التكليف عقلاً، ولا يلزم السيِّدَ أجرةٌ لعبده عقلاً، لأنَّه ملك له، ولا سيما المالك الخالق عَزَّ وَجَلَّ ، وأنَّه لا يلزم عقلاً أن يكون الجزاء جزاء الآخرة، وأنَّه يجوز عقلاً أن يكون لبعض في الدنيا ولبعض في الآخرة.

﴿أَلَمْ يَكُ﴾ الإنسان ﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ﴾ يمنيها الرجل ويصبُّها في الرَّحم، أو يقطعها الله سبحانه من دم الرَّجل. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ ثمَّ خلقنا النطفة علقة ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: قدَّر، جعلها مُخَلَّقه ﴿فَسَوَّىٰ﴾ عدَّلها وكَمَّلها ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ من الإنسان، أو من المنِيِّ ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ الصِّنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ بدل أو بيان، والخنثى المشكل عند الله أحدهما، أو قسم ثالث شاذٌّ لا يذكره لشُذوذه.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأن الخالق لذلك ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ مع أنَّ الإعادة في بادئ العقل أسهل من الخلق الأوَّل؟ وهما عند الله عَزَّ وَجَلَّ سواء.

روى أبو داود عن أبي هريرة أنَّه قال رسول الله ﷺ : **«من قرأ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلكم من الشاهدين». «ومن قرأ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ؟﴾ فليقل: بلى. ومن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، فليقل: آمنَّا بالله»**[1].

١-رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب مقدار الركوع والسجود، رقم: ٨٨٧. وروى **الترمذيُّ** الجزء الأوَّل منه في كتاب التفسير (٨٤) باب ومن سورة التين ٥٦، رقم: ٣٣٤٧، من حديث أبي هريرة.

وهذا تمثيل، فإنّ نظائر ذلك مثله، وذلك في الصَّلاة ولو فريضة عند بعض، وفي غير الصَّلاة. وكذا إن لم يقرأ من أوَّل السورة بل من وسطها أو من آخرها، أو لم يقرأ إلاّ تلك الآيات، وكذا إن سمعها وذكر السورة بتمامها، لأنّ القراءة من أوَّل السورة إلى آخرها، هو المعتاد عندهم، وللترغيب في ابتدائها وختمها.

وعن موسى بن أبي عائشة كان رجل يصلّي فوق بيته، وكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ قال: «سبحانك بلى»، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ، رواه أبو داود[1].

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.

١- رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، رقم: ٨٨٤. من حديث موسى بن أبي عائشة.

تفسير سورة الإنسان وآياتها ٣١

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾

خلق الله الإنسان وهدايتُه إلى السبيل

(نحو) ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلَ﴾ حرفٌ وضع للاستفهام من أوَّل مرَّة كهمزة الاستفهام، وليس أصله التحقيق في الإخبار، كقَدْ ثمَّ نقل إلى الاستفهام نيابةً عن الهمزة، ولا باقيةً على التحقيق مقدَّرًا قبلها همزة الاستفهام.

[قلت:] ومن العجائب دعوى ذلك بمجرَّد بيت شاذٍّ:

سائل فوارس يربوع بشدَّتنا أَهَلْ رَأَوْنَا بسفْحِ القاع ذي الأَكم[1]

بدخول الهمزة عليها، وما هذا إلاَّ تأكيد، مع أنَّ الرواية الصَّحيحة: «أمْ هَلْ رَأَوْنَا» بِأَمْ المنقطعة بمعنى بل كما قال السيرافي[2]. ومع أنَّ في نسخة قديمة وجدها السيوطي: «فَهَلْ رَأَوْنَا» بالفاء، فهي استفهاميَّة حقيقةً.

١- البيت لزيد الخيل في ديوانه، ص١٥٥. انظر: إميل يعقوب: شواهد اللغة، ج٧، ص٣٩٦.

٢- السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرْزُبان السيرافي، إمام النحو وفنون عدَّة، أخذ العلم عن ابن دريد وابن مجاهد وأبي بكر بن السراج في بغداد، تصدَّر لإقراء القراءات واللغة والفقه والفرائض والعربيَّة والعروض، وكان ديِّنا متورِّعًا، ولي القضاء ببغداد وهو ممَّن ينسخ الكتب. تُوُفِّيَ سنة ٣٦٨هـ. الحمصي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٢، ص١٧٦.

والاستفهام هنا تقريريٌّ، وإذا استعملت في غير الاستفهام فمجاز، كما فسَّرها ابن عبَّاس بمعنى «قد»، وكذا سيبويه والكسائي. وقيل: للتقريب. وقيل: للتحقيق، ولا يؤتى لها بمعادل، وعبارة بعض: إذا كانت بمعنى الهمزة جاز أن يؤتى به، وعبارة بعض: تجوز بعدها «أم» المنقطعة.

ومعنى الآية: هل أتى على الإنسان زمان لم يوجد فيه؟ فيقال: نعم، فلزمه شكر نعمة الإيجاد، ويَحْقِر نفْسَهُ، ويعترفُ بالبعث كما خلق بَعْدَ عَدَمٍ.

﴿أتَىٰ﴾ مضى ﴿عَلَى الانسَانِ﴾ الجنس على الصحيح، ولا مدخل فيه لآدم، وبه قال ابن عبَّاس، وقيل: آدم عليه السلام، وهو رواية عنه، ويردُّه أنَّه وُصف بَعْدُ بأنَّه من نطفة وآدم من تراب، والإنسان بعدُ هو هذا، لأنَّه معرفة و لم يضمر له بعدُ إذْ قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الانسَانَ﴾ و لم يقل: خلقناه للتأكيد، ودعوى أنَّه آدم على أنَّه وصف بالنطفة لأنَّ جنسه منها خلاف الأصل والظاهر.

(قصص) وقيل: الإنسان الأوَّل آدم والثاني أولاده، قيل: صوَّر الله تعالى آدم في الأرض أو في السَّماء أو في الجنَّة، أقوال أصحُّها الأوَّل، وطاف به إبليس فقال: إنَّ هذا لا يتمالك لأنَّه أجْوفُ، أي: خالي الوسط، ومعنى لا يتمالك لا يكون مَلَكًا من الملائكة، أو لا يملك نفسه عن الشهوات، أو لا يملك دفع الوسواس عنه، أو لا يملك نفسه عند الغضب، أو لا يمتنع من الغضب.

ووجه القول بأنَّ الأوَّل آدم والثاني الإنسان أنَّ الأوَّل أحقُّ بأن لا يكون مذكورًا والثاني وصف بالنطفة.

﴿حِينٌ﴾ طائفة من الزمان محدودة طويلة أو قصيرة ﴿مِنَ الدَّهْرِ﴾ الزمان الممتد غير محدود، يقع على مدَّة العالم من حين خلق الله الزمان إلى ما لا نهاية

له، فإنَّ الجنَّة والنَّار لا نهاية لهما، ويطلق الدهر أيضًا على كلِّ زمان طويل غير معيَّن، والزمان عامٌّ للقليل والكثير.

ويطلق على ستَّة أشهر أنَّها دهرٌ وحينٌ، وفسَّر بعض الحين باليوم واللَّيلة، والمعنى: قد أتى، أو هل أتى على جنس الإنسان ـــ قبل زمان قريب مثلاً ـــ طائفةٌ محدودةٌ مقدَّرة كائنة من الزمان الممتدِّ لا يُذكرُ؟ كما قال الله ﷻ : ﴿**لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ بل كان شيئًا لا يُذكر بالإنسانيَّة، أي: غير معروف بها، وهو التراب وما يتولَّد منه.

والتراب هو العنصر البعيد، أو هو الأغذية وهي العنصر المتوسِّط، أو النطفة وهو العنصر القريب المتولِّد من الأغذية المخلوقة من العناصر.

(نحو) والجملة حال من «الانسَان»، أو نعت لـــ«حِينٌ» على حذف الرابط العائد إلى المنعوت، أي: لم يكن شيئًا مذكورًا فيه، وعليه فأضمر ضمير الإنسان مع جريان النعت على غير ما هو لظهور المعنى، والصَّحيحُ جوازُ ذلك كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ...﴾ إلخ (سورة البقرة: ٤٨) ، أي: لا تجزي فيه.

(بلاغة) وإطلاق الإنسان على مادَّته مجاز لعلاقة الآلة أو التسبُّب أو اللُّزوم، أو لعلاقة الأوْل، وقد مرَّ أنَّه قيل: آدم مرَّت به ـــ ملقًى بين مكَّة والطائف ـــ أربعون سنة طينًا، ثمَّ مرَّت به أربعون سنة حمأً مسنونًا، ثمَّ أربعون صلصالا، فكان تامَّ الخلق، وذلك مائة وعشرون، ثمَّ نفخ فيه الروح.

وعن عكرمة: **لا يعرف قدر هذا الحين إلاَّ الله أبهمه الله ﷻ .**

[قلت:] وزعم بعض الصوفيَّة أنَّ «هل» للنفي، وأنَّ المعنى: لا أوَّل للزمان ولا للإنسان، يوجد ويفنى بلا أوَّل لذلك، وهذا إشراك، ولا أظنُّ موحِّدًا يقوله،

وهو نفي للأزل عن الله، وإثبات للقدماء مع الله، ولعلّ الرواية لم تصحّ، وإن قال: لا أوَّل لثبوته عند الله سبحانه أنَّه سيكون فحقٌّ، لَكنَّ المخلوقات كلّها كذلك. وسمع عمر رجلاً يقرأ هذه الآية فقال: ليتها تمّت، أي: ليته بقي الإنسان على العدم و لم يخلق، وكذا روي عن الصدِّيق وابن مسعود رضي الله عنهم .

(صرف) ﴿اِنَّا خَلَقْنَا الانسَانَ﴾ البشر غير آدم ﴿مِن نُّطْفَة اَمْشَاجٍ﴾ جمع «مَشَج» بفتحتين، كسبب وأسباب، أو بفتح فكسر، ككتف وأكتاف، أو «مشيج»، كشهيد وأشهاد، ونصير وأنصار، نعت «نُطْفَة»، وقيل: هو مفرد كبرمة أعشار.

والمَشْجُ: الخلط. ولاشتمالها على أشياء نعتت بالجمع، فإنَّها من الرجل والمرأة، والرقّة والغلظة، والصفرة والبياض، والقوَّة والضعف، والدم والبلغم والصفراء والسوداء.

[قيل:] ماء الرجل أبيض غليظ ومنه العصب، والعظم، وإن علا كان الشبه له، وماء المرأة أصفر رقيق ومنه اللّحم والدم والشعر فإن علا كان أشبه لها، وإذا اجتمعا في قعر الرحم اخضرَّا.

وعن مجاهد: ﴿اَمْشَاجٍ﴾: ألوان. وعن ابن مسعود وزيد بن أسلم: ﴿اَمْشَاجٍ﴾: العروق التي في النطفة، أي: ذات عروق. وعن ابن عبَّاس: ﴿اَمْشَاجٍ﴾: أطوار، أي: ذات أطوار علقة مضغة...إلخ، واللّحم والدم والضعف من المرأة، والعصب والعظم والقوَّة من الرَّجل. وقيل: نطفة أمشاج خلطت بدم الحيض فيرتفع دم الحيض ويتغذّى به أيضًا، وقيل: ﴿اَمْشَاجٍ﴾: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة[1].

١- للعلم الحديث رأي آخر غير ما ذكر.

﴿**نَّبْتَلِيهِ**﴾ حال من «نا»، أو من «الانسَانَ» مقدَّرة، لأنَّ المراد الابتلاء بالتكليف، وهو غير موجود وقت الخلق، وقيل: الابتلاء مستعار للنقل من طور إلى طور لجامع ظهور الشيء بعد الشيء، مرتَّبًا عليه يظهر كلُّ طور بعد آخر مبنيًّا عليه كما يظهر الأمر بالاختبار شيئًا فشيئًا.

أو المعنى: أردنا ابتلاءه فجعلناه سميعًا بصيرًا كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيرًا**﴾ بسبب إرادة الابتلاء يسمع ما يرشد إليه، ويبصر بعينيه ما يحتاج في دينه إلى النظر إليه. وخصَّ الحاسَّتين لأنَّهما أعظم الحواسِّ الظاهرة، أو هما كنايتان عن الفهم والتمييز.

﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ**﴾ بيَّـنَّا له الطريق المستقيم ليتَّبعه، وهو دين الإسلام، بالآيات المتلوَّة وهي نَقلِيَّة، والآفاقيَّة والأنفسيَّة وهما عقليَّتان، أو المراد بالسبيل سبيل الحقِّ والباطل.

﴿**إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ حالان من الهاء الثانية، و«إِمَّا» لتفصيل الأحوال مع اتِّحاد الذات، أي: أرشَدناه إلى ما يوصله إلى الدين المستقيم، حال شكره وحال كفره، وليس في حال كفره غير مدلول على الدين. أو للتقسيم للمكلَّف باختلاف الذوات والصِّفات، أي: بعضهم شاكرٌ باتِّباع التبيـين، وبعضهم كافرٌ لمخالفته.

أو حالان من «السَّبِيلَ» على إسناد الشكر والكفر إلى السَّبِيل مجازًا، لأنَّهما حقيقة لسالك السَّبيل، وعلى هذا فـ«السَّبِيل» يشمل الدين الحقَّ والباطل، أيْ: بيَّـنَّا له الحقَّ والباطل.

(أصول الدين) وَكُلٌّ ذلك بخلق الله تعالى واختيار العبد، ولا إجبار، وإلاَّ لم يُثَب ولم يُعاقب، والمراد الجزاء؛ **إمَّا شاكرًا فيثاب، وإمَّا كفورًا فيعاقب.**

(بلاغة) وأورد الشكر بوزن فاعل، والكفر بوزن المبالغة لأنَّ الإنسان لا يخلو من كفر، فالكفر كثير منه، وهو مناسب للفاصلة، وفي ذلك تلويح بأنَّه يعاقب على الكفر البليغ، وكفر كلِّ شقيٍّ بليغ ولو قلَّ، لأنَّ الإصرار بليغ، فلو أصرَّ الموحِّد الفاسق على صغيرة واحدة لكان كَفُورًا، ولأنَّ نعم الله كثيرة عليه وقد كفرها كلَّها بإصراره.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة

﴿انَّآ أَعْتَدْنَا للْكَافرينَ﴾ هيَّأنا لهم بسبب كفرهم بعد تبييننا ﴿سَلاَسلاً﴾ يقادون بها ﴿وَأَغْلاَلاً﴾ يقيَّدون بها ﴿وَسَعيرًا﴾ يحرقون بها.

(بلاغة) قدَّم ذكر الوعيد ليتَّصل بذكر أهله إذْ أُخرِّوا قَبْلُ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذينَ اسْوَدَّتْ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٦) ، ولأنَّ الوعيد أنسب بمقام الإنذار، وعلى طريق الاهتمام، وليتصدَّر الكلام بالمؤمنين ويختم بهم، وليحصل تجاوب أطراف الكلام.

(صرف) وصرْفُ «سلاسل» مع أنَّه على صيغة منتهى الجموع مشاهَد في مصاحف المدينة ومكَّة والكوفة والبصرة ومصحف أُبيٍّ، ومصحف ابن

مسعود، ووجهه المشاكلة، كصرف «كَافُورًا» علَمًا لعين في الجنَّة للمشاكلة، والعين مؤنَّث، وقد جوَّزُوا صرف ما لا ينصرف لأجلها، ولا سيما الجمع فإنَّه قيل سبب ضعيف لشبهه بالمفرد، ألا ترى أنَّه قد يجمع نحو «صواحبات يوسف» بجمعه بتاء وألف، و«نواكسي الأبصار» بِجمعه بالياء والنون، وقد جوزَّ بعضهم صرفه مطلقًا، قال بعض:

والصَّرف في الجمع أتى كثيرًا   حتَّى ادَّعى قوم به التخيـــيرا

وحكى الأخفش عن قوم من العرب صرف كُلِّ ما لا ينصرف إلاَّ اسم التفضيل بوزن أفعل، **والقراءات مرويَّاتٌ من الصحابة لا اختيارٌ من القرَّاء.**

وذلك بيان حال الكفور. وبيَّن حال الشاكر بقوله:

﴿**إِنَّ الاَبْرَارَ**﴾ أي: الشاكرين، إلاَّ أنَّه عبَّر عنهم باسم مدح آخر هو البرُّ الذي استحقُّوا به الجزاءَ واسمَ الشكر، مِنْ «بَرَّ» بمعنى أطاع وأكْثَرَ فعل الخير. وقيل: أدَّى حقَّ الله تعالى، وأوفى النذر. وعن الحسن: لا يؤذي الذّرَّ، ولا يرضى الشرَّ، وهذا كناية عن المبالغة في الخير. [قلت:] **ومن الشرِّ ترك الخير**. والمفرد «بَرٌّ»، كَرَبٍّ وأرباب، أو «بَارٌّ» كشاهد وأشهاد.

﴿**يَشْرَبُونَ**﴾ في الآخرة ﴿**من كَأْسٍ**﴾ الكأس إناء فيه شراب من ماء أو لبن أو خمر أو غير ذلك، ويُطلق أيضًا عليه بدون اعتبار ما فيه، وعلى ما فيه بدون اعتباره، وشهر أنَّه حقيقة في الزجاجة إذا كان فيها خمر، ومجاز في الخمر لعلاقة الجوار، فإن أريد بها الخمر فـــ«مِنْ» للتبعيض أو للبيان، أو أُطْلِقَ على الزجاجة فـــ«مِنْ» للابتداء.

ويدلُّ على كون المراد بها الخمر قوله تعالى: ﴿**كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا**﴾ لأنَّ المزج يناسب بمائع لمائع لا لزجاجة، والمزاج: ما يمزج به، أي: يخلط بغيره،

كالحزام لما يحزم به. و﴿كَافُورًا﴾ عينٌ في الجنَّة على حذف مضاف، أي: من ماء كافور.

يمنع الصرف للعلميَّة والتأنيث، ولكن صرف للمشاكلة كما مرَّ، أو تشبيه بليغ بالكافور وذلك أنَّ ماءها في بياض الكافور ورائحته وبرودته.

(نحو) ﴿عَيْنًا﴾ بدل من «كَافُورًا»، وقيل: يمزج لهم بكافور الجنَّة ـــ وهو غير شراب ـــ ويختم بمسكها، وكافور الجنَّة لا يضرُّ كما يضرُّ كافور الدنيا. وإن شئت فبدل من محل «كَأْسٍ» على حذف مضاف، أي: يشربون خمرًا من كأس خمر عين. أو حال من ضمير «مِزَاجُهَا»، على أنَّ المزاج جزء كأس على ما مرَّ، أو مثل جزئه ولو جامدًا لنعته بمشتقٍّ ومعموله، وهو «يَشْرَبُ بِهَا...» إلخ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة يوسف: ٢) ، وقولك: أكرم زيدا رجلا عالِمًا.

﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ أي: يشرب منها، أو الباء صلة، أي: يشربها، أي: يشرب ماءها، ويدلُّ له قراءة ابن عبلة: «يَشْرَبُهَا»، وقيل: الباء للإلصاق، وقدَّر بعض: يشرب الخمر ممزوجةً بها، أي: بالعين. وقيل: «هَا» للكأس، والباء للتعدية، و«عَيْنًا» مفعول «يَشْرَبُ»، أي: يشرب عينا بالكأس، أي: يشرب ماء عين بالكأس. وقيل: ضمن «يَشْرَبُ» معنى يروى، أي: يروي بها.

والمراد بـــ﴿عِبَادُ اللهِ﴾ المؤمنون مَدَحَهُم باسم العُبُودِيَّة إذ عرفوا حقَّ الله وأطاعوه وأذعنوا بالعبادة.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يُنْبِعُونَها إنباعًا عظيمًا أو نوع إنباع، بأن ترتفع إليهم حيث كانوا من المواضع العالية بلا أخدود، وإنَّما هي كالطائر. وزعم بعض أنَّ بأيديهم قضبانًا من ذهب يخطُّون بها وتجري حيث خطُّوا، وفيه أنَّ هذا عمل

وعلاجٌ، ولا يكون في الجنَّة ذلك. وفي أثر: أنَّ هذه العين في دار رسول الله ﷺ تفَجَّر إلى ديار الأنبياء والمؤمنين.

﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾ جواب سؤال، كأنَّه قيل: ما أوصلهم إلى هؤلاء الدرجات؟ فقيل: أوصلهم إليها إيفاؤُهم بما جعلوا على أنفسهم من العبادات بينهم وبين الله، كصلاة النفل وصومه، أو بينهم وبين الخلق كالصدقة والعفو، وترك الانتقام، وسائر منافع النَّاس.

[قلت:] فإذا أوفوا بما لم يوجبه الله تعالى ـــ بل أوجبوه بلا تعليق أو بتعليق، مثل: إن شفاني الله تصدَّقت بكذا، أو صمت أو صلَّيت كذا ـــ فأَوْلَى أن يُوفوا بما أوجَبَهُ الله.

ويجوز أن يكون المراد الوفاء بما عاهدوا الله عليه من أداء الواجبات والمستحبَّات.

وقيل: المرادُ مجرَّدُ الوفاء بالعهد مدحًا له، وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نذَر أن يطيع الله تعالى فلْيَفِ بنذره ومن نذَر أن يعصي الله فلا يفِ به**»[1]، وفي رواية: «**فليُطعه ولا يعصه**»، وذلك في البخاري. وذكر الترمذيُّ وأبو داود والنسائيُّ عن عائشة عن رسول الله ﷺ : «**لا نذْر في معصية الله تعالى، وكفَّارته كفَّارَة يمين**»[2] ويروى: «**كفَّارته تركه**».

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وإنَّما روى **النسائيُّ** في كتاب الأيمان والنذور (٤١) باب كَفَّارَة النذر، رقم: ٣٨٥٤، ما يقاربه معنى. وَأَوَّلُ الحديث عنده: «النذر نذران...»، وقال في الهامش: انفرد به النسائي، من حديث عمران بن حصين.

٢-رواه **الترمذيُّ** في كتاب الأيْمان والنذور (١) باب ما جاء عن رسول الله ﷺ أن لا نذر في معصية، رقم: ١٥٢٤ و١٥٢٥، **وأبو داود** في كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه =

وفي البخاريِّ ومسلم عن ابن عبَّاس استفتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ في نذر على أمِّه لم تقضه فأمره أن يقضيه بعد موتها.

(بلاغة) والمضارعُ لإفادة التجدُّد وتتريل الماضي مترلة الحاضر المشاهد، والماضي لا يفيد ذلك.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا في الأقطار، والمراد انتشار الخوف منه في الملائكة والمؤمنين والكفَّار. ويقال: أو فُشُوُّ شَرِّه في السَّماوات، فانشقَّت وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكوِّرت الشمس والقمر، وفي الأرض، فصارت الجبال دَكًّا وأطيرت، وغارت المياه، وكسر كلُّ ما على الأرض من جبل وبناء.

(بلاغة) وذلك كقولك: استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من «طَار»، لأنَّ زيادة الحروف في الغالب والأصْلِ تدُلُّ على زيادة المعنى، ولا سيما صورة الاستفعال الموضوع للطلب، فإنَّ ما بالطلب والعلاج يبالغ فيه للمغالبة، فعبَّر بصورة ذلك تلويحًا له، أو شبَّه انتشاره بشيء مغالب للآخر ورمز إليه بلازمه.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ متعلِّق بـ«يُطْعِمُ» وبمحذوف حال من الواو. و«الطَّعامَ» مفعول ثانٍ، و«مِسْكِينًا» مفعول أوَّل، لأنَّه الفاعل في المعنى لأنَّه الطَّاعم، أي: الآكل.

وهاء «حُبِّه» للطعام، أي: يطعمون الطعام مع أنَّه محبوب عندهم، مشتهًى لقلَّته أو لغلائه أو للحاجة إليه أو لجودته، أو لذلك كلِّه، كقوله تعالى: ﴿لن تَنَالُواْ البِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (سورة آل عمران: ٩٢) .

= كَفَّارَة إذا كان في معصية، رقم: ٣٢٩٠. **والنسائيُّ** في كتاب الأيمان والنذور (٤١) باب كَفَّارَة النذر، رقم: ٣٨٤٣. من حديث عائشة.

أو الهاء للإطعام المدلول عليه بـــ«يُطْعِمُونَ»، أي: يحبُّون الإطعام بطيب النَّفس والرغبة، لا إجبارًا أو مداراة أو حياءً.

أو الهاء لله تعالى، أي: لحبِّهم الله وابتغاء مرضاته، وهو قول قوم، فيكون عموم أحوال الطعام من نحو القلّة والغلاء والحاجةِ مستفادًا من إطلاق الطعام.

وقيل: المراد بالإطعام النَّفع بطعام أو بغيره من سائر ما يحسن به إلى المسكين واليتيم والأسير، استعمالاً للمقيَّد في المطلق، كاستعمال الأكل في مطلق الإتلاف.

ويُقال: للجنَّة سلالم، منها: إطعامُك المسلمَ ما يشتهي، وإطعام الحامل ما تشتهي، وإطعام المريض ما يشتهي. قال ﷺ : «**إن أحببت يا عمر أن يخفَّف عنك البلاء قبل الموت وعنده وبعده فَقُم مِنَ اللَّيْلِ ولو رَكْعَتَيْن، وإن أحببت يا عمر أن يخفَّف عنك البلاء قبل الموت وعنده وبعده فلا تفارق ذكر الله تعالى، كما لا تفارق الدوابُّ الأكل في اللَّيل والنَّهار، وإن أحببت يا عمر أن يخفَّف عنك البلاء قبل الموت وعند الموت وبعده فأَنفِقْ من مالٍ من قليل**».
وقوله: «من قليل» أراد به قلَّة المال مطلقًا، وقلَّة مال عزيز مع وجودٍ كثرة المال.

﴿**مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ من المشركين، كان ﷺ يدفع الأسير إلى مسلم ويقول له: «أحسن إليه»، فيكون عنده يومًا أو يومين أو ثلاثة، ويؤثره على نفسه، لكن قال ابن حجر: لم يذكر هذا الحديث من يعتمد عليه، قال قتادة: لأنَّ أسيرهم يومئذ المشرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه.

[قلت:] فإن قُبض على موحِّدٍ في قتال أهل الفتنة وحُبس عن قتالٍ فلم يطلق لذلك دخل في معنى الآية.

(سيرة) أنفق أبو بكر وعمر وعليٌّ والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجرَّاح على أسارى بدر فقالت الأنصار: قاتلناهم في الله ورسوله

وتعينوهم بالنفقة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ...﴾ إلى ﴿...سَلْسَبِيلاً﴾ تسع عشرة آية.

(نقد الحديث) وهو حديث لا وثوق بصحَّته، وما رواه إلاَّ ابن عساكر، مع أنَّ السورة مكّـيَّة عند الجمهور، والقصَّة تقتضي مدنيَّتها، وعن مجاهد وقتادة: إنَّها مَدَنيَّة، وعن الحسن: مَدَنيَّة إلاَّ ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنهُمْ ءَاثِمًا اَوْ كَفُورًا﴾، وقيل: إلاَّ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾ إلى آخر السورة.

[قلت:] ولا خلاف في جواز الإحسان إلى الكفَّار في دار الإسلام بما ليس واجبًا، ككفَّارة وزكاة.

وقيل: هو الأسير المسلم في أيدي المشركين يطعمه من لقيه من المسلمين، أو يرسل إليه الطعام، وكذا ما ينفعه. وعن مجاهد أنَّه الموحِّد المسْجُون. [قلت:] وإن حُبس في دَيْنٍ له ما يفي به وامتنع لم يحسن إطعامه إلاَّ أنَّه لا يترك للموت، لأنَّه أعانه على المنع، وكذا ما أشبه ذلك من الأغراض النفسيَّة. وقال أبو سعيد الخدري: المملوك والمسجون شبَّها بالأسير لجامع الضيق.

وَقيلَ: الزوجة، وهو ضعيف، لكن في الحديث: «**اتَّقوا الله في النِّساء فإنَّهنَّ عندكم عوان**»[1]، أي: أسارى، وقيل: غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك، ولا يخفى حُسْنُ ذلك كلِّه.

﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ**﴾ مفعول لحال من واو «يُطْعِمُونَ»، أي: قائلين بلسان الحال أو القال: «إنَّما نطعمكم...»إلخ. أمَّا لسان الحال فما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص فمدحهم الله تعالى بما في قلوبهم، وأمَّا لسان القال فلإزالة

١-هذا جزء من خطبة الوداع التي قالها الرسول ﷺ في عرفات. وقد أوردها جلُّ كتب الحديث، وأَوَّلُها قوله ﷺ : «يا أيُّها الناس أيُّ يوم أحرم...».

توهُّم هؤلاء قصد المكافأة والمنِّ قيل: ولتعليم المسكين واليتيم والأسير أمر الدين من وجوب الإخلاص في الإطعام لله تعالى، ونفي الرياء وحبِّ المدح، وليقتدي به غيرُه في عمل الخير وإخلاصه، ومن الاستعداد ليوم القيامة.

﴿لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ مكافأة بمال أو غيره **﴿وَلاَ شُكُورًا﴾** مدحا، وهذا تأكيد لما قبله.

[قلت:] ومن تصدَّق بشيء لوجه الله تعالى فلا ينبغي أن يقصد دعاءً من المتصدَّق عليه. وكانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثمَّ تسأل الرسول: ما قالوا ؟ فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصًا عند الله عَزَّ وَجَلَّ .

فإن صحَّ عنها هذا فليس مرادُها أنَّه ينقص ثوابُها بدعائهم، بل أرادت ثوابًا خالصًا عن إثابة مخلوق، ولو كان لا ينقص بها، وإلاَّ فليس ينقص ثواب المعطِي بدعاء المعطَى، مع أنَّ المعطِيَ لم يقصده في إعطائه.

﴿إِنَّا نَخَافُ من رَبِّـــنَا...﴾ إلخ «مِنْ» للابتداء متعلِّق بـــ«نَخَافُ»، والمعنى: نتوقَّع منه، أو حال من «يَوْمًا». والجملة تعليل لـــ«نُطْعِمُكُمْ»، أي: نطعمكم لأنَّا نخاف، أو لقوله: ﴿لاَ نُرِيدُ﴾، أي: لا نريد... إلخ لأنَّا نخاف على إرادة الجزاءِ عذابَ يومٍ قمطريرٍ.

[قلت:] وزعم بعض أنَّه أصحُّ، وفيه تشديد إذا كان الإطعام غير واجب، فإنَّ إبطال النفل بطلب عوض مبطل لثوابه، لا موجب للعقاب إذا بطل بغير ما هو معصية، وأمَّا قوله تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (سورة القتال: ٣٣) ، فإنَّه عامٌّ، إلاَّ أنَّه فيما قصد به ثواب الله من أوَّل ثمَّ أبطل، أمَّا إذا قُصِدَ من أوَّل الأمر عوض فلا ثوابَ فضلاً عن إبطاله.

﴿يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم، أو خوفُه كنايةٌ عن خوف ما فيه.

(بلاغة) ﴿عَبُوسًا﴾ التعبُّس لوجوه أهله، فإسناده إليه ــ إسناد ما للحالِّ للمحلِّ ــ مجاز عقليٌّ، أو يقدَّر مضاف، أي: عبوسًا وجوهُ أهله. وعن ابن عبَّاس: إنَّ الكافر يعبس وجهه يومئذ حتَّى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، ويجوز أن يراد بالتعبُّس الكناية عن مطلق الشدَّة حتَّى يشمل ما يصيب المؤمن منها.

﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس بإسناد ما للحالِّ للمحلِّ. وعن ابن عبَّاس: طويلاً في الشرِّ، ويُقال: شديدًا صعبًا، كأنَّه التفَّ شرُّه بعضه ببعض، ويُقال: اقْمطرَّ فهو مُقْمطِرٌّ وقمطرير إذا صعب واشتدَّ.

(سبب النزول) والآيات على العموم، ولو خصَّ سببُ النزول فقيل: نزلت في أبي الدحداح من الأنصار، جاءَهُ وقت الإفطار مسكينٌ ويتيمٌ وأسير فأعطاهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد. وذكر عن ابن عبَّاس أنَّها نزلت في عليٍّ، أصلح ثلث سَعْي أجرة من عمله ليهودي ليأكله، فأتاه مسكين فأعطاه، وعمل ثلثا فأتاه يتيم فأعطاه، وكذا الثلث فأتاه مشرك أسير فأعطاه، وطوى يومه وليله هو وأهله.

﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ جعلهم لاقين ﴿نَضْرَةً﴾ في الوجوه والأعضاء ﴿وَسُرُورًا﴾ في القلوب بدل عبوس الفجَّار وحزنهم.

﴿وَجَزَٰيهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ بسبب صبرهم على ترك هوى النَّفس وعلى أداء الفرائض وما دونها، وعلى المصائب والفقر والجوع والوفاء بالنذر، وإيثار غيرهم. و«مَا» مَصدَريَّة. ﴿جَنَّةً﴾ بستانًا عظيمًا هو كلُّ الجنَّة، لأنَّ لكلٍّ واحد منها مقدارًا يأكل منه ما يشاء. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسه سترًا لعورته وتجمُّلاً، لا لحرٍّ أو برد.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾

مساكن أهل الجنَّة وأشربتهم وخدمهم

(نحو) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ حال من الهاء في «جَزَاهُم» مقدَّرة على تفسير «جَزَاهُم» بأدخلهم أو أعطاهم. وخصَّ الجزاء بالاتِّكاء لأنَّه أتمُّ حالات المتنعِّم، وقيل: حال مقدَّرة من واو «صَبَرُوا»، أي: صبروا ناوين بصبرهم الاتِّكاء، وهو ضعيف خلاف الأصل. وقيل: نعت «جَنَّةً»، ولم يبرز الضمير مع جريان النَّعت على غير ما هو له لأمْنِ اللَّبس، فالأصل متَّكأُهُمْ فيها، بإفراد «متَّكأ» و«هم» فاعل لـ«متَّكأ».

(نحو) ولا تقل: الأصل: «متَّكئين هم فيها» بالجمع، لأنَّ الجمع فيه ضمير مستتر ولا بُدَّ، لأنَّه وصف، إلاَّ على لغة «أكلوه البراغيث». وأجاز الكوفيُّون عدم الإبراز في ذلك إذا أمن اللَّبس وهو ظاهر في الآيات، فلا يلزم أن يكون منه قوله:

قومي ذُرى المجد بانوها وقد علمت ... بكنه ذلك عدنان وقحطان[1].

لتبادر أنَّ المراد حذف المبتدأ، أي: هم بانوها.

١- البيت من الشواهد وهو بدون نسبة. انظر: إميل يعقوب: شواهد اللغة، ج٨، ص١٠٨.

(لغة) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يُطلق على الأسرَّة عليها ستور، والمفرد أريكة، وقيل: الأريكة كلُّ ما اتُّكِئَ عليه من سرير في ستر أو في غيره، ومن غير سرير كفراش ووسادة، من قولهم: أرِكَ بالمكان أقام فيه، وأصل الأراك الإقامة على رعي الأراك، ثمَّ استعمل في كلِّ إقامة مطلقًا.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في «مُتَّكِئِينَ»، أو نعت لـ«جَنَّةً». والزَّمهرير: البرد، أي: لا يرون فيها حرَّ شمس ولا بردًا، فحذف المضاف، أو أريد بنفي الشَّمس نفيها ونفي لازمها، وهو الحرُّ.

وقيل: الزَّمهرير القمر في لغة طيٍّ، قال شاعرهم:

وليلةٍ ظلامُها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر

ونفيه القمر نفي للحرِّ، أو يقَدَّرُ الحرُّ منسوبًا إليه مع الشَّمس، أي: لا يرون فيها حرَّ شمسٍ ولا زمهريرٍ، أي: ولا حرَّ قمرٍ.

والمشاهد أنَّ الأنوار حارَّة، فطبعُ القمر الحرُّ لا البردُ كما ادُّعي. ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ هواء الجنَّة مُضيءٌ بلا شمس ولا قمر، وتارة يكون نور أشدُّ من نور الجنَّة كالشَّمس، كما إذا ضحكت حوراء [كما قيل] في وجه زوجها، ولا مضرَّةَ في ذلك ولا حرَّ، وأنوار الجنَّة غير حارَّة[1].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ حال أخرى معطوفة على حال قبلها، وهي جملة «لَا يَرَوْنَ»، أو على «مُتَّكِئِينَ»، أو على ما هو حال من الجنَّة، أو نعت معطوف

١- وصدق الشيخ أبو نصر حيث قال في نونيته: «وأحكام تلك الدار ليست كهذه». والشيخ أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي من مواليد قرية تملوشايت في النصف الأوَّل من القرن السابع الهجري. أخذَ العلم عن خاله أبي يحيى زكرياء بن إبراهيم. له عدَّة قصائد تعليميَّة وزهديَّة. فرحات الجعبيري: البعد الحضاري، ص١٢٢.

على ما هو نعت لـ«جَنَّةً»، أو عطف على «جَنَّةً»، أي: وجنَّة دانيةً، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٤٦). ﴿ظِلَالُهَا﴾ فاعل «دَانِيةً»، والمراد ظلال أشجارها من نورها كما يكون الظلُّ على الشمس، وليس المراد أنَّ ظلالها عن حرٍّ يكون فيها، بل يتلذّذون بتلك الظلال نَوْعَ تلذُّذٍ.

﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سهِّلت كالشيء الذَّليل ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف، وهو ما يُقطف، أي: يقطع منها. ﴿تَذْلِيلاً﴾ عظيمًا، أو نوع تذْليلٍ، وهو تصييرها بحيث ينالها القائم والمنحني والراكع والقاعد والمتَّكئ والمضطجع، أو هي **عالية إذا أرادها قربت بحيث ينالها** ولو مضطجعًا، لا يُفيتُها بعدٌ أو شوك لعدمه.

والجملة معطوفة على ما قبل، أو حال من المستتر في «دَانِيةً»، بتقدير «قدْ» أو دون تقديرها.

(بلاغة) وكان الدنوُّ بالاسم والتذليل بالفعل، لأنَّ الظلَّ مستدام وتناول الثِّمار بحسب الحاجة.

﴿وَيُطَافُ﴾ يطوف ولدان ﴿عَلَيْهِم بِئَانِيَةٍ مِن فِضَّةٍ﴾ جمع إناءٍ ،بوزن أفْعلة، (بفتح الهمزة وإسكان الفاء وكسر العين)، والإناء: ما يوضع فيه الشيء، ولا يخزِّن أهل الجنَّة شيئًا، وكلَّما أرادوا شيئًا حضر لهم غَضًّا طريًّا، فتلك الآنية للشرب ليست موضوعة بين أيديهم أو عندهم، بل كلَّما أرادوها جيء بها وفيها ما أرادوا، وإذا أرادوا لونًا أو شكلاً منها مع ما فيه حضر كما أرادوا.

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب، وهو الإناء الذي لا عروة له ملتوية، ولا فيه نتو يقبض به، وقيل: الكوز العظيم الذي لا مقبض له. والعطف على «آنِيَةٍ». ﴿كَانَتْ﴾ تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرًا﴾ جمع قارورة، وهي زجاجة يوضع فيها

شراب، وهي رقيقة ولا تنكسر. وآنية الجنَّة لا تنكسر ولا تنشقُّ ولا تبلى.

(نحو) وهو خبر «كان»، وقيل: هو حال ولا خبر لها. وصُرِّف على حدِّ ما مرَّ في ﴿سَلاَسِلاً﴾ (سورة الإنسان: ٤) ، وزعم بعض أنَّ ذلك نُونٌ بدل من حرف الإطلاق، إجراءً للوصل مجرى الوقف، وللفاصلة مجرى القافية هنا وفي ﴿سَلاَسِلاً﴾، وَأمَّا ﴿قَوَارِيرًا﴾ الثاني فللمشاكلة.

﴿قَوَارِيرًا﴾ بدل. ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ نعت، أي: في بياض الفضَّة ولينها، وصفاء الزجاجة وشففيَّتها خلقة من الله تعالى لا حقيقة فضَّة ولا حقيقة زجاج، قال ابن عبَّاس: لو رقِّقت فضَّة الدنيا حتَّى تصير كجناح الذباب لم ير الماء من ورائها، لَكِنَّ قوارير الجنَّة ببياض الفضَّة وصفاء القوارير. وعنه: ليس في الجنَّة شيء إلاَّ قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلاَّ قوارير من فضَّة.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ نوع تقدير، والواو لأصحاب الجنَّة الأبرار، وقدَّروا القوارير في أنفسهم، فجاءت حسب ما قدَّروا لا تزيدُ ولا تنقص، وهو ألذُّ الشراب، كما قال ابن عبَّاس: «إنَّها على قدر الحاجة لا يفضِّلون شيئًا ولا يشتهون بعدها شيئًا».

وقيل: قدَّروها بأعمالهم، فجعل أعمالهم موجبة لمقاديرها، فهي مختلفة بحسب العمل، فهم بأعمالهم كأنَّهم صاغوها على قدرها، وقيل: الواو للطَّائفين بها، والمعنى: ليست تفيض ولا تغيض، كما صرَّح ابن عبَّاس في رواية أنَّه قدَّرتْها السقاة، وقيل: قدَّرها الملائكة بأعمالهم، وقيل: السقاة ألهمهم الله ذلك.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ إعرابُه مثل ما مرَّ في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾.

(لغة) والزَّنجبيل: نبت في عمان يسري في الأرض، وليس شجرة، وأجوده ما

يجلب من الزنج والصين، فيه بعض حموضة، تحبُّه العرب وتلتذُّ به، ولعلَّ فيه حموضة وحلاوة معًا. واللَّفظ عربيٌّ، وقيل: معرب. نقول: «شراب الجنَّة على برد الكافور، وطعم الزنجبيل، وريح المسك».

ولا منافاة بين ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ و﴿يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾، لأنَّ المراد يشربون من هذه ومن هذه. قال الكلبيُّ: ويقدِّمون ما مزاجه كافور.

وعن قتادة: الزنجبيل اسم لعين في الجنَّة يشرب بها المقرَّبون خالصة وتمزج لغيرهم، وذكر الزنجبيل بلفظ السقي لمناسبة «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ»، فالطائفون بها يسقونهم، وللإشارة إلى أنَّ هذه الكأس أعلى من الأولى.

(**لغة**) والسلسبيل كالسَّلسَلِ والسَّلسال: ما كان غاية في الانحدار في الحلق. وعن مقاتل: يسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاءوا. قال قتادة: من عين تحت العرش من جنَّة عدن تسلسل إلى الجنان. وقيل: تسيل في سبلهم وحيث شاءوا.

وإذا كانَ السلسبيل علمًا فالصَّرف للمشاكلة وما مرَّ، وذلك اسمان أحدهما السلسبيل (بالباء أَصليَّة)، والآخر السلسل (بنقص الباء والياء) موضوع على غيرهما. ويُقال: سلسبيلاً فعل أمر ومفعول به أيْ: «سَلْ» يا محمَّد أو يا من يصلح «سبيلاً» بالعمل الصالح يُوصل إلى الجنَّة، وجُعل الكلُّ عَلَمًا، ونُسب لعليٍّ و لم يصحَّ.

﴿**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ**﴾ للخدمة ﴿**وِلْدَانٌ**﴾ مخلوقات في الجنَّة على صورة الولدان، وأطفال الأشقياء للخدمة ﴿**مُّخَلَّدُونَ**﴾ دائمون على الطراوة والبهاء، أو مزيَّنون بالخلدة، وهو نوع ممَّا يعلَّق بالأذن، قال أنس: قال رسول الله ﷺ : «**ألف ولد لكلِّ سعيد**»، وقيل: أضعاف ذلك، ويجمع بأنَّ اختلاف العدد

باختلاف الأعمال، يتمتَّع أهل الجنَّة بهؤلاء الولدان تمتُّع المالك بغنمه، أو بشيء من ماله بعُجْبه وسروره به، لا بنظر شهوة، لأنَّ ذلك حرام في الدنيا وكيف بالجنَّة ؟ .

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم، وانعكاس شعاع بعض إلى بعض، أو شبِّهوا باللؤلؤ الرطب إذا نُثر من صدفه لأنَّه أحسن وأكثر ماء. والخطاب للنبيء ﷺ ، أو لكلِّ من يَصلح، وكذا في قوله:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: إذا أطلقت نظرك، فلا مفعول له. ﴿ثَمَّ﴾ في الجنَّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ لا تقوم به العبارة، وكان معقولاً ومحسوسًا. قال ابن عمر: عريضًا واسعًا يبصر أدناهم منزلةً في الجنَّة مُلْكَ مسيرةِ ألفِ عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه، يمدُّ الله تعالى في بصره، أو خلق الله ما في الجَنَّة على ذلك.

وعن مجاهد: الملك الكبير استـئذان الملائكة عليهم، فإنَّ مجيء ملائكة الرَّحمة أمر عظيمٌ، ولاَ سيما بالخير والخدمة، ولا سيما بالاستـئذان على صورة العبد لمالكه. وقال الترمذيُّ: هو ملك التَّكوين، إذا أرادوا شيئًا كوَّنه الله تعالى.

وقيل: الملك باعتبار أنَّه دائم، فكِبَرُه المرادُ هُو بدَوامه. وأجاز الكوفيُّون حذف الموصول وبقاء صلته، أي: إذا رأيت ما ثَمَّ، كقوله:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء[1]

أيْ: ومن يمدحه، إلاَّ أنَّه يحتمل أن لا حذف، وتنسحب «مَنْ» على الكلِّ، كأنَّه قيل: الذين هم هاجٍ ومادحٌ سواء.

١-البيت لحسَّان بن ثابت في ديوانه، ص٧٦. انظر: إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج١، ص٥٦.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ مبتدأ فخبر، أي: الذي يعلوهم من اللِّباس ثياب...إلخ، وقيل: «عَالِيهِمْ» خبر مقدَّم، و«ثِيَابُ» مبتدأ، إلاَّ أنَّ إضافته للحال، فهي لَفْظِيَّة في منزلة العدم، لأنَّه في نيَّة التنوينِ ونصْبِ ما بعده.

(لغة) والسُّندس: ما رَقَّ من الديباج، نوع من الحرير. وعبارة بعضٍ: ما رقَّ من ثياب الحرير. وذكر بعض أنَّ الديباج ضرب من الحرير المنسوج، يتلوَّن ألوانا. وقيل: السندس ضرب من البزيون يتَّخذ من المرعز وهو معرَّب. وقيل: أصله سندي، لأنَّه يجلب من السند، أبدلت الياء سينًا كما يُقال في سادس: سادي، ولا دليل عليه.

(لغة) والإستبرق: ما غلظ من ثياب الحرير. وقيل: الديباج الغليظ الحسن. وقال ابن دريد: ثياب حرير نحو الديباج. وعن ابن عبادة: بردة حمراء. وقيل: المنسوج من الذهب، وهو معرَّب من الفارسيَّة أصله استبره. وقيل: معرَّب استروه، وهو قول لابن دريد، إلاَّ أنَّه قال: سريانيٌّ. وقيل: اسْتبره بالباء الفارسيَّة. وقيل: عربيٌّ، من البريق، كما يجمع بحذف الزوائد إلاَّ الهمزة على أبارق، ويصغَّر على أُبَيْرق، وهو نكرة، أو عَلَمُ جِنس مصروفٌ أو ممنوعٌ، وصليُّ الهمزة أو قَطْعيُّها، والفَصيحُ قراءة نافع.

﴿وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار، وهو عربيٌّ، وزعم بعض أنَّه معرب دِسْتوراهْ، والواو نائب الفاعل مفعول أوَّل، لأنَّهم الفاعلون في المعنى، وهم المتزيِّنون المتحلّون. عطف على «يَطُوفُ...» إلخ.

والمضارع للتجدُّد في الطواف، والمضيُّ [في «حُلُّوا»] لأنَّ التحلية ليست على التجديد، ولَوْ كان تجديدُها ممكنا وواقعا.

﴿مِن فِضَّةٍ﴾ فضة الجنَّة، وفي آية: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ (الكهف: ٣١،

الحج: ٢٣...) ، ويجمع بأنَّهم يحلّون من الفضَّة ومن الذّهب بمرَّة، أو تارة من فضَّة وأخرى من ذهب، أو بعض السوار ذهب وبعضه فضَّة، خلقة كذلك بلا رقع. أو بعض بالذهب وبعض بالفضَّة وهم دونهم بالأعمال، ولا يخطر بقلبهم نقص، بل عُلُوٌّ. أو الفضَّةُ للخَدَم كالمَلَك والولدان، والذهبُ للمخدوم.

وعن سعيد بن المسيِّب: لا أحد من أهل الجنَّة إلاَّ وفي يده ثلاثة أسورة: واحد من فضَّة، وآخر من ذهب، والثالث من لؤلؤ.

[قلت:] وإنَّما ناسب ذلك الرجال والنساء معًا لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يطبع الرجال في الجنَّة على التلذُّذ بالحليِّ كما يتلذَّذون في الدنيا بحسن شعورهم وثيابهم وخواتمهم، وكما تتلذَّذ الملوك بتزيين أعضادهم وتيجانهم وصدورهم بالحليِّ، ولا سيما أنَّهم جُرد أبناء ثلاثين. وأمَّا ما قيل: الأساور للنساء والصبيان وغُلِّبْنَ، فخلاف الظاهر.

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ نوع آخر يفوق الشرابين: الممزوج بالكافور والممزوج بالزنجبيل، ولذلك أسند إلى «ربُّهم»، وزيد وصفه بالطهور، وهو شراب بعد طعام، وشراب يطهِّر بطونهم وقلوبهم، ويفيض عرقًا كالمسك، كذا قيل عن أبي قلابة[1] من التابعين.

ومعنى تطهير قلوبهم وبطونهم يدلُّ أنَّ الطعام الأوَّل والشراب الأوَّل يعقبه هذا الشراب الطهور، ولذلك قال: ﴿سَقَاهُمْ﴾ لا «يسقيهم» بصيغة التجدُّد.

[قلت:] ويناسب هذا ما روي عن مقاتل: هو ماء عين على باب الجنَّة

١- لعلَّه أبو قلابة عبد الملك بن الحافظ محمَّد الرقاشي البصري، ولد سنة ١٩٠هـ. روى عن يزيد بن هارون وروح بن عبادة، وحدَّث عنه ابن ماجه والدارقطني وأبو داود. تُوُفِّيَ سنة ٢٧٦هـ. الحمصي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص٥١٨.

من ساق شجرة، مَنْ شَرِبَ منه نزع الله عنه ما كان في قلبه من غشٍّ وأذًى وحسد، وما كان في جوفه من أذى؛ فيكون الطهور آلة، كالوَضوء والسَّحور (بالفتح).

وعبَّر بعض بأنَّه بمعنى مطهِّر، والمتبادر بقاؤه على ظاهره من المبالغة في طهارته، سواء قلنا: هو ماء، أو قلنا: خمر. ولا وسخ في ماء الجنَّة ولا قذًى، ولا سكر في خمرها، ولا في آنية خمرها، ولا يستحيل شرابها بولا.

[قلت:] ونبرأ إلى الله تعالى من تفسير الأساور بالأنوار تفيض على أهل الجنَّة بحسب أعمالهم كتفاوت الذهب والفضَّة، ومن تفسير الشراب الطهور بتجلٍّ ربَّانيٍّ مُسْكر، ونحو ذلك ممَّا يُخالف الظاهر.

﴿**انَّ هَٰذَا**﴾ ما ذكر من الكرامات الجليلة ﴿**كَانَ**﴾ في قضائي ﴿**لَكُمْ جَزَآءً**﴾ لأعمالكم الصالحة. والجملة الكبرى مفعول لحال من «رَبُّهُمْ» أوْ من هاء «سَقَاهُمْ» محذوفة، أي: قائلا لهم أو مقولاً لهم بعد دخول الجنَّة وهم معيَّنون مشخَّصُون: «انَّ هَٰذَا...» إلخ.

﴿**وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا**﴾ ممدوحًا، أو مرضيًّا، أو مجازًى عليه غَيْرَ ضائع، ويزداد سرورهم بهذا القول. ويجوز أن يكون هذا في الدنيا خاطب الله تعالى به أولياءه معيَّنين عنده لا في الخارج، إلاَّ من ظهرت سعادته كالنبيء ﷺ، ولا يلزم تقدير القول على هذا بل يجوز ليرتبط بما قبله.

وروي أنَّه قرأ ﷺ على حَبَشيٍّ، وَلَمَّا بلغ هذه الآية زفر ومات، فقال رسول الله ﷺ : «**أخرج نفسَ صاحِبكم الشَّوقُ إلى الجنَّة**»[1].

١- ولمزيد من الاطِّلاع راجع القصَّة في تفسير ابن كثير للآية.

وَلَمَّا أزال الله تعالى وحشة رسول الله ﷺ الحاصلَةَ من تكذيب قومه بالإمعان في ذكر الوعدِ والوعيد ذكر ما يقوِّي قلبه ويشرِّفهُ فقال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

تسلية رسول الله ﷺ والتنديدُ بالمعارضين له المكذّبين

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لا غيرُنا ولا مع غيرنا ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً﴾ منجَّمًا في ثلاث وعشرين سنة لحكمة التَّدْريج وتثبيت القلب ومناسبة النَّوازل.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير النَّصر على الكفرة، فإنَّ لتأخيره حكمة، فهو أولى من تعجيله. ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنهُمْ ءَاثِمًا﴾ مرتكبَ ذنب داعيًا إليه، ولو صغيرة ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ مرتكبَ شركٍ داعيًا إليه، أي: لا تطع في الإثم والكفر.

[قلت:] وأمَّا في حقٍّ أو مباح فالموافقة جائزة، كآثم موحِّد يصلِّي إمَامًا فإنَّه تجوز الصلاة خلفه ومتابعتُه إن لم يُدخل فيها مفسدًا. ولا يخفى أنَّه إذا قيل: لا تتَّبع الظالم فُهِمَ النَّهي عن اتِّباعه في ظلمه، بقي أنَّه نَهَى عن متابعة الكفور بصورة المبالغة، فهل تجوز متابعته في كفر دون الكفر البليغ؟ لا يخفى الجواب بالمنع، وأنَّه ليس ذلك قيدًا في المنع، ولكن عبَّر به لموافقة الواقع، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَاكُلُواْ الرِّبَـآ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (سورة آل عمران: ١٣٠) ،

فإنَّ الواقع أنَّها أضعاف، وحرِّم ولو دون ذلك. ولو كان لشخص عبدٌ واحدٌ هو كافرٌ، وقيل لك: «لا تستخدم عبد عمرو الكافر» كان نهيًا عن استخدامه، ولو آمن. وإنْ كان أحد يملأ بطنه بالحرام قلت له: «لا تملأه منه» لست تبيح له ما دون الملء.

وقيل: المبالغة عائدة إلى النَّهي، والمراد عموم الآثم والكفور. ولو قيل: المراد بالآثم عتبة بن ربيعة، والكفور الوليد بن المغيرة، لأنَّ عتبة يبالغ في أنواع الفسق، والوليد في أنواع الشرك.

وقيل: الآية في أبي جهل قالوا له: اترك ما تدعونا إليه نموِّلْك ونزوِّجك مَن شئت، فنزلت الآية. وروي أنَّ عتبة قال: إن كنت تريد بما تقول التزوُّج فاتركه أزوِّجك بنتي، وأسُقْها إليك بلا مهر. وقال الوليد: اتركه أعطك من مالي حتَّى ترضى.

﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ اذكر أسماءه، والإضافة للجنس، أو للاستغراق: الله، الرَّحمن، الرَّحيم، المؤمن، المهيمن...إلخ. أو اذكر ربَّك، والاسم صلة، وفي ذلك منافاة لأسماء الأصنام.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ عبارة عن تعميم الأزمنة بحسب الإمكان، أو المراد صلاة الفجر والظهر والعصر، لأنَّ الأصيل قد يُطلق على ما بعد الزوال إلى المغرب، ويدلُّ للصلاة قوله تعالى:

﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ**﴾ أي: وبعض اللَّيل ﴿**فَاسْجُدْ لَهُ**﴾ أي: صلِّ له، ذكر الصَّلاة بجزئها الذي هو أعظمها خضوعًا، والمراد صلاة المغرب والعشاء. والتقديم بطريق الاهتمام لمشقَّة صلاة اللَّيل وزيادة الخلوص. ﴿**وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ اذكره، أو صَلِّ له، أو اعْبده مدَّة طويلة منه، وكلُّ جزء من اللَّيل ليل.

[قلت:] وقيام اللَّيل لم ينسخ في حقِّ رسول الله ﷺ ، وقيل: نسخ وجوبُه وبقي ندبه له.

﴿إنَّ هَؤُلَآءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ لأنَّهم يفعلون فيها كلَّ ما يشتهون إلاَّ ما لم يقدروا عليه، ولا يزجرهم نَقلٌ ولا عقْلٌ. ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ خلفهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ يوم القيامة، وثقله استعارة لشدَّته لجامع عدم القدرة، فإنَّها عدمت في الثقيل الذي اشتدَّ أو لا يطاق، وفي هول يوم القيامة.

وسمِّي «وراء» مع أنَّه آت مستقبل لإعراضهم عنه، وقيل: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾: أمامهم، و«وَرَاءَ» متعلِّق بـ«يَذَرُونَ»، أو بمحذوف حال من «يَوْمًا»، والجملة الاسميَّة ــ قيل ــ تعليل للنَّهي عن إطَاعَة الآثم والكفور، و«يَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً» تعليل للأَمْرِ بالعبادة. أوْ لاَ تُطعهم لأنَّهم يحبُّون العاجلة.

﴿نَّحْنُ﴾ وحدنا ﴿خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ﴾ أحكمنا إحكامًا حسنًا. ﴿أَسْرَهُمْ﴾ ربط مفاصلهم بالعروق والأعصاب الشبيهة بالحبال المربوط بها، والأسر الرَّبط أطلق على ما يربط به. ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ إحياءَهُمْ بعد الموت ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أنشأناهُم مثل ما كانوا أوَّلاً، وهذا هو الظَّاهر.

والمراد نفس أجسادهم لا بَدَلَهَا ــ وأخطأ من قال: بدلها ــ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُّحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (سورة يس: ٧٨) ، وقيل: إذا شئنا بدَّلْنَاهُم في الدنيا بمن يطيع بعد إهلاكهم، وفيه أنَّ هذا لم يتحقَّق وقوعُه، فإنَّما يعبَّر عنه بـ«إنْ» لا بـ«إذَا» الموضوعة للتَّحقيق، اللَّهمَّ إلاَّ أن يُقال: هدَّدهم بصورة ما يقع مع أنَّه لا يقع للقدرة عليه، ولا يعترض بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ...﴾ إلخ (سورة القتال: ٣٨) ، لأنَّ النكات لا تتزاحم ولا تطَّرد.

﴿انَّ هَذه﴾ أي: السورة أو المواعظ والأحكام المذكورة فيها، أو الآيات القُرآنيَّة مطلقًا ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تذكير ﴿فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً﴾ من شاء اتِّخاذ السَّبيل إلى ربِّه لينجو ويفوز اتَّخذ، أيْ لم يُمنع من اتِّخاذه، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب المناهي.

(نحو) وهكذا مفعول مشيئة الشرط يكون من جنس الجواب، والمعنى قابل لأنْ يُقَدَّرَ: من شاء النجاة والفوز اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً يوصله إليهما. و«إِلَى» متعلِّق بــ«اتَّخذَ» لتضمُّنه معنى التوجُّه، ويجوز تعليقه بحال محذوفة خاصَّة وصاحبها «سَبِيلاً»، أي: موصلة إلى ربِّه.

﴿وَمَا تَشَآؤُونَ﴾ شيئًا أو اتِّخاذ السبيل ﴿إِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ﴾ إلاَّ وقت مشيئة الله لمشيئتكم، فالمصدر من الفعل منصوب على الظرفيَّة أو يقدَّر مضاف.

(أصول الدين) والله عزَّ وجلَّ شاء كفر الكافرين، وإيمان المؤمنين بلا إجبار، وخَلَقَ الكفرَ والطَّاعةَ، وللكافر والمؤمن اختيار مخلوق لله عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ علما عظيمًا عامًّا لمشيئة من يشاء ﴿حَكِيمًا﴾ مبالغًا في الحكمة، فيفيض على كلِّ واحد ما يليق به ويتأهَّل له.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَّشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ لاستعداده كما هو الحكمة ومقتضى علمه. ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ منصوب على الاشتغال لعدم توهُّم العطف على المرحوم، أي: ويعذِّب الظالمين، أو أوعد الظالمين، ولا يقدَّر «أعدَّ» لأنَّه لا يتعدَّى إلى الظالمين بل إلى جزائهم، وذلك كـ«زيدًا مررتُ به»، أي: جاوزت زيدًا مررت به.

﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا﴾ والسورة تضمَّنت الوعد والوعيد، وختمها بالوعيد لا لكونه أوسع من الخير بل العكس، بل ختمها به إعظامًا لجلاله تعالى.

قرأ رسول الله ﷺ : ﴿هَلَ اَتَىٰ عَلَى الانسَانِ﴾ حتَّى ختمها ثمَّ قال: «**إنِّي لأَرَى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السَّماء وحُقَّ لها ان تَـئطَّ، ما فيها موضع أربعِ أصابع إلاَّ وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى، واللهَ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ** »[1] .

والله الموفِّق
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

١- تَقَدَّمَ تخريجه. انظر: ج٨، ص٢٢٣.

تفسير سورة المرسلات وآياتها ٥٠

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

تأكيد وقوع يوم القيامة وعلامة ذلك

﴿**بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا**﴾ قسمٌ جوابه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. ﴿**فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا**﴾ قيل: هي طائفتان من الملائكة أرسلهم الله بإنفاذ أمره على الكفرة نصرة للأنبياء، فعصفن، أي: أسرعن بإيقاع العذاب عليهم كالريح العاصفة.

(بلاغة) استعارة من عصْف الريح بمعنى إهلاكها من أُرْسلَت إليه، وهو استعارة كذلك، أو التجوُّز إرساليٌّ على حدِّ إطلاق المشفر على شفة الإنسان بطريق الاستعارة أو الإطلاق والتقيـــيد.

روى محبوب بن الرحيل عن الرَّبيع عن أبي عبيدة رحمهم الله عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: «سمعتني أمُّ الفضل بنت الحارث ـــ وهي والدة عبد الله بن عبَّاس ـــ أقرأ ﴿وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا﴾ قالت: يا بنيَّ لقد ذكَّرْتني بقراءتك هذه السورة إنَّها لآخرُ ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»[1]. وعن

١-رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (٣٨) باب القراءة في الصلاة، رقم: ٢٢٩، ورواه **مالك** في =

ابن مسعود ﴿عُرْفًا﴾ المعروفُ مِنْ أمر الله ونهيه.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ إلى الأنبياء ﴿ذِكْرًا﴾ تذكيرًا أو وحيًا، وهنَّ ثلاث طوائف نشرن أجنحتهنَّ في المجيء بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو أحيين بالوحي نفوسًا موتى بالكفر، والنَّشر بمعنى الإحياء فَفَرَّقن بين الحقِّ والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكرًا.

وقيل: الذِّكر القرآنُ وقد علمت أنَّ الوحي غير مختصٌّ بجبريل، وإنَّما هو الغالب، ولا كتاب من الله إلاَّ على يده، ولكن قد يجيء الملائكة بآية، وقد تشايعه كما جاء في سورة الأنعام مع سبعين ألفًا من الملائكة، وأمامهم جبريل[1]، وكما تُشايعُ جبريلَ ملائكةٌ، وكما قُرن إسرافيل برسول الله ﷺ يُلقِّنُه الكلمة والكلمتين في ثلاث السنين الأولى من النبوءة، وجبريل هو الرئيس في الوحي، وأيضًا تتبعه ملائكةٌ رصدةٌ له إذا جاء بالوحي. وعنه ﷺ : «**نزل إليَّ ملك بألُوكة من ربِّي** ـ أيْ: برسالة ـ **فوضع رجلاً في السَّماء وثَنَّى الأخرى بين يديَّ**».

و«عُرْفًا» حال على حذف مضاف، أي: مشابهات عُرف في التتابع، وهو الشعر المتتابع آخر العنق مِمَّا يلي الرأس من الفرس، أو الضبع أو نحوهما، أو ضُمِّن معنى متتابع، أو صار حقيقة عرفيَّة في معنى متتابع، يُقال: جاءوا عُرفًا واحدًا، أي: متتابعين، أو مبالغة كأنَّهم نفس العرف والأصل: متتابعين كعرف. أو

=

الموطَّأ، كتاب الصلاة ٤٥، باب القراءة في المغرب والعشاء، رقم: ١٧٦، من حديث ابن عبَّاس.

١-يشير إلى الحديث الذي رواه **الطبرانيُّ** عن ابن عبَّاس. راجع تفسير ابن كثير في بداية سورة الأنعام.

مفعول من أجله من العرف نقيض النكر، باعتبار أنَّ إهلاك الكفرة إحسان إلى الأنبياء والمؤمنين.

والمراد: الملائكة التي جمعت بين الإرسال والعصف، والملائكة الجامعة بين النَّشر والفرق وإلقاء ذكر، وذلك تنزيل لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات.

وعطفُ العصفِ بالفاء ظاهر لأنَّه بعض الإرسال، وكيْفَ عطف الإلقاء بالفاء مع أنَّ الفرق بعده ؟ فإنَّ الفرق بين الحقِّ والباطل يتصوَّر بعد الإلقاء ؟ **الجواب**: إنَّ الفرق حاصلٌ ولو قبل الإلقاء، وإنَّما المتأخِّر العلمُ به، أو يراد بـ﴿الْفَارِقَاتِ﴾ مريدات الفرق، ورتَّب الفرق على النَّشر لأنَّ المراد نشرن أجنحتهنَّ للنزول فنزلن ففرقن، وما لم يقع نزولهنَّ لم يعتبروا أنَّهنَّ فارقات، وقيل: الفاءات للترتيب الرتبي.

(صرف) ﴿عُذْرًا﴾ للمُحقِّين ﴿اوْ نُذُرًا﴾ للمبطلين، وهو اسم مصدر هُو الإنذار، لأنَّ الفعل: أَنْذَرَ كأجمل. أو مصدر فعل ثلاثيٍّ قليل الورود ـــ أو اعتُبر ولو لم يَرِدْ ـــ وهو «نَذَرَ». ومعنى عَذَرَ: أزال الإساءة. ومعنى أَنذَرَ:خَوَّفَ. أو هو جمعٌ للمعنى المصدريِّ، على أنَّ مفرده «نذير»، ونذير بمعنى إنذار، ونصبُهما على التعليل، أي: لأجل العذر والإنذار، وناصبهما «ذِكْرًا» أو «الْمُلْقِيَاتِ»، وعلى الإبدال من «ذِكْرًا» بَدَل بعضٍ على أنَّ الذِّكر بمعنى الوحي، وبدل كلٍّ على أنَّه بمعنى التذكير.

وإن جعلا بمعنى عاذرين ومنذرين أو «نُذُرًا» جمع نذير بمعنى منذر، فحالان من المستتر في «الْمُلْقِيَاتِ»، أو من «ال». و«أَوْ» للتنويع، وقيل: بمعنى الواو.

وقيل: **المرسلات: رياح العذاب** يرسلهنَّ الله متتابعات على وتيرة واحدة، يعصفن بالسوء، والنَّاشرات: رياح الرَّحمة ينتشرن هكذا، وهكذا،

كما جاء في الحديث، وتنشر السَّحاب وتفرِّقه على البقاع، ويلقين العُذرَ للمعتذرين بالتوبة والاستغفار إذا شاهدوا أثر الرَّحمة في الغيث، وإنذار الكفّار في نسبة الغيث إلى الأنواء.

وإذا قلعتِ الشجر أو هدمت بنيانًا أو أيبست النبات ألقت ذكرَ الله في القلوب، والخوفَ منه فتلجأ إلى الله وتذكره تعالى، وتستغفره، والتجوُّز في إسناد الإلقاء، أو تنشر النبات وتفرِّق أصنافه بالشَّكل واللَّون، وسائر الخواصِّ، ويسبِّبن في عُذر الشاكرين وإنذار الكافرين.

وقيل: الْمُرْسَلاَت والعَاصِفَات: الرياح، والنَّاشِرَات... الخ: السحائب نشرن الموات، ففرَّقن بين الشاكر والكافر، كقوله تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (سورة الجن: ١٦) .

وقيل: المراد آيات القرآن المنَجَّمة يعصفن، أي: يذهبن سائر الكتب بالنسخ، وينشرن الهدى في الأرض، ويفرِّقن بين الحقِّ والباطل، فألقين ذكر الحقِّ.

وقيل: المرسلات: الرسل أرسلهم الله إحْسانًا ولو شاء لم يرسلهم، فاشتدُّوا ونشروا الدين، وفرَّقوا الحقَّ والباطل، وألقوا الذكر على المكلَّفين.

وقيل: المرسلات والعاصفات والناشرات: الرياحُ، والباقي الملائكة، وقيل: بالعكس، وقيل: المرسلات ملائكة الرحمة، والعاصفات ملائكة العذاب، والباقي الآيات النازلة.

وقيل: المرسلات الرسل، والعاصفات الرياح، والناشرات تنشر المطر، والفارقات الرسل، أو المرسلات الملائكة، والعاصفات الرياح، والناشرات الملائكة ينشرون كتب الأعمال، والفارقات الملائكة يميِّزون الحقَّ، وهم الملقيات

للقرآن، وقيل، وقيل... ووجه الجمع بين الملائكة والرياح أنّ كلاًّ من الملائكة والرياح لطيف سريع.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ الذي توعدونه، وهو البعث كما قال: ﴿لَوَاقِعٌ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أُذهب ضوؤها وبعد هذا الإذهاب تفنى ﴿وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ جعلت ذات فروج، أي: شقوق ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ﴾ (سورة الفرقان: ٢٥) ، و﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ (سورة الانشقاق: ١) ، وقيل فتحت كما قال الله جلّ وعلاَ: ﴿وَفُتِّحَتِ السَّمَآءُ﴾ (سورة النبأ: ١٩) ، وذلك كلُّه معنى واحد.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ جعلت كالحبِّ الذي ينسف بالمنسف ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ (سورة الواقعة: ٥) ، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ (سورة المزمل: ١٤) ، فُرِّقت بعد التسيير، أو أخذت من مكانها بسرعة، من نسفت الشيء: خطفته.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ وُقِّت، قلبت الواو المضمومة همزة وهو مطَّرد، وقد قرئ بالواو، أي: أبلغها الله وقتها الذي تنتظره، وهو يوم القيامة، أو عُيِّن لها وقت تنتظره للشهادة على الأمم، ووقت تعيين البعض قبله، أي: متَّصل به، وذلك بعض من يوم القيامة، كقولك: إذا كان يوم الجمعة وكان وقت الظهر نزلت الرَّحمة.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ مفعول لجواب «إِذَا» المحذوف، أي: فإذا النُّجوم طمست قيل: لأيِّ يوم أجِّلت ؟. والاستفهام تعجُّب من الخلق. والقول لسانيٌّ أو حاليٌّ. ولا جواب لـ«إِذَا» في المواضع الثلاثة الأخيرة على حدة، بل كفى جواب واحد لهنَّ، أي: إذا كان كذا كان كذا وكان كذا.

قيل: وقعُ التأخير لهذه الأمور العظام يعذِّب الكفَّار ويهانون، ويُكْرَم المؤمنون ويعظَّمون. والضمير في «أُجِّلَتْ» لتلك الأمور المعلّقة للرُّسل من التعذيب والتنعيم، أو للأمور المذكورة من الطَّمس والتفريج والنَّسف وتأقيت الرسل، أو للرُّسل. أو جواب «إِذَا» محذوف، أي: وقع الفصل، أو وقع ما توعدون.

﴿**لِيَوْمِ الْفَصْلِ**﴾ بَيْنَ الظالم والمظلوم، أو بين السَّعيد والشقيِّ، أي: أُجِّلت ليوم الفصل، أو بدل على تقدير الهمزة، أي: أَليوم الفصل أُجِّلَتْ؟ ﴿**وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ**﴾ ما صيَّرك داريًّا ما يوم الفصل، وعُلِّق عن المفعول الثاني والثالث بالاستفهام، وأظهر لزيادة التهويل، والأصل: وما أدراك ما هو؟ ويجوز التعليق عن الثاني نحو: علمت زيدًا من هو، فلا تَهِم.

﴿**وَيْلٌ**﴾ هلاك عظيم ﴿**يَوْمَئِذ**﴾ نعت لـــ«وَيْلٌ»، أو متعلّق به، أو باستقرار للمكذِّبين للتوسُّع في الظروف، أي: يثبت يومئذ. ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ والمراد يوم إذْ جاء يوم الفصل.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

تخويف الكفَّار وتذكيرهم بقوَّة الله وقدرته

﴿**أَلَمْ نُهْلِك الاَوَّلِينَ**﴾ لتكذيبهم بالرسل والبعث، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح. ﴿**ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الاَخِرِينَ**﴾ بالإهلاك، كقوم لوط وقوم شعيب وقوم

موسى، ومن مسخ من قوم موسى، وقوم عيسى، فإنّ هؤلاء آخِرون بالنسبة إلى من قبلهم.

(نحو) والعطف على «لَمْ» ومدخولها، فهو مُثبتٌ سُلِّطَ عليه الاستفهام، ولو عطف على مدخول «لم» لكان مَنفيًّا مجزومًا وليس كذلك، وذلك كقولك: أجاء زيد فتكرمه غدًا ؟. أو عطف على الهمزة ومدخولها عطف إخبار على إنشاء، فلم يتسلّط الاستفهام عليه.

(بلاغة) والاستفهام للتقرير ولو قصد به التهديد، وهو كالإخبار، فكأنّه قيل: أهلكنا الاوّلين ثمّ نتبعهم بالآخِرين.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ كفّار قريش لجريانهم في التكذيب على طريق هؤلاء المكذِّبين، وقد أهلكهم الله يوم بدر.

وذكر بعض أنّ «الاَوَّلِينَ» كلُّ من تقدَّم على كفّار قريش من المهلكين، و«الاَخِرِينَ» قتلى بدر، فيكون قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ تعميمًا بعد تخصيص، حتّى إنّه يشمل من يخسف بهم في البيداء آخر الزّمان، ومن تقوم عليهم السّاعة. أو المراد بالمجرمين من لم يتقدّم ذكرُهم خاصّة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ أهلكناهم، أو يوم جاء الفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله تعالى وأنبيائه. والمكذّبون المذكورون قبلُ هم من كذّبوا بيوم الفصل فلا تكرير، ولو اتّحد المأصدق، أو الويل الأوّل لعذاب الآخرة، والثاني لعذاب الدنيا فلا تكرير أيضًا.

وهكذا تعتبر ما يخرج به الكلام عن التكرير مع أنّ التكرير حقٌّ لا بُدَّ منه في مقام التأكيد لحكمة التأكيد، يُكرَّر الشيء لحدوث شيء، كما تقول: لِمَ عصيتني وقد أطعمتك وألبستك؟ ولِمَ عصيتني وقد زوّجتك؟ وهكذا...

[قلت:] وأيضًا من أسباب التكرير بين السورتين أو السورة أنّه لا يلزم المكلّف قراءة القرآن كلّه ولا إتمام السورة في الصلاة، ولزم الفاتحة تامَّة وثلاث آيات، فتحصل المنفعة لمن حفظ سورة فيها تكرير لما في الآخرة، ولو لم يحفظ الأخرى التي فيها المكرَّر.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ قذرٍ محتقرٍ هو النطفة، فاعرفوا حقارة شأنكم ولا تتكبَّروا عن عبادة الله واشكروا نعمة الإيجاد والإبقاء، واعلموا أنّه كما خلقكم يبعثكم.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ﴾ موضع ثبات ﴿مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ مقدار معلوم عند الله تعالى، تسعة أشهر أو أقلّ إلى ستَّة، أو أكثر، فولدتم أحياء صِحاحًا سالمين وعشتم.

﴿فَقَدَّرْنَا﴾ قدَّرنا ذلك تقديرًا دَالاًّ على كمال القدرة. والفاء للترتيب الذكري، كأنّه قيل: فأقول: قدَّرنا، كقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (سورة عبس: ١٩) . ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ نَحنُ على ذلك الجعل وعلى ذلك التقدير. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم جاء الفصل، أو يوم أهلكناكم، وكأنّه يوم ماض للتحقُّق، وهو يوم دائم ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على ذلك، أو على البعث الشاملينَ لكم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الكفات ما يَجمع الشيءَ ويضمُّه كالصرَّة والصندوق، ووعاء الأمتعة، وهو اسم جنس، أو اسم آلة، أو جمع كِفْت (بالكسر) كقدح وأقداح، أو جمع كافت، كصائم وصيام. وأُجري على الأرض مع إفرادها باعتبار أقطارها، أو مصدر أُجْرِيَ عليها مبالغة.

﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا﴾ حال من «لَكُم» محذوفة، أي: أَلَمْ نجعل لكم الأرض...إلخ أو ألم نجعل الأرض كفاتًا لكم أحياء وأمواتًا ؟ أو مفعول لمحذوف،

أي: تكْفت أحياء منكم على ظهرها، وأمواتًا في بطنها، أو تكفتهم، أي: المكذّبين أحياءً وأمواتًا، أو تكفت الجنَّ والإنس أحياء وأمواتًا.

أو مفعول ثان بعد مفعول ثان، أي: ذات أحياء وأموات بتقدير مضاف كما رأيت، أو أحياء وأمواتًا بمعنى الأرض المنبتة وغير المنبتة، بلا تقدير مضاف كما رأيت.

[قلت:] والآية تشير إلى وجوب دفن الميِّت وهو ظاهر، وإلى أنَّ السارق من داخل القبر يقطع لأنَّه حِرز له.

﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ**﴾ جبالاً رواسي، أي: ثوابت ﴿**شَامِخَاتٍ**﴾ مرتفعات، نُكِّر للتعظيم، أو للإشعار بأنَّ في الأرض جبالاً لم تعرف، ومنها جبل النَّار في إيطاليا، وهو أبدًا متَّقِد كالجمر، وقد يشتعل وتطير منه جمرات نحو ميل وهو في البرِّ الكبير[1].

[قلت:] ولا خير فيه، أي: في البَرِّ الكبير إلاَّ ما دخل فيه من الإسلام، لا نبيء منهم، والأنبياء كلُّهم في برِّنا هذا، وفيه بيت المقدس والمسجد النبويُّ، والمسجد الحرام، وليس في البرِّ الكبير ما يشبه ذلك.

﴿**وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا**﴾ عذبًا خزنَّاه في الأرض وجبالها وأنبعناه عيونًا، ووفَّقناكم إلى استخراج ما لم يظهر منه بالحفر، ومن الأمطار التي تشاهدونها والتي لا تشاهدون لبعدها كماء النيل لبعد منابعه.

والآية شاملة لذلك كلِّه بطريق الامتنان، ومن اعتبر الوعظ في الآية بالإخراج حملها على ماء الأرض، وكذا نسقي حيوانكم وحرثكم وشجركم.

١- يشير إلى بركان «نابلي» في إيطاليا، والمراد بالبرِّ الكبير أروبا.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذ﴾ يوم إذ جاءكم يوم الفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين لم يشكروا هذه النعم وأمثالها.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

صور ممّا أعدّ للمكذّبين في جهنّم من العذاب

﴿انطَلِقُوا﴾ مفعول به لحال محذوف من «الْمُكَذِّبِينَ» أو من «ال»، أي: مقولا لهم توبيخًا: انطلقوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ إلى العذاب الأخرويِّ الذي كنتم به تكذّبون في الدنيا، وقدَّم «بِهِ» للفاصلة وطريق الاهتمام.

﴿انطَلِقُوا﴾ هذا انطلاق مخصوص وليس هو الأوَّل، فإنَّ الأوَّل انطلاق إلى ما وُعِظوا به قبلُ من عذاب النَّار، ولا علم لهم بـــ«ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ»، ولا شعور ولا سماع.

(نحو) وعلى فرض أنَّهم علموا بذكره قبلُ ــ أو فُرض أنَّهم كذَّبوا به في عموم التكذيب بعذاب الآخرة، وأريد بـــ«ما كانوا يكذبون»: «ظلٍّ ذي ثلاَث...» ـــ كان مجموع «انطلقُواْ إلى ظلٍّ...» إلخ بدلا من مجموع «انطَلِقُواْ إِلَىٰ مَا كُنتُم به تُكَذِّبُونَ». وإن شئت فـــ«انطَلِقُواْ» توكيد لفظيٌّ للأوَّل، وقوله: ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، أو الأوَّل عامٌّ والثاني بدل إضرابٍ انتقاليٌّ.

(بلاغة) والظلُّ دخان جهنَّم، كـ﴿ظِلٍّ مِنْ يَّحْمُومٍ﴾ (سورة الواقعة: ٤٣) ، استعارة تهكُّميَّة، وكان ذا ثلاث شعب لعظمه، يخرج لسان من النار فيحيط بهم، ويتشعَّب من دخانها ثلاث شعب فتظلُّهم حتَّى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظلِّ العرش.

[قيل:] وعدد الثلاث لأنَّ المانع عن الحقِّ ثلاث: الخيال والوهم والحسُّ، أو القوَّة الوهميَّة الشيطانيَّة في الدماغ، والقوَّة الغضبيَّة السَّبُعيَّة عن يمين القلب، والقوَّة الشهويَّة البهميَّة عن يساره. كما قيل: شعبة فوق الكافر، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن يساره. أو تكذيب العذاب، وتكذيب الله، وتكذيب رسوله.

﴿لاَّ ظَلِيلٍ﴾ عطف على محذوف، أي: ضارٌّ أو حارٌّ لا ظليل، أوْ «لاَ» اسم مضاف لما بعده نعت ثان لـ«ظِلٍّ»، تصريح بما ينافي الظلَّ النافع المتهكَّم به، وإزالةٌ لمَا قد يُتوهَّم أنَّ فيه نفعا مَّا.

﴿وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ لا يُبعد من حرِّ اللهب، ولا يَصِحُّ ما قيل: إنَّ الآية تشير إلى أنَّه لا ظلَّ للشكل المثلث، ولا نسلِّم أنَّه لا ظلَّ له، بل له ظلٌّ مشاهد، وظلُّ المؤمن غير ظلِّ الكافر.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: إنَّ النَّار التي دلَّ عليها الكلام، أو إنَّ الشُّعب ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ الواحدة شررة، وهي ما يطير من النَّار، سُمِّيَ لاعتقاد الشَّرِّ فيه. ﴿كَالْقَصْرِ﴾ الدار الكبيرة كلُّ شررة كالدار الكبيرة، كما يدلُّ له قراءة ابن عبَّاس: «بشرَار» (بكسر الشِّين وبألف بعد الرَّاء)، وهو جمع، كرَقَبة ورِقَاب، قسم عليه جمعٌ[1]، فلكلِّ واحد من الجمع فردٌ، فكلُّ واحدة كالقصر، وكذا قراءة فتح الشين وثبوت الألف بعد الراء، لأنَّ مفرده: شرارة.

١- كذا في النسخ تأمَّل.

وقيل: القصر الغليظ من الشجر، وواحده قصرة، كجمرة وجمر، وقيل: قطع من الشجر كالذراع وفوقه وتحته تعدُّ للشتاء.

﴿كَأَنَّهُ﴾ أي: الشرر، وما مفرده بالتاء يجوز إفراد ضميره وتذكيره ولو كان مؤنَّثا. ﴿جِمَالَاتٌ﴾ جمع المؤنَّث السالم لجمع التكسير، وهو «جمال»، جمع جمل ذكر الناقة، أو جمالات (بألف وتاء) جمع جمالة الذي هو اسم جمع، وقيل: جمع جملة على جمال ثمَّ جمال على جمالات.

وقيل: الجملة حبال السفينة لأنَّه طاقات، وقيل: الحبال التي تشدُّ بها الجسور إذا جمعت مستديرة جاء منها أجرام عظام، وهو عن ابن عبَّاس، وعنه أيضًا: قطع النحاس الكبار.

﴿صُفْرٌ﴾ جمع صفراء وأصفر. والصفرة لما فيها من الناريَّة والهوائيَّة، وقيل: الصفر السود، لأنَّ سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، فالشرر حين ينفصل من النَّار كالقصر في العظم، وحين يرتفع وينشقُّ عن أعداد كثيرة كالجمال في الحركةِ والكثرةِ والصفرةِ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذ﴾ يوم إذ جاء الفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا الوعيد، أو مطلقًا. ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ﴾ يوم دخول النَّار لا ينطقون بشيء لعظم الدهش، وسينطقون بعدُ فيها، وقيل: لا ينطقون بما ينفع، وعدم النطق بما ينفع كعدم النطق.

(نحو) و«يَوْمُ» بالرفع خبر، والإشارة إلى اليوم، وفي قراءة الفتح هو فَتْحَةُ إعراب، ونُصِبَ على الظرفيَّة، والإشارة إلى العذاب، وعلى قول الكوفيِّين بجواز بناء الظرف المضاف للجملة ولو كان فعلها مضارعًا معربًا تجوز الإشارة إلى اليوم، و«يَوْمَ» في محلِّ رفع، والفتح بناء.

﴿وَلاَ يُوذَنُ لَهُمْ﴾ في النَّطق وفي الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فلا يعتذرون، فالنفي بــ«لاَ» منسحب عليه، وذلك تارة، ويؤذن لهم تارة في النطق والاعتذار، أو المنفيُّ الاعتذار النَّافع.

ويقال: لو نصب في جواب النَّفي دلّ على عدم اعتذارهم لعدم الإذن فيه، فيُتَوَهَّم أنّ لهم عذرا لم يؤذن لهم في النَّطق به، فرفع تصريحا بأنَّه لا اعتذار لهم ولا يعتذرون، وأيضًا رفع للفاصلة، وصرَّح الأَعْلَمُ[1] بأنَّه قد يرفع على معنى النصب، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ (سورة غافر: ٥٢) ، فهم يعتذرون ولا ينفع اعتذارهم، وهو ظاهر الآية هذه، وذلك تارة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذ﴾ يوم إذ جاء الفصل، وإذْ لا ينطقون ولا يؤذن لهم. و«إذْ» تستعمل في الاستقبال مجازًا. ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مطلقًا، أو بعدم النطق وعدم الاعتذار على فرض البعث.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يبن الحقِّ والباطل بالجزاء، ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ فيه لبيان المحقِّ والمبطل بالمشاهدة. ﴿وَالاَوَّلِينَ﴾ الأمم السابقة، فالخطاب لكفَّار هذه الأمَّة، والعطف على الكاف.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ على قضائي وفعلي، فقد اجتمعتم أنتم وآباؤكم الأوَّلون الذين اقتدَيْتُم بهم، والأمم السابقة الذين اعتمدتم عليهم، وكاثرتم بهم.

١- الأعلم: هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي النحوي، ولد سنة ٤١٠هـ. أخذ العلم عن إبراهيم الإفليلي ومسلم بن أحمد الأديب، وبرع في النحو والشعر واللغة، وكان ذكيًّا، جلس للتدريس والتصنيف... وقد أضرَّ في أواخر حياته. تُوُفِّيَ سنة ٤٧٦هـ. الحمصي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٢٢٤.

والخطاب هذا لكفَّار هذه الأمَّة، أو لهم وللأمم السابقة للتغليب. و«هَذَا» تقريع لهم في ذلك اليوم، وتسلية للمؤمنين، ونصرة للمؤمنين في الدنيا، وفي ذلك اليوم وإظهار لعجز الكفَّار.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ جاء الفصل، أو يوم إذ ظهر عجزهم. ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ مطلقًا أو بيوم الفصل.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

مقارنة بين حال المتَّقين وحال المجرمين يوم القيامة

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ بالتصديق والعمل ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ حيث لم يكن الشمس، فإنَّ الظلّ يطلق على ما لم تسبقه شمس كما هنا، ولكن هنا مجاز، وعلى ما كانت قبله، وهذا مخصوص بالفيء بمعنى الرجوع، كان ظلٌّ فزال بالشمس، فزالت فرجع، وذلك هنا على ظاهره.

قابل به حال الكفرة من الإحراق ومن «ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ». ويجوز أن يُراد بالظلّ التنعُّم والعزَّة، وانتفاء السوء، والأوَّل أظهر للمناسبة واشتماله على هذا المعنى أيضًا.

لكن قوله: ﴿وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ينافي ما ذكر، فإنَّهم لا يكونون في داخل عيون، وفي داخل الفواكه، فترجَّح جانب أنَّ المراد بالظِّلال التنعُّم، وما ذكر معه، وإلاَّ لزم استعمال «فِي» على ظاهرها في جانب الظلال،

وعلى غير ظاهرها في العيون والفواكه، فيكون من استعمال الكلمة في حقيقتها ومجازها أو من عموم المجاز.

﴿**كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ مفعول به لحال من ضمير الاستقرار، أي: ثبتوا «فِي ظِلَالٍ...» إلخ مقولا لهم: «كُلُواْ...» إلخ بسبب عملكم من التوحيد والعبادات واجتناب المحرَّمات. ﴿**إِنَّا كَذَٰلِكَ**﴾ لا كغيره ﴿**نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي: نجزيهم، أي: المتَّقين، وأظهر ليصفهم بالإحسان إلى أنفسهم. وشبَّه ما بالإنجاز بما بالإخبار.

﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ جاء الفصل، أوْ إذْ كَانُوا «فِي ظَلَالٍ...» إلخ وقيل لهم: «كُلُوا...» إلخ. ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ مطلقًا، أو بهذا الوعد، يعذَّبون دائمًا، وأعداؤهم المؤمنون يتنعَّمون دائما.

﴿**كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً اِنَّكُم مُّجْرِمُونَ**﴾ خطاب للكفَّار في الدنيا مستأنف لتحسيرهم وتهديدهم، أو مفعول لحال محكيَّة ماضية، أي: ثبت لهم الويل في الآخرة مقولاً لهم في الدنيا: كلوا. ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ**﴾ إذ جاء الفصل أو خابوا ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾.

﴿**وَإِذَا قِيلَ**﴾ قال الله أو رسوله أو المؤمنون ﴿**لَهُمُ ارْكَعُواْ**﴾ أطيعوا، أو انقادوا لله تعالى، وتواضعوا بالتوحيد والإيمان والعمل. ﴿**لاَ يَرْكَعُونَ**﴾ لا ينقادون، بل يتعاصون ويتكبَّرون، أو ﴿ارْكَعُوا﴾: صلُّوا و﴿لاَ يَرْكَعُونَ﴾ لا يصلُّون، وسمِّيت الصلاة باسم جزئها.

قال وفد ثقيف لرسول الله ﷺ : نُؤمن على أن تحطَّ عنَّا الصلاة، فإنَّ ذلك الانحناء الذي في الصلاة مَسَبَّةٌ علينا، فقال ﷺ : «**لا خير في دين ليس فيه**

ركوع ولا سجود»[1]. فهذا أنسب بأنّ الركوع الصلاة خصوصًا ولا يلزم ذلك، لأنّ الانقياد لله تعالى شامل لها ولغيرها.

وعن ابن عبَّاس يُدعون يوم القيامة للسجود فلا يستطيعون لأنَّهم لا يسجدون في الدنيا، فالركوع بمعنى السجود.

[قلت:] والآية دليل على أنّ الأمر للوجوب إذ قطع عذرهم بمجرَّد القول لهم اركعوا، وأنّ الكافر مخاطب بالفروع إذ عذّبوا بترك الصلاة، وقطع عذرهم فيها كما بالتوحيد.

﴿**وَيْلٌ**﴾ الويل في السورة كلّها واحد، أو كلٌّ واحد نوع من الهلاك. ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ جاء الفصل، أو يوم إذ وُبِّخُوا على ترك الصلاة، أو عليها وعلى سائر العبادات. ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ مطلقًا، أو بيوم الجزاء ويوم التقريع. ﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ**﴾ إذا لم يؤمنوا بالقرآن فبأيِّ حديث؟ أو عطف على قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُواْ لاَ يَرْكَعُونَ﴾. ﴿**بَعْدَهُ يُومِنُونَ**﴾ أي: غيره، أي: غير القرآن المدلول عليه بالمقام، الناطق بما لم ينطق به كتاب، وهو في أعلى رتبة من الفصاحة والبلاغة والإعجاز، لا يساويه شيء ولا يفوقه، فالبعديَّة للتفاوت في الرتبة.

والله أعلم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.

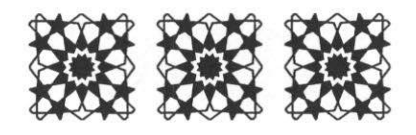
١- رواه **أبو داود** في كتاب الخراج، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، رقم: ٣٠١٠. ورواه **الطبرانيُّ** في الكبير، ج٩، ص٥٤، رقم: ٨٣٧٢. من حديث عثمان بن أبي العاص.



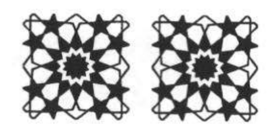
الفهارس

صفحة بيضاء

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية



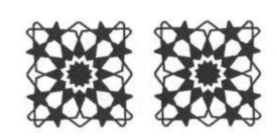
الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية



فهرس لبعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

الموضوع	الصفحة



فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

الآية	العنوان	الصفحة

تفسير سورة الممتحنة

تفسير سورة الصف

تفسير سورة الجمعة

تفسير سورة المنافقون

تفسير سورة التغابن

تفسير سورة الطلاق

تفسير سورة التحريم

تفسير سورة الملك

تفسير سورة القلم

تفسير سورة الحاقة

تفسير سورة المعارج

تفسير سورة نوح عليه السلام

تفسير سورة الجنّ

تفسير سورة المزمل

تفسير سورة المدثر

تفسير سورة القيامة

تفسير سورة الإنسان

تفسير سورة المرسلات

التعريف بالمفسِّر*

- في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش.

- في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ واشتغل بحفظ المتون الدينيَّة واللغويَّة على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيَّش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلاميَّة نبوغا كبيراً.

- في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرُّفاته، وله زيارات ميدانيَّة للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

- في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

---

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

• له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوُّق والإتقان.

• تخرَّج في معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلميَّة في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

• في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.



ص.ب : ٦٦٨ - الرمز البريدي : ١٠٠ - مسقط - سلطنة عُمان

رقـم الإيـداع : ٢٩٣ / ٢٠١١

طبع بشركة مطبعة عُمان ومكتبتها المحدودة ش.م.م
هاتف : ٢٤٧٨٨٨٣٩ - فاكس : ٢٤٧٨٩٣٩٨